ALEXANDRA.AHLAMONTADA.COM

منتدى مكتبة الأسكندرية

المجموعة الروائية الكاملة

الأعمـــــال الكاملـــــة

الجزء الأول

- دائرة الحنان
- النبش في الدماغ
- مدينة الباب
- كشف المستور

أحمد الشيخ

منتدى مكتبة الأسكندرية

دائرة الانحناء

لا تطأ النبت الأخضر بالأقدام...

قالتها أمي لشيخ البلد لما داس بنعليه قيراط الحنطـــة الوليد.. أمي كانت شامخة عزيزة... عاشت مرفوعة الرأس كما ماتت... أما أنا فأنا إنسان منحن.... لا أدري كيــف ولا متى ولا لمن أحنيت هامتي... لكنني انحنيــت... احــدودب ظهري وتقوس... طاشت ذاكرتي واحتــارت فـــي حصــر التفاصيل المنسية وشبه المنسية..

كنت شقيا لما ولدتني في ليل معـــدوم الأضـــواء... لفظتني بعد الشهر السابع.. كأنما ناءت بالحمل ففكرت فـــي الخلاص.. ليلتها كانت قريتي ترزح في بركة من الأوحـــال التي خلفها سيل الأمطار المتواصل.. قالوا أن الجـــو كـــان مكهربا رطبا بصورة لم تشهدها القرية من قبل.. قالوا أيضا أن الأمطار استمرت سبعة أيام بلياليها... زعم البعض أنهـــا لعنة من السماء الغاضبة على عبـــاد الله غيـــر الصـــالحين،

سمعتهم يتمتمون بكلمات مستهجنة وينظرون بوجوه عابسة لا تبالي... يتحركون في منعطفات القرية في سأم لأنني بكرت بالوصول قلت لهم بالعويل وأنا أستنشق هواء قريتهم الرطب في جوفي:

- دفعتنى يد خفية يا أهل الدار... ولكم أتمنى أن أحيط بسرها المجهول يوما...

لم يسمعوا كلماتي... وددت لو أسألهم عن كرم الآباء والأجداد الذين انهمكوا في سرد تفاصيله... لكنهم صفعوني بالسكوت... قررت بدوري أن أسكت.

كان ذلك من سنوات عديدة عندما لفظتنى.. من يومها أدور في إطار محدود بلا ثغرات أو فتحات... أدور وأدور حتى أدوخ وأسقط في قلب الدائرة.. وعندما أفيق أتبين أننى صفر كبير... صفر على الشمال لا يؤثر في الأرقام الشامخة الصماء عن يمينه، قالت لى أرقام الدائرة المغلقة وهي ترمقني باستغلاء وريبة:

- عليك بالصمت أونهشم أسنانك... فقررت السكوت....

في جوفي شيء شامخ يتحرك... على طرف لساني كلمات حبيسة رعناء تود لو تقال وفي فمي بصـــقة متمـــردة تحلم بلحظة الانطلاق.. وفي عروقي تتقاطر دماء فائرة لكنها مشلولة بالجمود... وفي الرأس فكرة.. عشرات الأفكـــار... ربما مئات تتصارع في حيز الرأس وتطِـــن كـــألف ذبابـــة عربيدة شقية حمقاء.. وأنفي يشمخ أحيانا... أقـــول لنفســـي أحيانا إننى ورثت الكثير عن أمي لكنني فقدته.. فأنفي دائمـــا يرشح بفعل الزكام... كلمـــا ازداد أنفـــي رشـــحا تـــذكرت الرطوبة التي واجهتني مع امتعاص الوجوه العابســـة التـــي ضايقها تبكيرى بالوصول...ويبدو أن رشح أنفـــي معـــدوم العلاج.

بالأمس سرق بعض العـــابثين منظـــارى الســـميك العدسات بعدها رحت أتحسس طريقى مثل أعمى من خـــلال جدران الضباب القاتم.. ما عدت أتبين أرقـــام الأوتوبيســـات والمركبات... دفعونى بالأمس دفعـــا فـــي زحـــام محمـــوم الأنفاس... أجلسونى فوق مقعد وطلبوا منى أجرة الركوب... دفعت للشبح الواقف قبالتى ورجوته أن يتفضل بإخراجي من الترام عندما يطل على الميدان الشهير.... عنـــدما لفظنـــي

الترام تعثرت خطاي في بحثها الحريص عن باب البيت العتيق بحثت عن غرفتي المعزولة فوق السطح كنعجة جرباء...

همست شريفة في أذني:

- امنحني قرشا لأشتري رغيفا فأنا جوعانة...

وضعت يميني في جيبي وأخرجت القرش اليتيم... تقاسمنا الرغيف بلا غموس... ثم نمنا بعد أن هدنا السهر... وتقاسمنا نصف غطاء...

صديقي القديم يسميني وغدا لأنني أدفن مشاكلي في لحظات عربيدة مع بنات تائهات في شوارع المدينة تماما مثل فئران بلا جحور... صديقي كان يزدريني لأنني أدنس غرفتي بأنفاسهن النجسة كما كان يقول... لم يستطيع صديقي أن يغير فكرتي عن الفئران برغم جهده المبذول... هز دماغه ومضى ولم أعد أراه.

في الشهر الماضي هجرتني المرأة البدينة... كانت تحتويني في حنان فأحس بتيار الأمومة يسري من خلالها دافئا... فيبدد الرطوبة في جوفي... في الأيام الأخيرة

قالت كلاما كثيرا لم أفهمه... يبدو أنها ضاقت ببلاهتي التي حولتني من رجل إلى طفل، كانت تبحث عن الرجل في داخلي... وكنت أبحث فيها عن الأم... هجرتني المرأة البدينة فدرت في المدينة باحثا عن أم جديدة.

لم يكن أمرا يسيرا أن أحصل على أم جديدة في مدينة عصبية المزاج... متداخلة الأصوات.. متشابهة الوجوه والطرقات.. من يومها وأنا أدور في شوارع المدينة وحواريها صفر ضئيل صامت يتحرك في طار دائرة مغلقة بلا أبواب يخيم عليها الضباب... أحيانا أشعر بأنني مربوط في مكاني... سيقاني ترتفع عن الأرض ثم تنزل في نفس المكان... أذكر ملامح مدرس التربية الرياضية المتقلصة دائما والجادة التقاطع.. أذكر أنه كان يتعمد أن يحرك أقدامنا ونحن وقوف... كان بارعا في اختراع الحركات التي تبعث الدفء في عز الشتاء...كان ينادي بأعلى صوته الصارم..

- محلك.... سر.

كنا ننهمك في المسير في ذات المكان... كانت لعبة مسلية لكنني كنت أمقتها... كثيرا ما كان يلمحني ويعاقبني ويتهمني بالكسل والمشاكسة... كنت أقول لنفسي: أنه مادمنا لن نتحرك من أماكننا فمن السخف أن نتعب أرواحنا ونتصبب عرقا ثم نصاب بنزلة برد عندما نتوقف... كان يأمرني بتنفيذ الأمر لأكون قدوة فأتمرد.... وأفرد راحتي في وضع الاستعداد لنيل الجزاء وكأنني أصفعه... كانت ضحكات الأولاد تتعالى من حولي... كانوا أذكياء إذا أطلقوا على اسما غريبا.

- محلك...سر...

كانوا ينغمونها ويرددونها في مقاطع ظريفة الأصداء.. كنت ابتسم أحيانا لأنني أثير فيهم الرغبة في احتراف الموسيقى بشكل جماعي..

أوه... نسيت أصل الحكاية... كنت أقول قبلا: أنني أتحرك في هذه الأيام في إطار دائرة مغلقة بلا أبواب ولا ثغرات... حقيقة أنني أهرب برأسي وأدس أنفي بين السطور وأغوص في مراجع التاريخ الطويل عبر آلاف

السنين... أحيانا كنت أتصبب عرقا وأنا منهمك في بحثي فتخيل نزلة البرد التي ستحول رشح أنفي إلى صـــنبور مفتوح مفضوح... كنت أتوقف وأكتشف في ذات اللحظة أنني كنت أحرك أقدامي بلا إرادة بنفس الصـــورة التـــي كان يحلم بها مدرس التربية الرياضية.. كنـــت أود لـــو يراني وأنا أمارس لعبته قبل أن يصـــدر أمـــره... إذن لأعتذر لي وقال: إنني كنت ولدا طيبا ولطيفـــا ومطيعـــا وأن الأولاد كانوا سخفاء عندما كانوا يغيظـــونني لـــذلك النداء العتيق الموزون الملحن:

- محلك... سر... محلك... سر

ضياع منظاري حولني إلى إنسان مرتبك وحـــائر... أشك أحيانا أنني أشبه الحمل الوديع أو الفـــأر المـــذعور الخواف... ولأنني أبحث في مراجع التاريخ عن شـــيء غامض فأنا في حاجة ملحة لعدسات منظاري السميك... ثم أن ضعف بصري الذي كان يتوارى خلف العدســـات حولني إلى أضحوكة مكشوفة عاجزة عن اكتشاف السر الكامن وراء السطور.. جيـــوش الضـــباب تحاصـــرني

وتحصرني وأقدامي تتعثر في بحثهـا الحـريص عـن الطريق... كل هذا بسبب المنظار.

البنت التي أبحها تطل على العالم من خلال نافـذتين خضراوين في لون البرسيم... كأنها قطعة أنيسة حلوة... هي قطعة أحيانا أتوه وأنا أحاول حصر درجات اللـون الأخضر في عينيها... قال لي طبيـب العيـون: إننـى مصاب بعمى ألوان جزئي عندما اكتشف أن لقاع عينـي قدرة عجيبة على تمييز اللون الأخضر بكل درجاته.

كنت أحصى درجات اللون الأخضر في منطقة مـن مناطق التداخل في عينيها وأحرك القلم فوق سطح الورقة بغير إرادة... ساعتها قالت لي:

أنت ترسم قلوبا مرصوصة....

قلت لها: إننى أضع علامتي استفهام معكوستين جبنا إلى جنب فتبدوان لمن يراهما كأنها قلـب... ثـم أتـابع اللعبة بغير وعي أو اهتمام... قرأت في سطر أخضـر صمت المخزون الخائف... قلت في نفسـي لا تـتكلم.. عبثا ستفسر... ستقول كلاما ممطوطا أجوف، لـو أنـك

تملك ثمن اللقمة لتركتك تحكي للبنت قصة إيمانك باللون الأخضر... لكن الأفضل ألا تبتـذل الكلمـات فالـدائرة المغلقة تطل عليك كرصد أعمى...

أمي قالت لي وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة:

- لا تطأ النبت الأخضر بالأقدام.

النبت الأخضر في عيني البنت الحلوة التي أهواها... أأدوس النبت الأخضر بالأقدام ؟ غاية أملي أن أرعاها... أحميها... كنا يا أم رفاق الصفحات... كانت ترويني من ماء قدسي أخضر وأنا عطشان... كانت تهمس في أذني بالكلمة فيدور برأسي ألف سؤال: أيمكن ؟ ومتى ؟ وكيف يندمج الكل في واحد والسترة بلا جيوب ؟... كنا يـا أم رفاق الصفحات الأولى في درس التاريخ... علمنـا ذات الأستاذ... وتنفسنا من ذات الأنفـاس وزفرنـا حينـا.. وصمتنا... وضحكنا... لكني لا أملك إلا الخوف ووجود متردد.. ومعالم حرص أجوف.. ازداد الحرص بقلبي يا أماه.. ما عدت عنيدا وجريئا... ما عدت أعود إلى البيت إلا مضغوطا... مضغوطا بعـد أن تتـدافعني الأيـدي

والأرجل والأكتاف... وازداد الحرص فـذبح الكلمـات الرعناء على طرف لساني.. بقيت خطوة لأكون جبانـا ممسوخا محني الهامة.. عمي يتخبط مالم يتحسـس وق الأقدام.. وأدور.. وأدور في ذات الدائرة المغلقة الجدران فلا تردد... فهناك كما قال الشاعر متسع من قوت الحيرة لاتخاذ قرار، ثم العدول عن ذات القرار ثم العدول عـن العدول عن نفس القرار... فلا تردد.. جدران الضـباب تغلفني بعد أن فقدت المنظار... والبنت شـريفة يشـقيها بحثها الدعوب عن لقمة بلا غموس وجحر بلا غطـاء... وأمي ماتت في شتاء ملبد بالغيوم.. شيعوها وهي شامخة الأنف في حفرة رطبة.. والمرأة البدينة هجرتني وراحت تبحث عن رجل آخر.. والبنت التي أهواها والتي تطـل على العالم من خلال نافذتين خضراوتين صعبة المنال... وأنا هدي محدود وجيوب ثيابي معدومـة أو مثقوبـة... والعود المنحي يحكمني... والاسم الغريب الذي أطلقـوه على يوما يرسم خطواتي الصماء.

في الماضي قالوا عني: ابن شور سبعة... ابن شهور سبعة.. في جوفي يتحرك شيء شامخ... وعلى طـرف

لساني بضع كلمات حبيسة رعناء تود لو تقال... وفي فمي بصقة متمردة تحلم بلحظة الانطلاق.... وفي خيالي صورة للبنت التي أهواها.. وأملي في أستاذ جراح جرئ مغامر... يستطيع أن يزرع في صدري مكان القلب المثقل المرتبك قلبا جديدا لإنسان آخر... شامخ وعنيد.. مندفع ومحموم يستطيع أن يهمس في أذن البنت الحلوة بالكلمة... ويفكر أقدامي بالأيام التي كنت أتمرد فيها على مدرس التربية الرياضية وأمتنع عن تنفيذ أمره العتيق... محلك...سر... فقد أضناني مسيري في ذات المكان وكثيرا ما أذكر سطح البركة النتنة في قريتي البعيدة... ذلك السطح الراكد الساكن والذي تعلوه خيوط متشابكة لنبات أصفر كالح متطفل متماسك بفعل طبقة العفونة اللزجة الفواحة الرائحة... من أجل هذا أتوقف للقلب الجديد المشاكس والعود المستقيم المارد والأنف الشامخ... ساعتها... وساعتها فقط سأنطلق وأتنطط... وأرمح وأعيش وأكون... ساعتها أقلب صفحات التاريخ وأستخلص السر الغامض وأقدم بحثي للأستاذ وفي ذهني عبارة قالتها أمي وهي على فراش الموت:

- لا تطأ النبت الأخضر بالأقدام.

العجوز والصبي

يومها كنت أنت في علم الغيب بلا ملامح... كان شتاء وكلب العمدة يعوى فيجلجل صوته في منعطفات القرية رهيبا يفرض على القرية السكوت... علقت قطع من وحل القرية بأطراف ثوبي وثوب مرافقي... لكننا مضينا.. كان الصمت يغلف القرية عندما كان كلب العمدة يكف عن النباح... عبرنا الطريق المظلم ناحية الدوار فزامت كلاب ونحن نتحسس الطريق إليهم..قابلونا بوجوه جامدة... بدت القاعة مشحونة بالتماثيل التي قدت من صخر... تحركوا من أماكنهم بعد أن زاموا في صوت واحد "وصل" وجوه كالحة وعيون شريرة تتحرك وتتحدى... كنت أنتظر ابتسامة لكنهم شكروا عن أنيابهم فتراجع مرافقي مرعوشا عندما رآهم... اقترب منه كلب العمدة الرابض عند عتبة القاعة.

جذب أحدهم مرافقي من كوعه ليهمس في أذنه ناصحا "لا فائدة" زام كلب متجهم وغمزت في طرف

القاعة امرأة مجللــة الســواد... ابتســم رجــل معتــوه الملامح.. امتدت كف غليظــة تفتــل شــاربات حالــك السواد.. عمر أحدهم سلاحه على مرأى منا... فلمعــت في نظرات مرافقي صورة مهزلة... كشرت عن أنيــابي ورفعت رأسي شامخا... قلت لهم: إنني جئــت خــاوي الوفاض بلا سلاح... وأنني على اســتعداد صــادق لأن أعملها مجزرة... زام كلب لكني بصــقت وأنــا أرفــع صوتي.. تحسبونها فوضى يا غجر... نسيتم إنني ابــن ناس مثلكم وإن من يرشني بالمــاء فسيرشــوه بالــدم ؟ همهموا مستنكرين...

لم أكد أجلس بجوار مرافقي حتى جاء أحدهم بالرجل الشهير ذي العمامة... لم أكن انتظره.. كنت أنتظر منهم حسابا عن الصفعة وصلحا.. لكنهم رتبوا كل شيء على حسب غايتهم وعلى غير انتظار مني تمردت ملامحــي فخاف مرافقي على روحه.. ضغط بكفة المرتجف علــى كتفي... رحت أتابعهم بنظراتي فــي اســتهانة... فــرد الرجل ذو العمامة دفتره.. لم أتكلم.. تكلــم الرجــل ذو العمامة بكلمات تقليدية تتلخص في أن الصــلح خيــر...

زاموا، ودوا أن يحطموا أسنانه الهزيلة المتآكلة... فسكت الرجل... ترددت أصداء الكلب ذي الشارب " لا صلح ولا يحزنون" تبعته همهمات مؤيديه... وددت لو طرت إلـــى الطرف المقابل في القرية... أوقظ أبناء عمومتي نعملها مجزرة... كان على الباب كلب مسعور أجرب.

تجاهلت غايتهم ورحت أسألهم عنهـــا... قـــال أحـــدهم موضحا:

إن الانفصال هو الهدف والغاية... وبأية وســيلة... سألتني المرأة المجللة بالسواد عن سبب الصفعة.. قـــال الرجل ذو الوجه الحجري... "لا اعتبـــار ولا حســـاب" تجاهلته ووجهت كلماتي إلى المرأة وبقيـــة الرجـــال... "لوت بوزها أسبوعا بلا سبب... رفضت أن تغسل ثوبي أو تعد طعامي... ضحكتم أنتم عليا.. كنـــتم تعرفـــون.. أعرف أغراضكم... فغسلت ثوبي بنفســـي... وصـــنعت طعاما.. أنها صغيرة وطائشة... أوهمتموها أنها بـــذلك تكون امرأة...احتملت وطلبت منها أن تأكل... رفضـــت فصفعتها عطفا...

وزال أثر الصفعة في ذات الليلة... فقد تصـــالحنا... اسألوها... قالت أن العوض عند الخالق... قالت لهـــا أن كل شيء ممكن إصلاحه... كانت هناك حـــرب كبـــرى وسقطت القنبلة على العمارة بأسرها.. احترق المخـــزن وتهدم كما تهدمت بقية العمارة بأسرها... اختلط الـــدقيق الذي كنت أبيعه بالأنقاض وتاه... يومها حمدت الله على نجاتي.... كنت أنتظر معـــونتكم... لكـــنكم تغـــايبتم... ورحت أعمل بكل ما أوتيت من قوة... حاولت أن أوفر لها مطالبها.. لكنكم كنتم لجهـــود بالمرصـــاد... كنـــت مخدوعا في جعجعاتكم الجوفاء وفقدت الأمل فيكم تمامـــا عندما أشعلتم الحرب ضـــدي... وقـــررتم أن تأخـــذوها وافتعلتم الأسباب، قلتم إن اسم العيلة لا يســـمح... وأنـــا أليست لي عيلة ؟ صدقوني أنكم سخفاء.

زامت الكلاب... دمـــدمت الحنـــاجر... تفحصـــتني العيون وطوى الشيخ دفتره وقام فأجلســـوه... تـــرددت أصداء الصوت الأجوف... "قلنا لا صلح ولا يحـــزون.. لا عتاب، ابن من أنت يا مفعوص لتضربها ألـــيس لهـــا أهل؟"...قمت من فورى فاجلسوني فصرخت في الوجـــه

المتحفز: "تعرف انت ابن من أنا يا جربـوع.. أسـرتنا شريفة لم يسرق فيها أحد ولم يسجن فيها رجل... تكـد وتشقى في أرضها"... أسكتوني...

آخر أمل كان على طرف لساني "اسألوها" هز أحدهم كتفيه وهمهم مهونا على الأمر... بسيطة.. علمنا حسابها هي الأخرى..

دخلت فتابعتها العيون المفنجلة... كنت أنت ما زلت معها... كائن في علم الغيب بلا ملامح... مازلت أذكـر ثوبها الأبيض.. والنظرة المفزوعة.. وصمتها... كأنـه صمت جبل طالبوها بأن تقول بعض كلمات... ترددهـا في أثر الشيخ ذي العمامة.. سكتت أولا فـزام الشـارب الحالك السواد... وكز على أسنانه متحفزا.. قالت وهـي كالنائمة... أبرأت ذمتك هوت علـى مسـامعي كأنهـا مجموعة من الكرابيج السوداني المعقودة الأطـراف... راحت كل لسعة لطرف تنهش جزءا مـن أم رأسـي... تصببت عرقا.. لم يتحرك لساني... فزامت حنـاجر... تكلم.. انطق خلصنا... تكلم يا جدع.. ربما أخـرس... ربما لم يسمع انطق يا جعجاع... رجال آخـر زمـان..

ليس عنده دم... لو كان عنده دم لتكلم.... ولا عرض... انطق يا غلباوي.

أمروها بتكرار ما قالته وهم يهمهمون... ربما لم يسمع.. كررتها.. فسمعتها هذه المرة هديرا من هدير سرب الطائرات في الغارة التي هدمت العمارة التي كان متجر الدقيق يحتل أرضيتها... التقت نظراتنا للحظة يتيمة... أودعتها كل أيامي وآلامي وودعتها في عجلة... وفرت من عيوني دمعة... أخفيتها... وانهالت مرة أخرى كرابيجهم المعقودة الأطراف تلسعني وتدمر صرح كرامتي... دفعني مرافقي فقررت أن أقطع ألسنتهم.... وأبنى صرح كرامتي المتهدم بكلمة وحيدة... قلتها فابتسم الشارب المفتول وتململت المرأة المجللة بالسواد... وأخرجوها بينما كان كلب العمدة يعوي في مرح... انطلقت صرخة في الخارج أحسست بمحاولة فاشلة لكتمها.. حسبتها صرختك.. لكنك كنت يومها في علم الغيب بلا ملامح... راحت تلطم خديها.. رأيتها تلطم خديها حاولوا منعي...آخر ما سمعته منها هو لعنة

صبتها على من كانوا سببا في المهزلة.. منعوني من الاقتراب منها قائلين:

أنها لم تعد تخصني... قالوا أنها لم تعد تخصني.. صرخت أذكرهم بالكائن المجهول الملامح والقابع في الأحشاء... هوت كف ثقيلة على كتفي... وحشرجت حنجرة ثور لتعلن.... "ستحصل عليه عندما يتم اخراجه".. ودفعوني دفعا إلى خارج القاعة.

طردوني وطردوا مرافقي... لن أنسى أبدا... لماذا ذكرتني ؟...

لماذا أتيت لتذكرني بهذه المهزلة ؟... من قال لك عن عنواني؟...

لن أنسى أبدا تلك الليلة.. توكأت على كتف مرافقي المسلوب الروح المقطوع الأنفاس الغائب الدهن... سألني عن الأصل الذي أوهمته بوجوده عند أهلها.. سألني عن الرجولة والشهامة التي طالما سردتها على مسمعه في ألف أسطورة... سألني عن أشياء كثيرة وسألته عن الطريق إلى مدخل القرية.. سألني عن القانون فقلت له :

أن القانون هو العمدة ولأنها ابنته فهو أول المتحمسين لمشروع الانفصال خوفا على اسمه من المرمطة عن طريق زوج لابنته لا يمشك شيئا... أيامها كانت فوضا... ولم يكن هناك قانون بمعنى كلمة قانون... كانت فوضى... السلطة في يد العمدة والذي يريد حقا مسلوبا يأخذه بسلاحه وإلا فلا حق له.

لطختنا أوحال القرية... تهنا في الظلام... غاصت رجلي في حفرة فسقطت على الأرض... كان الظلام حالكا... توكأت على مرافقي لأقوم... عصته من وحل قريتي... دمدم والخوف يبتر حروفه بكلمات فوصلت إلى همسات بلا معنى كنت أتبين فيها بعض الألفاظ... وحوش... كلاب....

زامت كلاب القرية المسعورة كأنها تطاردني وتطردني... وعرجت بمرافقي عند قريب... قدموا إلينا خبزا بلا طعم.. وغموسا بلا لون... وتحية لم نسمعها... سألونا عن الأحوال... وعملوا شايا بلون الدم الحبيس القاتم... أزاح مرافقي كوب الشاي... رفضنا كل شيء... اهتزت رأسي وأنا أسمع مرافقي وهو يسرد

الحكاية على قريبي... انفجرت باكيا... للمرة الأولى في حياتي كنت أبكي !! امتزج الغل بالكرامة المهدورة... بخزى اللحظات... بعار الموقف مع : صورة مجهولة لكائن بلا ملامح... يومها كنت أنت في علم الغيب مجهول الملامح.

هونوا على الأمر ساعة لكنهم عجزوا عن إقناعي بقبول المهزلة التي رفضوها... عجزوا فانهاروا... لمحت في عيون مرافقي دمعات حائرة... نهنه قريبي قبل أن ينتقض باحثا عن سلاحه... طلبت إليه ألا يفعل.. ذكرني بأهلي واسم جدي الذي لوثوه.. فطلبت منه أن يسكت فربما عادت المياه إلى مجاريها... قال : إننا لن نفوتها لهم فذكرته بالكائن المجهول الملامح... ضحيت بكل شيء ساعتها من أجلك، بكرامتي واسمي الذي لاشك سيكون أضحوكة يتشدقون بها كلما أرادوا أن يمجدوا أرواحهم... كنت أراك حيالي بعيونك العسلية الصافية وصمتك العميق الهادئ... لكنني لم أحصل حتى عليك... أين كنت ؟... ليتني طاوعت قريبي وعملناها مجزرة...

لم أنم ليتلها.. لم يفكر مرافقي في الراحة.... ظللنا ساهرين نرقب الظلام الكئيب والعدم... سمعنا المؤذن " يا مؤمنين الصلاة " سألت مرافقي عن مكان المؤمنين " الصلاة خير من النوم" سألني قريبي عن سلطان النوم الهارب... طلع صبح بلا إشراق... بعد أن بزغ فجر شعاع... تحرك الخلق إلى الخلاء بلا رغبة.. وهربنا من منعطفات القرية أنا ومرافقي إلى المدينة الكبيرة... تركتك معها أمانة في الأحشاء.

يوم حملوك إلى كنت تبكي.. وليد يبحث عن طعامه السائل... عجزت يا ولدي عن تقديم ما يمكن أن تقدمه هي إليك.. أخفيت عجزي... تساءلت كيف تركتهم يسلبوك منها قبل الأوان ؟.. تذكرت الوجوه الصلدة الجامدة والملامح الغبية القاسية... كانوا يرفضونك وكنت أريدك.. كنت أمنى نفسي بعودتها.. لكنهم رفضوا... وكنت أنت عزائي... في عيونك كنت أعيش أحلى لحظات عمري... لكنك لم تبق معي... أين كنت ؟.. ولماذا تلح على في ذكر هذه التفاصيل السخيفة ؟... لماذا أنت شاحب هكذا... حسن سأكمل الحكاية...

همس البعض في أذني ناصحا إياي بأن أتـــزوج... كنت أرفض بإباء.. تناولتك بعــض الأيــدى الرحيمــة المتطوعة لتقدم إليك السائل البديل والرعايــة... لكنــك كنت ترفض في عناد وليد غريب الملامح..قلنــا : أنــك ستموت... كان حتما أن تموت... أنت حتى فـــي هــذه الساعة شبه ميت... قتلوك.. لماذا كنت ترفض الأيــدي التي تمتد إليك بالمساعدة ؟... ورثـــت عنـــي العنـــاد.. ترفض الإحسان والرحمة !! كنت ألمحكم أحيانا وأنـــت تتأبى عن التهام السائل الذي تقدمت إليك بـــه عشـــرات الصدور المتطوعة الرحيمة...

كرروا على مسامعي عرض الـــزواج... أذكرهـــا.. الوحيدة التي أمكنها أن تدس في فمك سائل أصفر يـــدفع عنك الجوع والهزال الذي اعتراك... لا أدري هل كنت ترضى عنها أو أنك كنت تقاوم الموت بالقبول ؟... أنت تعرفها وتضيق بها في ذات الوقت فلم تكن لـــك غيـــر عقبة.. عندما بدأت ملامحك في التكوين كنـــت أشـــعر بمدى حقدها عليك لكني كنت أحاول جهدي أن أعوضك عن رعايتها المشكوك فيها برعايتي... كنت في البيـــت

مسخة.... نصف رجـل ونصـف امـرأة... وعنـدما استطعت المسير قدتك إلى مقر عملي رغم أنهم ضـاقوا بوجودك لأنه حولني إلى نصف عامل..

ويوما... قررت أنـت أن تريحنـي... كنـت فـي الخامسة على ما أذكر... قادتك أقـدامك إلـى حيـث لا أدري... وبحثت عنك عبثا... صدقني أنني دخت ودابت أقدامي في اللف والدوران دون جدوى... لم أترك قسما للبوليس ولا مستشفى... لم أترك خرابـة ولا زقـاق.. دخت بلا جدوى.. وانقطعت عن عملي... لكن بمـرور الأيام اعتدت غيابك... ولم أجد في البيت سوى وجههـا الأصفر الحاقد وهو يحاول الابتسام... طردتها فقد كنت معتوها... لم أقتنع بغير صديق وحيد... العـم بنـايوتي الشهير... صاحب أرخص حانـة وأقـذر خمـور فـي المدينة.... تعرف من هو بنياوتي ؟...لا تعرفه...

لكن قل لي... من أعطاك عنواني ؟ كيـف عشـت سنوات عمرك ؟... في أية خرابة كنت تنام ؟.... ومـن أي صندق زبالة كنت تحصـل علـى طعامـك ؟.. لا تخجل.. ألم تتعلم سوى تدخين هـذه الأعقـاب القـذرة

؟...وما هو السر في كونك حافي القـــدمين ؟... ولمـــاذا تشمخ بأنفك هكذا ؟.. لكأنك مارد ملحوس الوجـــه... أو لكأنك عملاق ممزق الثياب ضئيل... ولماذا لم تســـألني عنها مرة أخرى ؟... لقد نسيتها... نسيتهم... مشروبات بنايوتي كفيلة بعمل كل المطلوب... ترى هل أنت جـــائع ؟.... أعتقد أن جيوبي خاوية تماما... لكنى أملك كســـرة من الخبز... أنا الآخر جائع مثلـــك... نقتســـمها... كـــم عمرك ؟؟... عشرة ؟... خمسة عشرة ؟.... هو خمسة عشر عاما....

عندي فكرة... لماذا لا تقيم معي ؟... عندي دكـــان خيم العنكبوت على بابه ، البعض يعتقد أن صاحبه مات ؟... سيفاجئون بفتحه من جديد... عندي عدة نجـــارة... شاكوش وفارة ومنشار وخلافه... وبعض القطع العديدة الأحجام والأشكال من الخشب سأعلمك النجارة... سوف أخاصم بنايوتي الكلب... فلقد عثرت علـــى الصـــبي... أغلقته لأنني كنت في حاجة إلى صبي طيب مثلـــك.... ستكون تلميذي النبيه المخلص... ما رأيك ؟...

سيمزق منشاري قطع الخشب من جديد... ستغوص المسامير في أغوار الثقوب كأنهـا سـهام فـي قلـوب الأعادي... لماذا أنت صامت هكذا؟.. وجهك مخطـوف لكأنك مطارد... من يطاردك ؟... فليحترق الشيطان إذا فكر في مطاردتك بعد اليوم وليذهب الشيطان إلى الجحيم ويتركنا معا... آه.... لعلك جائع... أنت فعلا جائع هـا هي ذي الكسرة الوحيدة التي أمتلكها... خذها وحـدك... لماذا أنت صامت هكذا ؟... لماذا أنت جامد في مكانـك كالتمثال ؟.... ما هذه النظرة المتحجرة... أنا أخاف من هذه النظرة... حول عينيك عني ، ما هذا الصمت الـذي يذكرني بقبر أمي ؟... كلمني... مـاذا أرى ؟... لمـاذا تهتز هكذا بين راحتي كأنك طوبة رطبة ، لماذا تسـقط على الفراش هكذا ؟..ترى هل أنت غاضب ؟... لعلـك مجهد... لكنك مقطوع الأنفاس ، فليسـقط الشـيطان إذا كان هو السبب... هل طاردك حتى قطع أنفاسك... هون عليك الأمر ولا تحزمن... استرح... كما يحلو لك ، ها هو الغطاء يداري كيانك المعلوم الملامح... نم شهرا... نم عاما أو دهرا...

أما أنا فلن أعود إلى هنا أبدا وسوف أذهب إلى بنايوتي أعرض عليه فكرة الإقامة الدائمة في حانته القذرة وأعلب من خمره الرخيصة ما يسعني العب... سأضيف دينا جديدا إلى ديوني أولا... هناك صديق قديم لن يضنى عليك – إذا قلت له الحكاية – بتكاليف النهاية.. ولدى الوحيد قرر أن يتركني بعد أن سمع الحكاية...اطمئن فسوف ترتاح تماما... لكن خبرتي هل نمت جوعا أو حزنا.. أو أنك نمت شموخا وعنادا... ورغبة صلبة في عدم الخضوع.

صيف الذباب

مرة أخرى عاد صيف الذباب... ليعربد في عناد لحوح... وليرتفع طنينه صاخبا مدويا فيتلاشى حياله همس الرجل...

كز الرجل على أسنانه وهو يطوح بيمينه فوطة الوجه... ملامحه مهدودة منهكة... تراخت الذراع... وعلا الجبهة عرق لزج باحث عن مجرى... حط الرجل جسده العاري الصدر فوق السرير العريض... وغاب لحظات في نوم بلا غطيط وإحساسه بالقلق وخوفه من عودة الطنين يسيطران على مشاعره... طارت الذبابة... رفرفت بجناحين ماجنين... زنت حول الرأس... دارت دورات سريعة مجنونة... ثم حطت فوق عضلة الكتف اليمنى العارية... فتح الرجل نصف عين.. تأملها وزفر:

- أف... مرة أخرى ؟...

وأجابه الطنين :

- سأغيظك...

واستوى الرجل على سريره... مد يسراه هـــذه المـــرة فتناول الفوطة من جديدة ولح بها مرات توارت أثرهـــا الذبابة.. عاد الرجل إلى وسادته... صدغه الأيمن فـــوق الوسادة وأمنيه... فقط لو تركته ساعة واحدة يرتاح فيها قبل موعد الوردية... لو تركته ساعة.. تاهـــت أفكـــار الرجـــل وتشـــابكت... الخـــط المفكـــوك... وتقريـــر الباشمهندس... الاتحاد... واحترام الزملاء... ســـتكون سلطانا يا أسطى محمود... ورئيس وردية... رفت على ثغر الرجل ابتسامة واثقة ، ثم ســـيطر عليـــه ســـلطان النوم... لحظات.....

- أسطى محمود.... عبد الونيس وصل... عبد الونيس بلغ مرضى... أسطى محمود عباس عمل بدل مـــع إسماعيل أبو شفة... أسطى محمـــود المكنـــة فـــي الصيانة من شهرين ، الباشمهندس على التليفون....

ملامح الرجل منبسطة رغم نومه....

عاد الطنين.... زنت حول الرأس... حامـــت حـــول طبلة الأذن... طارت وحطت فوق الكتف.. خطفته مـــن

حلمه... فتح عينيه فرآها... أمسك بالوسادة... طوح بها في غيظ ، زاغت الذبابة ثم عـــادت... عاجلهـــا بكـــف مفرود.... ترنحت وسقطت وسط الغرفة... زفر بارتياح وهو يتأملها... كاد يدوسها بالقدم لكنه أحس بـــالقرف... تركها تتلوى وأخذ الوسادة الملقاة في ركن الحجـــرة... أعادها مكانها ثم مال بالرأس المكدود المنهك... ود لـــو عاد حلمه من جديد... اللهم اجعلـــه خيـــر.. خيـــر يـــا محمود... خير.. أغمض عينيه.. تمطع... أنثنى ثم سكن في وضعه.. ومن جديد غاب في نوم هـــادئ...جـــذب أنفاسا منتظمة... أخرج زفيرا مرتاح الشعور... ماتـــت الذبابة... دخل في الدائرة المكونة من عمال المصنع...

- بقى عبد الونيس شبر واقطع !!!... الراجل فـــي إجازة...لو قلت سلطان... إسماعيل... انما عبد الونيس شبر واقطع يطول النجفة... السلم مكسور يا رجالـــة... طالها وهو على الأرض... ســـرقها... وزاغ... طـــول عمره يزوع... يا عم اللي له ظهر... "خمسين قرش"... يا راجل فوق "صحيح الساعة تلاتة وربـــع ".... ميعـــاد الوردية فات...

طنت حول الأذن ذبابة... حامت حول الرأس الحالم... دارت دورات سريعة... رفرفت بجناحين ماجنين... قام الأسطى محمود مفزوعا من نومه... طير كفه المفرود ناحية الذبابة فتوارت... ثم زنت في عناد :

- سأغيظك...

نظر إلى الساعة... زمجرت نظراته... ترك السرير ووقف في وسط الحجرة... تساءل :

- من أي يأتي الذباب ؟... الباب مغلق... ومحكم... والنوافذ مغلقة الزجاج والشيش والحيطان ليست مشقوقة والسقف مسلح... الحجرة كعلبة سردين... الحيطان تصهد نارا موقدة... شمس يوليو المحرقة... والذبابة المصابة مازالت في وسط الحجرة ساكنة بلا حراك... أما هذه فهي تزن... وتعربد... لابد أن يعرف من أي يأتي الذباب ، الذبابة الأولى تتحرك من مرقدها ها هي تنطق... ها هي تعود وتطن... تاه الرجل بين ذبابتين... أيهما كانت صريعة منذ لحظات... الطنين....

- سنغيظك.... سنغيظك....

ابتسم في استهانة... لا بأس... لا داعــى للنــوم... سوف أتأمل... لكن إياكم ولمس جسدي فأنا مريض.... حطت ذبابة على الأنف... طيرها... طت الأخرى على الكتف ثم طارت... زنت ذبابة ثالثــة... ثــم رابعــة... خامسة... سابعة.. سرب من الذباب يطيــر الآن حــول الرجل والسؤال يحيره... من أين يأتي الذباب ؟.. فــي الجدار ثقب... هناك ثقب.. يتسرب من خلاله الذباب... لمح ذبابه تكافح في سبيل الخلاص مــن ثقــب المفتــاح الضيق... ها هو الثقب... ومن خلاله يأتي الذباب.

حطت ذبابة على الكتف والأخرى على الصدر وثالثة فوق الأنف... ورابعة فوق الصدغ بينما لبــدت ذبابــة أخرى فوق الظهر... تحرك الرجل فطار الــذباب... إلا ذبابة الظهر زحفت باطمئنان وثقة.... صارت الحجــرة المغلقة باحكام وكرا للذباب... الرجل مريض بالحساسية ، مرض مزعج بعض الشيء... يحتــاج إلــى عنايــة خاصة... حساسية شديدة.. جلده يتأثر بسرعة... قال له الطبيب... حافظ على روحــك... مــن يومهــا وهــو يحاول... يهتم اهتماما بالغا بتنفيذ إرشادات الطبيــب...

الحبوب والإبر... وأصناف الطعام.... وكل الوصايا إلا حكاية الذباب هذه... أنه الصيف... صيف الذباب العنيد...

ليس من المعقول أن يحارب رجل عاقل جيوش الذباب... تسربت إلى فكرة صورة الحلم الأخير... حتى في الأحلام يا عبد الونيس حرامي... ومتمارض دوما... خير يا رب... الهم اجعله خيرا... ارتدى الرجل قميصه... فكر في الخروج... بلع حبة صفراء وأخرى حمراء ثم نف كوب ماء.. مضى بخطوات هادئة... إلى المصنع... مرارة الظهر خفت... بدأت رياح العصر تهب وإن كانت ساخنة بعض الشيء... أمام إحدى المقاهي طير أحدهم جردله المليء بالمياه في عرض الطريق... قفزت قطرات من الماء فوق القميص الأبيض... ابتسم له حامل الجردل وهو يقرر " الدنيا حر... والماء نظيف.. ينعنش..." مضى الرجل بهمه.. يبدو أن قطرات الماء نعنشته.. طاب له أن يتابع الوجوه في عرض الطريق... ويبتسم... وأحس لحظات أن الدنيا

كلها ملكه... كل شيء... قال له عضو مجلــس الإدارة المنتدب بنفسه :

- ستكون رئيس الوردية يا أسطى محمود...

أكد له الباشمهندس ما قاله عضو مجلس الإدارة....

- تقريري عنك يا أسطى محمود أنك أكفء من يقوم بهذه الوظيفة...

والزملاء أيضا يحترمونه ويقدرون جهــوده... كــل شيء جميل يا أسطى محمود... كل الدنيا تتــراقص... طاب له أن يغني راحت رأسه تتمايل في انبساط...

دخل بوابة المصــنع الكبيــرة... قابلــه الأســطى مبروك :

- مساء الخير يا أسطى محمود... حمدى أبو الخير وصل... روح اقبض قبل الزحام....

ابتسم للأسطى مبــروك ورد التحيــة... وأســرع خطواته ناحية الحجرة المألوفة ، السركي في يمينــه...

والمرتب في يساره.. والشكر على لسانه...واستدار ناحية العنبر... لمح عبد الونيس... ابتسم له مداعبا :

- عمرك ما تنسى يوم القبض يا عبد الونيس ؟... خلصت إجازتك المرضية يا عم ؟... حمد الله على السلامة....

ابتسم عبد الونيس ابتسامة صفراء باهتة ثم أشار للأسطى محمود بأن يقف أمام المخرطة...

- روح شوف شغلك يا أسطى محمود... الساعة (تلاتة وخمسة).

تفحصه الأسطى محمود لحظة.... بدا له أقل طولا مما كان... شبر واقطع... كيف يأمره بأن يشوف شغله ؟... ماله هو ؟... رئيس الوردية؟... مهندس عليه ؟... ماله هو ؟... يكون في حاله... لاشك أنه يجهل حكاية ترشيح الأسطى محمود رئيسا للوردية اعتبارا من اليوم... فاليوم هو أول الشهر... لاشك أنه لم يسمع عن هذه الحكاية شيئا لكنه معذور... إجازة مرضية كالعادة...

اتجه الأسطى محمود ناحية باب العنبر وهم بخلع قميصه وتغييره بملابس الشغل فقابله الباشمهندس... متقدما عمال الوردية كلهم... شبه ثورة وهياج غير طبيعي ووجوه تزوم... ورفت ابتسامة على وجه الأسطى محمود لتحية الباشمهندس... لكن عبد الونيس صرخ في الجمع الذي يزوم:

- كل واحد يشوف شغله.... فاهمين ؟

برز سلطان من وسط الدائرة... ووجه حديثه للباشمهندس...

- يا باشمهندس... بقى عبد الونيس أحسن من الأسطى محمود... عبد الونيس ؟... يا باشمهندس يبقى رئيس وردية علينا ؟... وأنا والأسطى محمود... والأسطى برعي وسليمان تحت إيده ؟... مسألة خواطر هي.. طبعا خواطر....

وزامت حناجر الرجال...

لوح الباشمهندس طالبا من الجمع السكوت...

- يا جماعة... الأسطى محمود كان مرشح فعلا لآخر لحظة أنا نفسي مرشحه... إنما الظروف... ظروف خارجة عن إرادة المصنع ولا داعي لتعطيل العمل...

كان الأسطى محمود ساكنا... لا يتكلم...صامتا كأن الأمر لا يعنيه.. بينما كانت الحناجر تطالب برياسته.. غير أنه وعي كلمات قليلة قالها الباشمهندس :

- والأسطى محمود مريض كما تعرفون... ومريض بالحساسية... وطبعا أنتم لا تعرفون مدى خطورة هذا المرض... ولهذا رشحوا عبد الونيس....

همهم أحدهم :

- علموه القراءة والكتابة حتى لا يبصم كل يوم ثلاثين بصمة على كل سركي بصمه...

وانبعث صوت آخر :

- ركبوا له سيقان خشبية حتى يستطيع مراقبة الوردية...

وعقب آخر :

- وكموه حتى لا يطول لسان على أحد...

زمجرت ملامح الباشمهندس ثم قال محتدا :

- الأوامر صـريحة... وأنـتم أحـرار... ولا داعـي للسخرية... أسطى عبد الونيس شوف شـغلك... ميعـاد الوردية بدأ...

ومن وسط الجمع انطلق صوت القـزم المعـين رئيسـا للوردية :

- كل واحد يشوف شغله... كلكم سمعتم...

زامت الحناجر... لكن الأسطى محمود تدخل :

- يا جماعة لا داعي لهذه المشاكل... عبد الونيس زميلنا على أية حال... أوامرك يا باشمهندس... أوامرك يا عبد الونيس... حاضر...

ومضى بخطواته نحو المخرطة وتابع إدارتها وتبعته بقية الوجوه المتجهمة... وانهمك الرجال في العمل بينما كان

عبد الــونيس يتمشـــى كالطـــاووس والعيــون ترمقــه باستهانة...

بعد عدة دقائق أحس الأسطى محمــود بذبابــة لحوحــة تتسرب إلى ما بين قميصه وجلــده المصـــاب بمــرض الحساسية... لبدت في الظهر... كاد يحكها لكنه أحــس بالقرف الشديد... فكان عليه أن يتحمل الوردية بطولهــا تحت رقابة عبد الونيس وطنين الذبابة وعربــدتها بــين قماش القميص وجلده المصاب بالحساسية وهي تزن :

– سأغيظك....

يونيو ١٩٦٦

ذيون التحدي

نسجوها بإحكام... بتؤده... وفي متسع مـــن الوقـــت نسجوها... جمعوا خيوطها المتشعبة وعقدوها وصـــنعوا منها عشرات المعاول وراحوا يحفرون قبره... جـــردوه أولا من كل وسائل المقاومة... كان يبدو حيالهم ســـاذجا بحيث حسبوه لم يكفر لحظة واحدة في خطورة ما يـــدور حوله من حلقات متتابعة ومنظمة لدفنه في المقبرة حيا... ودون إثارة مشكلات... ذلك أن جهاز عبد التواب كـــان يهدف أولا إلى كتم الصوت قبل أن يخرج... أمـــا عبـــد الحق فقد نظر إلى التحدي بأنف شامخ ورأس جامـــد لا يلين... ووعيون ترقب في هدوء وثقـــة تنتظـــر لحظـــة الصفر لتتحرك....

كانت نظرة الشك المركزة قد لمعت في عيون عبـــد الحق... فلم يتمكن عبد التواب من إخفاء سره... واشار إلى ذيوله بأنها ساعة الصفر... شرع في تحريك جهازه العجيب... وفي لحظة تحول الفتور الذي ارتســـمت بـــه علاقته بهم في الأيام الأخيرة إلى صـــراع مكشـــوف... أشار عبد التواب إلى ذيوله المتحفزة إشارة مجردة مـــن

الأحاسيس... فبدأ كإخطبوط مارد تتحرك حوله عشرات الذيول... استجمع أحدهم كل طاقاته قبل أن يندفع نحو عبد الحق الواقف في شموخ صامد... بينما كان الآخر ينحني خلف سيقانه... وفي لحظات كان كل شيء قد انتهى وبصورة هادئة... ودخل عبد الحق في جوف المقبرة ساعتها تغير كل شيء واستحالت الألوان إلى لون وحيد كالح... تغيرت ملامح الموقف وبدت جدران المقبرة عملاقة لزجة... تسخر من كل محاولة للخلاص... وتؤكد ببرودها استحالة نجاح محاولاته... ساعتها تخيل نفسه في مكان مملوك محاصر ومجرد من السلاح في مذبحة القلعة الشهيرة... كان صوته مكتوما بفعل الجهاز الجهنمي الذي أعده عبد التواب... وكان طريقه مسدودا بدائرة الجدار المصقول الأملس والأرضية الرطبة الرخوة....

ساعتها تأكد عبد الحق للحظة وحيدة أنه انتهى... وأن صوته محكوم عليه بالإعدام.... تماما مثل بقايا مكوناته التي ألقوا بها في أعماق المقبرة... أيقن أن أحدا لن يسمع ليصدق أو يكذب.... وأن أحدا لن يعرف أن

معركته معهم غير متكافئة على الإطلاق... ولـــم يكـــن يملك إلا أن يقبل التحدي المفروض عليه رغم أنفه....

لم يكن عبد الحق يطمع في أكثر مـــن بكـــالوريوس طب بيطري... ليتمكن من علاج الحيوانات الأليفة فـــي قريته الصغيرة... أو على أســـوأ الفـــروض تـــرويض الحيوانات المفترسة في أحراش المدينة بل أنه كان يحلم في بعض الأحيان باكتساب المقدرة على مساعدة بعـــض الحشرات في مشوارها الطويل ناحية التطور قائلا فـــي كل مرة... ربما تتحول إلى كائنات مفيـــدة... غيـــر أن الذي حدث كان أبعد بكثير... بكثير جدا عـــن مســـتوى أحلام شاب قروي بسيط من أمثال عبد الحق... يـــوحي منطقه بالسذاجة وتوحي ملامحه بالغباء.... ولربما كـــان هذا هو السبب المباشر الذي جعل من عبد الحـــق هـــدفا لمحاولات متتابعة ترمي إلى تحطيمه... ولربمـــا كانـــت الفكرة التي كونوها عنه خلال علاقـــتهم بـــه ومـــواقفهم العديدة معه هي التي جعلت منه فـــي مفهـــومهم صـــيدا سهلا... ولقد أحس عبد الحق نفسه بخطورة الموقف... وحاول جهد طاقته أن يتخلص من عبد التواب وذيولـــه

التابعة... غير أن الخلاص لم يكن يسيرا ، وحين اكتشفوا أنه يرمى إلى تحديد موقفه منهم معلنا رفضه للاستمرار في علاقاته معهم....

قالها عبد التواب :

- أنت صديقنا اللدود يا عبد الحق...

كان عبد الحق يدرك مدى الترابط بين كل من إسماعيل وعبد التواب ، لكنه لم يتمالك نفسه من إخراج بصقة متمردة كانت تتجمع في زوايا فمه قبل أن تنطلق لتشمل كل زوايا وجه عبد التواب... وابتسم إسماعيل ساعتها في غل مكتوم ، وهمهم في اطمئنان واثق :

- ستدفع ثمنا غاليا لهذه البصقة يا عبد الحق مالم تقدم اعتذارا مقبولا في خلال دقيقة واحدة...

غير أن عبد الحق لم يكن ليهتز أو يتراجع عن موقفه إزاء ذلك التهديد... فامتدت يمينه بصفعة سريعة رنت على صدغ إسماعيل... وتركت بصماتها على الصدغ كئيبة محمومة متحفزة... واستدار تاركا لهم

الفرصة لجدل خيوطهم المحبوكــة الأطــراف... وهــو يهمس لنفسه : أن العمر واحد والرب واحد...

بعد أيام ظهرت شخصية عباس التـــي كانـــت قـــد توارت... بوجهه المجدور وصوته المتداخل النبرات... ونظراته الفاحصة... وهمس له عباس بأن شيئا ما يدور لصالحه رغم ما كان من خلافات في الأيام الأخيــرة... ولم يصدق فقد كان عباس نفسه غريبـــا مشـــكوكا فـــي أغراضه...

قال عباس يوما لعبد التواب :

- سوف أجدل بيميني حبلا من القنب ليلتف حـــول عنقه الممطوط المتعجرف....

وتشجع إسماعيل وهو يتذكر مهنته الأصلية كحـــداد وهمس :

- سوف أصنع قيوده من الصلب أو الفولاذ بحيـــث يعجز تماما عن الحركة...

أطرق عبد التواب لحظات وهو يعبث بدفتر الشيكات ويخرجه ليدفع ليوله تكاليف الحبل والقيود...

في طريقه إلى المدينة قالت أمه له :

- حافظ على روحك يا عبد الحق... لقد مات أبـــوك وهو في عز شبابه... لدغه عقرب ، ولدغة العقرب على أيامنا لم يكن لها علاج... حين لدغـــه ذنـــب العقــرب الأسود تأكدنا أنه انتهى... أنت تعرف أنه كان يعمل في جو خانق... لكنه كان يجهل أن سم العقرب يكمـــن فـــي الذنب... فحطم الرأس واستراح... لكـــن تحطـــيم رأس العقرب الأسود لم يكن يعني أن الخطر قد انتهى فلقد كان الذيل يحمل في طياته الموت السريع... فذيول العقـــارب لا تموت بسهولة... ولكن ذيل منها سبعة أرواح... تماما مثل القطط الضالة....

أحس عبد الخـــالق بـــأن الأرضـــية الرخـــوة تهـــم بابتلاعه... فأفاق من أفكاره... ودودى في نفس الوقـــت صوت سكير أهوج يتحرك في قلب الشقة... ويسأل عبد التواب عن عود ثقاب... أشعل عبـــد التـــواب ولاعتـــه الثمينة وقدمها إلى طرف السيجارة الممدود نحوه... ثـــم جذب حبل المشنقة الملفوف حول العنق وقال في شـــماتة المنتصر :

كنت طفلا يا عبد الحق... ودفعــك غــرورك إلـــى الهاوية... كنت تشمخ بأنفك عاليــا فقررنـــا أن تمــوت شامخا... وصنعنا لك حبــل المشــنقة ليرفــع رأســك المتعجرف في لحظة النهاية... لسوف نضحك منك كثيرا يا عبد الحق...

سرسعت بنت ليل مسطولة بكلمات قارحة... وأطلت إليه من أعلى الهوة في بلاهة... ثم مصمصت شــفتيها وهي تخلع ثوبها الشفاف كأنها تعانده... أزاحهــا عبــد التواب وصب خمس كئوس فأســرعت نحــوه الــذيول المسطولة...

- في صحتك... في صحتك...

قالوها وقهقهوا ساخرين...عملوها وهــم ســكارى.. فهم أجبن من أن يواجهوه وهم في وعيهم... لكنــه لــن يموت.. وكل عقدة ولها ألف حلال....

ألقى أحدهم فوق دماغه محتويات كأس مثلجة وهــو يضحك فأفاق تماما ليشــعر بصــلابة قيــوده ويحــس بالاختناق أثر قهقهات جماعية ساخرة... التصقت بصدر

عبد التواب امرأة عارية الصدر فاحتواها وهي تهمس همسات ماجنة ، وأدار أحدهم جهاز التسجيل فانبعث صوت أغنية أجنبية سريعة مرحة... وراح عبد التواب يتراقص مع المرأة العارية الصدر..

لمعت وسط الظلام فكرة يائسة... تسربت إلى رأسه كانعكاس الشعاع الخاطف الذي يسبق المطر... برقت ثم زاغت... لكنهم كانوا في شغل عنه بحيث عصر دماغه وحصرها وأمسك بخيوطها... همس في أذنه شبح صديق قديم مرسوم على واحد من جدران المقبرة اللزجة :

– إذا فكرت في الاستسلام فسوف تنتهي يا عبد الحق.... ستكون غبيا إذا سمحت لمجموعة السكارى بالقضاء عليك... وسوف يخيب أمل الرجال في القرية في واحد ممن علقوا عليهم الآمال... كل ما عليك أن تحاول الخلاص... وتقبل التحدي للنهاية...

لم تكن أنف عبد الحق تؤلمه رغم الضربات المغلولة المتتالية التي كالوها له في قلب الشارع...وعلى مشهد

من مجموعة متسكعين جبناء طاب لهم رؤية خيوط الدم المتشابكة التي تتدفق في غزارة ليستحيل لـــون الوجـــه الريفي الأسمر إلى لون أحمر قاتم ، حيث جفت قطرات من الدم فوق الملامح... وانتشرت فوق القميص الأبيض بقع الدم... شيء من هذا لم يكـــن يحـــرك آلامـــه فقـــد انحصرت الآلام في أم الرأس... وبدا أنها سوف تـــدمره تدميرا.... ولم يكن يملك غير الوسيلة الوحيدة التي أشار بها شبح الصديق القديم الماثـــل حيالـــه.... " أن يقبـــل التحدي للنهاية "...

وأمسك عبد الحـــق بخيـــوط الفكـــرة... أن يحـــول القيود... كل القيود إلى خنجر وحيد حاســـم يقبـــل بـــه التحدي ويتمكن – إذا استطاع – من الخلاص... وغاص في المحاولة... ومرت العملية فـــي ســـرعة واعيـــة... لتحول قيوده الفولاذية إلى خنجر مسموم الحدين اســـتقر في يمينه فمدها إلى حبل المشنقة ليمزقه... وراح يتأمـــل سطح الخنجر الذي صقله التصميم... والـــذي انعكســـت عليه صورة المجموعة الصـــاخبة الماجنـــة... وعلـــى السطح توالت الصور :

عبد التواب برقبته الغليظة وأنفه المدسوس في كل الأمور... ومخالبه التي تشبه مخالف كلب مسعور... والتي يحرص عليها أشد الحرص... وصوته العربيد... وجعجعاته المحفوظة المكررة... ولقاء عابر في زحمة المواصلات قبل أن يشترى عبد التواب سيارته الجديدة... واحتكاك عفوي أدى إلى نقاش... ثم لقاء آخر في مباراة كرة... يومها كان عبد التواب يشجع الفريق الفائز بثلاثة أهداف من مكانه في المقصورة بينما كان عبد الحق يحلم بفوز الفريق المهزوم...

لحظات ثم توارت صورة عبد التواب لتحتل مكانها ملامح إسماعيل... قزم له عيون ضيقة وأنف ضخم ورأس فراغه لا يحتاج إلى نقاش... ولقاء مضت عليه خمس سنوات... يومها كان إسماعيل يسأل الطابور عن المجموع المطلوب لدراسة الهندسة ويفخر بمجموعه ، وكان عبد الحق يقف صامتا في الطابور المؤدي إلى دراسة الطب البيطري.. رغم مجموعه المعقول الذي جعل إسماعيل يغير رأيه بسرعه ، وبشيء من الهوس.. تغيرت أفكاره الهندسية المنظمة و امتلأ رأسه بفكرة

جديدة أحالته إلى دراسة الطب البيطري... تماما كما أراد عبد الحق لنفسه...

وفي إحدى الزوايا تكونت صورة مهزوزة لعباس بوجهه المجدور الذي التقى به يوما في شقة زميل قديم... ورسم بملامحه... صورة فنان عبقري يمارس الرسم بشكل تقليدي محافظ.. ويدور على المكاتب وفي الطرقات أحيانا ليعرض لوحاته الباهظة الألوان تماما مثل ملامحه... ويأخذ عنها أثمانا بخسة....

أطل عبد التواب فأخفى عبد الحق خنجره المصقول... انعكس في عينيه بريق فنظر إلى أعلى... كان شعاعا ناتجا عن فص الياقوت في يمين عبد التواب... كانت المرأة العارية الصدر تغوص في صدر عبد التواب... مدت أناملها برقة إلى فص الياقوت تخلعه وتدسه في جيبها بينما غمزها إسماعيل في خبث المقامر الرابح... وبدا فعلا كمقامر رابح حقا يخفي الورقة الرابحة عن عيون منافسه... وبدا أن ورقته كانت أنامل الحسناء.. وشمخت أنف عبد التواب اعتدادا بأهميته وإظهارا لعدم اهتمامه بفص الياقوت الضائع في جيبها.

دقت الساعة دقات ثلاث... تمايلت رأس عبد التواب وهو يضيف على بطنه بقايا زجاجة الخمر... بعدها أطل من الهوة وهمس ساخرا وهـو يوجـه نظراتـه ناحيـة السمراء ذات الظهر العاري :

- أنظري إليه... لقد انتهى... ها ها هئ هئ...

دقق عبد الحق نظراته في الثقب الذي تسـرب مـن خلاله الصوت ثم طارت يمينه بضربة مغلولة مسـتقيمة إلى عين السكير... ومن خلال الثقب سـمع حشـرجات قتيل مطعون بخنجر مسموم وهمهمات مجموعـة مـن السكارى تبحث عن أمـوال محفوظـة أو مجـوهرات والبعض الآخر يبحث عن مهرب أو سـلاح مضـمون النتيجة...

صرخت امرأة فاجرة كأنها أفعى :

- خلصوا عليه يا جبناء... وإلا ضـاع منـا كـل شيء....

انهالت علـى رأسـه زجاجـات الخمـر الفارغـة والمملوءة... وقطع الأثاث الصلب... وراح يتخبط فـي

أعماق المقبرة.. كادت الأرض الرخوة أن تحتويه ولكنه لمح شبح الصديق القديم فاستعاد نشاطه رغم أن أحـــدهم همس وهو ينفض كفيه :

- انتهى....

أما الآخر فقد هرب بجثة عبد التواب... وراح يسأل عن الطريق على المدافن... وعندما أفاق عبـــد الحـــق حرك يمينه بالخنجر المسموم الحدين...فأرهب مجموعة الذيول... فراحوا يتسابقون نحو الباب وهم يدســـون مـــا حصلوا عليه في جيوبهم خوفا من عبد الحـــق... وســـاد الصمت لحظات... تحرك عبد الحق خلالها في أنحـــاء المقبرة بحرية وانطلاق... وأحسن بالاطمئنـــان... وراح يبحث عن الحبل الذي جدلوه لشنقه وهم بالصعود... أما الخنجر الذي كان قيدا يلتف حول أطرافه والذي كســـته طبقة من الدم الأزرق فقد ازدادت حدته وأصـــبح فـــي الإمكان استخدامه في ذبح الذيول بطريقة أكثر فاعلية... وبجهد قليل... غير أن الإخطبوط كـــان قـــد انتهـــى... والذيول كانت قد زاغت وتوارت عن عيونه....

وتوارت أيضا مقبرتهم المصنوعة باحكام وتـــؤدة... وأحس أن سلاحه لن يستخدم كثيرا... غير أنه احتفظ به بعد أن غسله.... وضعه تحت الوسادة ونام... نام فـــي صمت هادئ مطمئن عميق.

أغسطس ١٩٦٦

كتلة الصمت

" أوصيك باختيار أستاذك... وأن تلبد تحت ابطه... بعدها يتكفل الأستاذ بعمل كل شيء من أجلك "...

عربدت عند طبلة الأذن.. كادت أن تخرقهـــا وتنفـــذ إلى أم رأسه... بدت له ملامح زميـــل الدراســـة وهـــو يقولها... بهامته المديدة وظهـــره المحـــدودب وأناملـــه المرعشة وهي تحتوي السيجارة وتســـعى إلـــى ناحيـــة الفم... يومها كان يشعر بالقرف لمرآه فقرر أن يهـــرب إلى أي مكان بحثا عن بائع ليمون متجول... ليعالج نفسه بامتصاص واحدة....

" أن تختار أستاذك.. تلبد تحت ابطه... يعمـــل كـــل شيء من أجلك ".

طافت في أنحاء الدماغ مسعورة... وقحة وممطوطة فكاد الدماغ أن ينفجر...

هذا المساء كان قد قرر أن ينفث رغبته في الكـــلام مع دخان اللفافة الأخيرة ليستريح ، جزيئات الدخان كانت تتطاير في الحيز الضيق الذي كان يحتويه.... كـــاد أن يختنق خلف الكواليس فلا يشعر باختناقه أحد.... كان في مكان القلب حزمة صمت مرصوصة... تحرك اللســـان في جنبات الفم... لكنه لم يتكلم... لم يكن لسانه مقطوعا وإن كان عليه أن يلعب دور الأخـــرس ، ذلـــك الـــدور المحفوظ عن ظهر قلب.... كان قد قرر الرحيـــل مـــرة أخرى بعد أن ضاق بصمته الكئيب... اســـتدار ليـــودع الوجوه في عجلة... تأمل وجه البطل المنتوف اللحية... لسع سيقان البطلة ببصهة قارحة... تململت في قعدتها... عبثا حاولت أن تجد ما تداري به الجزء العـــاري فـــوق الركبة... حطت أناملها الرقيقة في مواجهـــة بصـــته... بدت له الأنامل كدرع مثقوب يمكن النفاذ من خلاله إلى ما يتوارى خلفه بجهد قليل.

في طريقه إلى الباب الخلفي ناداه مشروع الشــارب النحيل بعروق عنقه النافرة ليسأله بنظرة آسفة :

- اذن فقد قررت حقا أن تتركنا ؟...

أومأ في حسرة... مضــغ مــرارة حلقــة قبــل أن يمضى... شيعته عيون الزميل المحزونة وهــو يتمــتم بكلمات لم يسمعها.... قال لنفسه وهو يتحــرك ناحيــة الباب الخلفي :

- لا بديل مــن أن أنتظــر... وإلــى أجــل غيــر مسمى....

كاد أن يسقط بحمله لكنه تماسك... ود اللســان لــو ينطق... تجمعت في زوايا الفم بصقة... لكنه لم يطاوع نفسه... خاف أن يعوص أرضية المــدخل... احترامــه للمكان يمنعه من تلويث مدخله...

احتواه الشارع... كان يحمل رغبته في الكلام فــوق صدره... صهد الأسفلت يلفح وجهه كأنمــا هــو زفيــر شيطان غاضب... استسلم للمسير في الطرقات بحثا عن صديق يحكي له ما جرى... ترددت خواطره... ولمــاذا

تحكى للناس ؟... الصمت أفضل...تابع المسير... لكم طحنته المدينة في طرقاتها الملتوية... لو كانت الطرق مستقية لاستراح من اللف والدوران... ولكن المدينة عتيقة... عجوز... خططوا طرقاتها في العصور الوسطى... ولكم صادفته الطرق المسدودة والأزقة الملتوية... ود لو كان في إمكانه العودة إلى قريته مرة أخرى... لينتهي كل شيء.. يريحهم ويرتاح... يختفي يخلصهم منه ويتخلص من صمته الذي طال... ومن الكمامة التي كمموه بها... ولكنه يضيق بالفكرة... كيف يعود إلى بيت ينوء بالأعباء وكيف يضيف أنفاسه إلى بيت تتزاحم فيه الأنفاس... لم يكن هنالك مهرب من سماعه لكلمة " آسف " التي تقال قبل أن تغلق في وجهه الأبواب بوقاحة واستعلاء.... أو نظرة رثاء عاجز بعد طول الإهمال...

الموسم الجديد يزحف ملهوفا نحو أسابيعه الأخيرة... شيء في حياته لم يتغير ، في الموسم السابق والذي قبله كانت ذات الصورة تتكرر... الوعود... أصبح لا يصدق الوعود فلطالما خيبوا أمله فيهم... كل الوعود تنتهي

بأدوار هزيلة... أكثرها خرساء... مخزية ، عيون الجمهور تحرقه وتستهجن صمته المفروض الطويل المدى... ألف مرة سألته العيون إن كان لسانه مقطوعا... بل إنه عرف أخيرا من أحد الرواد أن هناك إشاعة تقول : أنه أخرس... وأن هناك اسما أطلقوه عليه من باب التريقة (الممثل الأخرس) لم يكن مقطوع اللسان كل ما هنالك أنهم كمموه بكمامة غير مرئية... ولن ينسى الدور الأخير القذر الذي أسندوه إليه... دور الأمبراطور الصامت... عبيده كانوا يتكلمون... والحاشية ، بل الأسرى وكل من دخل المسرح تكلم إلا هو... ظل طوال العرض مسنودا على كرسي العرش تماما مثل لوح خشبي عتيق... بدا كما لو كان رسما لا حياة فيه... وطاب للبعض أن يسخروا من صمته الممدود المضحك لكنه لم يتحرك... ود لو يقول الحقيقة... ود لو يعلق على الأحداث التي تجري أمامه... حقيقة أن الدور كان يتطلب إمبراطورا صامتا... مرسوما كلوح من الخشب بدون داع...

ود لو يقول للمخرج : أنه خريج معهد متخصص في إنتاج الشخصيات الحية المتحركة والمتكلمة... لكنه كان يعرف أن المخرج لا يجهل هذه الحقيقة... بل أنه همس له في ود مفتعل قبل بداية العرض الجديد :

– أبشر فسوف نسمح لك بالكلام... عليك فقــط أن تحفظ دور البواب في المسرحية الجديدة وتتقنه..

وبات ليلتها يحلم بدور بواب ثرثار يجلس على باب عمارة... تأكد أن دوره سيكون أساسيا عندما قالوا لــــه : أن أحداث المسرحية تدور أمام باب العمارة... في اليوم التالي راح يسألهم عن الدور.. اكتشف أنه مكــــون مــــن كلمات ثلاثة... يقولها مرة واحدة ويخرج... يتخلى عن عمله كبواب بمعنى أصـــح.. كيـــف ســـتدور أحـــداث المسرحية على باب العمارة في غياب البواب ؟... قـــال لنفسه... إن الصمت أفضل.. فلربما استطاع بالصمت أن يعاندهم ويؤكده وجوده كوجه يتنفس.. يعبـــر بـــالملامح وحدها وينال الاهتمام... عملها مرة وصفق له الجمهور كثيرا... كان وحيدا يومها علـــى المســـرح... غيـــر أن حركاته كانت معبرة عن الموقف.. وصفق له الجمهـــور

ليؤكد له أن الرواد ليسوا من السذاجة بحيث لا يفهمـــون ما يدور وما يبذل من جهود... بدا له أن الرواد يدركون ما يدور خلف الكواليس لكن إذا كان الجمهور يعرف ما يدور خلف الكواليس فلماذا لم يرفع صوته مطالبا برفـــع الكمامة عن فمه ؟....

دفعه زميل الزحام في قلب الترولـلـــي... وتحـــرك الترولي ببطء... لحظات لم يحسبها ثم توقف الترولـلـــي تماما... قال راكب يهم بالهبوط :

- أف انقطع التيار مرة أخرى...

قالها وأزاحه ليفسح له طريقا إلـــى البـــاب... فـــي لحظات معدودة كان كل الركاب قد تنازلوا عـــن أثمـــان تذاكرهم التي دفعوها وراحوا يبحثون عن وسيلة أخـــرى للمواصلات لا يحركها التيار الكهربي... فـــتش جيوبـــه وهو واثق من فراغها فلم يجد شيئا فقرر أن ينتظر مع السائق والكومساري في انتظار التيار... تأمـــل الســـائق الجالس إلى عجلة القيادة في صـــبر أيـــوب... صـــفارة الكومساري مهملة في يمينه.... كان هناك أكثـــر مـــن

ترللي معطل بسبب التيار... في كل دقيقة كان الطابور يزداد طولا.. تأمل "السنجة" التي ترتكز على الأسلاك الكهربية المتوازية على طول الطريق... سائق التروللي مستسلم تماما.... طريقه مرسوم الخطوات... الأسلامك تحدد مقدما خط سيره... سنجة التروللي مرفوعة إلى أعلى كما لو كانت يد مسلول أجرب يستجدى ليمارس الحركة والاستمرار...

في الموسم الماضي كان زميل الدراسة " يجعر " بأعلى صوته في عجرفة فوق خشبة المسرح... وكان الجمهور يتهامس استنكارا... وأحيانا يتضاحك ساخرا... وفي الموسم الماضي أيضا كتب أحد النقاد تحقيقا طويلا عريضا عن موهبة جديدة فذة اكتشفها مؤخرا عندما قرأ التحقيق عرف أن المقصود هو زميل المعهد... حاصرته صورة الزميل مرة أخرى وترددت في أذنيه أصداء حكمته الخالدة :

- ما عليك إلا أنت تختار أستاذك... تلبد تحت ابطه... بعدها يتكفل الأستاذ بعمل كل شيء من أجلك...

ضاق بجلسته المؤجلة إلى أجل غير مسمى في قلب تروللي محكومة عليه بالانتظار... هم بالنزول... التفت إليه السائق قائلا :

- انتظر معنا... فلست وحدك... هناك كما ترى طابور طويل ينتظر الفرج...

لم يفكر طويلا... فقد خاف من اللف في طرقات المدينة... جلس مرة أخرى... هز رأسه عندما تذكر كلمات أبيه التي قالها ناصحا له بعدم المغامرة بدخول هذا المعهد... تذكر أنه كان في كل مرة يستنكر جهوده المبذولة بغير نتيجة ملموسة أو محسوسة ، وخجله عندما رآه على المسرح كلوح خشبي لا يتحرك ولا يتكلم... والنكات تتوالى ساخرة من أفواه بعض الرواد... والسنوات الطويلة التي قضاها في ممارسة الدراسة التي أحبها ماثلة أمامه... وعندما دخل المعهد تأكد أنه سيخرج إلى خشبة المسرح ليمارس الكلام والحركة وينحني للجماهير التي تحس بجوده وتهون عليه مرارات السنوات الأولى...

لكن السنوات الثلاث التي فاتت كانت مريرة... أكثر من مريرة.... فقد عطلوه خلالها.... ومنحـــوه وعـــودا معسولة مكررة... كلمة "انتظر العرض القادم "... تلقى على صدره وتهون عليه رغم أنها تلقي على صدره في كل مرة كصخرة عملاقة من صخور جبـــل المقطـــم... تضغطه بقسوة ، تكاد تمزق قفصه الصدري المهدود... فقط لو كان يعرف السر ولمصلحة من أسكتوه ، لو كان لمصلحة زميل المعهد فهو متنازل عن حقه رغم الفروق الواضحة بين الممثل المصنوع والممثـــل الـــذي يعتـــز بقدراته قدر المستطاع... يعرف كل هذا ولكن... هنـــاك يد خفية تتابعه...

عيون الرجل المهم جدا كانت في المـــرة الأخيـــرة تشيعه بنظرة ارتياب مرتاحة... ومن سوادها خرج لسان ممطوط كلسان الحرباء... فقط لو يعرف لمصلحة مـــن كان الرجل ينظر إليه هذه النظرات ؟... وكيف حرمـــوه من الكلام فوق المسرح كما ينبغي ؟... كلامه واضـــح النبرات ولكم كرره خلف الكواليس... وصفق الزملاء له أيضا ولكن خلف الكواليس... ترى هل كانوا يمارســـون

خداعه بموجب اتفاق جماعي ؟.. لكـــنهم فـــي المعهـــد بشروه بمستقبل معقول.. ثم ما هي مصلحتهم الحقيقيـــة في خداعه طوال هذه السنوات ؟... لم يكن ميسورا حتى يلتمسوا من خيرا... ولماذا تساوره الشكوك في قدراتـــه ؟... أنه يعرف أصول عمله... علموه بما يكفـــي كيـــف يخرج الحروف من بين شـــفتيه بـــوعي... أن يتحـــرك باحكام ويعبر بدقـــة.. أن ينـــدمج مـــع الموقـــف بكـــل مشاعره.. ينسى واقعة ويعايش الشخصية التي يلعبها... ويضيف جديدا من عنده قدر المستطاع... يعرف كل هذا ولكن... هناك يد خفيفة تتابعه... تعطله وتضع كمامـــة غير مرئية فوق فمه، تتجاهله بوعي وهي تدرك حقيقته :

– يبدو أن أتباع الممثل الفهلوي مازالوا يســـيطرون على جزء كبير من خشبة المسرح...

قالها مشروع الشارب المعروق العنق يوما.

– كل شيء له أخر...

همس بها الكومساري الذي أحس بالقلق فزفـــر فـــي غيظ وسب التيار المقطوع ، كانت الحسرة تخـــرج مـــع

حروق السائق... كانت السيارات تمرق جـوار ه فتلقـي على صدره عبئا تماما كصخرة المقطـم التـي كـانوا يضعونها فوق صدره ليعطلوه ضاق بالجمود المفروض على السائق بينما أوتوبيسات الخط تتحرك وتتسابق نحو المحطة...

ربما وضعوك يوما في مكانك... مـا عليـك إلا أن تمارس محاولات جديدة فلربما يستطيع... لماذا لا يحاول ؟.. عليه فق أن يذهب إلى مسرح مجاور... ويسأل بصراحة ان كانوا على استعداد لرفع الكمامة عن فمه.. ومنحه الحق في الحركة... كل مـا علـيهم أن يرفعـوا الكمامـة.. بعـدها سيعبر.... ستخرج آلام السنوات الأخيرة في حركاته ونبراته ولن يتراجع... سيتحرك بحرية.... وهو كيف يتحرك... لن يقلد أحدا فهو لا يؤمن بالتقليد... في داخله إحساس خفي بأنه سينجح في أداء عمل ما... سيصل إلى الجماهير حتما ويعبر لها بوضوح... ولن يبتذل كما يبتذل الآخرون... فلـم تعـد الجماهير ترضى عن الحركات المبتذلة...

" لكن عليك أن تختار أستاذك... تلبد تحت ابطـه... بعدها يتكفل الأستاذ بعمل كل شيء من أجلك "...

معلون أبو الأستاذ الذي يمثل هذه المساومة... بصق على أرضية التروللي وقرر أن يقوم إلى الطريق... صهد الأسفلت يلفح وجهه المكدود المجهد... في أحد الميادين المجاورة وجد زحاما حول شيء ما.. اقترب ليرى جثة كلب مفعوص فوق أسفلت الطريق... دهمته سيارة على ما يبدو... التفت جموع المتسكعين حول الجثة.. مصمصوا الشفاة أسفا.. سحب عجوز مستهجن نفسه من دائرة الزحام... رفع كفه وقال :

- كلب ولا يسوى... لكن المتسكعين من حوله رفعوا سعره...

تراجع وفي داخله إحساس بالقرف... قرر أن يتخلص من منظر الكلب المدهوس الذي رآه عفوا فكر في بائع ليمون متجول ليعالج نفسه بامتصاص واحدة.. غير أن الميدان لم يكن يحوى بين عرباته الصغيرة واحدة ممن يبيعون الليمون..

سأله سائق التروللي عن سر الزحام فأشاح بوجهه وهو يهمس :

– كلب...

دق السائق كفا بكف وكأنما لم يقنعه الــرد المبتــور الذي قاله الأفندي ومضى يتأمل طابور الترولّلــي المســلول الأيدي الباحث عن تيار كهربي... وغــاص الأفنــدي فــي منحنيات المدينة.. وفي أعماقه حساس بعدم الاستعداد الكامل لدخول أي شارع مسدود أو زقاق... كوسيلة أخيرة لا مفــر منها للوصول إلى باب البيت العتيق.

يناير ١٩٦٦

الكرسي المهزوز

كان القرار قد اختمر في رأسي تماما... وكان علـــى أن أنفـــذه أو أن أواجـــه مشـــكلة خطيـــرة لا حيلـــة لـــي بعدها...معركة أخسرها وأخسر معها كل شيء... ولم أكـــن على استعداد واضح صريح مع نفسي للموافقة علـــى خلـــع رأسي العزيز... كنت أغوص في أعماق الدوامة... رغبـــة ذبيحة واردة مبتورة الطاقة... وألف ذراع تلتف حول الرأس وتحرمني من وضوح الرؤية... وعلماقان ماجنان يطنان في أذني... وصمم كثيب من نوع فريد يتهـــددني... وطاقـــات تتآمر على خلع رأسي... لكنـــى قاومـــت... وظللـــت فـــي عالمي... كنت أتمثل ملامح زوجة أبي... كانت تعربد فـــي جنبات الرأس بابتسامة عريضة شامتة.... لونها أصـــفر... وأسمع كلمات تقال ، على حين أن أذنـــى أبلـــي المتـــدليتين وسحنته المطرقة خجلا وأسفا ونظراته الباحثة فـــي زوايـــا كوب الشاي الداكن عن شيء معدوم يقال ، يداري به احساسا كئيبا يسحقه... وعجزه عن الكـــلام يعـــادل عجـــزه عـــن السكوت.. وكافح عجوز زيل من أجل غاية تتحطم وأمنيـــة تذوى ورأس عاش يكونه... لكنه طار... وشيء من الأســـى

وإيمان يتوه في غمرة المأساة... وصبر بلا معنى.. ومصير بلا شعاع...

تتابعت دقات المنبه تؤكد أن الدنيا تدور... واختمر في الرأس مشروع القرار...

قال الحمار المخطط بعد أن تشرفت بمعرفته بأسبوعين... " أنت عبيط.. ورأسك سر المشكلة... وأنفك الشامخ نكتة جديدة ماسخة.. وتصرفاتك مهزلة كفيلة بإضحاك ألف شارب "... قال ذلك ثم نفض عن بردعته الأنيقة المخططة المصنوعة من الصوف الإنجليزي المهرب بوسائل غير كريمة... نفض عنها ذرات الهواء... " ألف بردعة... لكنك حمار... لن تعدو رغبتك نهيا متصلا عاليا في ميدان متسع كمحاولة لإثبات حق مشكوك فيه في المكتب الفخم الضخم... والقلم الباركر المليء بحبر فاقع اللون لزوم التأشيرات... ومنظار سميك الإطار... وشارب حليق...".

قلت له في غمرة الصراع :

- أنت تمثال... صورة مرسومة على مكتب....

سعتها شخط في عنجهية نبلاء العصور الوسطى... شخط وثار ودب الأرض بساق قصيرة... لكن الأرض قاومت دقاته في عناد... فهدأت الساق... لكنه لم يهدأ... شتم السعاة... لعن سنسفيل أبو الدنيا بأسرها... بينما كنت أشعر في أعماقي بسعادة من نوع فريد... سعادة المؤمن الذي يحطم الأوثان... ويهتف من أعماق أعماقه " جاء الحق وزهق الباطل " غير أن الباطل الذي ظل حيالي راسخا كما كان... صامدا يتحدى إرادتي الهزيلة ويطالب بإرادة أخرى تدعم إرادتي.... وتحطم التمثال المبتسم دوما باعتزاز... المنتشي بصورة تغيظ... الفخور بألف بردعة وألف رباط عنق مستورد.. المرسوم فوق المكتب الفخم الضخم.. الباحث مشكلة هزيلة لينصب نفسه فيها قاضي قضاه... ويشير بإصبع الاتهام.. فيلمع على الفور خاتمه الياقوت... وتشرق أسنانه الناصعة أثرا ابتسامة مرتاحة يشفع بها قرار الاتهام... " ويجعر " بصوته الغليظ النبرات... " يجعجع " حول الموضوع ويسرد اللوائح والنظم والقوانين... وينشر الخوف والفزع حينما يردد باعتزاز منطوق اسمه الرهيب... يضخم حروفه ويشفعه " بالا أنا... فاهمين... إلا أنا"...

كدت ذات يوم أن أسأله عن نوع المعجـون الـذي يستخدمه في تبييض أسنانه لأنصحه باستخدامه في تنظيـف عقله.. لكنني خفت من محاضرة يلقيها بكبرياء مقرف عـن أنواع المعاجين.

لم أدخل كلية التجـارة... وأقطـع ذلـك المشـوار الطويل... وأسهر تلك الليالي الرطبة... لم أكن أعد نفسـي لمقابلة هذا الرجل... احصل علـى البكـالوريوس بدرجـة (جيد) ثم التقى بتلك التعقيدات السخيفة.. كنت أمنى نفسـي بمستقبل يختلف... علاقات على مستوى الفهم... وسقط ذلك الرجل في طريقي سدا يحول بيني وبـين مـا أرتجبـه... وأخرتها يطول لسانه :

" ملعون عبيد فرعون... فرعون بشر...

الناس بأيديهم جسدوه تمثال حجر...

لكن فجر...

والفجر من طبع البشر "...

مازلت أذكر تلك الكلمات... كتبها شاعر شعبي مغمور... لم أقتنع بها تماما يوم سمعتها... لكني حفظتها عن ظهر قلب...

الشهور الخمسة أطول من مدى احتمالي... ولا مفر من اتخاذ القرار، صدقت على مشروع القرار... لن أتجمد في مكاني... لن تهدر آدميتي وتنتهك كرامتي... قبول شيء من هذا أو أن أفقد رأسي إذا قاومت التيار الفظيع... خطواتي أمست مذهولة... مدفوعة بخبطة تمثال حجري بلا إحساس... لسان سليط على مستوى الحواري يلعن الأب والأم والأجداد... حاولت أن نام ظهر ذلك اليوم ، لكن أصداء صوته كانت تجلجل في فراغ الحجرة... وهمسات الزملاء الغبية الوجلة تتردد وتؤكد ضرورة حتمية عن وجوب اتخاذ القرار :

" معلش... البيه عصبي... اصبر... لا تصرخ... اذهب إليه وتأسف... أكل العيش عايزك تتحمل... دا يروح في داية... هي العين تعلى عن الحاجب... يا جماعة الميه عمرها ما تطلع العالي.... البيه قلبه أبيض بس عصبي... يبوس راسه... زي والدك برضه ".

صرخت في حدة وأنا أكفر بكل الوجوه من حولي :

- اخرجوا... والدي عمره ما كان قليل الأدب... أنتم عبـــي في عصر حرية.. أنتم كومبارس بدون مشـــاعر... هياكـــل تسند التمثال... تحركوا... تحركوا... إذا تحركتم سقط...

وظلت الأشـــداق فـــاغرة... والنظـــرات زائغـــة... والوجوه حائرة.. هربت من متابعة التأمـــل لموقـــف ســـلبي مستديم...

كان دقات المنبه تجلجل في جنبات الغرفـــة... أمـــا صوتي فقد كان يدوي للمرة الأولى... كنت أسمعه... كنـــت أتمثل الرجل حيالي... أراه وهو يتحرك بمنتهي الكبريـــاء... بالون فارغ يتعالى... كائن مجوف ينغث دخـــان الســـيجارة بعظمة إنسان... اسمعه وهو يخرج من بين شفتيه عبـــارات وقحة محفوظة اتضحت ملامحه في ركن غرفتـــي فرحـــت أصرخ :

- لعلك تحسبني دمية... عمياء الرغبة والفكـــرة.. تحكمهـــا أنت بتأشيرة... لا تصرخ أو فاصرخ ما استطاعت حنجرتك الغليظة الصراخ... ولتضرب الأرض بقـــدميك القصـــيرتين

السمينتين ولتبصق على الأرض ما وسع فمكن البصـــاق... وليتحرك الجمع من حولك في كل اتجاه... الحاشـــية الغبيـــة ذات الوجوه المصـــبوغة... وليسرســـع وكيلـــك المهـــزوز الجعجاع... وتنبح الكلاب... ويزحف عبيدك حاملين فـــوق أياديهم عرشك العتيق المسوس... وليتهامسوا... ثم أصـــرخ في الأرجاء كافة وأنت تشير نحوي وفـــي يمينـــي نصـــف سيجارة :

- هاتوه...

وهأنذا أقولها من جديد :

يا سعادة البيه... انت حمار كبير... أذناك الكبيرتان وأنفك الخرتيتية ولسانك الذي كلســـان الحيـــة.. ولكننـــى لا أخشاك... أتحداك أن تمسني بسوء أكثر مما كان... الشهور الخمسة الطويلة التي عشتها بين جدران قلعتـــك المحروســـة بالكلاب والصراصير... لكننى ما عدت أحتمل... دمي لـــن يراق... جثتي لن تتلاشى من الوجود... ولن تقطع لســـاني بتأشيرة من قلمك الفاقع المداد...

اسمع يا بيه... حاسب على أعصابك... فإن تحطم بقبضتك السمينة زجاج مكتبك العريض السميك.. أو أن تدير قرص تليفونك بعصبية... كل هذا لن يضير...

فطب الرجل الرابض حيالي ما بين حاجبيه... وضغط بصلف على الحروف :

- هاتوا كلاب الصيد... لا هاتوا الوكيل.. والصراصير...

وتمثلت الوكيل الكئيب السحنة.. الباهت النظرات... ترتعش أوصاله في حضرة الرجل العتيق... وهمهم بحروف مرعوشة :

- أفندم.... يا... يا بيه...

وأشار شبح الرجل نحوي ثم قال :

- انفوه... اختاروا له جزيرة حيث تلتقي السماء بالأرض... على شمال السماء واحفروا له قبرا عمقه ألف باع... وادفنوه حيا حيث لا يعود... وقبل أن تدفنوه اجلدوه... وهاتوا كلاب الصيد... تنهش جلده المجلود ألف سوط وسوط واقطعوا

لسانه الطويل... و..... و...... عذبوه.... وادفنـــوه حيـــث تلتقي السماء بالأرض ... ادفنوه بحيث لا يعود...

وتحرك الوكيل الكئيب السحنة... الباهت العينـــين... وتحركت الفلول... الناس والعقارب والصراصـــير... ودار الهمس هديرا حول مصيري المحتوم :

- مسكين... راح بلاش... طلع فيها... كرامة أيـــة وبتـــاع أية...

ودار رأسي وهم يذكرون كشفا بأسماء من ســـبقوني إلى شمال السماء بأمر البيه... ويحمدون الخالق على الســـتر وعدم الفضيحة... يشكرون ضعفهم وخوفهم... دار رأســـي دورات سريعة مجنونة ثم صفعني جدار الحجرة... وأعادتني دقات المنبه... ودوت في أركان الحجرة أصداء رنين المنبه تؤكد أن الدنيا تدور...

كان الزحام في التـــرام... كنـــت محشـــورا وســـط الجموع وكان في الرأس مشروع القرار.... وطنت في أذني كلمات :

- الدنيا تدور......

– المجد للإنسان.....

– تصدق طول عمري خباز... حياتي كلهـا عشـتها فـي المخابز.... أجي هنا يشغلوني على كيفهم... على مزاجهم... تصدق في مصنع ثلج... تجمدت... عملت لوح...

– أهرام... أخبار... جمهورية... أهرام...

المانشيت الأحمر في القمة وتأكد في الرأس القرار...

دخلت المصلحة... حجرة الرجل مضاءة... الضوء الأحمر على الباب كإشـارة مـرور... ممنـوع... فـردت العرضحال... وزحف قلمي على الفراغ وسـطرت خمـس كلمات ممدودة احتلت سطرا يتيما بلا مقـدمات... وتوقيـع متزن مرتاح...

كان الرجل قد انتهى من الاجتمـاع... دار رأسـي ودار الكرسي الهزاز وتحركت في الفم سيجارة مشـتغلة... لكنها محروقة... همست في صوت خافت للتمثال المجعوص على الكرسي الهزاز الثابت :

– الدنيا تدور... الدنيا تتطور... وعرشك مسوس الدعائم يا بيه... وعلاقتنا لا تعدو عرضحال... والأمر لله.. فلست كما

قلت بالأمس ابن كلب أو ابـــن... أو... أنـــا لســـوء الحـــظ إنسان....

أسقطت الورقــة المدموغــة القمــة فــوق زجــاج المكتب... لكن الرجل لم يتحرك... ظل جامدا... تذكر عامل مصنع الثلج الخباز... صرخت في وجــه الرجــل الجامــد الملامح المجعوص على الكرسي طالبا منه البصمة المطلوبة من قلمه الفاقع المداد...

أسعفني الساعي المهرول... أزاحني عن مكاني قبالة البيه... تبعه رجل معــروف الرقبــة.. أغيــر الســحنة... متعجرف النظرات...

- اتفضل يا دكتور... قالها الساعي...

تقدم الدكتور وتبعه الفلول... الناس والصراصير... والوكيل الكئيب السحنة الباهت النظرات... الوجوم يغلف الحجرة... وهمهمات :

- مسكين... مات علــى مكتبــه... دنيــا... أخرتهــا الموت... كان صعب قوي.. سكتة قلبية طبعــا... كلنــا لها.. ارتاح وريحنا...

تتحنح الطبيب :

- لسة فيه الروح...

شهق الوكيل... ورقصت حواجب الساعي... وزام صرصار... وانفرجت أسارير كائن حي... أما أنا فقد تركت القرار فوق زجاج المكتب في انتظار التوقيع... أو لا أدي فهذا يتوقف على موت الرجل أو حياته ومعلوماتي أنه كما قال الطبيب :

- لسه فيه الروح.....

مارس ١٩٦٦

عنق الزجاجة

أحد فوق ظهر السفينة لم يكن يدري إذا ما كان القبطان يفكر في تطهير السفينة وتحرير العبيد... أحد لم يكن بقادر على تأكيد ما يدور في رأس القبطان... فالصمت الذي غلف جنبات السفينة لم يكن ليوحي بما يعتمل في دماغه من أفكار... كان على السفينة أن تمضي قدما إلى الأمام أو أن تتراجع إلى حيث كانت كجريح محنى الهامة... تطوى رايتها التي عاشت

ترفرف شامخة معتزة بياضها فوق السارية العملاقـــة... ولكم بدا للقبطان أن مشوار العودة كئيب ممـــدود قـــاتم الخطوات...

كان ذلك في إحدى الأمسيات عندما هبطت العاصفة عاتية عملاقة... ترددت الهمسات لتؤكـــد أن الشـــيطان الذي أرسل العاصفة يقبع في واحد من أركان الســـفينة.. ولم يتمكن أحد البحارة من اكتشاف مكانه الذي أخـــرج منه اللعنات رياحا ساخطة...وبلا مقدمات تمايلت السفينة وتدحرج البحارة فوق سطحها تماما كما لو كانوا قطـــع شطرنج فوق رقعة ممدودة خصها الشـــيطان بلعنتـــه... عرف الحقيقة نفر قليل دوت من ناحية البحار القابع في برج المراقبة ضحكة ساخرة... ترددت أصـــداؤها فـــي جنبات السفينة ففكر جمع من المرتزقة والنبلاء في وسيلة للهرب.. تماسك القبطان وراح يلقي أوامره على قطـــع الشطرنج في محاولة للنفاذ من خلال المضيق... أســـرع بإمساك الدفة فخذلته قواه ، تلاعبت أمواج المحيط الثائر فتخبطت جموع البحارة فوق سطح السفينة....

تثاب البحار المعين في براج المراقبة... دقق النظر ليرى قرن الجبل البارز يغوص في جنـــب الســـفينة... تخيل السفينة وهي تختفي في جوف المحيط... تأكد مـــن أن برج المراقبة سيكون في القمة حتى ولـــو غاصـــت السفينة في الأعماق.. أشعل لفافـــة وراح يســـلى نفســـه بالنظر إلى قطع الشطرنج التي تتماسك وتسرع الخطـــى ناحية القطبان...

عبثا حاولا بعض الكهنة أن يرددوا أغنياتهم المقدسة وهمك يلتفون حول تمثال الإله الصامت.. التعاويذ أمست عاجزة عن تحقيق الخلاص والكلمات المقدسة تتســـاقط صرعى قبل أن تصل إلى أذنى الإله الرابض فوق سطح السفينة على هيئة عجل مقدس مصبوب من النحـــاس... كانت السفينة تتخبط عند مدخل المضيق... كانت أن تنفذ من خلاله إلى البحر الصغير الموصل إلى الشاطئ لولا أن هبت العاصفة التي حسبوا لها مقدما ألف حســـاب... اهتز كل شيء... حتى الإيمان بتمثـــال الإلـــه وكهنتـــه المزركشي الثياب والكلمات.

انهمك بعض البحارة القدامي في معالجـــة الجـــروح والكلمات... تظاهر البعض الآخر بالإغماء ، عجـــزت مجموعة البحارة الملتقين حول الدفة عن تحريكها ليتغير اتجاه السفينة...هدأت نوعا فهلل بعض البحارة... أحـــد منهم لم يعرف أن قرن الجبل البارز يغوص في جنـــب السفينة ، تجمد الموقف لحظـــات... مصـــمص بحـــار المراقبة شفيته ساخرا من الفرحة الحمقاء التي تســـربت إلى قلوب البحارة... تخيل منظر العبيد في قاع الســـفينة وهم يواجهون الموت غرقا بينما القيود الملفوفة حـــولهم تمنعهم من ممارسة الحركة بحرية تكفل لهم النجاة...

قهقهة بحار المراقبة فدوت ضـــحكته فـــي جنبـــات السفينة.... تسرب الشك إلى رأس القبطان فراح يرميـــه بنظرة غل حبيسة وهو يتـــابع إصـــدار الأوامـــر إلـــى مجموعة البحارة السخفاء... والذين يتظـــاهرون بـــآلام وهمية فرارا من بذل الجهد المطلـــوب... لـــم يتحـــرك الأشراف والنبلاء والمرتزقة إلى حيث أمرهم القبطان... راحوا يتابعون الجهود المبذولـــة بعيـــونهم فـــي تـــراخ كسول....

همس أحد البحارة في أذن القطبان بكلمات فــأطرق في يأس ميت وهو يسرع الخطى إلى جنب الســفينة... فاجأه قرن الجبل الذي اخترق الجدار ونفذ إلى صلبها... لم يكن مستحيلا أن ترتطم السفينة بقرن الجبل... كــان محسوبا بين الاحتمالات أن يحدث مــا حــدث... لكــن الزوبعة فاجأت البحارة فبدوا كما كانوا يواجهون خطــرا غير محسوب الاحتمال... تابعت المجموع المتكاسلة مــا يجري من جهود فوق سطح السفينة فامنعوا في التظاهر ببعض الآلام...

تسربت إلى قلب القبطان قطــرات اليــأس فكــادت تسحقه... ضغط الغيظ فوق مراراته فكادت تنفجر... ود للحظة عابرة أن يترك السفينة ليواجه بحارتها بأنفســهم مصيرهم المحتوم... فأما المضي إلى المضيق أو العودة إلى المخدولة الخطوات... قهقهة البحار القابع في بــرج المراقبة فجلجل صوته كمعتــوه أطــرش فــي فــراغ المحيط... ومن جديد تحركت الأمواج... اهتزت السفينة هزات عنيفة.. كادت المياه أن تنفذ من خلال السور إلى سطحها... كان جوفها يصب الماء من خلال الهوة التــي

تسبب فيها قرن الجبل...حسب البعض أن روح الشيطان تتابع السفينة من مكان خفي في أحد أركانها... انصبت لعنان الشيطان على السفينة ساخرة من إله البحار...

انسابت إلى فكر الشيطان في لحظة عابرة صورة العبيد في قاع السفينة فقهقة ساخرا من القبطان... أفاق القبطان فراح يتذكر طوابير العبيد والوسيلة التي يمكن بها انقاذهم من الغرق في القاع... لم تكن السفينة في تلك الظروف في حاجة إلى صفوف المجدفين... كان في جنبها ثقب رهيب يحتاج إلى إصلاح... كان في جوفها مقدار هائل من المياه يحتاج إلى أيد نشطة تنزحه إلى المحيط... كانت الدفة هي الأخرى عنيدة متمردة تسخر من كل المحاولات المبذولة لتحريكها... اتضح للبحارة أنها في حاجة إلى جهود أكثر... في ذات اللحظات التي فكر فيها القبطان والبحارة في فلول العبيد تحركت الدفة بغير عناء... تحركت بنعومة إلى حيث شاء القبطان فأصبح من اليسير أن يديرها بمفرده... انطلقت مجموعة من البحارة تفك قيود العبيد فحشر نفسه مكان الهوة الهائلة في جنب السفينة ريثما يتم ترميمها.. تكاتف

الأيدي لتمارس عملية نزح المياه التي تسربت إلى قلب السفينة...

تمردت جموع المرتزقة والنبلاء على الطريقة التي تحول بها العبيد إلى بحارة... انضم إليهم البحارة الذين كانوا يتظاهرون ببعض الآلام الوهمية فتسابقوا إلى قارب النجاة الوحيد... أنزلوا القارب على عرض المحيط وتزاحموا فوقه وفي رأس أحدهم خطة للهرب... تأمل القبطان وبحارته فلول الهاربين... شيع القارب بنظرة مغلولة وهو يزحف في اطمئنان وثقة في عكس اتجاه المضيق...

تساءل واحد من عبيد القاع الملتفين حول القبطان... ذا كان تقليدا لا يمكن الخروج عليه أن يزوغ البحار من وجه الخطر بغير اعتراض... غمز زميله بطرف عينــه طالبا منه السكوت... حارت في رأس القبطان مجموعة من الأفكار....

" إذا كان الهروب مباحا في كل الظروف فلســوف يتسيد البحار السبعة ظل الشيطان"...

قال بحار قديم وهو يعبث بلحيته :

" امنحني كأسا... دعني أسكر... أتطــوح... أغفــو لحظة فالآلام يمزق أحشائي ، ويسحقي..."...

تكلم شاب مقطب الجبين في حسرة :

" فليهرب كل النــبلاء والمرتزقــة... ليقهقــه منــا منتصرا صوت الشيطان"...

وقهقه الشيطان ساخرا من بحارة السفينة....

تداخلت مجموعات من الكلمات المحمومة فوق سطح السفينة :

" هاتوا كبير الكهنة لنسأله...خففوا حمولة السفينة في أقر وقت... خلصوها من العفونة والأشياء الزائدة عن الحاجة... السحب تنذر بعاصفة أعتى... شحنة الخنازير تأخذ حيزا كبيرا على سطح السفينة... القوا ببراميل الخمر المعتقة في عرض المحيط "...

اجتمع الكهنة على سطح السفينة في ثيابهم الفضفاضة وشرعوا مرة أخرى في ترديد التعاويذ والأناشيد المقدسة طالبين من إله البحار عفوا... أسكتهم واحدا من العبيد وأشار إلى تمثال الإله الصامت ليؤكد أن اللغة المقدسة أمست عاجزة عن تخليص السفينة... استشهد بجمود التمثال...

طالب أحدهم بالتخلص من تمثال الإله الصامت والرابض على سطح السفينة على هيئة عجل مقدس... لوى كبير الكهنة بوزه معلنا أن صاحب الفكرة ملعون... وعميل للشيطان... كان على جبين العجل المقدس إطارا منفصلا من النحاس يغوص في تجويفه خاصة فوق الجبة... كان الإطار النحاسي يأخذ شكل قرص الشمس المقدسة ، اقترح عميل الشيطان الملعون باستخدامها في

سدد الثقب ليخلص زملاءه الــذين ضـــحوا بـــأرواحهم ليمنعوا الهوة من دفع المزيد من المياه... تراجـــع أحـــد الكهنة وكرر الاتهام ، طالب كبير الكهنة بدم العبد الذي تطاول على الإله... أحد من البحارة لـــم يتحـــرك مـــن مكانه... زمجر كبير الكهنة وصب على السفينة مجموعة من اللعنات... ضايقه الإصرار المتحفـــز فـــي عيـــون البحارة والعبيد... لعب في عبه فأر منجوس.. خاف أن يتخلص البحارة من تمثال النحاس بما يحويه جوفه مـــن كنوز الإله... نفذ الشيطان إلى عقلة فوسوس له بأن أحدا منهم حرك قرص الشمس المقدسة وعرف مكان الكنز ، خطف أحدهم الإطار وأسرع إلى قاع السفينة من بعـــض العبيد لسد الثقب لكنه لم يعرف سر التمثـــال... تعجـــب بعض البحارة وهم يتابعون بعيونهم كبير الكهنـــة الـــذي اعتلى رأس الإله وأخفى مجرى الإطار المقدس بثيابـــه المزركشة.. كانت ليلة باردة رطبـــة... كـــان الريـــاح تصفر.... لكن كبير الكهنة لم يتحرك رغم إلحاح العبيد والبحارة عليه بالنزول خوفا على صـــحته مـــن نزلـــة البرد... في الصباح كان الرجل قد مات قاعدا على رأس

العجل المقدس... حملوه من مكانه فعرفوا سر صـــموده الطويل... ألقى بحار عجوز بجثة الكاهن الأكبـــر فـــي عرض المحيط حركت جموع العبيد والبحارة تمثال الإله النحاسي من مكانه وشيعوه هو الآخر خلف كبير الكهنـــة إلى جوف المحيط....

أحس بعض الكهنة بالحرج فخلعوا ثيابهم الفضفاضة المزركشة وشاركوا البحارة والعبيد في إدارة السفينة...

لطم التاجر المرموق خديه وهو يرى شحنة الخنازير تتناقص وتغوص كما غاص الكاهن وتمثال الإله في قاع المحيط...

وأخيرا تحركت سفينة العبيد والبحارة بخطى وئيـــدة ناحية المضـــيق... أخيـــرا تماســـكت وخفـــت صـــوت الشيطان... وحول القبطان دفة الســـفينة إلـــى الاتجـــاه الصحيح... كادت السفينة أن تنفذ من خلال المضيق إلى البحر الصغير الموصل إلى الشـــاطئ.. خـــاف بحـــار المراقبة من غضبة العبيد فألقى بثقله إلى حيث غاصـــت شحنة الخنازير...

لم يعد على سـطح السـفينة عبـد وبحـار ونبيـل وكاهن... كان على سطح السفينة خليـة مـن الرجـال تتكاتف لصنع المستحيل... لم تعد هنالك أوامر تلقى على العبيد فكل منهم كان يعرف تماما ما هو مطلوب منه...

مرة أخرى دوت ضحكة الشيطان... تسـربت إلـى أنوف البحارة رائحة الخنازير النتنـة... حـط ركـاب السفينة أصابعهم على طاقات أنوفهم... فوجئوا بقـارب النجاة يقترب من السفينة ويزاحمها في مدخل المضيق... وفي سرعة لقي القارب بالحبـال إلـى سـور السـفينة وأسرعوا في الصعود إلى السـطح محملـين برائحـة الخنزاير.... حمل النبلاء الهاربين شحنة الخنازير إلـى سطح السفينة.. وبمنتهي الإطمئنان شـرعوا يوسـعون مكانا على السطح من أجلها.... ازدحم السـطح فأشـار بحار قديم من بين العائدين إلى العبيد طالبا منهم الرجوع إلى القاع ،غلا... لوح لهم بسيفه المسلول... أكد لهم أن السفينة تحتاج إلى طوابير من المجدفين...

تسلق بحار عائد سارية السفينة في طريقه إلى بـرج المراقبة... اقترح أخر أن يتحرك بعض العبيـد لصـنع

تمثال للإله من دقيق الخبز المخزون... تمايلت السفينة من جديد وقهقهة الشيطان... ساد صمت مقيت في جنبات السفينة وبدا على وجوه العبيد كما لو كانوا على استعداد للنضال من أجل البقاء فوق السطح وعدم العودة إلى القاع...

كان الجواب الأخير عند القبطان...

طلب واحد من بحارة السفينة القدامى من القبطان أن تتمرد السفينة على وصايا إله البحار... انسل واحد من كهنتها القدامى من بين الجموع محذرا من لعنة الشياطين أن هم تمردوا على إله البحار... تبعه صف طويل من الكهنة...

تساءل واحد ممن كانوا عبيدا في القاع أن كان رب البحار يسمح للهاربين من وجه الخطر أن يعودوا إلى حيث كانوا عندما تستقر الأمور...

قال بحار متحمس : إنها آلت إلى من كانوا بالأمس عبيدا وأنها لن تعود...

لكن أحد لم يكن يدري ما إذا كان القبطان قد حــزم أمره ليطهر السفينة ويحرر العبيد ، أحدا منهم لم يكــن بقادر على تأكيد ما كان يدور في رأس القبطان ، وغلف الصمت الممدود جنبات السفينة... كان عليها أن تمضي على المضيق بعد أن تتخلص من كل ما هو زائــد عــن الحاجة من الأشياء... أو أن تعود إلــى حيــث كانــت كجريح محني الهامة... تطوي رايتهــا التــي عاشــت ترفرف شامخة معتزة ببياضها فوق السارية العملاقة... ولقد بدا للبحارة والعبيد مشوار العودة كئيبا ممدودا قــاتم الخطوات.. لكن البحار ذا اللحية كان يهمــس فــي أذن القبطان ببضع كلمات... تجمد الموقف بعدها ألف عام... ومازالت السفينة عند مدخل المضيق ومــازال القبطــان يفكر في طريقه إنسانية للخلاص...

يوليو ١٩٦٧

همسات الرجل الضئيل

ربما خدعتك الصورة فأخطأت في إدراك أبعادي... ربما تصورت أنني لا أملك غير ساق يتيمة.. رغم أنه سراب ذلك الذي تراه... فلي ساق أخرى... تلتف ساقي حول عود الحطب الناشف الذي أرتكز عليه.. يمكنك أن تتخيلها أو تتجاهلها لكنها موجودة في الجانب المقابل للعكاز... أنا نفسي لا أتباهي بها وهي تهتز كالأرجوحة فأتعمد أن خفيها رغم أنها ستؤكد لكل من يراني أنني أمتلك ساقا أخرى...

قطيع الذئاب نهش عظامي... هبشها من ثنايا جسدي قطعة قطعة... مزق المفاصل وخطف العظام... دمرها ولاكها وتاهت عظامي في أمعاء القطيع ، ثم ما لبثت أن تلاشت تماما خلال عملية الهضم... وزاغ القطيع.. كل ذئب في ركن وكر.. وتركوا وسط الميدان الكبير... أكبر ميدان في المدينة... أئن في صوت خافت هزيل.... وأتأوه في عجز وأبحث عن بقايا عظامي وأنا لا أستطيع الحركة... كنت أتمدد على ظهري وسط الميدان... قطعة من اللحم بلا عظام... ثوب ممزق بداخله هيكل إنسان...

كانت الحركة المعتادة قد بدأت في الظهــور ، ازدحــام البشر وجنــون المواصـــلات... ســباق الإنســان مــع الإنسان... بدأ الصراع ولمحت بين جموع البشر التـــي تسعى عيون ذكرتني بالقطيع... لم يكــن يتحــرك فـــي حطامي غير عينين استطعت أن أجول بهما في كل اتجاه استكشف عيون الذئاب التي استعارها البشر ليبدءوا بهــا من جديد بحثهم عن العظـــام... كـــان القطيـــع يـــدور ويدور... كنت أدرك أنهم يجيدون التخفي فـــي صــــور وملامح البشر... أدركت أنهم مازالوا يحومون حولي... يرقبونني في حقد ووحشية وأنا أتمـــدد وســـط الميـــدان مشلول الطاقة...

تجمعت عشرات العيون ترمقني في غير اكتراث ثم تمضي... ولكن بعض المتسكعين العـــاطلين فضـــلوا أن يمنعوا النظر في هيكلي المعدوم العظـــام... وجلجلـــت أصوات... وتردد الصدى ليدرك البعض أننـــي أحتـــل وسط الميدان... وأنني تسببت بوجودي في هذا المكـــان في تعطيل المواصلات... أسرع سائق التاكسي الشـــرس الطباع نحوي... نظر إلـــي فـــي حقـــد عجـــزت عـــن

مقاومته... أحيانا أعجز عن مقاومة النظـــرات الحاقـــدة عندما يزداد رصيدها من الأحقاد... نظرته أكدت لي أنه واحد من ذائب القطيع... طلب مني أن أفسح الطريق أو يدهسني بسيارته...

اقترب شاب قروي طيب الملامح ممزق الثياب مـــن سائق التاكسي الشرس الطباع... رجاه أن يكون رحيمـــا بحطامي العاجز المشلول... ولكن السائق طلب مني بعد أن أزاح القروي عن طريقه أن أتحرك حتى لا أتســـبب في تعطيل المواصلات... كنـــت لا أســـتطيع لحظتهـــا التحرك فقد كنت بلا دعائم... لم أكن أســـتطيع التململـــل بأي معنى من مكاني... ولذلك نظرت إليه بغير اهتمـــام قلت : إنه لو داسني بسيارته فسوف أستريح... تحديتـــه أن يستخدم السيارة في عبور جثتي إن كان يســـتطيع... ود لو يركلني ولكن الأنف الأحمر تـــدخل فـــي الوقـــت المناسب ، كان الأنف الأحمر يبرز في الوجه الأســـمر الدقيق الملامح وكان يبدو أن صاحب هذا الوجه إنسان ، اقترح الأنف الأحمر على الشاب القـــروي الطيـــب أن يعاونه في حملي بعيدا عن الزحـــام... صـــرخت مـــن

أعماقي رافضا هذا الاقتراح الذي ربما أنهـي أصـوات "الكلاكسات " التي تعوى فـي جنـون وتجلجـل فـي الميدان... لكنه سوف يجعلني أتوارى عن عيون النـاس كمشكلة تبحث عن حل سريع... فهمني صاحب الأنـف الأحمر ومضى في طريقه إلى عمله دون جدال...

كان قرص الشمس قد احتل وسط السـماء... كـان الجو حارا... خلع البعض سترته وخلع البعض الآخـر قميصه... واشتد حولي الزحـام... مئـات العيـون... آلاف... بل عشرات الآلاف ترمقني في غير اكتراث أو في رثاء صامت الهمسات... ثم تمضي لترمقني سـواها طوال النهار... كانت الوجوه تحيطني في شـكل دائـرة أخذت في الاتساع على مدى النهار الطويل... الوجـوه تتأمل والدائرة تتسع حتى شملت كل الميدان... وأصـبح من العسير أن أبدو للناظر واضحا كما يجب... أصبحت بعيدا عن عيون الناس نوعا... كانت التفاصيل تتـوارى فلا تحظى حكايتي بأكثر من تعليقات هزيلـة حمقـاء... كان يقف خلف كل وجه صف طويل يطل من الشـوارع الجانبية والعريضة التي تصب في الميـدان... لا أدرى

أيهم نظم السامر بهذه الطريقة البديعة... كنت أسمع همهمات الاستنكار تلسع الوجه الذي يحل عليه الدور ليراني ويتباطأ متجاهلا طابوره الطويل ويدور خارجا من محيط الدائرة ليفسح لسواه...

كان أحدهم يبحث في جيوزبه عن عود ثقاب ليشعل سيجارته الموضوعة في ركن فمه في عكس الاتجاه الصحيح... سمح لنفسه بدخول الدائرة والاقتراب مني ليسألني عن علبة الثقاب... بدت حركته مفتعلة.. تأكدت أنه يبحث عن المشاكل فهمست له أن يبتعد عني أو أن يغير وضع السيجارة في فمه.. رمقني بوجه غاضب وكرر السؤال وهو يضع يديه في جيوبه ، كان متوتر الأعصاب... لكنه كان قارح النظرات... تأكدت أنه واحد من القطيع الذي ساهم في هبش هيكلي العظمي حين لمحت في ركن فمه ذرات قليلة من العظام المهمشة الممضوغة... لعنته بحدة رغم أنني لم أكن بقادر على تحمل النتائج... كنت أشعر نحوه بالغل والمرارة التي يولدها العجز... كان الذئب ينوي أن يحرق ثيابي الممزقة بما يحويها من بقايا اللحم المتداخل ، بصق في

وجهي وأنا أتمدد عاجزا عن تلافي بصقته على مشـــهد من طوابير المشاهدين... استنكر البعض ما فعله.. لكـــن سرعان ما خدعتهم ابتسامته المروسومة بإتقان لتـــوحي للناظرين بأنه إنسان... صرخت من فوري محذرا مـــن تصديق الابتسامة ، لكـــن صـــراخي تـــاه فـــي دوامـــة الهمسات...

تدخل الشرطي الهزيل القـــوام... حـــاول أن يبـــدو صارما جافا ليتراجع الباحث عن المشاكل عن عنـــاده... أصر الذئب على أن يشعل ســيجارة أو يشـــعل الثـــوب الممزق الذي يحتويني... خاف الشـــرطي مـــن وقـــوع الحريق في منطقة اختصاصه... أخرج من جيب بنطلونه علبة ثقاب وطلب من الرجل الـــذئب أن يغيـــر وضـــع السيجارة إلى الوضع الصحيح... لكنه لوى بوزه وصفع الشرطي الهزيل بابتسامة استخفاف... بـــرزت لحظتهـــا أنيابه الزرقاء وبين كل الأنياب كانت تطل ذرات العظام الممضوغة.. صرخت في الشرطي طالبا منه أن يطلـــب رجال الحريق أو يقبض عليه... كان الرجل أسرع مـــن ذراعه الشرطي القصير... أشعل عود الثقاب وألقى بـــه

فوق ثيابي الممزقة التي تحتوى شريحة اللحم المشلولة الحركة...

أحسست بلسعات النار تسعى نحو جلدي في سرعة مذهلة... لم أكن أملك القدرة حتى على الصراخ... تراجعت كل الوجوه خوفا من النيران... أسرع الشرطي يبحث عن تليفون يبلغ من خلاله "رجال المطافئ" بحدوث الحريق.... تأ:دت أن الباحث عن عود الثقاب ليس إلا كبير الذئاب... فهو الوحيد الذي يعرف أنني كنت أغوص بالأمس في بركة البنزين... راح الذئب يرقبني في ارتياح وشماتة... ولمعت أنيابه...وتأكدت أنه سينهش أشلائي بعد تمام احتراقي...

جلجل الجرس من بعيد... أفسح الجمع الخائف من النار مكانا لرجال الإطفاء... سرعان ما فردوا خراطيم المياه... ومن كل اتجاه كان يبرز أحد الخراطيم ليصب ماءه المندفع بقسوة وقوة وعنف فوق أسمالي المحترقة وقطعة اللحم التي تتمدد بلا عظام أو دعائم... تمكن الرجال من إطفاء النيران في نصف ساعة... لفوا خراطيمهم وانسحبوا من الميدان لتحيطني الوجوه

المتطلعة من جديد... ظللــت ســاعات طويلــة محطــا للنظرات... جاء أحدهم بمنظاره السميك العدسات ورأسه المستدير... كان في يمينه كتاب مصــقول الغــلاف... انحنى ليتأكد من سلامة دقات قلبي... وأشار لرجلين كانا يتبعانه بحملي فوق نقالة...

أدركت بعد إغفاءه أنهم أخذوني وغيروا أســمالي... غيروا جلدي المحترق وبحثوا عن هيكل أخر من العظام عوضا عن عظام عظامي التي لاكتها الذئاب... عبر لي الرجل ذو المنظار السميك عن أسفه لعجزه التــام عــن إيجاد هيكل بنفس المقاييس.. أطرق لحظات وقام بعــدها وترك الحجرة... ثم عاد يحتضن حزمة من الحطــب... حطب القطن... ابتسم لي وهو يلقي بحملــه بجــانبي... قال : إنه سوف يصنع لي من أعواد الحطب هيكلا أعتمد عليه ويعوضني عن الهيكل العظمي الذي غــاص فــي أمعاء القطيع... سخرت منه ومن جنونه الذي يصور له أنه من الممكن أن يصنع لي من أعواد الحطــب هــيكلا أعتمد عليه في طريقي الممدود...

ظل الرجل قرابة الشهر يقلم أعواد الحطب بسكين حادة وأنا أرقبه في صمت الساخر اليائيس مقدما من معقولية التجربة.. ولكنه كان يعمل ليل نهار... كان ينظر في الكتاب المصقول الغلاف كلما أحس بالإجهاد... فاجأني بتركيب هيكل من أعواد الحطب... صرخت فيه حين اكتشفت أنه سوف يضغطني لو نجح إلى نصف طولي الحقيقي... ولكنه هون على الأمر وقال : إن المسألة ليست مسألة أطوال... فالمهم هو أن أمارس الحياة الطبيعية.. ثم أنه لا يستطيع أن يفعل لي أكثر من ذلك فحالتي هي الثانية من نوعها في تاريخ الطب البشري منذ بدء الخليقة... قال : إن الحالة الأولى فشلت لأن الطبيب الذي أجراها فقد عقله بعد إكمال الهيكل... وقبل غرسه في الجسد المسلوب العظام... همس قائلا : بأنه يملك نسخة وحيدة لا يعرف أي طبيب عنها شيئا ، تحوي تفاصيل الحالة التي سبق حالتي... وأشار إلى الكتاب المصقول الغلاف...

نظرت إلى هيكلي الجديد قبل أن يتخلل ثنايا جسدي قرثيت لحالي وأنا أعيش بهذا الهيكل المسخوط...

وقررت أن أحلق شاربي إذا نجحت التجربة كي أخـــدع الناس وأعيش بقايا أيامي طفـــلا ، كنـــت خـــلال تلـــك اللحظات التي اتخذت فيها هذا القرار ألعن القطيع... فقد ضايقني تماما أن أتصور وجهي بلا شارب... خـــدرني الرجل يوما استعدادا لإجراء العملية الخطيـــرة... حـــين فتحت عيني للمرة الأولى اكتشفت أن ذراعي يتحرك... وأنني أتقلب في ركن الفراش... هيكـــل طفـــل بوجـــه رجل... قفزت لأتأكد من أن أعواد الحطب قادرة علـــى حملي... اكتشفت أنني قادر على الرمح والحركة بحرية وانطلاق في حدود عودي الضئيل... درت فـــي أنحـــاء الحجرة أبحث عن موسى حلاقة... انفرج البـــاب عـــن وجه الرجل... راح يتأملني في اســـتخفاف واســـتهتار ، راح يتأملني باحتقار... كنت أتوقع شيئا غير ذلـــك مـــن الرجل الذي يرى انتصاره للمرة الأولى في تاريخ الطب البشري... الرجل الذي صنع هيكلا كاملا مـــن أعـــواد الحطب... ولكنه لم يكن يشعر نحوي بغير الاحتقار بـــل والشماتة.... قلت في عقلي : أنه يشفق علي من قصري

الزائد... لمحت في فمه ذرة وحيدة ممن بقايا عظـــام... دعكت عيني مكذبا ودرت خارجا لأبحث عن البيت...

لم يتعرف علـــى الجيـــران... حتـــى أبـــي وأمـــي العجوز... كلم أنكروني وقالوا : إن الشخص الذي انتحل شخصيته مات منذ شهر تقريبا وأنهم يستعدون لإحيـــاء ليلة الأربعين على روحه... عدت أدراجي ولـــم يحـــس بوجودي أي واحد ممن كنت أعرفهم... كنت أبحث عن موسى حلاقة... في الطريق وجد مجموعة من الصـــبية يلعبون الكرة... كانوا في حاجة إلى طفل يحـــرس لهـــم المرمى... ناداني أحدهم وطلب مني أن أشاركهم وأقف في المرمى الخالي... تجاهل شاربي... وقفت أنا الآخر بلا تردد وانهمكت في اللعب... كانت الكرة صـــغيرة... لم يدخل المرمى هدف واحد رغم أن حـــارس المرمـــى الآخر دخل مرماه أكثر من عشرة أهداف... تأكـــدت أن أحد الأطفال كان يرقبني باهتمام... كنت أحس بـــالحرج كلما التقت نظراتنا... كانت الكرة بين قدميه وكان يتجه نحو المرمى... مر من الدفاع بسهولة... أصبحت وحدي وجها لوجه مع الطفل الذي غلفت نظراته أحقاد لم أشهد

لها مثيلا من قبل... لم أشأ أن أفقد إعجاب الفريق الــذي أحرس مرماه... لم يكن يبحث عن الكرة...كان يبحــث عن ساقي اليسرى... داسها في عنف وأنا أحتوى الكرة بين أناملي... سمعت عود الحطب وهو يــتحطم داخــل ساقي... نظرت إلى الطفل فلمحت أنيابه زرقاء... ومن بين أنيابه برزت ذرات العظام... تأكــدت مــن وجــود منظار سميك فوق أنفه... ومن وجود كتــاب مصــقول الغلاف في جيبه... مددت يميني إلى ساعد الدفاع فــي فريقي أستعين به فتركني ومضى في أثــر الطفــل ذي المنظار...

وبعدها بحثت عن عكاز... أنط به إلى سلم الترام... وأحمل في يدي مجموعة من الأشياء المعروضة للبيع... لم أكن لأتسول... فقط كنت أبيع اللبان والسكر النبــاتي والنعناع ولم أفكر في البحث عن الرجــل ذي المنظــار السميك والكتاب المصقول الغلاف...

وأحيانا ألتقي ببعض الوجوه التي تــذكرني بعيــون القطيــع... وألمــح بــين أنيابهــا ذرات مــن العظــام الممضوغة... وكنت أكتفي بالاطمئنــان علــى أعــواد

الحطب التي أرتكز عليها... وأعرف أن في الميدان الكبير وافد جديد تلتف حوله العيون المتطلعة... وتدور من حوله مجموعة الذئاب... أولئك الذين أروغ من عيونهم الحاقدة التي يبدو لي أحيانا أنها تتابعنى في شماتة واستخفاف أو تحفز شيء حقود...

أكتوبر ١٩٦٤

مربع الامتهان المباح

ساعتها حاول أن يفسر الأمور فخيل إليه أن أعز الأشياء ضاع... فر من بين أنامله لا يدري كيف ، تسرب إلى الفراغ أو ذاب لا يدري متى.. في طريق عودته كانت الرؤيا تزداد قتامة وسخفا...

" قوديني يا أماه إلى وادي النور... قوديني حيث الفجر الأزلي يمهد للإنسان سبيل الرؤية خلف الكثبان الرملية بعد سراب السنوات... قوديني حيث المدن المزدهرة والآفاق الرحبة "..

ولكم كانت أمه تتأمله في صمت مشدوه أخرس... وكثيرا مات حيرتها نظراته المستغيثة الشاكية أحيانا ، والتي تتأبي وتتعالى أحيانا أخرى..

" لاشك أنني أشبه إلى حد كبير نخلة عقيمة مهجورة مهملة "

عندما فوجئ بوجه المرأة القديم المحترف يتسلل إلى عينيه فيخطفه من أفكاره... ليبحث في رأسه عن المكان والزمان الذي شافها فيه... وعندما تذكرها... تذكر على

وجه الخصوص جسدها المترهل مجردا من كل ما يستره...حاول للحظة أن يستعيد حيويته فابتسم بمثلها وهمت بالمسير... لكنه تقدم نحوها في خطى ماجنة الرغبات.. أدركت هي بغريزتها أنه يريدها... توقفت... همس في أذنها طالبا منها أن تتبعه... تدللت، ألح في مطلبه ساخرا بكلمات مفضوحة فجة... تمنعت... ولم يعد هنالك مفر من أن يتنازل عن لهجة الحاكم بأمره... راح يلاطفها للمرة الأولى :

- خمس دقائق... أؤكد لك فأنا وحدي.

تمردت تماما فبدأ يحايلها ويغريها بلغة الصياد المحنك.

- سأدفع مقدما..

أدارت الجسد الذي طالما احتواه وسارت في الاتجاه المعاكس لتؤكد إصرارها على الرفض ، تهاوى من مركز الصياد ليصبح متسولا مستكينا ومستعدا للدفع فورا... أن يبتذل الرجل لامرأة كان يرفضها بكبرياء ويغلق في أكثر المرات بابه في وجهها الباحث عن مأوى

"المأوى مشغول هذا المساء يا عزيزتي.. وربما يكـــون من الأجدى عودتك في صباح الغد " أني تهـــاوى حتـــى ليكاد يقبل يدها في عرض الطريق لقاء لحظـــة عربيـــدة تنسيه سخف موقف بعينه جاء في ختام مجموعـــة مـــن المواقف السخيفة المملة... لحظة كالتي ارتســـمت فـــي خياله وجردتها من ثيابها الرثة وفرشتها فـــوق الســـرير الخالي... لكنها ترفض... لا يدري لمـــاذا تلـــح علـــى الرفض كأنما تريد أن تمعن في إذلاله مرة... صـــرخت ثم راحت ترمح هربا ككل الأشياء تفر من بين أنامله... لقد افتقد حيويته بلا شك وبالتالي ثقته في نفسه..ز ربما.. ربما أيضا لم يكن هو "هو" لكل ذلك كان يطيب له فـــي الأيام الأخيرة أن يتأكد من ملامحه يمعـــن النظـــر فـــي المرأة ليطالع العود المحني والعنق النحيل النحيل كأنـــه خيط دوبارة... والوجه الحائر تتوسطه عدسات منظـــار سميك... والكف المرعوش وهو يمتد باللفافة إلى الشـــفاه المدمنة الباهتة... ومقدمة الرأس التـــي تعكـــس شـــعاع الشمس ولافتات النيون منذ تخلت عن الشـــعر فتخلـــى عنها... ويشك أن كان هو " ليس هو" فذلك المسخ شيء

آخر لا يخصه... يتزايد الشك فيصر على أنه برئ منكل الملامح التي يطالعها حياله... العود المحني والصلعة وعدسات المنظار والكف المرعوش والعنق النحيل... هذه أشياء لم تكن لتخصه يوما.. يذكر تماما أنه كان شيئا آخر... وإلى مدى قريب جدا كان شيئا آخر... فالمدى الزمني الذي تمت فيه كل هذه التغيرات محدود... ربما لا يتجاوز شهورا معدودة عاشها مغتربا هائما على وجهه... يحلو له أحيانا البحث عن كتاب بلا غلاف... أو طفل لم تلده أمه في مدينة معتمة بلا أضواء...

ربما كان يبحث عن وجه الحقيقة أو وجه الشيطان... فالشيطان مثل الحقيقة... ليست له ملامح مؤكدة... ترى هل يستطيع العثور على وجه الشيطان أو الحقيقة يوما... أم أنها أمنية أسطورية وحلم معتوه متعب.. لو أنه يبحث عن شيء محدد ، يمكن قياسه ووصفه لكان الأمر يسيرا... كل الأشياء الموصوفة موجودة... ما أن يدور بحثا عن شيء وهمي الصفات والمعالم فهو الأمر المضني حقا... والذي يشغل فكرة

أكثر ، ربما أكثر من عجائب الدنيا السبع... أنه مـــازال برغم كل شيء يتنفس ويتحرك.. لا يدري كيــف نفــذ بجلده من كف الموت العربيد... يوم حط قدمه اليســرى عند مدخل المدينة نذر روحه قربانا في أي وقت لعجلات المركبات المحمومة المتعجلة... وفي كل المرات التـــي دفعوه فيها دفعا للشجار كان يبــدي اســتعدادا خرافيــا للموت.. بل إنه كان في أحلامه يتمنى السقوط الســريع المباشر.. أما ذلك الموت البطيء الذي يتسلل خفية إلـــى كل مكوناته ليستلب عنصر الحياة من بعض الجزئيـــات في رتابة ونظام بعينه ، فهو الأمر البغيض المذهل..

وعندما تدور الأفكار المتشابكة كالعاصفة في دماغه يتساءل إن كان هو " ليس هو " وأنه أداة مسحورة تحمل في جوفها كائنا آخر غيره... وليتأكد من أنه يخرف وأنه واهم.. كان يدق رأسه في أي الجدران أو يــدكها فـــوق أرضية صلبة... ويصرخ في هوس معتوه مرهق :

– إنني لست غيري... أنا هـــو أنــــا " علـــى وجـــه اليقين... لكن لماذا أنا هو أنا... ؟ لماذا لا أكـــون شـــيئا آخر... ؟ رغيف في كف جائع بلا شـــهية ، أم لطفـــل

غريب لم يولد قط... أغنية على شفاه عذراء في أقصى شمال الشمال، لماذا لا أكون حلما... أو نخلة... تمام نخلة عقيمة مهملة.. مغروسة في صلب الأرض على أمل وحيد مضحك... أن تثمر في موسم الحصاد التالي"...

وعندما يعثر على نفسه بهذه الكيفية يستكين ويهمد... يرتاح ويهدأ.. قال لأمه مرة وكأنه يزيح عن صدره ثقلا مدمرا لحوحا :

– لست جبانا وإن كنت أخشى البقاء في عكس التيار العنيد... كل ما أخشاه هو أن تحطم الدوامات الرهيبة رأسي... أو تسلب منها أداة الفهم والإدراك... أو ربما وعلى أحسن الفروض تضللها وترسم لها واقعا مزخرفا كقناع البهلوان الذي " رأيناه يوما في الزقاق والذي كان يداري وجها مخطوفا تدب في أركانه صفرة الموت والإعياء "...

يومها تأمل وجه أمه الساكن فتأكد لديه... أن لأمه أذنا من طين وأخرى من عجين... ربما كانت بلا آذان

حقيقية... ربما كانت صورة الآذان على جانبي الوجه خدعة مقصودة... رسم زخرفي مزوق محكم التلوين.. كان يمني روحه بلحظة ارتياح بعد أن ألقى بمخاوفه للأذان الصماء وغاص في حضن فكرة طارئة..

- هي لعبة قديمة تعلمناها من الحمار العجوز المدهش في القرية القاتمة الجدران والوجوه التي عشنا سنوات العمر الأولى في طرقاتها...

كانت القرية كالمقبرة.. كانت وجوه الخلق فيها باهتة مجهدة... كأنما هي أشباح وهياكل تتنفس وتتحرك في آلية واستكانة خلف الدواب التي تقودها إلى مصير بعينه... أو تنحني في خضوع مستسلم بحثا عن نبات متسلط غريب في جوف الأرض السمراء... أو تهوى بالفأس في محاولة صامدة عنيفة لتحطيم كتل الطين المتماسك الجاف...

كانوا قد فكروا في استخدامه للمرة الأولى لنقل السماد من الزريبة إلى رأس الغيط... كان صغيرا ففكر في عنادهم... دفعوه دفعا ولكن في رقة إلى باب الدار..

كانت أمه بينهم بل كانت في مقدمتهم... كانوا يضحكون وهم يناوشونه بالكلمات :

- لقد أصبحت رجلا... ما عليك إلا أن تمضي خلف الحمار العجوز المدهش.. سوف يقود بكفاءة معروفة عنه إلى رأس الغيط... بعدها ترتاح ويتولى أبوك مهمة إنزال الحمل بينما تحصل أنت على بعض ثمار الجميز وتعود بحمل من الرماد والحصى...

كان الطريق إلى رأس الغيط طويلا... والحمار العجوز عنيدا... كان يحلو له أن يرمح بالحمل ويتمايل حتى ليكاد يسقط... كان يتباطأ استخفافا وعنادا حتى يسد الطريق الضيق فيحرم حمير الخلق من المرور وتبدأ المناحة.. نهيق شاك محتج على سلوك الحمار العجوز المدهش... كان عليه أن يمضي في أثره ويحاول قدر المستطاع أن ينظم خطواته تبعا لإرادة العجوز المدهش... كان الطريق ممدودا وساكنا في أكثر أجزائه... وتسربت إلى رأسه الصغير يومها حكاية سردوها مرارا على مسمع منه عن الجن الأحمر والمردة

والشياطين التي تطلع في عــز الظهــر... ولصــوص الطريق والقتلة...

"لو قادني الحمــار إلــى واحــد مــن اللصــوص لذبحوني... لو قادني إلى قاع البحر لأخــذتني الجنيــة وغاصت في الأعماق وتركت أمــي تبحــث عنــي... وعندما أعود إليها تضربني وتحرمني من طعــام يــوم كامل"...

- ما عليك إلا أن تمضــي خلــف ذيــل الحمــار المدهش..

وتتبع يومها ذيل الحمار في دأب... وعندما وصــل الحار إلى مكان ما توقف وأبى أن يتزحــزح... عبثــا حاول أن يثنيه عن عزمه ويعريه ليتحرك... لكه أصــر على موقفه... ومن بين أعواد الذرة خرج أبوه...لاطفــه وقاد الحمار وأفرغ الحمل وعاد ليملأ "الغبــيط" رمــادا وحصى واستدار الحار فاستدار معــه وعــاد مــن ذات الطريق... وأعجبه ذكاء الحمار وبعد بصره.. فتبعه في همة واعجاب... وتكرر مشوار الخروج والعودة... كان

أضحوكتهم يومها... ربما كان أضحوكة الحمار المدهش أيضا.

يذكر كل شيء... كيف عاد بأقدام متورمة ملتهبة... كيف حاول أن يلاعب أولاد عمه الكبار فعجز عن الحركة الطليقة المعتادة والماء الدافئ الذي وضعت به أمه أقدامه بعد أن أذابت فيه ملحا.. وراحت تدلك في عنف أماكن الألم... بينما راح يصرخ وإن كان الألم يتضاءل ويتراجع حيال سلطان النوم الذي شرع يغزو عيونه المتعبة لينام.

وفي الصباح دفعوه.. دفعته أمه على وجه الخصوص بينما كان يمنى روحه باللعب في صحن الدار مع الأولاد.. أمسك بجلباب أمه فاستخلصته وقالت قبل القائلين :

- عيب... لقد أصبحت رجلا...

ومن جديد وجد نفسه وحيدا مع الحمار العجوز الماكر الذي لم يدع له فرصة الإلحاح ليسمحوا له بالعودة... قاده إلى نفس الطريق... تعثرت أقدامه في

حفرة لكن العجوز المدهش لم يراع أصول الصحبة... مضى تاركا خلفه صاحب الجلباب القديم المعفر وهو ينفض عنه التراب... ومرة أخرى أسرع الحمار الخطى فكان عليه أن يرمح... فكر في إمساكه مثل الكبار فعجز عن السيطرة على الحبل الملفوف حول عنقه.. تعلق في الذيل فرفسه العجوز المدهش وبرطع فسقط حمله... قام للمرة الثانية يمسح عن جلبابه روث البهيمة العالق بها.. ويفرك كفيه الصغيرين... ودوت في جنبات الحقوق ضحكات الرجال والنسوة.. متسائلة عن الصغير الخائب الذي عينوه تابعا لذيل الحمار العنيد المدهش... توقف للحظة وشيع الحمار الذي انطلق في اتجاه الغيط بنظرة على عاجز.... تمادوا في الضحكات وسألوه وهو يعود أدراجه في عكس الاتجاه الذي اختاره الحمار عن اسم أمه فلم يجبهم... تطوع أحدهم بذكر اسمها... ثرثروا بكلام كثير عنها... لم يكن يعرف أن لأمه كل هذه الأهمية والشهرة في عقول الرجال ، تضاحكوا بينما هو يبتعد في طريق العودة.... وعندما طرق الباب سألته أمه

عن الحمار فأطرق خجلا وأشار إلى بقايا روث البهيمة العالق بجلبابه...

فهمت كل ما جرى قبل أن يتكلم... كانت أيامها تفهم وتسمع بوضوح... قالت في ود :"

- هات الحمار العجوز وارجع....

كانت حكاية سخيفة وإن كان لا يدري سر اهتمامه المفاجئ بها.. لقد قال لأمه مؤخرا كلاما لم تسمعه... كان يهم بسرد حكايته مع البنت التي رحلت.. لو كان للآذان حقيقة القدرة على الاستماع والفهم لحكى لها عن البنت التي ظل يهواها لسنوات خمس... كيف راحت تهمس بكلمات الوداع لا يدري إن كانت محزونة أم مستبشرة... آسفة أو متشفية.. متعاطفة أم حاقدة... مهزوزة أم واثقة.... ؟ كل ما كان يحسه إزاءها مزيج من الأسف والرهبة والأسى والرجاء... مزيج متشابك من عديد من المشاعر.. ربما كان بينها الحزن العميق ممزوجا بالفرحة وهمسات خالصة تبارك خطاها.. ورغبته في استعادتها بعد أن أيقن أنه سوف يفتقدها ربما

إلى الأبد تتساوى مع رغبته في دفعها إلى قلب البـــاخرة التي تطلق صفارة الإنذار للمودعين كأنها صـــرخة ألـــم عميق أو ضحكة انتصار ساخر... لكم يكن ليعرف مـــن أمره إلا أن مشاعره تتماوج وتتشابك وتختلط ، ود لـــو سألها قبل الرحيل وصية... في مثل هذه اللحظة إعلانـــا عن الخوف والضعف الذي جربه يوم أمسك بجلباب أمه راجيا ألا يعود إلى مشوار الغـــيط فـــي أثـــر الحمـــار العجوز.. ولكم حاول جهده في اللحظات الأخيرة أن يبدو في نظرها لا معنيا بشيء كرجـــل صـــلب مـــدرك لا يهتم...

شد على يدها واستدار في آلية.. في أثر واحد مـــن المودعين ، وعندما استدار الرجل الذي اختاره ليتبعه كاد أن يستدير مثله تماما مثلما كان يستدير فـــي أثـــر ذيـــل حمارهم الشهير... ود لو يطالعها بنظرة أخيرة مودعة.. لكنه تذكر أمرا فقرر أن يمضي حقيقة أنه كاد يتعثر أثر التفاف قدميه وبقاء رأسه في نفس الاتجاه السابق.. لكنه لم يسقط... اهتز حقا لكنه ظل واقفا... جر أقدامه غصبا إلى طريق العودة.. وفي طريق العودة كان يسترجع كل

شيء... تاريخ اللقاء ولحظة الوداع... كلماتها التي أوحت إليه بعشرات الأفكار...

- ناقش الأمور مع روحك بالعقل وحده وبوضوح... وأراهنك أنك لن تصل إلى غير ما وصلت إليه... ساعتها ستحاول أن ترسم لحياتك صورة أخرى... وسوف تحترم آلامك وجهودك من أجل إكمال ملامحها كما يروق لك...

لو كان لأمه آذانا مرهفة لحكى لها عن محبوبته الغريبة الأطوار...

قالت له البنية في اللقاء الأخير قبل الوداع...

- وداعا فسوف أرحل إلى مدينة أخرى خلف البحر العريض...

قال لها في اندهاش :

- قولي إلى اللقاء فربما التقينا بعد حين...

هزت الرأس الصغيرة حسرة... وكررت قولها في صوت خافت متأكد...كان قد سألها قبلا عن سر ربتها

في الرحيل وعما إذا كانت قد ضاقت بعشرته... فهمست في صوت رقيق متعاطف :

- إذا كنت ستظن أنني هجرتك فأنت واهم...

نفذت نظراتها من خـــلال عدســـاتها منظـــاره إلـــى عينيه... غاليت شبه دمعة متمردة... حبستها رغما عنها وطالعت عينيه في إشفاق.. حاول أن يفهم سر رحيلهـــا المفاجئ... استعرض للحظة كل مواقفهـــا منـــه خـــلال السنوات الخمس التي عرفها فيهـــا.. طيبـــة ورقيقـــة... لماحة لكنها عصبية وكثيرا ما كان يحلـــو لهـــا النقـــاش والشجار...

عندما كلمها عن الغربة التي يعيشها في المدينة الصغيرة المحمومة الأنفاس والصراع... قالت في هدوء...

- من أعجب الأمور يا عزيزي أن يعيش الإنسان غريبا في حضن أمه...

ويوم كلمها عن جيوبه الخاوية قالت في حماس المجرب وسخطه :

- أنت وافد جديد... ولو أمعنت نظرك واكتشفت إلى أي مدى تتمايز الأحياء والملامح والثياب... فسوف أحكي لك مزيدا من التفاصيل عن أحياء مجدبة لم ترها... وأخرى مشرقة متراقصة في الركن المقابل.

قال وكأنه أبله يفسر العالم :

- ربما كانت هذه هي طبيعة الأشياء.

صرخت في وجهه وكأنما لدغها بلسان حية مسموم :

- أنت أضحوكة...

وكان يريدها برغم لسانها السليط أحيانا... ربما كان يهواها حقا... ود لو أحاطها بذراعيه واحتواها... وأكثر من هذا لو أنهما ذابا في كيان واحد.. تداخلا وامتزجا.... وسارا على قدمين وفكرا بدماغ واحد... وتكلما بلسان بدلا من لسانين أحدهما في أكثر الأحيان عاجز...

كان يشعر إزاءها بالعجز والقصور وأحيانا بالإزدراء والرثاء... ولكم قابل نظراتها الغامضة

وكلماتها المنظمة والهادئة بالسعي الدءوب والتأمل... قال لنفسه وهو يستخلص شيئا من خلال واقعة :

– البنت التي كنت أهواها فرت من بين أنــاملي... طارت... لا أدري كيف... كانت قد علمتنـــي يومـــا أن أختلف معها وأصمد... أن أتعلم العناد... ولقد استوعبت الدرس فعلا... وسأظل مزروعا في نفس المكـــان فـــي محاولة انتحارية بلهاء... تمامـــا مثـــل نخلـــة عقيمـــة مهجورة... تحلم بالرعاية والسقيا بعد طول الإهمـــال... لتثمر في موسم الحصاد التالي.

أكتوبر ١٩٦٨

عبد العظيم أغا

كاد عقب اللفافة الأخيرة أن يحتـــرق.... الأنفـــاس تخرج من بين طاقتي الأنف محمومة ساخنة... ســـفرت في الفراغ رياح رطبة... نفذت برودتهـــا مـــن صـــلب الزجاج وعبرت الجدران وحومت حوله سافرة... لبـــدت الرطوبة في الأطراف فجمدتها... تحرك الأسطى مجاهد حركة مبتورة فبدا جسمه مهدودا مشلول الطاقة...

تعثرت دقات المنبه الرتيبة... ذابت في صفير الرياح الرطب الممدود ونباح الكلاب المجنون... قام من رقدته كمن لدغته حية... فرك عينيه في سأم مقيـــت... قـــال لنفسه وهو جالس على طرف السرير :

– لعلها مسعورة هذه الكلاب...

كان سلطان النوم قد أفلح في الزوغان مـــن مآقيـــه المجهدة... سلطان عنيد... رأسه وألف سيف أن يتـــابع المنبه دقاته الرتيبة بصوت مسموع... أمـــا أن يستســـلم وسط الجمود فهو المستحيل... ولا يهم إذا كان الأسطى مجاهد لم يعرف للنوم طعما منذ شـــهر أو حتـــى منـــذ

عام... كان من الضروري أن يكون هناك ما يؤكد لـه استمرار الحركة... غير أن الرطوبة كانت قد تسللت إلى تروس المنبه هي الأخرى فعطلتها عن العمل... ساد في أنحاء الحجرة صفير الرياح المتداخل مع نباح الكلاب المجنونة... كان مساء الأمس أكثر صفيرا لكنه لم يكن رطبا...

قال لنفسه وهو يدلك بإحدى يديه أصابع اليد الأخرى...

لست عبيطا أو أي شيء من هذا القبيل... أنا أعرف أنهم عملوها وبرطعوا في جنبات المصنع ليعلنوا أن ملاحظ الإنتاج مهمل وعاجز عن الاستمرار في ملاحظة العمال... أعرفهم بالواحد... أولئك الذين برطعوا في أركان المصنع شامخي الأنوف... مدير الإنتاج نفسه قالها لي في شتاء العام الماضي... قال : إنهم لن يترددوا في عمل أي شيء إذا سنحت لهم الفرصة... قال : إنهم لو غلوا فسوف يخرج غلهم مكشوفا سافرا.

حقيقة إن العمال أفلحوا في إطفاء النيران... حقيقة أن أنابيب الحريق أصبحت تحتل الأركان كافة بحيث يصبح من اليسير استخدامها في مقاومة النيران بسرعة معقولة وحتى لو كانت خسارة المصنع فادحة فإنه من الممكن أن يتابع الرجال جهودهم لتعويض ما كان من أمر الحريق... الذي يغيظ حقا هو أن وراءه يد خفية... بصماتها واضحة مغلولة... الذي يغيظ أن هناك بعض العيون المنشفية والألسنة الساخرة التي تعمل في قسم الإنتاج... وفي الإدارة...

ويغوص الأسطى مجاهد في أعماق اللحظات الكئيبة... ويتراءى له مشهد الرجال ، ونظرة الفزع المرعوبة تطل من العيون... ألسنة النيران تلقى على الوجوه ضوءا سخيفا أحمق.. الحركة الموتورة تتزاحم حول ركن المصنع الذي حاصرته النيران... وعيون تدمع ربما لأنها كانت مخنوقة بخيوط الدخان... وربما أسفا حائرا مودعا لجدران الركن التي تصرها ألسنة النيران... كان الصهد يلفح الوجوه وقطرات المياه تنساب من الخراطيم والجرادل تتحول في لمح البصر

إلى بخار كثيف ساخن... والمادة الرغوية التي تزحف من خراطيم الأنابيب تتلاشى وتذوب... الخطى تتعثر... والكلمات تتداخل... جدار الضباب يخفى عن عيون الرجال معالم الآلات فتحترق القلوب بنفس النيران عجزا وغلا.

شيء في الجدران كان مقدسا وحبيبا واحترق... حتى دوائر السواد التي كانت تغطى الأركان... حتى طبقات الصدأ النابتة في زوايا الآلات... وبقع الزيت والشحم التي كانت تلبد في عناد عجوز متمسك بالحياة فوق بلاط الركن... وكل شيء ضاع كان له في قلوب الرجال نس الأثر الناتج عن فقدان الابن الطفل الباسم الثغر الحبيب....

ساعتها اندفع الأسطى مجاهد فاقتحم النيران وسط الصرخة الرهيبة المفزوعة الخائفة وكلمات التحذير... ذات الكلمات... صهرتها ألسنة النيران التي بدت حياله كمارد شيطاني أهوج يمد نحوه ألف لسان عنيد جائع يهم بابتلاعه... كان في رأسه ساعتها إصرار مستميت له في

الحق طعم التحدي... شيء كان يستشعره أحيانا عندما كان يواجه الأستاذ عبد العظيم.

سرح خياله فبدأ له وجه الأستاذ عبد العظيم الثعلبي النظرات يتراقص حياله ليؤكد له أنه بهلوان قديم متقلب الأهواء... نظراته النهمة المغلولة وابتسامته المفاجئة تضفي عليه مظهرا مناسبا لألوان أنف الأستاذ عبد العظيم يتلون بشكل ملحوظ... اعتقد الأسطى مجاهد في إحدى المرات أن الأستاذ عبد العظيم يستطيع أن يغير لون جلده ليتلاءم مع ألوان ثيابه التي ينتقيها ببراعة خبير متخصص في اختيار الألوان الملعلعة التي تتناسب مع الظروف...

تصور مكتب السيد عبد العظيم واللافتة الضخمة التي تقول : إن القناعة كنز لا يفنى والعبارات الصارخة فوق لوحات المكتب توحي بالنزاهة... ومن بين أنيابه تخرج الكلمات ممطوطة متوعدة... كل من يعطل الإنتاج يفصل... كل من يتكاسل يجازى... أنتم جهلة...

قال لنفسه وهو يتابع بكفه تدليك القدم اليسرى التي زحفت الرطوبة إلى كعبها... يبدو أنه كان هزيلا وترهل... لظلظ... يبدو أن صوته كان خافتا وازدادت حنجرته ضخامة فأصبحت كلماته أكثر غلظة... مجرد تغييرات مظهرية بسيطة تتناسب مع الوضيع الحازم والمركز الخطير... عضو مجلس الإدارة المنتدب...

يبدو أن المنتدب هذه أصبحت موضة... في إحدى المرات شاهد الأسطى مجاهد فيلما أمريكيا... كان في الفيلم بطل مهم... مهم جدا ومنتدب أيضا.. رجل أعمال مشغول دائما... تماما مثل إلياي... جنتلمان حقيقي... ماله بالسينما ؟... المهم أن المدينة مزدحمة بمئات المنتدبين من أمثال الأستاذ عبد العظيم... فهو الآخر منتدب في أربعة مراكز حساسة ومحترمة وهائلة... له أربعة مكاتب بنفس الفخامة ولا شك.. منتدب... منتدب... لاشك أنه عبقرية فذة عملاقة... لا يمكن أن تتحرك المدينة ما لم ينتدب... فلينتدب حتى لا يتوه الناس وتتداخل الاختصاصات... ولا بأس به على الإطلاق...

زغد نفسه مؤنبا... مالك بالأستاذ عبد العظيم... إنسان نظيف... حليق ملمع الأسنان بمعجون مستورد... زاهي الثياب... مسحوق أومو لن يغسل أكثر بياضا... مشطوف الوجه... ولهذا فهو مهم... منتهي الأهمية...

قال لنفسه مدافعا عن وجهة نظره... لكنه يبدو كالأراجوز... لا يثبت في مكانه إلا ليتحرك مرحبا بوافد جديد... لاشك أن كل الوافدين عليه من أمثاله من المهمين جدا... أحيانا يصرخ في وجه عامل مرتبك يتصبب عرقا... ربما من الخوف أو الرهبة التي تولدها في الصدور أبهة المكتب المكيف بمحتوياته المخيفة... وربما من أثر الإجهاد... لقد وقف الاسطى مجاهد أمامه أكثر من مرة... وفي كل مرة كانت كلمات الأستاذ عبد العظيم ذات الرنين الخاص تتردد في أذنيه.. فيزداد شكه في جهله بأصول الشغل... كاد أن يقول له مرة... " عفوا يا عبد العظيم بيه... أنت جاهل بأصول الشغل "... لكنه أمسك بزمام لسانه... لجمه بلجام فولاذي حتى لا يفلت....

رف في ذنه سؤال خبيث... ترى هل الأستاذ عبد العظيم من عرق تركي... إذا كان تركيا فهو من أغوات الأتراك القدامى... أولئك الأغوات المهكعين... ربما كان قريبا لذلك التركي الشهير الذي جار عليه الزمان يوما فراح يتسول قائلا للناس : حسنة لله وأنا سيدك... لا... لا... أنه من هواة الأوامر... الأمر والنهي عنده داء معدوم العلاج... يأمر وينهي... وينهي ويأمر.... تماما كذلك التركي الذي اشترى مجموعة قلل قناوي وعرضها على المارة كسبيل لوجه الله تعالى... لكنه راح يأمر وينيه بحدة متحمسة طالبا من كل شارب أن يغير القلة التي يهم بالشرب منها... تماما هو تركي عتيق مهكع... ومن قال لك يا مجاهد أنه ليس تركيا... أليس في وجهه المستدير المتورد الوجنتين... وأنفه الشامخ المنقلب الألوان ما يؤكد أنه تركي..ز شيء وحيد هو الذي يحيره.. هل كان لأغوات الأتراك كروشا بهذه الضخامة ...؟

قال له الأستاذ عبد العظيم يوما ي عنجهية بينما البايب يتراقص في ركن فمه :

- أنتم حشرات قذرة...

ساعتها تأمل الأسطى مجاهد ثيابه الملوثـــة بشـــحم الآلات الممزوج بقطـــرات العـــرق وصـــدق فأحســـن بالحرج.. وانتشرت قطرات العرق فـــي أنحـــاء جســـده كافة... رطبة لزجة باردة..ز ساعتها لم يناقش الأســـتاذ عبد العظيم عن الوسيلة التي يمكن بهـــا تحريـــك الآلات مالم يمرغ ثيابه فـــوق أرضـــية المصـــنع... وأرضـــية المصنع ملوثة... الشحم فيها يمتزج بالتراب ثم أنه لـــو حافظ على ثيابه ليبدو نظيفا في نظر الأستاذ عبد العظيم فإن التروس لن تتحرك... أن يكون قـــذرا فهـــو أمـــر محتوم... الدنيا نصيب... نصيب يـــا ســـعادة العضـــو المنتدب...

زاغت ملامح العضو المنتدب من دماغة لحظـــة... قال لمدير الإنتاج قبل الحريق بســـاعة : إن المكـــن لا يحتمل جهدا أكثر ، وأن التيار المعتاد هـــو الأضـــمن ، وعليهم أن يحركوا أجهزة التبريد إذا فكروا في مضاعفة التيار... قال ذلك بالحرف الواحدة ومدير الإنتاج نفســـه شهد بذلك... لكن الذي حدث في الدقائق القليلة التي طلبه

فيها الأستاذ عبد العظيم أكد أنهم عملوها وبرطعوا في جنبات المصنع شامخي الأنوف... أما أنهم ضاعفوا التيار ولم يشغلوا أجهزة التبريد الاحتياطية... أو أنهم أوقفوا جهاز التبريد الذي كان مستمرا في العمل... ليزيد الجهد على المكن ويحدث ما حدث... المسألة بسيطة... تحريك السكين إلى أعلى... أو إيقاف جهاز عن العمل كفيل بعمل كل شيء... مرة أخرى زغد نفسه موبخا مالك يا مجاهد بتفسير الذي حدث.. هل أنت مندس... ربما أنت مهندس... أو لعلك عضو مجلس إدارة منتدب... أحيانا تتناسى وضعك.. ربما كنت عضوا في مجلس الإدارة لكنك لست منتدبا... ولن تكون...

شيء غامض كان وراء كلمات الأستاذ عبد العظيم... نظراته ساعتها كانت متشفية مرتاحة... كانت أعصابه أكثر توترا... وأوامره مفتلعة... ماله بخصم الجزاءات.. قال له في أدب : إن هذا من اختصاص مدير الإنتاج والحسابات... فأسكته بإشارة من يده بعد أن تأمل ساعته... وهمس كأنه يحدث نفسه...

– طيب... اتفضل... عامل ملاحظ إنتاج... وعضو مجلس إدارة... طيب غور...

وغار الأسطى مجاهد ليواجه النيران... زفر في عجز... جذب الغطاء ليداري صدره المحموم المتمرد...وارتفع في ركن الحي نباح الكلاب :

– لعلها مسعورة هذه الكلاب...

ومن جديد هبت نسمة رطبة... نفذت من صلب الزجاج وعبرت الجدران... وحومت حوله سافرة... وانطلقت من صدره آهة مأزومة.. محزونة واهية... كأنها شرخت قفصه الصدري النحيل قبل أن تنطلق... ترى هل أصابه الشلل.. مابال أطرافه عاجزة عن الحركة ؟... وهذا الكابوس العنيد غير المرئي والراسخ فوق قلبه... كأنه قيد محبوك حول أطرافه... كأنه امتداد للغاز الخانق الذي كاد أن يدمره لولا شهامة الرجال... كان عليه أن يواجه الكابوس بنظرة متمردة... كان على قطرات الدم أن تتقاطر عبر الشرايين نحو الأطراف لتحركها وتذبح عجزها المشلول.. لكنها تجمدت.. فقدت

نفذت نسمة من الرياح الرطبة عبر الأطراف إلى صدره... وتابعت كلاب الحي نباحها المحموم ليمتزج مع صفير الرياح ويدوى صدى الأصوات في الفراغ هديرا صاخبا يتساءل :

- عامل ملاحظ إنتاج... وعضو مجلس إدارة ؟ طيب غور...

في الصباح تحركت عقارب المنبه.. واهية وئيدة.. كأنما المنبه إنسان مجهد مصاب بأرق مستديم.. إنسان أصفر معلول.. وبصوت خجول مرهق بدأ المنبه رنينه المعتاد ليعلن للأسطى مجاهد عن صباح السبت الجديد... وتقاطرت خيوط الدم عبر الشرايين بطيئة فاترة نحو الأطراف... تغريها بالحركة... وتتزاحم الأفكار في رأسه فتولد الدفء إلى صدره وأطرافه وينهض... بينما قطرات العرق تتغلب على الرطوبة فتنز فوق الجبهة في عناد واثق لإنسان معلول أصفر ممصوص الملامح...

مارس ١٩٦٧

النبش في الدماغ

-١-

اقتتل رجلان متشابهان في ميدان العباسية ، استخدم أولهما مدية في حين استخدم الثاني شفرة حلاقة ، في بداية العراك أصابت الأول خبطات طائشة من شفرة الحلاقة توزعت على الذراعين والصدر والسحنة ، تدفقت خيوط الدم غير المنتظمة في أركان الوجه فبدا شائها ومرعبا ، تحت العين اليمنى تماما وبخط مائل ناحية الأنف وعبر الشفه العليا إلى أسفل الذقن كان أكثر الخطوط اتضاحا وعمقا ، كان الواقفون يحسبون المعركة منتهية لصالح الرجل الثاني على حساب الرجل الأول الذي ظهرت مديته في سرعة تلمع في وهج الشمس وتتحرك في خطوط رأسية وأفقية حاسمة وتعكس في ذات الوقت شعاعا خاطفا تصعب متابعته ، انعكس الشعاع على وجه الرجل الثاني أكثر من مرة ، عندما مر بالعينين بأن الذعر على الوجه وتوقع شرا... شيء ما في عينيه كان يسجل عليه خوفه وينذر بانهزامه، بعدها مباشرة غاصت المدية في صدره فارتجفت أطرافه

وترنحت خطواته وراح يشوح بيده حاملة الشفرة ليخيف الآخر ويبعده ، لكنه برغم ما أصابه استمر في نضـــاله ليصل مرة أخرى إلى صدر الثاني ويطعن ، في لحظات كانت المعركة قد حسمت تقريبا ولم يبق مـــن الـــرجلين غير جسدين منهارين عاجزين عن متابعة الضربات بأي قدر من الحكمة أو الإحكام ، كان الدم ينزف مـــن كـــلا الجسدين ويتكور في مطب مستطيل وضـــيق ، كانـــت الجموع المحتشدة قد تجرأت الآن وزالت بعض مخاوفها فكونت ما يشبه الدائرة حول الرجلين ، وبدون أن يجسر أيهم على الاقتراب الكامل من أحـــد الخصـــمين كانـــت الوجوه حذرة ومتوجسة في نظراتها إلى الرجلين ، بـــأن في العيون خوف مريب ، كأنما انعكـــس مـــن متابعـــة الأطلال ، قبل لحظات كـــان الأمـــر يخـــص الـــرجلين المتقاتلين دون سواهما ، لكنـــه حـــدث الآن أن انتقلـــت الحمى إلى الآخرين.. لام البعض في حـــواره الجـــانبي والذي دار همسا في أول الأمر ، لام حامل المدية لأنـــه أنهى القتال لصالحه على نحو غير متوقع وبسلاح غادر فاندفع البعض الآخر بحماس أكثر يؤكد أن حامل الشفرة

يستحق ما جرى له وأكثر لأنه عمل على تشويه الآخـــر بأسلوب غير شريف وأضافوا أن استخدام الشـــفرة فـــي العراك لا يعدو أن يكون وسيلة خبيثة للتشـــويه بـــدون احتمال التعرض لعقاب صارم ، حيث تتم تسوية الأمور بعد العلاج إياه لا تصل بحال إلى الواحد والعشرين يوما التي جعلها القانون حدا يفصل بين الجنايـــة والجنحـــة ، وارتفعت أصوات مؤدية وأخرى مستنكرة في محاولات لفرض وجهات النظر ، كاد الميدان بأسره أن يتحول إلى حلبة صراع بشرى ، عندما وصلت ســـيارة الإســـعاف وأفسح رجالها مكانا ينفذون منه إلى الرجلين المنهـــارين تأكد لدى المشاهدين أن الشبه بينهما بعدنا تخلف من آثار العراك صار أكثر اتضاحا ربما بفعل الإنهاك المشترك ، أو امتزاج قطرات الدم على أنحاء الجسدين... بـــل أنـــه تزايد الشبه في ألوان الثياب ، قال رجل مـــن الـــواقفين أنهما صديقان تعاركا لأمر تافه وأنه حضر العراك منـــذ البداية ، نفى آخر أن يكونا صديقين قائلا أنهما غريبـــان تزاحما على سلم الأتوبيس الذي نزل منـــه قبـــل بدايـــة الشجار ، لعن طالب متهـــور بصـــوت شـــاحب هيئـــة

المواصلات فأسكته سائق كان يطل من نافــذة ســيارته بكلام قبيح ، انحرف الصراع حول اتهام الطالب بطولـــة اللسان أو صفاقة السائق ، زاحم رجل في حدود الأربعين تبدو عليه الأهمية القصوى وأزاح رجل الإسعاف موسعا لنفسه مكانا أطل منه إلى الوجهين ثم التفت إلى النـــاس وهو يدق كفا بكف قائلا أنه زمان أغبر يتقاتل فيه الأخوة بمثل هذا العنف وأضاف وسط اندهاش الكل أن الرجلين أخوان شقيقان يسكنان في نفس العمارة التي يسكنها فـــي مصر الجديدة ، استنكرت وجوه البعض فأقســم الرجــل بشرفه أنهما توءمان من أم وأب فعجب البعض وتجاهل البعض قوله ملتفتين إلى النقالتين اللتين انزاحتا بالرجلين إلى باب سيارة الإسعاف المفتوحة ، كاد رجلي النقالة في المقدمة أن يتشاجرا حول حق كل منهما في الدخول أولا بحمله لولا أن تدخل رجل آخر من رجال الإسعاف أيضا منبها أن في التأني السلامة ، وبـــرغم انطـــلاق ســـيارة الإسعاف بحملها الدموي كانت الجمـــوع تتكـــاثر حـــول المطب المغطى بالدم ، ينظرون ثم يمصمصون الشـــفاه عجبا ، بعد ربع ساعة من ابتعاد عربة الإســـعاف كـــان

الناس قد كفوا عن الاقتراب أكثر مكتفين بالإشارة إلـــى المكان الذي كانت جيوش الذباب تتكاثر فيهن على نقاط الدم ، تمتصها وتطير بدون رغبة في الابتعاد ، تمـــتص وتطير ثم تعود مرة أخرى بعد أن تحوم حـــول المكـــان مصدرة صوتا مفزعا قبل أن تحط مرة أخـــرى وبـــدون رغبة حقيقية في الابتعاد...

قريبا من مكان الحادث ضاق بائع مأكولات شـــعبية من تكاثر الذباب على بضاعته أيضا ، فتبرع أولا بـــأن وضع فوق مطب الدم ورقة كرتون قديمة كان يستخدمها كفرشة لأرضية عربة اليد التي يملكها لكنها لم تفلح فـــي خداع الذباب تماما فأخذ ينفذ تحتها ومن خـــلال بعـــض الثقوب إلى قطرات الـــدم ويســـتخدمها محطـــة أشـــبه بالاستراحة... احتار بائع المأكولات وضـــحى بـــبعض الأوراق التي يستخدمها في لف المأكولات للزبائن وراح يرص الأوراق بإحكام فوق ورقة الكرتـــون مســـتخدما بعض الحصوات الصغيرة عند أطراف كل ورقة بحيث كان منظرا بديعا برغم التنـــافر بـــين أوراق المجـــلات القديمة وكـــراريس الامتحانـــات الجامعيـــة المهربـــة ،

والرقصات في ثياب الرقص الملونة ورجـال المجتمـع وسيداته بوقارهن المعهود لحظة الالتفات إلى الكاميرا ، ثم كلمات متباينة غير منتظمة بجوار صورة لرجل فـي الخمسين يتميز بوجه كالح وشارب غريـب الشـكل لا توحي ملامحه بالاطمئنان ، وربما كان سببا في ابتعـاد الذباب ولو بشكل وهمي دار في دماغ بائع المأكولات... لكنه لم يكف عن استخدام منشة من ليف النخيل متماسكا حيال بعض الزبائن ممن يستفسرون عما جـرى مانعـا نفسه من سرد كل ما رآه حتى لا يصـد نفوسـهم عـن مأكولاته ، كان ذلك في ظهر هذا اليوم الذي بارت فيـه بضاعة الرجل فأخذ عربته وجرها بعيدا عـن الميـدان ملتمسا ي وجوه المارة زبونا آت من الناحيـة الأخـرى لديه قابلية للأكل، وعلى عكس كل الآتـين مـن ناحيـة الميدان ، أما أولئك الذين مروا بعربة المأكولات بعـدها عبروا ميدان العباسية فقد كـان يشـغلهم سـؤال ظـل مطروحا على الأذهان فيما إذا كان الرجلان شـقيقين أو أنهما غريبان ، وإن كانا أخوين فهل هما توأمـان أم لا ؟... كان السؤال مطروحا إلى حد الهوس لدرجة أن أحد

الرجال وهو أفندي شهد المعركة بعينيه وجلس مدة يتفكر في أصل المسألة راح بنفسه إلى مركز الإسعاف وطرح سؤاله بشكل جاد أثار الريبة في أمره فطردوه منكــرين أن تكون لديهم أية بيانات عن حوادث حصلت في ميدان العباسية والذي يقع في دائرة اختصاصهم بكل تأكيــد ، وبالذات أحداث شغب أسفرت عن سقوط رجلين في ظهر هذا اليوم.

-٢-

في الثامنة والنصف إلا خمس دقائق صــباحا وفــي ميدان التحرير ، على وجه التحديد عبر الممر الموصــل إلى سلم الكوبري العلوي قبالة الهيلتــون كــان الزحــام المتعجل الآتي من ناحية محطــة الأتــوبيس الرئيســية يضغط من كلا الجانبين رجلا في الثلاثين أو نحوهــا... كانت قد انفلتت من كوعه قبضة رجل آخر في مثل سنه وإن كان أكثر منه نحافة ويســتخدم عدســات منظــار رقيق... كان الرجل الآخر قد تعذر عليه لأسباب متباينة

أن يظل ممسكا بكوع زميله ومسحوبا به في ذات الوقت ، استمر الرجل الأقل نحولا وشرع في صعود درجات السلم بدون أن يلتفت للاطمئنان على زميله ، كانت في دماغه صورة لدفتر الحضور والانصراف وكانت ساعة الجامعة العربية معطلة ، أما ساعته فتشير إلى الثامنة والنصف إلا دقيقة أو دقيقتين وعليه أن يصعد الكوبري وأن يعبره ثم يهبط بسرعة ويتجه إلى مبنى المجمع جريا إذا أمكن ليصعد الأدوار الخمسة بدون انتظار لدوره في طابور المصعد الذي يمتد عادة إلى مسافات طويلة يصعب الاطمئنان إليها في مثل هذا الوقت الحاسم... كان وجه السيد مدير الشئون المالية والإدارة المتجهم دوما يرتسم في مخيلته ممزوجا بخانات دفتر الحضور والانصراف وظيفته الفعلية تخوفه من الجزاءات الإدارية التي يوقعها الرجل تجعله قادرا على نسيان صاحبه إلى حين... تاه الرجل ذو المنظار الرقيق إذن من مخيلته أو انزاح ليحتل مدير الشئون المالية مكانه في اللحظات الصباحية جمة النشاط والمزعجة أحيانا...

نفس اللحظات تقريبا وفي محيط ذات الدائرة البشرية كان رجل أخر غير الرجلين يرتدي معطفا صوفيا بنصف ياقة تكملة تلفيحة حريرية لونها باهت تلتف حول العنق وتمتد إلى أعلى لتداري أسفل الذقن أيضا... كانت خطواته الباحثة القلقة تعبر المكان وظله يتكسر على ثياب البعض وعندما يكتمل على الأرضية يعطي انطباعا مريبا لا يريح... كان هذا الرجل قد أفلح في رؤية الرجل الأكثر نحولا مع صاحبه وتحرك بسرعة ربما تيمز بأنها خاطفة إذا جاز القول واعترض طريقة بحيث جعله يتخلف عن زميله برغم الدفعات من الخلف والتي كانت كفيلة بمساعدته على الاستمرار في مسيرته... على نحو محدد واضح أوقفه بكتفه أولا ثم استخدم يده ليمنعه من مواصلة المسير بشكل حاسم وسريع وبدون أن يلحظه العابرون... ولسبب ما ربما كان حزمه أو وقع المفاجأة على الرجل النحيل ضعفت مقاومته وأفلتت قبضته ثم توقف... هكذا وجد الرجل النحيل نفسه بدون سابق مقدمات ممسوكا من زندة بقبضة قوية لرجل فحل يلتف عنقه بتلفيحة لونها كالح تداري الجزء الأسفل من

ذقنه... لم يحاول تخليص يده فقد كانت القبضـــة حـــادة وقوية... جذبته اليد العفية فأطاع متعجبا أولا ثم تســـلل إليه خوف... كاد أن يتكلم فأسكتته غمزة بلا معنى مـــن عين الرجل... فكـــر فـــي لا جـــدوى مقاومـــة الوجـــه الصارم... تتابعت تفسيراته للأمر في هـــذه اللحظـــات بدون الوصول إلى فهم ولو جزئي للأمر ، ليس صـــديقا فالوجه غير مألوف ولا ودود علـــى أي نحـــو... لـــيس مجنوا فالملامح واعية ومطمئنة إلى عدالة فعلها ، وتتسم بالرزانة والثقة إلى حد لا يدع مجالا للظنون فـــي قـــواه العقلية... انحرف منقادا مع الرجل إلى شـــارع خلفـــي وبدأت تساوره الظون... تحسس بطاقته الشخصـــية أولا في جيب بنطلونه الخلفي... تلمس جيوبه بيده الخالية من خشية أن يجد بها شيئا مدسوسا لا يخصه ، حافظة نقود ، أو قطعة مخدرات محظورة التعاطي أو التناول بحكـــم القانون..... ربما اشتباه خاطئ سرعان ما تسويه البطاقة الشخصية... كان الصمت القاسي ، على حين تقوده اليد إلى شارع جانبي بعيدا عن الميدان قد جعله عاجزا حتى عن السؤال... تلاشت صورة الـــدفتر وخانـــة التوقيـــع

بالحضور ووجه رئيس الشئون المالية والإدارية أيضا... بقى أن يتوقع أمرا غريبا خارجا عن حدود المألوف ربما لص يرغب في سرقة بالإكراه في وضح النهار... احتمال بعيد عن التصور لكه كان هو أيضا كاحتمال قائم... فجأة توقف الرجل وأوقفه... لم يعد بالقادر على صلب طوله... سأله الرجل في غير ود وكأنه يتهمه بالسؤال :

- حضرتك الأستاذ حمزة عبد العليم حمزة ؟

تمنى لو لم يكن الاسم يخصه إذن لخلص من الأمر برمته... لكنه كان يشمله ويغطيه مثل قدر لا يرحم... لحظتها بال الكائن الحي والمسمى حمزة عبد العليم حمزة عاجزا عن التحكم في روحه أو السيطرة على جهازه التحتي الذي انساب... كان مذهولا بالمفاجأة وحائرا أن كان يقدر على الرد من عدمه ، كأنما ربط السؤال لسانه في سقف حلقة ووقف ينتظر الجواب أيضا...

في الدور الخامس من مبنى مجمع التحرير وبعد أن وقع الرجل الأول والأقل نحولا على دفتر الحضور

كانت عقارب الساعة في يد مدير الشئون المالية والإدارية تشير إلى الثامنة والنصف تماما فامتد قلمه الأحمر وأشر أمام اسم السيد حمزة بحرف غ... راضيا عن نفسه كل الرضا لأنه يقوم بواجبه القومي في مراقبة الحضور والانصراف كما تقضي اللوائح والقوانين وإلا أصبح كما يؤكد دائما الأمر فوضى بين الموظفين هم نوع من الناس يخاف بعينه ولا يستحى.

-٣-

في السابعة مساء وفي الشارع الخلفي لمستشفى القصر العيني المطل على النيل والذي يطيب لصغار المراهقين تسميته من باب التباهي وإظهار المعرفة بشارع الحب... مشى ولد بجوار بنت.. كانت ابتسامة الولد تشع من عينيه وتفضح فرحته لأنه استطاع هو أيضا أن يجرب عبور الشارع في حالة حب وأنه يحق له التباهي هو أيضا.... البنت كانت مرتاحة الملامح ومطمئنة الوجه وسعيدة بحيث توردت خدودها أكثر... عند المنحنى ظهر رجل يرتدي جلبابا مقلما فتنحنح أولا وكأنه في بيت أدب ثم احتك بكتف الولد الذي انزاح

يفوت عليه الحركة في حين كان الاطمئنان قد انزاح كلية من عينيه وعيني البنت الصغيرة... ظهر رجل آخر يرتدي بنطلونا أسود قديما متهالكا وسترته عسكرية ممزقة... اشترك الرجلان في تهديد الولد والبنت لو صدر عنهما صوت استغاثة... اقترب الأول من البنت وشدها بضع خطوات بعيدا ثم مدي يده بجسارة يتحسس صدرها... دفعها إلى سور الكورنيش والتصق بهاعلى نحو ما... كان يضمها إليه بينما هي تقاوم بلا قدرة شفاه الرجل التي تغتصب... كان الولد واقفا مكانه كالمشلول وطرف مديه الرجل الثاني تجوس مهددة الصدر والعنق... تكتفي باللمس دون الجرح وتسري برودتها فتنهار القدرة على التفكير... انهارت مقاومة البنت وتراخت أطرافها... بعد لحظات جاء الرجل الأول وأشار إلى الثاني إشارة ذات مغزى فترك الولد في حراسته هذه المرة وراح إلى البنت... استسلم الجسد المستسلم للبنت الصغيرة وعبث الرجل الثاني بأطرافها وأجزائها بأسلوب أقل احتشاما بينما الرعب يسيطر على الولد أكثر... مرت دقائق ثقيلة الوطأة وتأودت البنت

ربما من الألم الممزوج باللذة المقيتة أو الرعب.. قهقهة الرجلان معا وأصدرا الأمر بابتعاد الولد والبنت وعـدم العودة وإلا.. جرجر الولد والبنت أقدامهما وعجزا عـن تبادل أي كلام... مات الهمس ودفعـه اعتـراف غيـر مطورح بالعجز والمهانة... وعندما ظهر الضوء وباتت الأجساد في الضوء المنبعث من كازينو " بل في " وتأكد الونس انفجرت البنت في تشنج مكتوم تجاوب معه أنين الولد المطعون.. وعند نهاية الشارع المطل هو أيضـا علىالنيل شعر كل نهما أنه لم يعد قادرا على الاستمرار في الإحساس بأنه يخـص الآخـر... وعجـزا عـن الاستمرار في السير جنبا إلى جنب فابتعـدا وانحـرف الولد عمدا إلى كوبري الجامعة واستمرت البنـت فـي طريقها إلى شارع المنيل...

-٤-

في أمريكين عماد الدين جلس شاب في مقتبل العمر يحتسي فنجان شاي وينظر إلى سـاعته... يجاهـد أن يحتفظ بسجائره الخمس التي اشتراها لتـوه مـن بـاب اللياقة عازما على استخدامها في تحية شاب آخـر فـي

مقتبل العمر أيضا كان يجاهد أن يصل في زحام المواصلات في نفس الموعد المحدد بدون أن يجرؤ على استخدام تاكسي...

كان الجالس ينظر في ساعته مرتبا كل مدة ويهون الأمر على نفسه قائلا إنها ساعة فاسدة لا تتميز بأي دقة وربما أفلتت عقاربها وراحت تدور على هواها لتسبق الزمان الحقيقي بمدة... كان الشاب الآخر قد وصل لتوه ينهج من الإجهاد وصعد الدرجات القليلة وراح يتطلع إلى وجود الرواد فلمحه الأول ورفع يده مشيرا إلى مكانه المختار... بدأ الحديث بينهما حافلا بالمجاملات حول من تشرف منهما بمعرفة الآخر... بعدها بان من الحوار اهتمام الشابين بالفن التشكيلي وتحدثا عن معرض شاركا فيه ببعض اللوحات منذ سنوات ثلاث... كانت عينا الوافد الجديد زائغتين وعلى تقاطيعه إمارات إجهاد مرتبك... عندما جاء الساقي طلب الأول من الثاني أن يختار مشروبا تردد الثاني لحظات قبل أن يجرؤ على طلب طبق مكرونة لنفسه... كان يحس شيئا كوخز الابر من معدته وربما بالعار في مشاعره...

استمر الحوار بعد لحظات عابرة ناقش كل منهما موقف الآخر من مسألة طبق المكرونة... كان الحوار يـــزداد حيوية مع تناقص طبـــق المكرونـــة... تجاهــل الأول انهماك الثاني في التهام محتويات الطبق والجــوع فـــي عينيه ينزاح عند وصول كوب الشاي وعلبـــة اللفافـــات تمتد إليه فيأخذ واحدة... قال الثاني محاولا الفرار مـــن كل ما كان يدور في عقله : أخشـــى أن أكـــون ضـــيفا ثقيلا... ضحك الأول وواري ما كان يعتمل في خيالـــه من حسابات مالية غير مريحة... كـــان الثـــاني يـــدخن بشراهة... تشعب الحديث في مسائل فنية تصب في الفن التشكيلي... تحـــدثا عـــن أنـــواع الخامـــات وارتفـــاع أسعارها... قال الأول متحمسا بعض الشيء برغم عدم اطمئنانه الداخلي مجهول الأسباب : مدة طويلة لم نتقابل خلالها أظن بعد المعرض.. عمومـــا تســـعدني زيـــارة مرسمك... أجاب الثاني : لا مرسم لي... أنا أعيش في لوكاندة ، استفسر الأول مستنكرا : ولوحاتـــك ؟ أجابـــه باقتضاب : سفرتها إلى البلد... كاد الأول أن يسأله عن شغله الجديد فأضاف الثاني بشيء من القنوط المعاد لأنه

اعتاد على تقديم الجواب نفسه في السنوات الأخيـــرة : ولا جديد... أنا متوقف لانعدام المكان المناسب وتزايـــد أسعار الخامات... رد الأول وكأنـــه يوجـــه الحـــديث لنفسه : أسعارها في تزايد مذهل ، عندي ثلاث لوحات قديمة لم تكتمل لذات الأســـباب... وأضـــاف بحســـرة ممزوجة بشيء من الارتياح المكذوب : عندي أمل فـــي بيع لوحة عارية لصاحب عمارة في نفس الشارع الذي كنت أسكنه... أضاف : هو جزار لكنه لا يمل النظـــر إلى اللحم العاري ، وقد حصل علىتسع لوحات عاريـــة في العامين الأخيرين ، أنـــه يطلبهـــا بنفســـه ويحـــدد الأوضاع المطلوبة... والأمر يبدو فـــي صـــالحي مـــن بعض الوجوه وإن كان يرهقني فرض أوضاعه على كل موديل وأواجه بطبيعة الحال بنظراتهـــا التـــي تتهمنـــي بالشذوذ وأسكت... قال الثاني هو يشعر بالمرارة : يبدو لي من حديثك أن أحوالـــك الماليـــة مطمئنـــة بســـبب الجزار.. قال الأول : إلى حد ما ، أسرع الثاني ليطرح قضيته بأكملها : أتمنى أن يصل هذا الحد إلى الاطمئنان إليك في تقديم سلفة بسيطة حتى أو الشـــهر... ســـكت

الأول ثم عقب وفي خياله احتمال حل : لا تفكــر فــي الأمر... فرغت علبة اللفافات فرماها وظل ينتظر ، ظلا يثرثران بعيدا عن موضوع الرجل الثـــاني... ظهــرت امرأة عجوز تغطى رأسها بطرحة سوداء وترتدي ثوبا غير محكم التفصيل... اقتربت من الأول فابتســم لهــا وأشار إلى مقعد بجواره لتجلس... جلست وهي تتطلــع إلى وجه الثاني متفكرة... أسرع الأول وقدمها : مــدام شريفة ، خياطة... الأستاذ صلاح فنان... ابتسم الأستاذ صلاح في غير ود ولم تعجبه الصحبة... بادلته المــدام بابتسامة عريضة كشفت عن صــف أســنانها العلويــة المغطاة بمعدن أقرب إلى السواد منه إلى اللون المعدني ، على حين تنفرد في منتصف الصــف الأســفل ســن وحيدة مغطاة بغلاف ذهبي وسط طابور مــن الأســنان المغطاة بالمعدن الأسود.... كانــت مزحومــة الوجــه بالتجاعيد إلى حد مؤسف ولون بشرتها الأغبــر يثيــر الشفقة... قال الثاني لنفسه : ربما سائلة تطلب حسنة من صاحبي... قال الأول وهو واقف : لحظات ، أشــترى علبة سجائر وأرجع... تركها في صمت خرج وغاب...

طالت الدقائق فأحس الأستاذ صلاح بالتوتر... وأخرجت السيدة من حقيبتها علبة لفافات مستوردة وقدمتها إلى الأستاذ صلاح... كان الجو مكهربا ومشحونا بالقلق ويحتاج إلى جانب اللفافة إلى عدم معاداة امرأة منكسرة الخاطر وعجوز.. مدي يده وأخذ واحدة وامتدت يدها بلهب ولاعة فأشعلت الطرفين... تزايد التوتر فتزايدت عروض السيدة باللفافات عرق مشحون بالمخاوف... قال لنفسه إن الفرار ممكن لولا الكسوف... قالت السيدة وهي تغمز بعينها : مالك ؟ قال : لا شيء... قالت : لن يرجع صاحبك... هل صدقت أنه سوف يرجع ؟ تزايد ارتباكا... قالت : صدقني... أحس أنها تقرأ أفكاره... قال مزيحا عبء الموقف دفعة واحدة : مسألة الحساب تشغلي ، لم أعمل حسابها... قالت مطمئنة : لا تهتم وأعادت غمزتها بجرأة أكثر... ضحكت المدام أكثر فبانت دمامتها... بعد ربع ساعة كان الاتفاق قد تم... في أحلام الأستاذ صلاح كانت تتراءى له امرأة جميلة وعاشقة ترعاه وتمنحه الحب أيضا بلا مقابل... استحالت امرأة أحلام المراهقة إلى عجوز في الستين

ربما ، تتكلم بعينين مطفأتين يحوطهما سواد كحل كاذب وحولهما هالتان مسودتان من فرط السهر ، أما الرموش فشبه معدومة وعلى الرأس طرحة تجعله يشك أنه رأها في قريته تندب بها في أحد المآتم... حسبها في أول الأمر سائلة وهاهي تدفع الحساب والبقشيش وتتلقي إطراء الساقي وتهانيه أيضا في كرم مع هيئتها الرثة... تخرج به مزهوة وتدع له الخجل وحده.. تتقدمه إلى التاكسي بجسارة من يملك ، ويركب عاجزا عن مبادلتها الحديث... يهبط متجنبا الاقتراب من عداد التاكسي تاركا لها حق الدفع للسائق الذي شيعه بنظرة ساخرة...

في حجرة النوم المهيأة ببذخ والمزدانة بعديد من اللوحات العارية لرجال ونساء في أوضاع مثيرة... الألوان والخطوط تذكرة بأسلوب رآه مرة لواحد من الفنانين المبشرين ، لكنه تاه منه الآن... مومياء عتيقة تملك الدفع مقابل حصولها على رجل وعليه أن يكونه... أن يبيع نفسه وللحظات وتنفك بعدها الأزمة... كان كثيرا ما يناقش موقف المرأة التي تبيع بدون أن يخطر في خياله موقف الرجل عندما يعطي بلا رغبة...

آفاق ليراها تخلع ملابسها فبانت البشاعة أكثر... ضاق صدره وجلس متحايلا على نفسه... بعد لحظات قام من قعدته لما أحسه.. اتجه ناحية الباب وقبل أن يصل تقايأ طبق المكرونة ممزوجا بأكواب الشاي... تناثرت فـــوق السجادة فقاقيع ما كان شحنه بالأمعاء فبانت مقرفة وغير محتملة ، شدته إليها مشجعة وهو منكسر المشاعر قائلة بدلال : لا تهتم.. لم ينفعل بكل حركاتها المصـــنوعة... اغتاظت منه وبان في عينيها المطفأتين شرر مغلـــول.. لم يجسر على طلب قرش واحد فكر فـــي أخـــذه منهـــا ليستخدمه في مشوار العودة... خـــرج ومشـــى جائعـــا تتلوى أمعاؤه حسرة وفي سقف حلقه مرارة وفي الدماغ خلية نحل تطن بلا رحمة بسؤال عن صانع اللوحات في بيت السيدة العجوز... وعندما وصل بعد إجهـــاد إلـــى حجرته باللوكاندة أحكم إغلاق الباب وكانت الأمور قـــد تزايدت سخفا وحمقا فجلس على طرف السرير يبكـــي بدون أن يعرف السبب..

مجلة الطليعة : فبراير ١٩٧٣

الجفاف

-١-

قال لنفسه بصوت خافت :

- أنني أعيش أياما مكررة ومعادة...

وقال أيضا وهو يتلفت حواليه متخوفا من سماع الآخرين لصوته :

- لم يعد ثمة شيء يستحق الانتظار...

كان يدرك يقينا أنه بكل المقاييس المألوفة والمحسوبة قد خاب بحسب ما كانوا يقولون عنه في قريته البعيدة ، لكنه كان يرتعب من احتمال أن يكون زمان الفعل قد ولى ، صحيح أنه لو فكر في التراجع أو تغيير المسار لما استطاع ، ربما لأن السنوات التي راحت كانت في حقيقة الأمر خلاصة العمر وصلبه ، عقدان من الزمان راحا وتركاه على عتبات العقد الخامس وخلال هذا العمر تشكل فيه كل شيء ، السلوك والكلمات والمطامح وزاوية النظر إلى الأشياء ، ونوعية الأصدقاء وحتى الثياب والأماكن التي يرتادها، انطبع في الوجدان

والمشاعر ولم يعد ثمة فرار ، حتى لـو كانـت حياتـه نفسها ستنتهي لولم يتراجع لما فكر في التراجع كأنما هو مدمن خرافي لا يكف عن استهلاك الجرعات فـي دأب ويصم أذنيه عن سماع ما يقال ، كانت تقـاطيع وجهـه خلال العامين الأخيرين مشدودة ومنقبضة فـي وضـع تعس ومغموم ، كأنه يحاول إخراج شـيء كـامن فـي جوفه ، شيء متحجر متكلس متشعب وملتهب فـي ذات الوقت ، شيء حارق وغير راغب في الزحزحة أبدا...

وبرغم كل السخف الذي يحاصـره ، بـرغم كـل الجفاف الحارق الذي يلبد في حلقة لم يفقد قدرته علـى الحماس لما يعتقد فيه ، ربما يراجع نفسه خوفا مـن أن يكون أخطأ أو انحرف عن مساره المختار ، لكنه أبدا لم يكفر في الفرار ، كان يقول لنفسه " هنـاك فـي هـذه المدينة سيرك فريد في نوعه يقدم عروضـه بالمجـان فلماذا لا تتفرج ؟ "..

وعندما حدثه صديقه القديم عن مشـروع الهجـرة عجب وقال :

- إن الذين يهاجرون من أوطانهم أقل صلابة ممن يعيشونه فيها ويحتملون المشقة.

قال صاحبه :

- لقد فكرت في الأمر كثيرا وبدأت في استكمال إجراءات السفر.

قال هو بحماس :

- وتترك بدلك ؟ أنه موقف متخاذل يكشف عجزك عن مواجهة التيار.

ورد عليه صاحبه مؤكدا كل حرف من كلماته :

- أنت نفسك تفكر في الهجرة... كثيرون هاجروا من البلد... لكنك عاجز عن اتخاذ القرار ربما لأنك تحجل من إعلان الخبر.

قال هو مدافعا عن نفسه :

- الموت عندي أهون من ترك مصر.

سخر صاحبه من عبارته الأخيرة وقال :

- الموت هجرة بلا عودة وأنا أرغب في أن أعود.

عجب للأمر ثم سأل :

- وهل تحددت مصائرنا بين الموت أو الهجرة ؟

سكت فأضاف الآخر :

- لدى صديق يمكنه تدبير عقد عمل من أجلك... ما رأيك في العمل في دولة عربية تنتج النفط ؟

قال لنفسه :

- أنني أعيش في ضائقة مالية متكررة ، أنني محاصر بالعوز ولديهم أرصدة فلكية ، سوف أبيع قوة عملي لأبناء عمومتي هناك.

لكنه قال لصاحبه :

- لو رحلت فسوف أعيش إحساسا مضنيا بأنني مطرود ، مطرود بالحاجة وأنا أكره المساهمة في طرد نفسي على هذا النحو.

قال صحابه وقد يئس تماما من حالته :

- أنت حر... ابق هنا وكف عن الشكاية من كل شيء...

كذلك كان حواره مع صديقه القديم الذي اختار حــلا لمشاكله الخاصة بالسفر ، تحير في أمــر نفســه أيامــا وطاردته الوساوس وعربد الشيطان في زوايا عقله طالبا منه أن يكتب لصديقه القديم مبديا رغبتــه فــي الفــرار ومعبرا عن أسفه لعدم الموافقة على رأيه منذ البداية... لكنه كان كالملتاث لا يجسر على مواجهــة مثــل هــذا الأمر... كان يقول لنفسه : " هل راح من عمري زمان الفعل ؟ " وكان في بعض الأحيان يبتهل للخالق أن ينور بصيرته ويلهمه الصواب...

" يا رب... هون علينا... واكشف ستر مــن كــانوا سببا في ضياع أعمارنا ، اجعلهم يا رب عبــرة لمــن يعتبر ، ويارب لماذا لا تعمل معروفا في أهــل مصــر وأنت مثلا قادر على تفجير ينابيع النفط فــي أرضــها وصحاريها الشاسعة أو حتى تقصــف أعمــار مــن لا يستحون ويدأبون على نهب خير البلد واستلاب كنوزها بدون خوف من يوم الحساب العظيم يا رب هــات مــا عندك وخد ما عندنا إن كان لا يرضيك حرمان خلقــك الوادعين في هذا البلد العزيز " بمثل هذه الأدعية كــان

يبتهل كل ليلة لربه ، ومرة كان يمشـــي فـــي الشـــارع ويسترجع بيتين من الشعر لأعرابي مجهول، كـــان قـــد حفظهما عن ظهر قلب دون أن يدري متى ولا حتى في أي كتاب لكنه يترنم بكل مقطع علـــى حـــدة وبصـــوت مسموع :

وكنا ألفناها ولم تك مألفا :

ترلا لا لا... لا لا...

وقد يؤلف الشيء الذي ليس بالحسن

ترلا لا لا... لا لا...

كما تؤلف الأرض التي لم يطلب بها

ترلم... ترلم.... ترلم... ترلم...

هواء ولا ماء ولكنها وطن.

ترلم... ترلم.... ترلم... ترلم...

ولكنها وطن... ولكنها وطن.

ولكنها وطن... ولكنها وطن.

كان يردد العبارة الأخيرة بصوت مسموع جعل النسا يلتفتون إليه ويتلفتون حوله وهو ذاهل عما يدور حوله ودائب على تكرار العبارة ذاتها.

-٢-

قال لنفسه :

- أنني أعاني من حرارة الطقس.

لم يكن الجو حارا... كان شهر نوفمبر قد انتصف ، كان قد شرب زجاجتي " بيرة ستلا " ودخن علبة سجائر سوبر وفكر وفكر في اللحاق بآخر قاطرة مترو ، منذ أسابيع دأب على الشيء نفسه ، كان يكابد شعورا قاسيا بالوحدة ، كانت قد اقتحمته في خلوته وأكدت وجودها القديم ، كثفته تكثيفا وجعلته يعايش إحساسا مؤكدا بأنها حاصرته وحصرته ، وفي محاولة لدفع شبحها العنيد الملحاح عنه راح يقول بصوت مرتفع :

- إن لي مجموعة من أفضل الأصدقاء ، أنني مشحون بوهم سرعان ما يتلاشى بعد حمام بارد.

كذلك كان شاعر العامية يغالب وحدته دائما ، يدفعها عنه بينما تتسلل لى صدره في عتمة الليل ، تكبس على أنفاسه تضغط على فمه وطاقتي أنفه ، وتحرمه حتى من حق التنفس ، وفي فراشه الوحيد كان يتسـمع صـوت خفقاته وهي تتباطأ وتتباعد وعنـدما يفـتح عينـيهن لا يطالع إلا عتمة الحجرة تجتاحه الرغبة في أن ينادي أي أحد بينما هو مضغوط ومشلول الطاقة تماما ، يتجلى له الموت غادرا خطافا يبرع في أخذ أمثاله من المنفـردين في حجرات معزولة عن خلق الله... يقول وهو يلهـث وكأنه يدفع شبحه المخيم :

- لا.... لا... لست وحيدا بهذا المعنـى... إن لـي أقارب وأصدقاء ومعارف وسوف يحزنون من أجلي.

كذلك إن كان يحاول قائلا لنفسه بصوت مسموع :

- إن الحياة إرادة ، ولو انتصرت إرادة الموت فـي الإنسان مات فهل أموت هكذا فطيسا لأن إرادة الحيـاة عندي ترغب في أن تنهزم ؟ لا... لا أنني أعيش ولابد أن أعيش لعشر سنوات أخرى على أقل تقدير.

كان برغم كل محاولاته في الاستمرار يكابد شعورا كأنه اليقين بالوحدة وكانت وحدته هي أفتة التي توشك على تدمير تاريخه الطويل في هذه المدينة ويصر على أنه لم يقصر أو يتقاعس في بذل نفسه لها لكنها لم تفهمه ، فألقت به في وحدته كأية نفاية متخلفة بلا ثمن. تسلل السأم والمرار إلى نفسه وراحت أحلامه القديمة في أن يقول للناس شعرا.

وحتى أصحابه ممن يدورون في المدار نفسه لم يصبح من اليسير أن يجد في حواره معهم حلا له أو لهم ، لقاءات المقهى المعادة ، ونفس الثرثرات والحماسات الفورية والوشايات الصغيرة والضحكات الهستيرية والسخرية من كل شيء وكل إنسان ، يقودها " أراجوز " المقهى المعروف لكل الجماعة ، يقول لنفسه عن أراجوز المقهى : هذا الولد ظاهرة لا تتكرر في أي عصر على عصرنا ومدينتنا ووسطنا ، لا أدري كيف فرض نفسه على الخلق في المقهى ولحساب من يطرد من يعجز عن مجاراته في الطنطنة السخيفة والمعادة

والضحك الأبلة المحموم ، إنه وحيد هو الآخر لكـــن لا تبدو على تقاطيعه للحظة أنه مهموم بشيء.

هكذا كان يطوف بدماغه في أنحاء المدينة على حين هو وحيد يدخل الحانات وينضـــغط فـــي المواصـــلات ويقابل رئيسه في العمل ويعود دائما إلى المقهى ، نفس المقهى ، المقهى الذي أحبط أحلاما ربما كانـــت تفـــوق أحلامه أو تقل عنها لكنها أحبطت ، المقهى الذى استنفذ أعمارا ، وعلى مقاعده ضاعت سنوات الشباب وأزمنـــة الفعل والقدرة ، ما تبقى غير نفايات وباقيا مـــن أمثالـــه يتحلقون حول زجاجـــات البيـــرة أو يضـــحكون علـــى سخافات أراجوزهم الذي لن يتكرر إلا في بلـــد كهـــذا ومرحلة كهذه ، ولد ظاهرة متفردة ولا يدري لحســـاب من يعمل ويضيع سنوات عمره وأعمار الآخرين.

عندما أغفى رأي نفسه وحيدا في صحراء مقبضة لا حد لها ولانهاية ، تلال وهضاب وساحات رحبة وجبال شاهقة ، وسراديب معتمة وكلها محض رمال ، رمال ، رمال ، من كل الأنواع والألوان والأحجـــام – مجـــرد رمال ورياح مسعورة تدمدم من كـــل الجهـــات تحمـــل

ذرات الرمال الدقيقة وتصفعه ، تنفذ من طـــاقتي أنفـــه وتتسرب إلى حلقومه وتخترق شفتيه المضمومتين عـــن صمت عاجز عن دفع ما يحيطه ، تكتسي الأسنان أيضا ويجف اللسان ، حتى حدقتي العينين المغمضتين تقتحمها الرمال... لكنه يتململ في رقدته ربما يكون قد انقلـــب إلى الجانب الآخر فيراها من خلال الضباب تتسربل في ثوب هفهاف لونه غريب متداخل ، يراها ويوشك علـــى اللحاق بها ، ينسى دمدمة الرياح وصفعات الرمال فـــي الوجه والبدن ويرمح بكل عزمه ثم يشرع في النداء.

- سالي... سالي... لماذا تركتني وحيدا ؟ ســـالي... سالي... لماذا تتجاهلين النداء ؟

ويوشك في لحظتها أن يطولها ، أن يحيطها بذراعيه ، لكنه كلما كان قاب قوســـين أبعدتـــه ضـــحكة الولـــد الأراجوز الذي يطلق الشائعات في المقهى ويتهمه بأنـــه عنين.

كان حلقة جافا ، جافا إلى حد لا يطاق ، قام وارتوى جعل يتفكر في حلمه الغريب ، لكنـــه - خلاصـــا مـــن

الاستمرار في التفكير – قال لنفسه : ولو قلت للأراجوز عن هذا المنام فسوف يقول ساخرا في محاولة لإبعاد نفسه عن المسئولية :

– إن لك مزاجا سوداويا وعلين بتبييضه... وبعدها يشرع في إطلاق الشائعات حولي كما هو المعتاد.

–٣–

قالت البنت لنفسها :

" أنه يكبر وأنا أكبر ، إن سنوات شبابه توشك على الضياع لكنه منوم ولا يود أن يفيق ، سوف أكبر أنا الأخرى وتضيع منى أحلى سنوات عمري وأنا أنتظر وهما عاجزا عن التحقيق ، عندما طلبت منه مكانا يقوم بتوفيره لنفسه بدلا من مشاركة أصحابه السكن راح يطمئني شهورا ثم جاء ليعلن لي أنه سكن حجرة مستقلة على سطح عمارة ، كان متهلل الوجه وهو يبشرني بفتحه العظيم ، عجبت لأمره لأنه بالفعل غاب عن الوجود وافتقد حيويته القديمة ووعيه القديم ، ظل يدخن السجائر ويشترى بنصف مرتبه كتبا ومجلات ويتأستذ

في فراغ يكتب أشعارا ولا يخجل من أنهـا لا تفيد ، يشرب بآخر جنيه معه شراب البيرة ولا يأسف على شيء وعندما أشرت عليه بإعطاء دروس خصوصية لتلاميذ مدرسته تقلصت ملامحه اشمئزازا وقال إن الدروس الخصوصية استغلال رخيص لآباء التلاميذ.

وقالت لنفسها أيضا :

" يطلب مني الانتظار إلى أجل غير مسمى ولا يسأل نفسه عن سن الثامنة والعشرين ي عمر فتاة تتخوف أن يلحق بها سن اليأس في غفلة ليسحق أحلامها ، فهل أنتظره لسنوات خمس أخرى وأصبح في موقف الضعيف ؟ "

لكن البنت حسمت الأمر لصالحها بدون أن تعلن عن رأيها لأحد ، قالت لنفسها مرة :

" كنت أحب بساطته وابتسامة الهدوء التي ترف على شفتيه وقدرته على الإقناع بدون توتر أو انفعال ، ويقينه في شيء خفي لم أكن أعرف أسبابه لكنه أصبح معقدا مهموما عاجزا عن الإقناع بلا يقين فعلام أتعلق به ؟ ".

طرحت السؤال بشجاعة ، وبنفس الشجاعة جاوبت نفسها ، عندما تقدم إليها مدرس الرياضة المالية المعار لإحدى الدول العربية المنتجة للنفط وافقت على الفور ، وبدلا من أن تكون لعبة يتسلى بها الشاعر قررت أن تنسحب من عالمه ، كما كانت ترغب في أن تدفعه لأني ينهي العلاقة من ناحيته ، مارست كل حيلة وعارضته في كل شيء لتصل إلى غايتها بدون جدوى ، لا تدري هي نفسها لماذا كانت تصر على دفعه لموقف كهذا.. لكنه بدا لها كالصخر لا يلين ، صلبا في قدرته على تلقي الصفعات التي كانت تتفنن في كيلها له ، كانت بارعة في تعكير الصفو والمعايرة ، معايرته بكل ما يحيطه من صعاب ، كان من الممكن أن يكون الأمر بسيطا لكنها عقدته وانساقت في منحدر المشاكسة كأنه لعبة أجادتها عند لحظة اكتشافها فانقطعت لها كل وسائلها ، كانت تسال نفسها : لماذا لا تركه في حاله ؟ وتسأل نفسها : هل أقوم بتعذيبه من أجل السنوات التي ضاعت من عمري معه والتي يستحيل أن أستعيدها ؟

وكانت تسأل نفسها أيضا :

أمازلت أحبه وأتعلق به برغم كل شيء ؟

كانت البنت نفسها في حيرة من أمرها وأمره ليس بسبب أنها لم تحسب الحسبة وتختار لأنها اختار بالفعل أن ترحل مع مدرس الرياضة المالية ، لكنها كانت في حيرة لأنها لم تجرؤ على الخروج من حياة الشاعر أو حتى محاولة الخروج بلا مشاكل.

قال لها مرة :

– لقد أصبحت إنسانة معذبة إلى حد لا يطاق.

فردت بوقاحة :

– وما الذي أجبرك على احتمالي ؟

كان هو بالنسبة لها في تلك اللحظة رجلا جبانا... رعديدا لا يجيد سوى الطنطنة ، يدعى أنه يحتمل سخفها بسبب أنه أحبها بينما هو عاجز عن عمل أي شيء في هذا العالم إلا ممارسة التهجم على كل شيء حوله وكأنه مسئول بشكل رسمي عن إصلاح كل خلل في نظام الكون ، قالت له:

– أنت مجرد شاعر.

قالت كلمة شاعر بعصبية ساخرة محتقرة كأنها تهينه أو تلعنه أو توضح له بعد طول صبر أنه من أحط خلق الله ، كانت هذه الضربة محكمة التصويب ، جاءت في منطقة الامتياز والضعف ، جاءت في الصميم ، أن يكون الإنسان شاعرا في مدينة عملية تسحق التخيلات والأوهام فهو شيء لا يطاق ، أما إذا كان الشاعر شاعرا فقط ، خلاياه أوهام وأبنية عقله أوزان وبحور ورؤاه تصورات توشك أن تكون هوسا وغيابا عما يدور بالفعل في ساحاتها وزواياها كان هو قد امتص الصدمة ، صدمة أنه بالفعل شاعر بالمعنى الذي قالت به " سالي " كان قد تأكد لديه أنه مجرد شاعر وخلاصه مستحيل ، ويوم سافرت " سالي " إلى بلاد النفط لم يهتم ، كان يعايش حقيقة أنه بالفعل شيء ضائع مثل شارع شهير يسمونه شارع المقهى، وقديما كان يعرف أن لكل حرفة مقهاها لكنه لم يكن قد أدرك أن للشعر مقهى يستلب الأعمار ولا يعطى ، يلتف الجمع فيه حول الأوزان دون أن يدركوا إلى أي حد هي عميقة تلك الهوة التي سقطوا

في أعماقها ، عميقة ومعتمة وقاسية الجدران كأنها جب في بطن جبل معزول، إنما الغريب أنهم هناك في قـاع الجب – المقهى – يطنطنون بالأشعار بدون قدرة علـى الفعل ، ومرة قال لنفسه في حمى لحظة الاكتشاف :

– فلتسافر سالي أو فليسافر كل أهل المدينـة لكنـي سوف أبقى أو حتى أموت قبل أن أفكر في الخروج.

ثلاث نهايات محتملة الحدوث :

الأولى : سوداوية تحتاج إلى تبييض.

قال لنفسه : أوشك على الجنون... لو جننت لهربت وصرت عارا لأهلي ولنفسي عندما أعود ، كـان فـي حجرته مربع خشبي يتخذه مكتبة لحفظ الكتب والأوراق ، في ركن منها مخطوطات قصائد ومشاريع قصائد لـم تتم ، على قمة المشاريع واحدة يعتز بها ولا يدري لذلك سببا ، كان قد سماها قبل أن يكملها خلافا لما اعتـاده ، عن الجفاف تحكي سطورها.

كانت لديه مدية من صلب لا يصدأ ، خلع قميصـه وحط نصلها الحاد على الصدر العادي في اتجاه القلب ،

ضغط بكلتا يديه فانغرس النصل بين ضلعين من أضلاعه ، لم ير دما ، ربما هرب الدم بنفس الطريق التي يهرب هو بها ، حط مقبض المدية مسنود على حائط المكتبة وأرضية الرف ودفع نفسه بكل عزمه فأحس بالنصل يغوص وينغرس أكثر لكنه كان واعيا وموقنا بأنه لم يصل إلى القلب ، لو كان لديه وفي مواجهته مرآة لانعكست صورته الفريدة ولعجب من قدرته على الوقوف بدون أي اختلاج أو ضعف ، عاود الضغط هذه المرة وبعزم أقل لكنه سقط ، قال بوعي يوشك على الغياب :

- أنني أنزف الآن ما تبقى من عمري.

كانت الأوراق قد تساقطت معه ومن بينها مشروع قصيدة كان قد سماها قبل أن يتمها ، بلل خيط الدم فراغات الورقة قبل أن تكف العينان عن ممارسة التأمل المدرك الذي يسمى الأشياء.

الثانية : مسرحية هروبية لها مقدمات.

أخذوه أخذا بعد أن طوف في أركان المدينة أياما ظل خلالها يردد الكلمات نفسها ، بيتان من الشعر لشـــاعر مجهول ، ولقد ألتف حوله مئات من خلق الله ، تعاطف البعض معه أو ضده ، لكنه عكر الصفو وعطل نظـــام المرور وأقلق البعض من احتمال أن يكون داعية لفكرة أو مذهب جديد مستورد من خارج البلاد ، يوم أحاطوه وأخذوه كان يبدو وديعا هادئا متعقلا كأنه أفرغ كل مـــا كان في جعبته مخزونا ، وكان الخلق يتبادلون حكايتـــه في كل الأحياء ويضحكون أو تدمع عيونهم إشفاقا على المجون ، الشاعر المجنون.

الثالثة : بيضاوية نرجسية نضالية تؤمن بالإنسان.

قال لنفسه : العالم رحب وفسيح ، سوف أسلم بـــأن ضياعا قد أصابني لكن الاستسلام عنه وحماقة ولابد أن أجدد نفسي وأبدأ من جديد ، كانت "سالي" علـــى حـــق عندما سافرت لأنني كنت بالنسبة لها مجرد شاعر أحمق عاجز عن الفعل ، لدي الآن مستقبل مشرق ، معي عقد العمل وتذكرة الطائرة وأحلام وردية في صياغة الحـــل النهائي لعوزي وحاجتي ، وما تكون في عقلي رصـــيد

من مقدرة أواجه به اغترابي لسنوات قبل أن أعود لبلدي بخيرات لن أحصلها إلى في بلاد الغربة ، سأتعلم وأعود وربما ألتقي هناك بصاحبي القديم أو بـــ "سالي" لأقـــول لأيهما أنني كنت غبيا وضيق الأفق وأنظر إلى العالم من ثقب إبرة رحب وبراح هناك دائما شيء جديـــد تحـــت الشمس وفي الامكان أبدع مما كان.

الموقف العربي : مارس ١٩٧٧

النجوم.... !

تشاغل بالنظر إلـــى مجموعـــة الكتـــب والمجـــلات المرصوصة فوق قفص من جريد النخل ، نظـــر إلـــى ساعته للمرة الثالثة خلال ثلث الساعة الذي انتظره عند محطة "المترو" الكائنة بميدان " روكسي" وقـــال لنفســـه لولم تأت بعد خمس دقائق فلن أعود لمقابلتها مرة أخرى ، أنها بنت مدللة لا تحترم المواعيد أبدا ، كان يـــتفحص الكتب ، كان هناك كتاب رغب أكثر من مرة في شرائه لكنه تراجع ربما بسبب أن دخله لم يكن يسمح له بشراء كل الكتب التي يرغب في قراءتها ، نظر إلى وجه البائع الملئ بالتجاعيد بشكل يدعو إلى الرثاء ، مد يده وأخـــذ الكتاب ، وقال لنفسه " ينبغي مساعدة مثل هذا البـــائع " كان قد لمحها وهي تتحرك ببطء ناحية المحطة ، حول عنها نظره وأعطى البائع جنيها وأخـــذ منـــه البـــاقي ، وضعه في جيبه بينما يتشاغل بـــالنظر إلـــى عنـــاوين الصحف وأغلفة المجلات ، اقتربت هي منـــه وحطـــت راحة يدها اليمنى على كتفه اليسرى معلنة عن وصولها ، التفت إليها بتثاقل فوجدها تبتسم ، ابتسم لهـــا بـــدوره

مداريا أنه لمحها من قبل ، قالت بينما يبتعدان عن بائع الصحف والمجلات :

- يبدو أنك لن تكف عن دفع نقـودك فـي شـراء الكتب !

سألها بعدم اكتراث ما قالت !

- لماذا تأخرت ؟ كدت أن أرحل.

بدا عليها الغضب... أوشكت أن ترد عليـه بكـلام يوحي بأنها لا تهتم برحيله أو بقاءه ، ولكنها تخوفت من إغضابه فلم تعلق على ما قال ، كانت تعـرف طباعـه جيدا وتعرف أنه يبدأ هكذا عنيدا وسرعان مـا يصـبح رهن إشارة منها ، ماذا يهمهما لو هددها بالرحيل بينما هو ينتظر وصولها مهما تـأخرت ، ابتسـمت بـدلال وشرعت في حديث متحمس عن الكيفية التي استطاعت بموجبها الخروج لمقابلته هـذا المسـاء ، قالـت أنهـا اضطرت إلى ارتكاب مجموعة مـن السـخافات مـن أخطرها كذبت على أمها وهي المرة الأولى التي تكذب فيها ، وأن ابن خالتها – وهو مهندس كلف في القـوات

المسلحة ورتبته " رائد " – قابلها عند مدخل العمارة وطلب منها أن تعود ليحكي لها أخبار تهمها كذبت عليه هو الآخر ولم تطاوعه وجاءت من أجل موعدها.

كان يتسمع إليها في ركن من أركان المحطة في خلفية البنت التي تكذب جدارا ممدودا استخدمه شخص غير محدود الهوية في كتابة اسمه بخط عريض لونه أزرق ، كان فستان البنت أزرق اللون أيضا ، قال لنفسه متحاملا " في كل مرة تدعى أنها كذبت على أمها للمرة الأولى من أجلي ، لكنها برغم كونها تكذب وتنسى أو تتناسى تتصرف وكأنها صادقة وكأنني على استعداد دائم لتصديقها ".

كانت البنت حلوة وكانت خفيفة الظل وهي تكذب ، وكانت خفة ظلها هي سلاحها الذي تطمئن إليه تماما ، وفي حساباتها أن هذه العلاقة هي علاقة العمر كله ، لكن الولد وهو خريج علوم يعمل بوزارة الصحة كان يقول لنفسه أنه برغم أن هذه العلاقة قد استمرت طوال هذه الشهور فإنها سوف تنتهي بشكل أو بآخر بلا ثمرة ، هي في حساباته علاقة من ذلك النوع الذي لا يلزم طرفا

من الأطراف بأي وعد ولا يترتب على إنهائها أي أثر، فقط عليه أن يقرر أنه لم يتفاهم معها بالقدر المطلـــوب وأنهما مختلفان، عندما كفت عـــن الحـــديث المـــتحمس أخذها من يدها وهم بركوب المترو الذي وصل ، توقفت هي قبل أن يصلا إلى الباب ، جذبت يدها من يده بقـــوة وارتسم على وجهها تعبير شرس ، سألها عما حدث فلم ترد ، انتظرت إلى أن تحرك المترو وغاب عن الأنظار ثم توجهت إليه وحملقت في وجهه قائلة بضيق :

– قلت لك ألف مرة لا تمسك يدي فـــي الشـــارع ، مبسوط ؟

الأستاذ ممدوح زميل أخي رآنا من نافذة المتـــرو ، مبسوط ؟

لم يشأن أن يبدي اهتماما بالأســـتاذ ممـــدوح الـــذي زعمت أنه رآهما ، لم يبد عليـــه أي شـــعور بالـــذنب فاغتاظت منه ، كان يقول لنفسه " أنهـــا بنـــت شكســـة وبارعة في تعكير الجو ، تحتاج إلى هدهدة دائمة وهـــو شيء لا يطاق ، أنها تختلق الأحداث التي لا تخطر على

البال ، وجدها تنظر إليه مترقبة منه ردا فقال لها وهو يحرك ذراعيه في حركة استسلام وعجز عن التصرف :

- وماذا بعد ؟

جلست على مقعد المحطة وقد أحكمت وضع قناع الحيرة على وجهها المتوهج ، جلس بجوارها وقد تحير في كيفية إخراجها من حالتها ، لكنه لم يصل إلى قرار ، كان عليه أن ينتظر ريثما تبدأ هي في إخراج نفسها من ضيقها المصطنع " كان يثق أنه افتعال مكشوف ولا أساس له من الصحة" ساد صمت قامت بعده من قعدتها ونظرت إليه ، ربما فكرت للحظة في تركه بسبب بروده الظاهر لكنها تراجعت ، قالت في لهجة متوعدة :

- هل غيرت رأيك ؟ لماذا تجلس هكذا ؟

وفي استسلام – رد – وقد اطمأن تماما إلى أنه لم ينهزم :

- أبدا... هيا بنا... ها هو المترو أمامك فاركبي.

وكانا صامتين وكان الزحام المتطلع إليهما بعيون مرتابة يجعلهما مجبرين على الاستمرار في الصمت ، لكنه صمت من نوع آخر ، صمت متحالف ضد كل العيون ، قبله كان الصمت معركة يخسرها من يبدأ بالكلام، تصادف أن قامت سيدة من مقعدها وأشارت للبنت أن تحتل مكانها، عندما جلست أفسحت له حيزا بينها وبين الرجل الذي كان يشاركها المقعد المخصص لراكبين، تأفف الرجل من ذلك الأسلوب الصبياني لكنه ون على نفسه سبب أنه ينوي الهبوط في المحطة التالية ، كف عن الاستياء وقام تاركا للولد والبنت مكانه أيضا ، عندما نظر الولد من النافذة اكتشف أن المترو كان قد وصل إلى محطة الجامعة ، أشارت هي إلى الاسم المكتوب على جدار المحطة وسألته إن كان يعرفه ، هز رأسه بالنفي ، قالت البنت لنفسها :

- لاشك في أنه رجل مهم فاسمه مكتوب على كل حيطان المحطات من ميدان النزهة حتى وسط البلد.

قالت مشاكسة :

- لا شك في كونه شخصية هامة كيف لا تعرفه ؟

قال وقد بدت عليه إمارات الانفعال :

- هل مجرد وجود اسم على الحيطان يعني أنه لشخصية هامة ؟

ضاقت هي بجوابه لكنها كانت مبسوطة من نفسها ، عندما توقف المترو عند محطة كوبري الليمون وجدت الاسم مفرودا على الجدار بطول قاطرتي المترو فاستفز فيها بحق حب الاستطلاع... سألت الولد :

- لولم يكن لشخصية هامة فلماذا سمحوا بكتابته بهذا الشكل ؟

قال الولد ليخلص نفسه من سخف الموضوع :

- هل رجل مريض بلا شك ، مجرد رجل دخلت دماغه فكرة خاطئة جعلته يتصور أن وجود اسمه على الحيطان سوف يجعله مشهورا ، قبل ذلك حسبته عضوا في مجلس الشعب نجح بفضل هذه الدعاية المحكمة لكنه ليس كذلك ، اعتبريه مجنون شهرة.

قالت البنت بهدف إغاظته :

- مجنون ؟ أمرك عجيب لماذا تكــره كــل رجــل مشهور وناجح ؟

ورد الولد منفعلا هذه المرة ، وكأنه ضــاق بــالأمر فجأة :

- أنه يستخدم أسلوبا صبيانيا سخيفا لتأكيد ذاتــه ، وأنــا متأكد من أنه رجل تافه لا يستحق كــل هــذا النقــاش، تصوري رجلا لا يدع محطة ترام أو أتوبيس أو مترو أو حتى جدار بناية نظيفة إلا واستخدمها في كتابة اســمه، أراهنك على أنه إنسان فاشل ، لو كان لديه شيء يعملــه لعمله ، أنني أضحك سخرية منه عندما أتصوره حــاملا فرشاته الضخمة في يد ودلوا في اليد الأخرى ، يجــوس في شوارع المدينة ليلا كلص يبحث عن جدار لم يلــوث بعد ليقوم بتلويثه.

سكتت البنت كأنما اقتنعــت أو أرادت أن تتظــاهر بالاقتناع لكن الولد كان قد أصبح مستفزا بشكل يصــعب فهم أسبابه ، ربما كان يشعر بأنه لم يتحكم فــي نفســه

وراح يسترسل في حديث تافه حول شخص تافه ، وكلما فكر في ذلك ازداد توترا وعصبية ، جاهـد ألا يطفـح الأمر على السطح ويعود للثرثرة في الموضوع نفسـه ، قال لنفسه " هذه البنت خبيثة ، أنها أخبـث ممـا كنـت أتصور ، لقد جعلتني أثرثر بحماقة وجلست تتفرج "

وصل المترو إلى نهاية الخط ، عندما هبطا وشرعا فـي عبور ميدان الشهيد عبد المنعم رياض في طريقهما إلـى ميدان التحرير تصاف لحظتها أن التفت الولد إلى اليسار فوجد الاسم مكتوبا على جدار مبني حكـومي نظيـف، اغتاظ وهمهم :

- أنه يزداد خسة ووقاحة ، تصوري ، يفـرض علينـا اسمه فرضا ، يجعلنا مجبرين على حفظ الاسم غصـبا ، ما رأيك ؟

قالت البنت وكانت قد أوشكت على النسيان :

أنت تكرهه لأنه أكثر منك شهرة ؟

قال الولد بحماس :

- من أكثر أهمية عندك ؟ صاحب اللافتات المنتشـــرة على حيطان المدينة أم عمر الشريف ؟

كان الولد قد أفلح تماما في تخليص نفسه من الشعور بأنه تكلم في أمر تافه بحماس وخرج من الشـــعور بأنـــه صار في نظرها تافها ، كان وقد وضع الســـؤال بهـــذه الصيغة وخلص من الأمر كله ذلك أن البنت ما أن سعت اسم عمر الشريف حتى ذابت في عوالم خرافية ، انشالت من هذا العالم وحلقت في فراغ... أسلبت عينيها للحظـــة وهي تتمثل وجه نجمها المفضل بنظراته الثاقبة وبريـــق عينيه الصاحيتين ، ابتسم الولد لنفسه مطمئنا إلى ســـلامة موقفه وقال لنفسه " إنها أتفه مما كنت أتصور ، إنها بنت مهووسة بنجم يهتم بأموره الخاصة ولا يعرف عنها شيئا ، أنها تتابع أخباره المنشورة في الصحف وكلها أكاذيـــب ."

كانا قد وصلا إلى مدخل سينما قصر النيل ، كان هو قد حجر مقعدين في صباح اليوم نفسه ، وانتظرا ريثمـــا يحين موعد الدخول، كان قد اعتاد منها أن تطلب بنفسها ارتياد أي دار للعرض مادامت تعرض فيلما لبطلها سواء

كان عربيا أو أمريكيا ، وكان الأمر يضايقه عند ارتيــاد دور العرض من الدرجة الثانيـــة ، ذلــك أن تعليقــات روادها الماجنة كانت تجعله يتأذى ، لكنه لحسن حظــه فإن هذه الدار محترمة أو تفرض على روادها الاحترام.

في مقعديهما كان يلحظ التوق يشع مــن العينـــين ، كانت تتعجل بداية الفيلم لدرجة أنها طوال المــدة التـــي عرضت بها جريدة مصر الناطقة وحول العـــالم وحتـــى الرسوم المتحركة كانت تتأفف ضيقا وتتلهف على رؤية البطل ، لم تهدأ إلا عندما ظهر على الشاشة، ارتاحــت وأحست بالمتعة، بل أنها بدأت فـــي الالتصـــاق بكتــف الولد... أخذت راحة يده اليمنى وراحت تعبــث بهـــا ، وعندما أحس بالدفء ، بدأ معابثاته المعتادة ، لقد اعتـــاد مثل هذه الأمور ، قبل أن يظهر البطل تهمس محذرة من عيون الآخرين لكنه عندما يظهر تتساقط كل الممنوعات وتتزاح ، يصبح الحـــب مســـموحا ويمـــرح فـــي كـــل المنعطفات التي تستجيب ، كان الولد يعرف هذا الأمـــر جيدا ، وكانت البنت قد أفهمته أنه يشبه عمر الشريف من بعض الوجوه... ربما خطواته وتدويرة العينين وشـــكل

الشفتين ، وقد عجب الولد من هذه الاكتشافات أول الأمر لكنها كانت لصالحه وإن كـــان لا يصـــدقها فإنـــه كـــان يجاريها ، قال لنفسه " أنها علاقة من نوع خاص ، يمكن تصنيفها في بند التسليات قصيرة العمر"

على الشاشة كان النجم الشهير وسط مجموعة مـــن المساجين ذوي الثياب الرثة يقومون بدك الأرض تنفيـــذ لأوامر الحراس ، بعدها حمل صخرا من مكان إلى مكان ، بعدها انهمك مع المساجين في عملية غســـل الصـــخر وهو أمر لم تفهمه أبدا ، كانت قد بدأت في الابتعاد عـــن الولد الذي أبعد يده هو الآخر... لم تفهم البنـــت لمـــاذا سكت نجمها في ألف مشهد كان من الواجب أن يتكلم فيه ، لما سألت الولد لم يوضح شيئا طلب منهـــا أن تتريـــث حتى النهاية ، كان العرض قد استغرقه تماما وراح يلملم أطراف الموضوع ويربط المشاهد ويجاهد أن يفهم ، كان البطل الشهير يبدو مستسلما إلى حد يثير الشفقة ، كـــان بريق العينين قد خبا وانطفأ فما عادتا تبرقان ، كان النجم المحبب قد أصبح الآن منكسرا وتافها إلى حد مؤســـف ، وكانت البنت تريده بطلا لكنها رأته وهو يتهاوى طـــوال

العرض ، يتهاوى ويتردى في ممارسة أعمـــال حقيـــرة وسط جمع تافه من المساجين الذين قبلوا أن يتحولوا إلى مجرد آلات أو مجموعة من التماثيل الحجريـــة ، كـــان الولد قد توتر لكن البنت برغم أنها لم تكن قـــد فهمـــت كانت أكثر منه توترا.

عندما دخلت بطلة الفيلم في زيارتها للبطـــل وســـط الزنزانة الكالحة التي توحي بالموت لـــم يتحـــرك مـــن جلسته فوق المقعد الصخري ، ظل ينظر إليها في عجز مشلول ولا يقول شيئا ، قال كلاما لكنه لم يكـــن مناســـبا بأي مقياس ، كان قد تحول إلى مجرد شيء فوق مقعـــد صخري ، برغم صراخ البلطـــة ظـــل البطـــل عـــاجزا مهزوما راضيا بعجزه وهزيمته متوافقا معها... قال الولد لنفسه " أنهم يمارسون لعبة التخويف بواسطة الســـينما ، أنهم يحاولون إقناعنا بأنه من الممكن أن يتحول الإنسان إلى مجرد شيء وهذا خداع مكشوف "

في المشهد الختامي وبرغم الخلط الشديد في دماغ البنت راحت تحلم بالمستحيل ، ودت لو كانت قضـــته قـــادرة بالفعل على تعديل الموقف ، لكنها كانت ضعيفة بشـــكل

مخجل ، أمسكه الحراس ، ربطوا القدمين بحبل ، في فراغ شجرة كالحة علقوه كذبيحة مسلوخة الرأس إلى أسفل والبدن المعلق يهتز بفعل الضربات التي تنهال عليه من هراوتين جلديتين في يدي جنديين يمارسان الضرب بآلية ، شهقت البنت أكثر من مرة ، ربما لو ضربوها هي ما أحست بكل هذا الفزع كانت الضربات تزداد قسوة ووحشية ، وعندما انتفض البطل للمرة الأخيرة وتأكد لديها أنه مات صرخت بشكل أرعب الولد تماما ، كانت البنت قد انهارت تماما وعجزت عن الاستمرار مصلوبة العود، سقط الرأس وراحت تئن أنينا موجعا ، أضيئت أنوار الصالة فأحس الولد بالحيرة ، كان الرواد يلتفتون وهم يهمون بمغادرة السينما ، تقدمت سيدة ترتدي ثوبا رماديا وأخرجت زجاجة عطر من حقيبة يدها ، ساعدت البنت في نصف إفاقة... عندما فتحت عينها قالت للسيدة :

– ضربوه حتى الموت ، ضربوه... رأيت الدم يتسرب من أذنه...

قالت ذلك ثم أجهشت في بكاء حار ، كانت عيناها محتقنين وغائبتين عن الوعي ، ولقد ساهمت السيدة في التهوين على البنت حتى قامت وخرجت ، وتعب الولد كثيرا حتى عثر على سيارة " تاكسي" تحركت بهما ناحية مصر الجديدة ، كانت البنت مرتاعة برغم كل ما قاله الولد من أن الأمر كله مجرد تمثيل في تمثيل وأن عمر الشريف لم يصب بأي أذى وأنه حي يزق وربما حتى يلعب البريدج وأنه لم تلمس جسده ضربة وأن المضروب الحقيقي هو المشاهد لمثل هذه الأفلام ، كانت البنت تتساءل " هل من المكن حقا أن يضرب الإنسان حتى الموت " كانت قد جاءت لترى بطلها في عرض آخر، شيئا رقيقا وعاطفيا وناعما فاذا بها تراه صامتا مسحوقا يرتضي مواجهة الموت بشكل بشع ومرير وبعد سلسلة من الهزائم التي عاشها وفقد فيها كل شيء نبيل ، لقد مات كحشرة وهذه هي المشكلة.

عند ميدان روكسي وقفت السيارة ، نزل الولد والبنت ، كانت البنت خائفة فطلبت منه أن يوصلها حتى باب العمارة ، كانت لديها مجموعة هائلة من الاستفسارات

حول ما رأته الليلة ، لماذا يرضي الإنسان أن يتحول إلى مجرد أداة عاجزة دون صرخة احتجاج ، ما معنــى أن ينظف الإنسان صخرة في جبل ، كيف ينطفــئ بريــق العينين ؟

وهل من المعقول فعلا أن يضــربوا إنســانا حتــى الموت ؟ قال لها الولد كلاما كثيرا لم تسمعه منه قــبلا ، فسر لها بعض الأمور التي لم تكن تعرفها، كان يعشــر نحوها بحب حقيقي ، كأنما جعلها الضــعف والخــوف أقرب إلى قلبه ، قال لها أنهم يستطيعون قتــل الإنســان لكنهم يعجزون عن تحويله إلى حشرة ، أقسم لهــا أنــه أحب عمر الشريف أكثر لأنه كان رائعا في أداء دوره.

في أحد الشوارع نصف المعتمة فوجئ بها ترتمــي في أحضانه تتحسس بدنه في عفوية متشنجة وهي تجهش بالبكاء ، تشد نفسها إليه أو تشده إليها ، وكأنما تتخــوف عليه من أن يطير من بين يديها ، تود لو تختفي داخله أو تداريه هو داخلها ، تحير الولد لحظة وقال لنفســه " إن صناعة السينما تتقدم بشــكل ملحــوظ ، إنهــا تــزرع المخاوف في قلوب البنات أيضا ".

عندما مر عابر سبيل من التقاطع الموازي للشـــارع نصف المعتم حاول الولد أن يبتعد عنها بعــض الشـــيء ربما من باب اللياقة وحسن الأدب لكن البنت ازدادت به التصاقا ومنعته من الابتعاد، لم تكن في تلـــك اللحظـــات تهتم بأي شيء ، أحست بالخوف على الولد ، تأكد لديها أنها تحبه بشكل لا يحتمل ، وكان الولد بـــدوره يشـــعر نحوها بمزيد من الإشفاق الممـــزوج بالحـــب والحنـــو ويحيطها بيده بحيث جعلها ترتاح إلى صدره ، ليس لأنه يشبه عمر الشريف كما كانت تدعى كذبا، لقد خرجـــت عن كل ما هو مألوف والتصقت به في عرض الشـــارع ولم تتخوف من أحد على ظهر الأرض بدون أن يكـــون لديها أو لديه تفسيرا لما يجري ، هل كانت تحنو عليـــه كأم أو أخت أم أنها كانت تحتمي به كأب أو أخ أكبـــر ، كانت ضعيفة بقدر ما كانت قوية ، قادرة علـــى العطـــاء بقدر ما كانت راغبة في الأخذ في لحظة اللهفة الخائفـــة والرعب البشري الشجاع عندما يلتحم نـــبض الإنســـان الحي بنبض الإنسان الحي في اللحظة الحية.

الكاتب مايو ١٩٧٧

شوق

أوشك الشيخ سعدون على ذكر ما جري من "بهلول" لكنه خاف... ربما من نظرات المجلس المصبوبة عليه في مندرة الحاج عوف ، ربما أخافته نظرة الرجل الجالس فوق مقعده العالي كأنه عرش فرعون ، متجبرا بعينيه الضيقتين العدوانيتين المتحفزتين... تراجعت الكلمات في حلق الشيخ سعدون وتمنى لو تسلل الدفء إليه بعد مشواره في عز البرد مع شيخ البلد... أمسك بذراع شيخ البلد يستجديه القول متصنعا المداعبة في غير أوانها :

وكما لو كان شيخ البلد قد غرق في "هدومه" عندما سمع ذلك الصوت المشروخ المرعوش ربما رعبا ، وفكر " أنهم مجموعة من الهياكل الشجاعة المتحمسة في غير حضرته ، يدأبون على الثرثرة باطمئنان واثق في غيابه بينما يتحولون إلى تهتهات مذعورة عاكفة عن استعراض حماساتهم ويفرون من الكلام حياله وكأنهم أرانب برية ، ولست أعرف على وجه اليقين من أين أبدأ... آه يا سعدون الكلب ، ألم نتفق في طريق عودتنا

أن تؤدي تلك المهمة وتخلصنا ! مشايخ آخر الزمن... لو كنت أعرف أساليب الملتوية في تضخيم وتبسيط الأمور حسب ما تريد ، لو كنت أعرف حتى كيف أبدأ ما تراجعت مثل.... ؟

قطع عليه تفكيره صوت الحاج عوف الفحل المسيطر بينما يلتفت إليه في نفاذ صبر :

- طب قول يا شيخ البلد.

واحتار الرجل كيف يبدأ فقرر بخبث أن يدفع عن نفسه تلك المهمة الصعبة ويحيلها مرة أخرى إلى الشيخ سعدون :

- أبويا الشيخ سعدون وياك يا حضرة العمدة على ما أفك حصرى.

وانتفض بالفعل محاولا أن يبدو في نظر العمدة محصورا... لم يكن حتى يهمه ما يجري بعدئذ ، المهم أن يفر من المجلس على أي صورة... وزمجر الشيخ سعدون قائلا في سره " وهل هذا أوان ذلك الحصر يا ملعون ! أهي وسيلتك التي لن تبتدل في الخلاص

والهرب ساعة الجد ؟... خطى تنفك جذور رقبتك... ما حيلتك يا سعدون... ؟ وإذا عزمت فتوكل يـــا رجـــل... انس تلك النظرة المصبوبة عليك في غل وكأنها لســـان لهب من نار جهنم.... وعلام تلك العنجهية يا عـــدة ! آه لو تعرف ما جرى... سبحانك يا رب... تضع سرك في أضعف خلقك.... "

تململ الحاج عوف في قعدته قلقا وأوشك على عصر كوب الشاي في يده أو رميه في وجه الشيخ سعدون الذي سرح... قال في صوت حاد ليقطع السكون البغيض :

- جرى أيه يا شيخ سعدون ؟ مكتوم ليه ؟

قال الشيخ في عقله " داهية في أمك ، رجل غشـــيم ولسانك زفر... قال مكتوم... كتممة تكتمك أنت وصنفك "

توجه العمدة إلى الرجال الساكتين والجالسين علـــى الدكك وكأنهم هياكل حجرية مصبوبة لا تجســـر علـــى الحركة أو التفكير وتكتفي بأن تكح أو تـــزوم رفضـــا أو

إيجابا... تفحصهم وقال لنفسه " يا فرحتي بالرجال " ثم قال في شبه لوم نتشف مستهين :

وزام بعض الرجال بما يشبه الشكر في حين اكتفى البعض بالزحزحة يمينا وشمالا ونظروا مع العمدة إلى الشيخ سعدون الذي قال في حماس مفاجئ وكأنه يصفع الصمت بكلماته التي اختارها كما يؤكد دائما أن خير الكلام ما قل ودل :

- بهلول يا عمدة راكبه عفريت.

جعر صوت العمدة في غل مكظوم وحرص على أن يظل في مكانه :

- عفريت لما يلهفك... ما تقعد معووج وتتكلم عدل يا بن ستيتة.

وهنا احتقن وجه الشيخ وقال وقال متأففا وكأنه يدفع عن نفسه تهمة :

- عيب يا عمدة.

وتراجع العمدة قليلا أو تظاهر بأنه يتراجع وقال في شبه ود وألفة :

- أقول أيه بس... ! مش تقسر كلامك ؟

وارتاح الشيخ لهذه اللهجة ودمدم في صوت هادئ وكأنه يفكر في إغاظة الحاج عوف بطريق خفي :

- الولد راكب دماغه... غلبنا معاه أنا وشيخ البلد... أنا بقول توصله يعني.. تراضيه بكلمتين ، ولا قرشين....

وكأنما اشتعل رأس الحاج عوف وتـأجج... وزن في دماغه دبور أهوج... حـاول أن يتماسـك وراح يـتكلم بصوت مطمئن معتز وملامح مرتاحة واثقة بينما يهتـز بجسده الضخم مع رأسه إلى الأمام والخلف في حركـات بندولية تتوافق مع مقاطعات الكلمات وتوحي بالاستعلاء والشموخ :

- بقى كده يا شيخ سعدون ؟ يا راجل اختشـى علـى شيبتك... أنى.. أنى أروح لبهلول ؟ الحـاج عـوف عدة كفر عسكر يروح لبهلول داره ؟ أنت انهبلت يا شيخ سعدون ؟ عقلك زقزق ؟ الناس بتكبـر تعقـل

وأنت... أنت عقلك بيخف... أكتبلك تروح المرستان ؟

وتقلصت ملامح الشيخ سعدون وسط همهمات لا يستطيع تفسيرها في صالحه أو ضده... وخيل غليه أن يغوص في سابع أرض وأنه عجز بالفعل عن رد تلك الإهانة التي لم يتعرض لمثلها أبدا طوال عمره...

سكت لحظات قبل أن يستجمع شتات ذهنه الغائب ويسمع صوت نفسه واهنا جريحا دون أن يدري أن كان هو نفسه الذي يتكلم ، وكيف جرؤ لسانه على الكلام برغم الرب الغاضب المهموم :

- كتر خيرك يا عمدة... ما أنا برضه استاهل... على رأي المثل : ما ينوب المخلص ، طب على الحرام يا راجل ما عاد لساني يلافظ لسانك... بقى كده ؟ المرستان ؟ الغرض... كتر خيرك... كتر خيرك.. سلامو عليكم يا رجالة...

قالها في حشرجات ذبيحة عاجزة وهو ينتفض من جلسته ويترنح في خطوات مهزومة مجرجرا نعليه فوق

أرضية المندرة في اتجاه الباب... متساندا على تمتماته ، مواجها لفحة الهواء البارد متسمعا صوت المسبحة التي انفرطت بين كفية وزاغت بعض حباتها من بين أنامله إلى الأرض الموحلة لكه لم يفكر في استعادتها ناسيا اعتزازه بهذه المسبحة على وجه الخصوص...

قالوا في الكفر إن الشيخ سعدون لعن الاج عوف وهو خارج من باب دواره وأن الحاج سمعه بنفسه وحلف – ليس بالطلاق هذه المرة – برأس أبيه أن يطلب له الخانكة في الصباح " والصباح رباح " وأنه سوف يزفه في طرقات الكفر بحيث يجعل من لا يشتري فيه يتفرج وتحمس البعض ضد الحاج عوف بينما اكتفى البعض بتقرير أن العين لا تعلو عن الحاجب... لكن أكثرهم أبدى تحفظات واعية بعدم التدخل قائلين للبعض المتحمس أنهم لا لهم في الثور ولا في الطحين وعليهم أن يوفروا كلامهم ، لأنه عندما يقع كبار البلد في بعض فمن الحكمة أن يكتفي الصغار بالفرجة...

وفي صباح اليوم التالي أكد مشحوت – وهو تلميذ مشاكس يهوي دس أنفه فيما لا يخصه – أن الشيخ بات

في الجامع وأنه اعتصم به لا يبارحه متخوفا من لـبس القميص والزفـة الموعـودة وتهـامس الرجـال وهـم يضحكون في شماتة كأنهم يرغبون في سماع المزيـد... وأضاف مشحوت أنه سمع الشيخ في صلاة الفجر وهـو يطلب من الله بعظمة لسانه أن ينتقم من الحاج عوف بأن يسخطه أو يعميه أو يحش وسطه وعشرات أخرى مـن الدعوات الشبيهة منعوه من الاسترسال في سردها وهـن يزومون واصفين مشحوت بأنه ضلالي وفتان وراغـب في شعللة الموقف.. وعندما حاول الدفاع عن نفسه قالوا له أنه لا يركعها لأنه درزي... وحتى لو حلف الف يمين بالبخاري فلن يصدقوه... لأنه لو حدث فرضا – وهـو فرض مستحيل – أن آمنت كلاب البلد وراحت تصـلي فإنه و بالذات لن يصلي خصوصا في الفجر... ومن ثـم فهو يكذب خصوصا وأن البعض منهم صلى الفجر خلف الرجل ولم يسمع منه سوى آية الكرسي وبعض الدعوات الطيبة... ثم إن المسألة ليست خلاف الحاج عوف مـع الشيخ كما قرر الأفندي المدرس... إنها حكاية شـوق... تلك البنت العجيبة التي جرؤت علـى مواجهـة العمـدة

وجعلت من بهلول مجرد ستار وهمي تمارس الكيد من خلفه... صحيح أن الشيخ – وهو سيد العارفين – وربما كان ذلك بسبب الغيظ أو الغل أو الخوف – قال مرة أن بهلول تزوج شوق على كتاب الله وسنة رسوله... إنما هل نسي الناس أنها اختارته بنفسها ليكون زوجا... وقد فسروا الأمر يومها على نحو يؤكد وعيها وأنها ناصحة لضمانها الخلاص من خلوة مع رجل عاقل ربما يركبه عفريت فيركبها بدوره مرة أو مرتين... أما أنها ضاقت بعشرة الحاج عوف فهو احتمال قائم لأنه غشيم وتصعب معاشرته على الجن الأحمر... وربما تكون راغبة في غرس الوساوس في صدره حتى يبطل ما اعتاده من استخدام يمين الطلاق في كل معاملاته صدقا وكذبا... أما أن تكون شوق نفسها راغبة في معاشرة بهلول وما يدور حول هذه الدعوى من حواديت عن فحولة بهلول وقدراته الخفية فقد رفضوها قائلين أنه لم يكن هناك في الماضي ما يؤيدها لأنهم لم يسمعوا قبلا ما يؤكدها... بل أنهم لم يعرفوا عن أموره التحتية شيئا ذا بال... ثم إن تلك الدعاوى تصح لو قيلت عن واحدة غير شوق.. أما

شوق بوجهها الطفلي وصوتها الخافت النبـــرات وحيـــاة تقاطعيها وعودها فلا... ولو أن شوق رغبت مـــرة مـــا فكرت في بهلول....

كان الأمر محيرا بالنسبة لأهل الكفر ، فالذي حـــدث جعلهم يتفكرون فيما يجري وأن تظاهر أكثـــرهم حـــذرا بعدم الاهتمام... كلهم يحب شوق ويتمنى لـــو أدى لهـــا خدمة... أي خدمة.. لو بانت لهم وأشارت عليهم طالبـــة نجوم السماء لحاولوا الإتيان بها... ولقد ضاقوا بالفعـــل مما عمله معها الحاج عوف لكنها سكتت ورضيت بفكرة العودة إليه عن طريق اختيار رجل والسلام يبيت معهـــا ليلة على نحو ما ليحلل لها وله فكرة ردها إلى دواره... وعندما اختارت هي بنفســـها بهلـــول تشـــدقوا بكمالهـــا وشرفها وأصلها... كان بهلـــول بالنســـبة لهـــم مســـخة وأضحوكة.. وكان الأمر طبيعيا أن يسخروا منـــه كلمـــا شافوه... وحتى أصغر عيل في الكفر كان يجرؤ علـــى ضربة على قفاه ولا يغضب... على العكس.. يبدو ساكنا وبليدا وكأنه صخرة وبعدها يبدأ في الضـــحك المعتـــوه

ويكتفي بتفحصه في إمعان قبل أن يصرخ في وجه الولد بصوت حيادي وربما متعاطف :

- طب روح إنشالله تتلهلب (انت) واللي خلفوك.

وهو يتحدث إلى أهل الكفر أحيانا بنبرات رجل ناصح واع أو يحاول أن يكون كذلك في نظرهم فيبدءون في الضحك الساخر منه ومن أفكاره مهما كانت عاقلة... فينظر إليهم في غضب مغلول وهو يهز رأسه للضاحكين منه مهما كانت مراكزهم أو أعمارهم..

- طب والمصحف... والمصحف انتو مواشي..

وهنا تبدأ المطاردة المعتادة لأنه يقولها ويبدأ في الرمح فرارا من صفاتهم ولعناتهم ، والحقيقة أن بهلول كان لغزا محيرا لم يلتفتوا له أو يحاولا تفسيره قبلا.. قال البعض أنه من أولياء الله الصالحين... حط في الكفر لتحل فيه البركة... وقرر آخرون أنه شيطان وواع مدللين على ذلك بقدرته على مجادلة الأفندية في مسائل الحساب بشكل لم يعهدوه أبدا مما جعلم يعجزون عن مغالطته ولو كانوا على حق... وكثيرا ما كشف لبعض

الأفندية عن أخطاء فادحة وقوعا فيها...أما مشحوت ـ وهو كاذب ويصعب التعويل على تفسيراته ـ فقال أنه هارب من الليمان ومحكوم عليه بالإعدام وأنه سفاح مشهور يتخفى... وعشرات التفسيرات راحوا يستعيدونها عن بهلول صاحب الوجه المعلول الأصفر الذي لمك يكن ليوحي أن كان بالحق معتوها أو ناصحا... وكان البعض يضرب كفا بكف غير مصدق أن هذا البهلول الذي لم يرفض لأيهم طلبا يجسر على معاندة الحاج عوف... حين خصوصا وأنه يسوق الهبل مع الشيطنة... وقد ساد هذا الرأي إلى بعض التلاميذ راح يردد ما أشاعه مشحوت من أنه ضحك على شوق نفسها وعلى الكفر كله...

نظروا في عيون بعضهم بعضا غير مصدقين... كانت المسألة في بدايتها نكتة أو لعبة أو أي شيء يستحيل أخذه على محمل الجد يمكن إضافته إلى نوادر بهلول الجمة والتي اعتادوا عليها كوسيلة وحيدة متاحة للتسلية بعد شقاء النهار.. وكم كانوا يضحكون كلما مر بهم أو جاءت سيرته أو شتمهم كما اعتاد وراح يجري

كعادته.. أما أنه أخذ شوق من حضن الحاج عوف فهـو أمر فوق كل التصورات ويصعب التسليم به هكذا بـدون محاولة... مجرد محاولة لتفسيره وفهمـه.. صـحيح أن الحاج عوف كان خصما لدودا للعديد من رجـال الكفـر المحترمين وأنه ظل متعاظما ومعتزا بروحه إلـى حـد الغرور... وأن سلوكه جر عليه المصائب واحـدة إثـر أخرى.... ولكنه لم يهتز أبدا أو يتزحزح... ظل شامخا ومهيبا إلى أن وقع في المحظور يوم رمي عليها يمـين الطلاق الثالث في لحظة نحس مشـئومة وكأنـه نسـى روحه... متصورا أن الأمر بسيط ويسير الحل ليس فقط لثقته في إمكان ردها إليه ولو بالقوة وإنما أيضـا لأنـه كان يعتقد أن شوق تهواه إلى حد العبادة...

الغريب في الأمر أن الحاج عوف رفض تصديق ما جرى برغم علمه بأنه جري واسترسل في رفضه متأبيا بأن بهلول خدعه وضحك عليه وأضـحك عليـه نـاس الكفر... راح في البداية يصب لعنته على رجاله ويخسر ودهم... واندفع في تأكيد هوسه بأفعال مستهجنة من بينها ما ذكره مشحوت أيضا ــ وهو كاذب بلا شك ــ من أنه

فعل فعلة شنعاء مع الدكتور سلمان " وهو طالب في إعدادي طب وقريب لمحشوت بشكل يصعب تحديده" وكان قد حشر نفسه مثل الأفندية في مسألة شوق بدعوى أنه يفهم هو أيضا ربما أكثر مما يفهمون ، مؤكدا أن شوق حرة في أن تترك الحاج عوف مادامت صبية وعفية وجميلة ومادام هو عاجز عن التعامل معها كامرأة على خلاف ما يتصورون.. وقد وصلت تلك الدعاوى إلى مسامع الحاج عوف فأقسم يمينا بالحرام من دينه أن يخصيه أو يقطع لسانه ويرميه مع المواشي في الزريبة ريثما تطيب جراحه... ولا أحد يدري أن كان قد نفذ في "الجدع" وعيده على تلك الصورة التي يؤكدها لهم مشحوت... المهم أن سلمان نفسه اختفى مدة وعاد ليمشي في دروب الكفر صامتا وزائغ البصر مكتفيا بالإشارة بيده للجالسين على المصاطب بالسلام... وقد تحمس الأفندية وتلاميذ المدارس وراحوا يجهرون بالعداء للحاج عوف باعتبار أن احتمال حدوث هذا الأمر يخصهم على نحو يصعب على رجال الكفر تفسيره... وقد خرست أكثر الألسنة خزاقة خوفا من بعض

التصورات المرتكبة عن إمكانية قطع الأطراف الفعالة التي يتحول الرجل بدونها إلى بهيمة يمكن ربطها في زريبة الحاج عوف الذي كانت نظراته المغلولة الحاقدة تتأمل مشحوت كلما رآه في دروب الكفر في ضيق شرس راغب في محاكمته عن تلك الأقوال الشنعاء.

وبدا لأهل الكفر كأنما راحت هيبة الرجل أو بدأت تروح عندما شرع يحدث أطيافا مزعومة ويتشكى في نبرات مقهورة ذليلة من غدر شوق وخسة بهلول وقلة أصله... كان يهيم في دروب الكفر على غير هدى في سكون الليل البارد مناديا على شوق.. ساجدا وكأنه يصلي لإله وثني لا يسمع ولا يجيب ، وتساءلوا إن كان قد فقد عقله وسيطرته على تفكيره.. أشاعوا أنه كان قد كتب كل أملاكه لشوق... في حين زعم الأفندية ممن يعملون في البندر أنه أضاع كل ما كان يمتلكه ربما بسبب الخمر والنساء أو لعب القمار أو كليهما... وأن شوق لم تكن سببا حقيقيا لما جرى وإنما هي أطماعه في أملاكها الخاصة التي رغب في تبديدها أيضا... لكنها رفضت وفرت في تلك الظروف المواتية ولم ترغب في

العودة إليه أبدا... وقد اعتاد الرجل حمل سلاحه القـــديم الذي كسته طبقة من الصدأ كفيلة بتعطيلـــه تمامـــا عـــن الاستعمال... ولما كان الجهد يوهنه يرتمي في أي ركن لكنه لا ينام... تظل عيناه مفتوحتين ويظل لسانه دءوبـــا على تأكيد أن شوق تهواه إلى حد الهوس وأنها أســـرت إليه مرارا وهو يحتويها وتحتويه أنه سيدها وتاج رأسها ويدفع عن نفسه أن يكون عاجزا عن إشـــباعها وأشـــياء أخرى خارجة عن حدود الأدب يستحي الرجال والنســـاء عند سماعها فيمصمصون الشفاه أسفا وحسرة وينسحبون خلف أبواب دورهم يسستترون بها من طيش أفكـــاره ، لكنه يطاردهم بصوته الجريح كوحش يخور تحت وطـــأة سلاح مرهف حاسم... ولما عجز أهل الفطنة عن إفهامة أن السهم قد نفذ وأن البلوى حطت وأنه لا جدوى من كل ما يعمله أو يقوله ، أكتفوا بمراقبته حاملا سلامحه القديم بين يديه ، مصوبا إياه نحوهم في وضع الاستعداد غيـــر عارف أنهم يعرفون أن السلاح فاسد وأنه من الأجـــدى استخدامه كعصا يتوكأ عليها ، ذلك أنهم لاحظوا عـــودة الذي انحنى أو الذي كان منحنيا من زمن بعيد بشكل غير

ملحوظ... وهل كان من الممكن ملاحظة انحناء ظهره قبل ذلك ؟ لقد ظل الحاج عوف طوال عمره عمدة الكفر وسيده وتاج رأسه ، وكان من العسير أن يكتشف أيهم أدنى مظهر من مظاهر الضعف أوالوهن سواء في عوده أو تقاطيعه أو صوته... أما ما طرأ عليه فجأة فقد كان غريبا ومرعبا ، وقد أنكر الرجال ما كان يتشدق به بعض الأفندية وتلاميذ المدارس العابثين من أن يتسلل إليه في إصرار عنيد وأن أيامه قليلة وعليهم بالتالي أن يصدقوا ما تراه أعينهم من انهزام عوده وارتجاف نبراته وزوغان يعينه وتوهان عقله.. كل ذلك رفضه الرجال وجادلوا الأفندية ليس عن اعتقاد في صحة دفاعاتهم وإنما للتأكد من صدق ما يقولون... قالوا بأن الله على كل شيء قدير وأنه يحي العظام وهي رميم... ولم يفهم الأفندية بدورهم أنه احتمال وجيه أن يخشى الرجال استعادة الرجل لقواه وعودته كما كان عفيا وغشيما ، ويومها لن يغفر لمن يوافقون على أمثال تلك الأفعال فعلتهم.. بل إن أحدهم انبرى للتدليل على صدق مخاوفهم بذكر ما جرى في العام الماضي من أمر عوده الشيخ

سليمان من المقابر حيا بعد أن أقاموا على روحه مندبة لسبعة أيام بلياليها... وإذا به يعود معفر السحنة والثياب ليسأل عن الميت... وبرغم هذه الحجة الحية الكفيلة بإسكات الأفندية وتلاميذ المدارس إلا أنهم ردوا عليهم ببعض النظريات العلمية غير المفهومة والعسيرة في حماس أحمق لم يتنازلوا بموجبه عن أفكارهم أبدا.. بل أن أحدهم وكان أزهريا راح يسخر من الحاج عوف وجبروته القديم وراح يقلده في مشيته في محاولة للنيل منه ، فكان كما قال الرجال مع المثل القائل بأنه بعد وقوع البهيمة تكثر السكاكين..

وفي مساء شتوي رطب بشكل يصعب احتماله أراح الرجل واستراح ، وجدوه مرميا إلى جوار حائط متهدم وجسده منكمش على نفسه ربما بفعل البرودة أو بفعل الأوحال التي غطته.. كان الفم مفتوحا عن أخره ربما عن لعنة أو صرخة أو اعتراف... والعينان تلتمعان في ذعر مجنون أخرس... واليدان تمسكان بالسلاح في استماتة بينما يتسلل الصدأ ليغطي الكفين مع كتل الطين المتجمد من الرطوبة... ولا أحد يدري أن كان قد مات

مسموما أو مرعوبا في ذلك المساء البليد المعتم... ولم يكن يهم الرجال كيف مات... المهم إنهم خلصوا منه فتزاحموا يتنافسون في إظهار الوفاء والود... وقدموا في حماس مفرط على مضض كل ما من شأنه أن يجعل الجنازة تليق بالمقام... ولقد ثرثر أحد الأفندية ساخرا من تلك الجهود قائلا أنها عبث وأن أساسها الخوف الساذج من احتمال غبي محسوب بأن الرجل سوف يعود حيا من مقبرته كما حدث قبلا للشيخ سليمان.. ودأب الرجال على زيارة المقابر متعللين كذبا بقراءة الفاتحة على روح الرجل الطيب وهم يطمئنون في حقيقة الأمر على سلامة المدفن.

وخرج بهلول ليسير في الجنازة في صمت وقور متحفظ.. ذل أهل الكفر من تلك النظرة الجسور الجهنمية المشحونة بالنهم المتحفظ.. ربما كما قال الشيح سعدون يومها ، نظرة مارد مسحور خرج لتوه من قمقم بهلول... وخاف بعض الرجال فعلا وكأنهم حيال عفريت مصور... عفريت مرعب لكنه خائف ربما من نفسه... ثابت الخطو لكنه حذر... جاد الملامح إلى حد يصعب

تصديقه.. ومن حدقتي عينيه ينبعث شعاع شيطاني شره يتعامل مع كائنات مخيفة ويبتسم في شيء من التركيـز الواثق المطمئن المتحفز... كل ذلك لم يكن جديدا فحسب وإنما كان مخيفا...

واحتاروا إن كان من المناسب معاملته كرجل مدرك لما يدور حوله أم يجسرون على صفعه كمـا اعتـادوا ليسخروا منه... غير أن المشهد لم يـدع لهـم فرصـة التصرف على هذا النحو فاكتفوا بمحاولات تفسـير مـا جرى له.

وفي صباح اليوم التالي بانت شوق... ممشوقة القوام كتمثال فرعوني قديم في كتاب التاريخ... لامعة العينـين كقطة شكسة واثقة.. عفية كأرض غطاها طمي النيل... دافئة كشمس أمشير ، فواحة العطـر كحديقـة ليمـون وبرتقال... صوتها هديل حمام زاجل منغوم مرتـب... الطهر في الملامح القدسية... تتمشى فتسقط القلوب عند أطراف الأقدام وتكف الألسنة عن الدوي المألوف... ولما ضحكت دوت ضحكتها رنينا شيقا في جنبات الكفر فكان العالم كله لحن أبدي لا يموت... وازداد الرجال بها حبا

وولها... وعادت تحمل جرتها في خطوات باسلة وعنيدة وشامخة صبية في عز شبابها يتزايد وهجها المعشــوق دفئا ونعومة... كلؤلؤة في شمس صيف أبــدي لا يكــف عن العطاء... حلوة بصورة لم يألفوهــا أبــدا... لكنهــا قاسية برغم كل شيء... قسوتها تدمي وتميت... ألم يمت الحاج عوف من أجلها أسوأ ميتة ؟

وخرج مشحوت " لم يبطــل طــوال عمــره ســرد الاكاذيب لكنه في هذه المرة كان يقسم بــأغلظ الإيمــان بحيث مال البعض إلى تصديقه وقال لأهل الكفر إن شوق لن تظل في أحضان بهلول مهما كان ما يتصورنه مــن احتمال بقائها معه... وأنها تبيت النية لتركه مؤكده له أنه " بهلول " في نهاية الأمر ، وقد قام بدور " المحلل" مــن ناحية الشكل كما كانت تريد... أما بعد ذلك فلها فــارس من أهل الكفر تفكر في اختياره...وارتاح الرجــال إلــى هذه الأكذوبة لأنها كانت تكفل لهم أن يفكروا أو يحلمــوا بامتلاك شوق... ولكم سال لعاب الرجال كلما شافوها أو سمعوا صوتها أو حتى جاءت سيرتها وراحوا يتسابقون في وصف تقاطيعها وعودها... أكثر من ذلك أنهم كانوا

يتمثلونها في أمسيات الخميس عند فعل الفعل المألوف... بل إن النسوة كنن يعمدن إلى ذكر اسمها وهن يلبدن في أحضان الرجال بدون حرج... وشاع في الكفر أن الرجال يزدادون حماسة وقدرة مادامت سيرتها تطوف في أذهانهم.

وكان من المستحيل أن ينتزعها شيطان من عقول الرجال مهما كانت الظروف... والحلم بامتلاكها مرة ، وكأنها أمنية العمر بأسره... لكن الأيام مرت ورجال الكفر يتفكرون في الحيل الكفيلة بالخلاص من بهلول الذي ظل.. وبدأت الفكرة التي أطلقها مشحوت يوما تفقد رونقها وتسلل القنوط من إمكانية الحصول عليها إلى صدور الرجال العفية الفحلة الراغبة في الأخذ والعطاء...

مجلة الإذاعة : أبريل ١٩٧٢

مشاهدات عاشق الملامح المستحيلة

تقديم :

عبثا كنت أدور بحثا عن الوجه الذي لفظني قبل أن يستقيم عودي ربما اشمئزازي من ملامحي... أجهد نفسي في تخيل تقاطيعة الصارمة ، أعجز عن الاستمرار في طرق الأبواب الموصدة متوهما سقوطي الممكن من فرط الإجهاد... إفر من مشاوير العناء متمثلا وجه أمي الشاحب خشية أن أفقده عنوة... أتبث بالملامح رافضا كل وساوسي حول احتمال موتها... أأسلك وأنت ازائي بعودك الفارغ أن تريحني بالفهم... تتأملني بدون اهتمام وبحذر... أضيق بوجه أمها الحاد التقاطيع فأشرع في معاودة البحث عن محبوبتي المأمولة... ألملم تقاطيع وجهها وأنصبها تمثالا خرافيا أكاد أن أعبده... أذوب رغبة في احتواءه واعتصاره إلى حد الانصار في بوتقة واعدة بدوام العطاء.... أتخيل أمها تلهث بالرغبة وترتجف بالأشواق قبل أن تخلص أطرافها في حياء حذر وتسألني للمرة الألف لأعود لتكرار الدورة بادئا بالبحث عن الوجه الذي نسيته ، أتراجع حالما تسر إلى بأنها

ليست سوي مسخ لمستحيل يعشعش في حيز الدماغ المرتعش بالرغبات النهمة... أنحدر من دائرة البحث العقيم وأرتكن بكياني المنهك فوق صدر أمها الناهد اللاهث يتدفق المشاعر... لحظتها أرفض العودة الشقية بمتابعة الطرقات الصاخبة دون جواب لأجدك إزائي وأوقن أنني أدور حول نفسي..

الغائب :

افتقدتك منذ لفظتني بالسكوت ونسيت وجهي... كنت أناجين دعوبا في أحلامي بلا معني فيغلفك الصمت المريب حين أسألك عن سر غيابك الممدود وإن لم تكن أنت أصل وجود... ؟ تتأملني متعجلا وتلقي على ساعتك نظرة ثم تختفي واعدا إياي بالعودة في مساء الغد... كلما هممت بإمساكك واللحاق بك أعجز.. أجدني في صلب الليل المعتم واقفا فوق فراشي مادا ذراعاي إلى أعلى وكفاي يوشكان أن يلمسا سقف الغرفة... وقبل الشروق بلحظات تتسلل مع جحافل العتمة مخلفا في داخلي شكوكا في أن تكون طيفا... وتهزني أمي لأفيق وأسمع حديثها المعاد عنك في شرود حالم متأمل للفراغ السرمدي...

قلت لها في إحدى المرات وأنا أتميز من الغيظ أنك أسطورة... تزداد عيناها اتساعا وعمقا فأرى في حدقيتهما صورتين شاحبتين في البداية.. تزداد العينان حلكة فتبدوان كبئرين عميقين ساكنين... تتضح الصورتان كلما اتسعت العينان وزدادتا سوادا وعمقا بالاندهاش.. أرتعش رعبا وأتراجع متخوفا أن يخرج الوجهان من صلب العتمة الرحبة وينفذان في لحم أكتافي... أصرخ في هلع ممعن في الإصرار على الصمود برغم خطوات التراجع العفوية... أسألك في داخلي وأنا موقن بأنك سراب... متى أراك ؟ يجيبني صدى صوتي في حدقتي عينيها الحالكتي السواد... متى أراك ؟

أتمثل رحلتي الأخيرة إليك وباب وجود الموصد يتحدى الكف المستميت ويحجب النداءات الملهوفة الرنين... ووهم أن تكون مطلا على الطارق من خلال ثغرة في الباب الوهمي يجعلي أتحسسه مع الجدران الصماء فاكتشف الخدعة واستدير إلى وجهها المذعور برسم الأحباط فوق وجهي...

" ربما مات يا أمي في غفلة عنا وعجز عن إعـــلان موته غير المتوقع... ربما كان في أقصى شمال العـــالم جثة محنطة فوق سرير مسوس الدعائم... ما جدوى أن أعود لمتابعة البحث وأنا لا أعرف حتى على وجه اليقين أي الأبواب بابه ، أتذكر رحلتـــي الأخيـــرة غليـــه فـــي متاهات القرى البعيدة وسراديب المـــدن المعتمـــة فـــلا أستعذب فكرة العودة أو حتى الاطمئنـــان الكـــاذب إلـــى احتمال العثور على وجهه مادمـــت لا أعـــرف بـــالقطع تفاصيله المميزة برغم كل حكاياتـــك ، وأنـــك تطـــالبين بالسعي المرهق وراء منحة تقبع في صندوقك الســـحري المسكوك دوما بينما أني أزهـــدها... وأســـألك أن كـــان ممكنا أن أطل إليه لو وجدته بعيون لائمة يحركها عتاب سنوات أضعتها ، أنتظر بينما هو يدور في أركان العالم تاركا إياي ، أنتظره مكتفيا بإطلاق طيفه كل ليلة يحـــوم حولي ويرهق الرأس المرق بالسعي أثر أطياف أخـــرى من بينها طيف محبوبتي المأمولة... وكيـــف أستشـــعر الأمان في حضرته بينما سنوات البحث المهـــين وإذلال

التوقع الدائم للحظة السقوط في عماق العمر تصرخ في لحظة فراره اليومي قبل الفجر أنه السبب "..

أفهمتها يا أبي أن احتمال موتك هو الأكثر معقولية... الأجدى لها أن تكف عن تكرار الحكايات المحفوظة عنك وترك الاسترخاء الكسول والشروع في معاونتي على الصمود لإكمال رحلة المستحيل الذي عشقته... لكنني عجزت عن الاعتراف الصريح بأنني لا أعرفك أصلا منذ اكتشفت وجودي... وتخيلت لحظة عربيدة أوجدتني ولفظتني لقيطا بلا مأوى غير ما أصنعه وأحوطه بنفسي... لكنها كانت تعشق طيفك إلى حد الجنون فحرصت أشد الحرص عليها ولم أقرر بالقطع أنني لا أنتظرك وإن كل ما أعرفه عنك محض حكايات قديمة كانت تقولها في ساعات الصفاء مؤكدة أنك بارع في الطواف بقاربك الصغير في أنحاء العالم وعبر متاهات البحار السبعة دون رهبة... وأنك تعود إلهيا سرا في مواسم الحصاد وتمنحها وصاياك مع ما تجلبه من كنوز البلدان الغريبة " حول عودتك إليها سرا كانت تتكلم بصوت خافت مرعوش برعب توقع اكتشاف الأكذوبة

المكررة"... وفي كل مرة كانت تشير إلـــى صـــندوقها المسكوك دوما دون أن تجرؤ ولو مرة واحدة على فتحه لتزيل شكوكنا التي كانت تستفحل يوما بعد يوم.. وكـــم كنت أتوق إلى فتحه مرة ، لن شيطانا لعينا ركب دماغي وراح يمرح في داخلي هاتفا بأن الصندوق خال من كـــل شيء..

الوارث :

كنت أفتقد الأمان كما ينبغي يا " سها " ففكـــرت أن أستعيده تواقا إلى الخلاص من ســـخف أشـــباح المدينـــة المقنعة بالأضواء الملونة ومـــن ضـــجيجها المرهـــق... وهروبا من مرارة اللعاب الدائمة... إفراز البطن الخاوية من عرى شتاء المدينة المكشوفة في قلب الصـــحراء... منذ طردني بليل عاريا منكل ما يسترني ، واجهت فـــي منحنياتها رعب التوقع الدائم للحظة السقوط تحت واحدة من عجلات سياراتها المجنونـــة... وأتحمـــل عشـــرات الصفعات والركلات الحادة بدون أسباب كافية... بل أنني في رحلة العودة المسائية كنت أتخفى عبثا مـــن كلابهـــا

المسعورة وقططها البرية الشرسة وألهث بـــالفرار مـــن المطاردات الوحشية المتنمرة...

عدت إليه أسأله.. اندفعت بالرغبة في الاقتراب منـــه لسرد حكاياتي الصغيرة عن أحلام عمري فـــي عينيـــك الخضراوين وخصلات شعرك الذهبي المسترسل إلى ما تحت الركبتين ، وعن براعتي في تغطيتك به من عريك في أمسيات الخميس والتفنن في النفاذ إليك من خـــلال.. استدار مهملا ياي عند بابه... أمســـكت بـــه راجيـــا أن يفهمني... أفهمته أن وجهك الصبوح سوف يوجد فأشاح عني بالسحنة الصـــارمة وغلـــف الوجـــه بالانـــدهاش المفتعل... كان يسأل الغرباء عن سر عـــودتي متوهمـــا أنني ما عدت إلا لأخذ حقي في ميراث قـــديم لـــم يســـو بينا... فقد صرخ متوثبا :

– افصح عن حقيقة ما تريده...

قلت أرجوه أن يستمع إلى ما تبقى من كلماتي :

– لن أسألك عن وصايا أبي التي أدعت أمنـــا أنهـــا كانت في قاع صندوقها السحري...

لحظتها راح يرمقني بغل مسرف فـي التحـدي... استحال كل منا إلى زوج من العيون المحدقة بالإصـرار في وجه الآخر... لكنني خفت مـن السـقوط منهزمـا متشككا في درع الحماية الذي حملتـه حرصـا... قـال والشرر يتطاير مع حبات اللعاب صهدا لافحـا لا أدري كيف يخرج من جوف كائن..

- لن أعطي شيئا.

أوضحت أنني ما جئت إلا رغبة في العطـاء حتـى النفس الأخير ربما لأستشعر الأمان مرة ، ساعتها كنـت أسترجع كل ما حصلته من معلومات عن كيفية حـرث الجبال والصحاري وفرشها بالخضـرة بكـل درجاتهـا لأكون جاهزا إذا ما عن له أن يسأل... لكنه كان يعـيش حذره الدائم من لحظات الحساب...وجهه المربد يتحـول إلى تقطيبة عريضة مرعبة... عيناه تنغرسان في لحـم أكتافي سهاما مسمومة يستحيل الإفـلات مـن حـدتها ، فأخاف إلى الحد الذي أهم فيه بالعودة ، لكنني أتماسـك بإرادة العطاء وأسأله عن أمنا وإن كانت في صحن الدار كعادتها فيسألني متوعدا عما إذا كنت قد ظللـت طـوال

السنوات أدبر أمرى ، ويضيف أنه دبر أموره هو الآخر استعدادا للحظة المواجهة... قلت له صراحة أنني نسيت فكرة الحساب الذي يعيش رعبه وأننى أشك في قيمة صندوق أمنا المسكوك.. حين حاولت لمسه بحكم صلة الدم متمثلا فيه وجه أبي الذي فقدته شرع في الفرار كأنما يخشى أن أنقض وضوءه وشرع يحكم خيوط دفاعه... حاولت أن أغير الموضوع راغبا في النفاذ إليه وإزاحة خوفه الممزوج بالخبث الساذج... تمثلته عاريا من كل شيء حتى ثياب وقارة المحبوك ساعة أن يمارس الحب مع زوجته خفية فابتسمت أوهم الكل بأنه مسحور لأنه ورثه عن أبي فراح يحركه في ضجر متأفف ويستر في ذات الوقت نفسه بالضحكات المجلجلة فتبدو محاولاته غلافا محدود الطاقة يشف عن أحاسيسه المتوقدة الحذرة التي تغلي داخله...

وكنت أسأل نفسي :

– متى... متى تواتيه الشجاعة في أن يقول ما يريد بالحق قوله ؟

كنت لا أعول على فهمه قبل مواجهته فتجاهلت كفه الضخمة وظللت أتسمع بدون رهبة همسات أهل القريـــة المتعجبة التي تؤكد أنني أتلقـــى بـــالحتم ضـــربة مـــن شمروخه المارد ، كان على أن أتمثلك باســـما بوجهـــك الأسمر وعينيك عميقتي الأغوار لأتمكن مـــن الصـــمود أمام نظراته القلقة المتوترة وكفه المرعوش بـــالتحفز... وأعد نفسي لسؤاله عن أمي..

الصم :

كانت تتوازى خلفه لا يبين سوى طرف ثوبها وهـــو يقف كسد يحول دون رؤيتها بوضوح.. خفت أن ترعبها أعاصير اللحظة العصيبة لو صرخت فيه محتجا واضعا في الاعتبار احتمال أن يكون قد أفقدها مقـــدرتها علـــى السمع بعد أن شحبت أمام ناظريها الأشياء واستحالت إلى أشباح متحركة بلا تفاصيل مميزة... قلت لنفسي أنني لو اقتربت منها ما عرفتني.. وأنها حتى لو ســـألتني عـــن أسمى فسوف أعجز عن ذكره لأنني نسيته فـــي زحمـــة المدينة البعيدة وأنني لابد لو تذكرته أن أصرخ لأسمعها مادامت مصابة بالصمم...

استدرت تاركا وجهه الحاد التقاطيع مخلفا وجه أمي الشاحب فوق جسدها الضامر إلى حد مؤسف خشية أن يدفعه إصراري على الحديث إليها ولمسها وربما النوم في أحضانها ـ لأحس الأمان ـ إلى إبعادها عن الدار ليقرر في رسالة تالية يبدأ بديباجته المألوفة ويقرر أنها ماتت بالسكتة أو الذبحة وأتخيلها حينئذ جثة متعفنة عاجزة عن رد النداء... قلت لنفسي أن تركها بمحض الإدارة خير من مواجهة استلابها عنوة مادمت قد خسرتها في الحالتين...

الفرار :

في ركن الحانة المعتم شربت كئوس القهر وخزي الاندحار... عدت أتطوح بالنسيان المؤقت... دفنت مرارة الإخفاق بالدخول العفوي إلى الشقة المقابلة بعد خطوات التراجع كنت أتمدد إلى جوارها ساكنا بينما تأود كعادتها في وضع النداء... ألعن لحظة اكتشاف سرها بعد ساعات الحصار القليلة التي انتهت بفتح أبوابها الموصدة... رغبت بلا رغبة في أن أعرى صدرها الناهد... اتخذ من ثديها الأيسر وسادة... أحرص على

أن تكون حلمة الثدي في تجويف الأذن اليمنى لأتسمع الوجيب المرعوض بالتوقع.. أغوص بلا رغبة سوى الإمعان في تأكيد الفتح... أدوس بسنابك حصاني الجامع أرضها الملساء... أنزلق عفوا بدون محاولة لاسترجاع السهام المنطلقة... ينفلت لجام مشاعري فيطوف حصاني مطمئنا في الأغوار السحيقة بدون رهبة.... وأتمثلها مدينة رحبة مرعوشة بإلتماع السيف والحراب المعربدة.. أطأ ساحاتها الرحبة مرخيا لمشاعري اللجام راغبا في التراقص فوق مسارات النصر بلا مقابل ، وعندما أضيق بتكرار النزف بلا رغبة سوى الرغبة... أخرج قبل الفجر تاركا لها مهمة إعادة الأشياء المبعثرة كما كانت في انتظار زوجها الحبيب كما كانت تناديه يوما...

السقوط :

أشرع في الهبوط بمشاعري فيمتد السرداب الخرافي إلى أعماق سحيقة... أقدامي تمعن في الهبوط المتوتر المغلول دونما توقف... أستعيد فكرة تدمير نفسي القديمة التي أفهمني صديقي أنها سخيفة وأنه من الأجدى أن أظل حيا أفكر في مهرب... أسهر الليل بطوله رغبا في

انقاص وزني... أعجب كيف تستحيل الرغبة في العطاء والمنح إلى رغبة في التدمير بعد استحالة الوصول إلـى بر الأمان... أمعن في الهبوط ربما لأنه ليس صعبا.... فالدرجات العليا تدفع الأقدام دفعا إلى الدرجات السـفلى وجاذبية الأرض تمارس نشاطها الأبدي في حياد سـلبي وعليه فمنذ فكرت في الهبوط وأنا أهبط بحركة الأقـدام فوق الأسفلت الحامي بلا إرادة... قبل ذلك كنـت أجـد مشقة بالغة في رفع السابق ونقلها صعودا إلى الـدرجات التالية معرضا روحي لضغط الدم في حيز القلب المنهك بمشوار البحث عبر السنوات الشابة... أضغط وأضـغط متوهما أنني أرتفع... لكنني اكتشفت الخدعة يوم وجدتني لم أرتفع عن الأرض شبرا... يومها أحسسـت بسـخف الأشياء وعايشت رغبة حادة في تدمير كل ما أملك مـن طاقة حتى النفس الأخير مدفوعا بخري اندحاري منكمشا حول نفسي خجلا من فرار العيون المستحيلة ممعنا فـي الانكماش إلى حد التلاشي...

العشق المستحيل :

" بحثت عن وجهك في كل الوجوه لم أجد... طوفت وحدي في السهول والصحاري وفـــي متاهـــات المـــدن النائية... نشرت شراع قاربي وجدفت في النهر عمـــرا بدون جدوى... انزلقت إلى مداخل البحار ألملم تفاصيل وجهك المرغوب أنصبها تمثالا من طين أرض قريتي ، ألبسته ثياب العرس الوردية... شقيت بالبحث موقنا أنك هناك في ركن من أركان العالم ربما عثرت عليه صدفة في واحد من بيوت القرية البعيدة.... يتـــداخل الممكـــن والمستحيل فأقرر في لحظة الهوس أن الوجـــه ســـوف يخرج بالحتم من بطن أرض وطئتهـــا ليزهـــر كنخلـــة شامخة تعطى ثمرها أبدا "...

العشق :

مارست أكذوبة الخميس وانتظرت... توهمت يـــوم رأيها مع زميلة الجامعة أنها لحظة البداية الممكنة... لـــم أكن متأكد من أنها بالقطع محبوبتي.. وددت لـــو تكـــون لحظة الميلاد المرتقـــب فـــي أن أقـــول بعـــد صـــمت السنوات... لفظت صبار عجزي ورحت أركض نحوها هادفا إلى اختراق حاجز الزمـــان واحتوائهـــا فـــي ذات

اللحظة... عجزت عن احتمال عجزي لما رأيت خصلان شعرها المسترسل الهفهاف وهي تطوح برأسها الصغير لتزيحها جانبا وتمنح العيون فرصة التوهج الذي انتظرته ، ارتجفت بالرغبة في لحظة الوداع الأولى وكفها الصغير في يدي كعصفور وديع يهمس..

- متى أراك ؟

سؤالها كان بداية الخيط الذي تعلقت به... وجه صديقتها المتعجب المغتاظ يرتبك بالجرأة الراغبة... سألت نفسي وأنا في طريق العودة كيف استبحت لروحي نسج الأحلام الممزقة الأطراف ومعاودة الانتظار... ماذا أملك غير مرارات الأمس زادا يلبد في سقف الحلق ويسري في الأعماق... ماذا أملك ألا ظل الكلمات الخرساء... وملامح وجه محزون برغم وشاح البسمات غلاف يداري تلال السأم.. واسأل نفسي أيضا إن كنت لم ألفظ أحلام الأمس بقهر أيام العجز المتشابهة والتي كانت تبدأ بدورتي في المدينة أثر كل فجر باحثا عن طيفها المستحيل... وعودتي مكدودا معفر السحنة والثياب... خاوي الجوف إلا من صبار عجزي الذي ارتضيت

مضغه في المساء وحدي على مضض.. وأسأل نفسي إن كانت هي " هي " وأنها ليست كيانا بـــديلا عــن أحـــلام عمري الصرعى... وكنت أرغبها إلى حد نسيان فكـــرة الرد على الأسئلة المكررة للمرة الألف...

وفي الصباح التالي عقدت أمرى... شرحت رغبتـــي في التراجع ربما في جزء من ألف جـــزء مـــن لحظـــة الشجاعة... أخرجت أحزان عمري من قوقعتها العتيقـــة المعفرة ، حصيلة لحظات القهر والعجز عبر الســـنوات الفائتة والتي أخفيتها عمدا وجعلت مـــن تـــرددي الـــدائم سجني وسجاني متخوفا أن تفلت مشاعري الهوجاء مرة ، تنفجر ثم تتسرب وتتكمش إلى حد التلاشـــي بالســـكون والاكتفاء بلحظة الأخذ والعطاء البديلة... لحظتها رسمت شبح ابتسامة مرتاحة شرعت في النوم منتظـــرا صـــباح اليوم الجديد..

لمست كفها وسط الجمع الذي يصب فوق ملامحهـــا عيونا نهمة والذي تتحرك غرائزه بعنف واندفاع يبـــرره التألق النادر في عينيها وكل وجهها.. أحسست رعشـــة تشملني وترجني رجا وقطرات من دمي تندفع وتتـــزاحم

نحو الكف الذي احتويته بينما تتراجع قطرات أخـــرى... رغبتي في الاحتواء تتعادل وأمنية الفـــرار والتـــرك... لكنني شرخت التراجع ونفذت من صلبه إليهـــا بالرغبـــة الصادقة في الأخذ والعطاء...

قلت لها إن الموت الحقيقي يا سالي " هـــو أن نقتـــل الرغبات فينا... ولما كانت رغبتي الممكنة ضمن عديـــد من الرغبات المحالة أرجأت احتواءهـــا وطبـــع القبلـــة الأولى فوق شفتيها المرعوشتين بالتمنى.. خفت أن أبدو مدفوعا بمطامعي أو أن أبدو غبيا وعاجزا عن تحقيـــق رغبتها... استعدت مقدرتي على المضـــي نحوهـــا ثـــم تسمرت مكاني للحظة... ربما كانت من القصر بحيـــث يستحيل أن أحسبها في عمر الزمان... ربما كانت هـــي العمر كله مختصرا ومضغوطا في لحظة... عبر هـــذه اللحظة التي استحال على أن أحصيها وأدرك ســـرها ، تداخلت الرغبة في الاحتواء والتراجع الجبان... تاهـــت أحاسيس الأمان فامتزجت برجفة الخـــوف الرعديـــد... وانصهرت فكرة التأني والاندفاع فـــي بوتقـــة التـــوتر الحريص... ماتت أشياء وولدت أشياء... ونظرت إلـــى

النهر أمامي فوجدتني على الحافة أتـــأرجح بـــين إرادة السقوط والبقاء.. تحطمت فكرة كنت أسحبها حقيقة مـــن أنه لا شيء في العالم يساوي شيئا أخـــر... لأن هنـــاك دائما كفة ترجع الأخرى حتى في أدق موازين الـــذهب.. فاحتمال وجود جزء من ألف ألف جزء فـــي صـــالح أي الجانبين قائم ، وإمكانية الاختيار باقية... ومن هنا كـــان رعبي من عجزي في تلك اللحظة عن الاختيار...

في مساء الخميس التالي كنت قد اختصرت العالم في محبوبتي متناسيا كل شيء يتوارى خلف جسدها النحيـــل الذي تضخم بالاقتراب إلى حد الاحتكاك بحيث غطى ما خلف هذا الكيان من أشياء ليصبح هـــو العـــالم بأســـره مضغوطا... نسيت مخاوفي وطبعـــت فـــوق الشـــفتين القرمزيتين قبلة ســـريعة.. أحسســـت صـــدرها الناهـــد معصورا في صدري.. دقات قلبها تنبض سريعة متلاحقة فاستشعرت الأمان أو ما يمكن أن يوصف بأنه الأمـــان وهي تحتويني بنفس العنف الذي أحتويه به..

لم أخلص من رعب التوقع خوفا من أن أخسرك يـــا سالي... خفت من خوفك حين تتصورين أنني ما عرفتك

إلا طمعا في التألق النادر في عينيك وكل وجهك... خفت أن يدفعك الخوف من فرار الممكن إلى الابتعاد حرصا... حاولت أن أروغ من حذر الكائن المرعوش داخلي لكنني كنت أتابع أحلامي في لحظة ارتياح الرأس المنهك فوق صدرك والدفء يتسرب من خلاله إلى كل مكوناتي... أرغب في أن أختزل العالم في لحظة التدفق المعطاة في حين كفك بافتعال الضحكة... أضحك من الأعماق ربما لأنسى مخاوفي من وجه أخي الأكبر الذي كان يرقبني في عتمة المساء من بين جدران حجرتي ويلوح بكفه الضخمة فأنكمش في فراشي متوقعا أن يهوي فوق أصداغي بضربات مغلولة أو أن يسقط شمروخه فوق دماغي هادفا إلى تدميره وسحقه...

مشوار التراجع الأخير :

قبل الهبوط في سرداب التراجع كنت أسأل إن كان ممكنا أن أطمئن إلى وجهك المستكين المحايد يا سالي.. أختنق بانتظار لحظة الحصول وأسأل إن كان في مقدوري مواصلة الرمح بدونك في محيط دائرة المدينة المارد برغم اكتشافاتي المتكررة ، أنني أعود مكدودا إلى

نقطة البداية.. تختلط ملامحك بملامــح الوجــه الــذي صورته كيانا قائما فأهم بأن أســتدير موليــا لصــورتك ظهري متخوفا من التوقف عن مشاوير البحث عن وجه سها المأمول بالاكتفاء...

وقبلما أستدير أرى عينيك السوداوين تطــلان مــن حيث لا أدرى فأحس المهانـــة وأنكمــش حــول نفســي وأتضاءل إلى الحد الذي يوشك أن يكون المهانة وأنكمش حول نفسي وأتضاءل إلى الحد الذي يوشــك أن يكــون وجودي عدما... أعود للغوص برغبتــي فــي العثــور المطمئن داخــل كيــاني المرعــوش بفكــرة التراجــع المتخوف... وعندما أطالع عتابا ذاكيــا فــوق الملامــح المهمومة وفي أغوار العينين المعتمين بعمق المشــاعر بحرس الملامح المتوهجة بالتمني ويؤكدها... أسأل نفسي عارفا الجواب أن لم يكن كيانك جزءا مــن كــل هــي أصله...

ختام الختام :

لو أنها كانت يا سالي ككل القلاع التي صادفتها لأمعنت في اجتياز السهول والجبال ولخوضت في أحراش البحيرات الفسيحة وحدي.. لو أنها كانت بالفعل لأنزلقت في مجاهل البحار بدون قارب.. أبحث عن حصنها العملاق برغبة الصعود المستحيل بدونك... لكنها بالفعل رحلة الصعاب المتكررة التي لا أملك اختيار تركها والخلاص منها ما دمت حيا... سراديب كيانها إشراق بدايات المستحيل المشرف على التحقيق بممكنات العمر العني الشاحب.. ولأنك مشوار الغد فقد أيقنت مؤخرا من أنك جهد مضاف قادر على الدفع في لحظات الملالة والقنوط ، ذلك أنني عرفت يوما أنها تعشش في رأسك أيضا طائرا خرافيا عزيز الامتلاك يشدك كما يشدني للتحليق الطليق من أجل الصعود المستميت في سبيلها صعودا وأن بدا للبعض أنه هبوط... وأنك أخيرا مدخل التحقق لحلم المستحيل يا سالي ودرع الحماية وحتى لا أخشاه وأنكمش بالرعب من ملامحه الحادة الصارمة وشمروخه المارد يتوعد دوما...

وفي مساء الغد سوف نراها ، نمعن في التأمل... نتصيد عينيها الخضراوين للحظة.. فتخلص هي بستار جفونها العيون المرتبكة بإحساس التأخر عن موعدها المضروب سلفا.. نهدهدها بالحنا ونحوطها بالرعاية وهي تنطق الحروف الأولى... ماما... بابا.... نحتضن الكيان الوليد القادر على ذبح أشباح المرارات الأولى وفرش اللحظات بالأمنيات الممكنة يومها يا سالي أناديها كما كنت أناديك أحيانا بالاسم الذي أحببته واصرخ بالنشوة راقصا في ميدان المدينة الكبير رقصة " زوربا " اليوناني في لحظة الأمانة المرعوب...

مجلة " المجلة " سبتمبر : ١٩٧٠

لصوص المدن المسلوبة

" كنا نمارس الحب فلما قلت لها
مازحا : إذهبي ، أخذت الأمر على
محمل الجد وذهبت ".

أ. ش.

السقوط :

في البدء جئت فكانت السقطة.. كنت أردد الكلمات الشائعة وأنساق وراء البدايات محاولا استكناه ما يتوارى خلف الأشياء ، وأحس الانبهار إلى حد الغبطة بكل ما كنت أضيفة إلى رصيد معارفي ، أيامها كنت أتحمس دون إدراك لسخف اللعبة..

" في خطوات المطمئنة كنت أنحدر بدون وعي إلى أسفل ، أغوص في بطء بدون فهم لخطورة الاستمرار في الانحدار والغوص.. ثم اكتشفت بعد فوات أوان التراجع إلى أي حد كنت أنزلق إلى هوة الاستحالة ، فهذا ما كنت أحسه ".

كان كابوسا مرعبا تعلقت خلاله الفراغ ، ويبدو أنه حدث أثر انحدار رأسي في أثناء النوم من فوق الوسادة في بطء كما هي العادة... وقد استطالت اللحظات ورغبة السقوط الكامل أو الارتفاع أو حتى التعلق في أي شيء تدهم المشاعر المرعوبة بالتوقعات... وعندما هزتني زوجتي " تزوجنا بعد التهاب مشاعرنا إلى حد العجز عن احتمال الابتعاد " تعلقت بها من فوري ، أمسكت بها ورحت أضغط صدرها في صدري بعنف واستماتة... أتشبث بها مرتميا في أحضانها وأضغط نفسي إليها كطفل يحتمي من الأشباح في صدر أمه.. وكلما اكتشفت جزءا مني غير ملتصق بها ارتعبت ، وبرغم كل ما قمت به من جهد ساعة بطولها كنت أدرك أنني بالفعل كائن منفصل عنها على وجه من الوجوه ، أنه حتى في اللحظة التي أوشك على الامتزاج بها كنت أعرف أن عرى الظهر على أحسن الفروض متروك بلاحماية من تيارات الهواء الرطب ، لأن كفيها عجزتا عن تغطيته كما ينبغي... كنت أتصبب عرقا على وجه لم عهده من قبل... كنت غارقا بالفل في قطرات العرق وكان من

المفهوم أنها غرقت بسببي هي الأخرى... كنت أتـوهم قدرتي على السقوط الكامل في داخلها طلبا للحمايـة... السقوط بدون رغبة في أن أعود متخوفـا مـن أشـباح الكابوس الذي كان يعاودني بنفس الصورة في الأمسيات الرطبة ، لكنها تأودت ربما ضيقا وربما اشمئزازا مـن سيل قطرات العرق الغزير...تأودت ثم انزاحت جانبـا عند لحظة التدفق... وعرفت ساعتها أنه لم يعد هناك ما يبرر الالتصاق بها على هذه الصورة.. فوطنت نفسـي على فكرة الابتعاد عنها كيما تصرخ...

الامتلاك : التوقع :

قلت لها مرة أنني جئت من العرى إلى العرى ، وإن كل ما ينهكني هو أنني أملك طاقة الحركة فأجدني مرغما على تبديدها في بعض الأمور غير المسـتحبة... وأنـه كثيرا ما حدث أن ذهبت بنفسي إلى أماكن أمقتها وأرغب في لحظة الوصول أن أفر منها... تمامـا مثـل أولئـك الأشخاص الذي كنت أجلس إليهم بمحض اختياري قبـل أن اكتشف بشاعة الجلسة ، فاشرع في اختلاف المعاذير

وانسحب متسائلا كيف عدت إليهم في كل مرة برغم مـــا أعرفه يقينا من استحالة التوافق معهم...

لم أكن متخوفا إذن من ذلك الخاطر اللعـــين والـــذي ظل يطاردني خلال الأيام الأخيـــرة... ذلـــك أن فكـــرة ابتعادها عني تسللت إلى خلسة وجعلت تنتشـــر وتتمـــدد كخلايا سرطان فاجر قبل أن أوطن المحاولة الفاشلة التي حاولت خلالها أن أحتمى بها بينما كانت تتأود وتقـــاطيع وجهها تفضح رغبتها في الابتعاد.. قلت لنفسي أنه مـــن الممكن أن احتمى بها منها تماما كما كنت أفر منها إليها في الأيام الأولى.. ولكنها كانت تحملق في الفراغ متفكرة وتميت بسكوتها المريب رغبتي في احتواءهـــا... ولمـــا واجهت نفسي بما أرى جعلت ألوم نفسي على الاطمئنان الكامل غليها والإنزلاق نحوها بـــدون أن أعـــد نفســـي لاحتمال فقدها... وتذكرت في النهاية أنني جئـــت إلـــى المدينة خاويا وغير راغب في الامتلاك أصلا.. عارفـــا أن قانون الامتلاك يحوي في داخله نقيضه ، أن احتمال ضياع ما ملك يظل قائما كشبح بغـــيض حتـــى لحظـــة الفقد...

كنت قد صدقت نفسي في واحدة من لحظات النشـــوة بأنني امتلكتها بنفس القدر الذي جعلتها تمتلكني ، وأننـــا لابد أن نتبادل الامتلاك عوضا عن عرينا عبر السنوات الفائتة.. حقيقة أنه كانت تتسلل إلى في بعــض الأحيــان عشرات التوقعات... لكنها كانت بارعة في إزاحتها جانبا وهدهدتي كما لو كنت طفلا ، وكانت تكسب الجولة برغم صوت عنيد يلح على بأنها تكذب.. كنت أخرج إذن مـــن الموقف بدون التفكيـــر فـــي إعـــداد نفســـي لمواجهـــة الاحتمالات الصعبة.

في الأيام الأخيرة خرجت مـــن دوامـــة الارتبـــاك والمخاوف بفكرة مؤداها أن الترك هو السبيل الأمثل في مثل هذه الحالات.. لأن مئات التوقعات ظلت تطـــاردني وتنبح في شراسة قطيع من الكلاب المسعورة وتتداولني دون إظهار الرغبة في التوقف.. وكان مستحيلا أن أفـــر ما دامت عصارة التوقعات تلبد في داخلي ، ومن داخلي تمارس لعبة المطاردة.. ولما كنت أعرف قـــبلا أن إرادة الاستمساك بالأشياء تتعارض مع منطق الأمـــور الـــذي يضع احتمالات الفقد في ذات لحظـــة الامـــتلاك ، فقـــد

وطنت نفسي بقدر المستطاع على قطع خطوات العمــر الباقية وحدي بدون الاستناد إلى أحد... المهم أن أمضي سائرا في ساعات الليل والنهار ما دامت لدي الطاقــة أن أمشي وأتنفس وأتفهم أن الغاية القديمة محــض أوهــام لحظات التفجر التي ولدها الإحساس بعقم كل ما أدور في فلكه... وأنها كانت معادلة لرغبة الخروج من واقع إلــى واقع ومن مكان إلى مكان ، وكيف إذن كنتن دءوبا فــي محاولات أن أتجاوز تكــويني بالتضــخم أو الانكمــاش لأخرج من جلدي في النهاية..

قلت إنها كانت تكذب إذن في كل محاولاتها لإزاحــة مخاوفي وأنها كانت بارعة في ذلك بشكل واضح لكنهــا في لحظة السقوط... لحظة الانتفــاض مــن الكــابوس المرعب انزاحت من جانبي فدرت في الفــراغ مــذهولا ومتخوفا ومرتبكا ومغلفا بالصمت أيضا... ذلــك أننــي كنت أتأبى لأسباب لا أعرفها أن أطلب العون منهــا أو من سوها ، فجعلت أسقط وأنحدر وأغوص.. ولما لم أكن قد أكملت أعداد روحي لاحتمال افتقادها تماما... بــرغم أنني كنت أحس المرارة لجهلي سر ما طرأ عليهــا مــن

تغير نحوي... وفي المساء الأخير كانت تبكي على حين أتشبث بها مدفوعا برغبة الامتلاء والشبع (كنت في الأيام الأخيرة أحاول اعتصارها وامتصاصها برعب ما كان يتسلل إلى داخلي من توقعات فقدها) عندما سألتها إن كانت قد سأمت معاشرتي أجابت بالنفي ، لكنني كنت محاصرا بفكرة عودتي في نهار اليوم التالي فلا أجدها " وقد حدث " وبرغم أنني كنت أعرف أنها بفرارها سلبت طفلتي في أحشائها وأنها بذلك أفقدتني كل ما كنت أستند إليه أصلا من مبررات البقاء، إلا أنني لم أكبد روحي عبء البحث عنها واستعادتها طالما أنها اختارت بمحض إرادتها أن تبتعد...

المدينة :

كنت أتطوح في طرقاتها الأخطبوطية بدون غاية... حسبني البعض مسطولا فأفسحوا الطريق وشرعوا في الضحك الساخر... كنت محموما بالصفعة ومهموما إلى حد الذهول... كانت ضحكاتهم تدوى وتعربد في طبلتي الأذنين... لم أكن أرغب في الذهاب إلى البيت الخالي منها... ظللت أترنح بالخطوات المرتبكة... تهالكت في

منتصف الليل... لمحتني امرأة... في الطريق ساومتني... قبل الفجر بساعة كنت أتصبب عرقا وأرتجف في أحضانها... في الصباح دست أموالي في صدرها.. وفرت وأنا أهذى وألعن المدينة التي أنجبتها وسرحتها تسلب قطرات العرق والأموال ومشاركة الآخرين الفراش..

اللصوص :

في زحام المواصلات نشلوا مرتب الشهر قبل سداد الديون... في اليوم التالي سلبوا أوراقي الخاصة ومن بينها بطاقتي... جعلوني بلا هوية لأنهم كانوا ظرفاء... في الترام تشاجروا معي عندما اكتشفوا أنني لا أحمل غير جيوب فارغة... مزقوا بنطلوني من الخلف بشفرات الحلاقة ، حاولت إخفاء عري مؤخرتي فاكتشفت أنهم جرحوها بينما كنت مشغولا بالدفاع عن نفسي... فر اللصوص وسط ضحكات ركاب الترام مني... رمحت أبحث عن جدار أتخفى خلفه دون جدوى.. تحسست جلدي مخافة أن يكونوا قد نزعوه عني... أحسست بالنشوة لأنهم فشلوا في أخذه.. عندما عدت إلى الشقة

عرفت أنهم كسروا بابها وفتشوا عن أشيائي التي عجزوا عن حملها... لم أجد قميصا بديلا ولا بنطلونـــا فرحـــت أضحك في هوس لساعة أو ساعتين... تـــذكرت أننـــي جئت من العرى إلى العرى ولا أرغب في الامـــتلاك ، فجلجلت ضحكاتي حتى سمعت أصوات احتجاج عند باب الشقة تطالبني بالسكوت وتذكرني أنها الواحدة صباحا....

تذكرت لصا فتح باب غرفة كنت أسكنها فوق سطح بيت... بحث عن أشياء ثمينة فلم يجد ، ترك فوق فراشي بصقة تذكارية... كـــان اللصـــوص يعرفـــونني تمامـــا ويتابعون باهتمام بالغ كل ما أضيفة عفوا إلى رصـــيدي من ثياب وأشياء... كانوا بارعين في أخذ ما يروقهم في هدوء وثقة ، وكنت أخرج من البيت فـــي كـــل صـــباح بإحساس عجيب : أنه احتمال وجيه أن أعود فـــلا أجـــد حتى بلاط الغرفة.. ولعل تلك التوقعات أراحتني في كل مرة وجعلتني أخذ الأمر على محمل المزاح الخفيف فلا أنفعل كما حدث يوم فرت زوجتي دون أن أكمل إعـــداد روحي لاحتمالات فقدها...

زوجتي التي فرت كانت قد عقــدت مــع لصــوص المدينة اتفاقا لا أعــرف شــروطه وإن كنــت أعــرف نتائجه... الذي أعرفه تمام هو أنهم كفوا عن مطــاردتي طالما كانت في البيت تحرسه... لكنهم في اليوم التــالي لرحيلها لم يدعوا لــي غيــر عــرى جلــدي الجــريح المؤخرة....

البوح :

كنت أكره الشكاية لأسباب تتعلق بسخف اللحظــة... امتنعت طوال عمري عن البوح بعنف الأحزان... بــلا مقدمات وجدتني أفكر في الأمر برمته وأحاول الخــروج من مرارة اللحظات المقيتة بالبحث عن صديق يسمع فلم أجد... يوم صادفته جعلت أدفع لساني دفعا ليســقط فــي مداخل الكلمات الأولى التي تصورتها مصيدة السقوط في جب القول المسترسل... لكن لساني كان يعاندني بالتوقف عن التلميح ولو من بعيد إلى أسباب التبدل الذي اعتراني في الآونة الأخيرة... كنت عاريا وجائعا وجريحا وكــان من اليسير أن أطلب ما أريد بدون رهبة.. لكنني كنــت أسترجع اللحظات المقيتة التي كنت أبدو خلالهــا ذاهــلا

بدون أن أجرؤ على طلب قرض من أخي الأكبر... كنا في تلك اللحظات نتبادل الحديث في شتى الأمور لكنني أتخوف من أن أكون مرتبكا أو منفعلا أو أي شيء من هذا القبيل... وبرغم أنني كنت أعرف أن المسألة لن تكلفني أكثر من هذا البوح بربة ربما كانت بسيطة ويسيرة بمقاييسه ، وأنه ربما يبدي استعداد متحمسا للعطاء في بذخ... غير أنني كنت أتخوف بشكل مميت أن يعتذر.. كنت أتراجع عن القول ألف مرة ربما لأنني كنت أتوقع احتمالا بعيدا أن يرفض أو حتى يعتذر.. كانت نبرات صوته التي أتخيلها بحروف الاعتذار أو الرفض تحبس الكلمات عند أطراف اللسان وتقوم سدا هائلا يحول دون نطق الكلمات... كنت أتأمل خزانته الحديدية وأستجديها أن تفسح... وأرغب... أرغب إلى حد الموت ألا أكون مفضوحا لديه وأخاف في ذات اللحظة أن يهوي فوق كياني بعرض سلفة قد أكون في احتياج إليها ، لأنه في مثل هذه الحالة يكون قد قرأ ما يدور بداخلي من مشاعر...

وذات مرة أفهمته – كنت يومها أمتلك نقودا زائـــدة وأفكر في إخفائها في خزانته من لصوص المدينة – أنني أعجز عن البوح في اللحظات العصيبة وأنه من الواجب عليه أن يفهم دون حوار منطوق.. ويومها ندمت إلى حد أنني طوال رحلة العودة كنت ألعن نفسي لأنني أوضحت له ما كان يعتمل في داخلي طوال هـــذه الســـنوات دون معنى.. بل أنني تعمدت ألا أذهـــب إليـــه زائـــرا كمـــا ينبغي... ويوم زارني بنفسه تحاشيت أن أطل إليه وكأنما ارتكبت إثما... لكنه لم يكن يعرف سر ارتباكي لأنه قام وانسحب بعد أن نصحني بأن أحكم الغطاء حول نفســـي قبل النوم... وحتى في المرات التي كنت فيها في أمـــس الحاجة لجزء من حقي المخزون في خزانته كنت أتـــأبى وأواجه الضياع مستبعدا من خيالي فكـــرة أن أطلـــب... سكت هو الآخر حتى هذه اللحظة فلـــم يفكـــر فـــي أن يعطى...

ومن هنا لم أفكر في البوح مخافة أن يفسر الـــبعض شكاياتي بأنها استجداء مغلف..

الجوع :

كنت جائعا ومهموما وغير راغب في اســتجداء أي شيء... ظلت امرأة أخى تثرثر بدون توقف متجاهلة ما كنت أحسه... كنت أحس الجوع بشكل لم أعهــده مــن قبل... استحالت هي إلى لسان يمرح في هوس داخل فم لا يكف عن الحركة.... قمت من فوري أفــتح زجــاج النافذة المجاورة راغبا في تجديد الهواء ، لم تتوقف عن تحريك لسانها وهي تعيد إحكام زجاج النافــذة.. بــدأت أحس احتباس الأنفاس بدرجة لا تطــاق ، كنــت أهــم بالخروج لكنها أمسكت بطرف ثوبي الممزق وجــذبتني نحوها وعيناها تفرزان شبقا.. انتزعــت نفســي منهــا مبتعدا... ولم أطاوع... صرخت في وجهــي بصــوت حاد... تخوفت أن أصاب بالصمم فامتدت راحتي فــوق فمها أسكته.. بعنف لم أكن أملكه في أي وقت مضى... كنت راغبا في إسكاتها في تلك اللحظة.. تهــاوت هــي فوق أرضية الصالة وأسرعت بخطواتي ناحيــة البــاب افتحه وأهرب..

القرش :

في الطريق العام شاركت رجلا وامرأة في البحث الدءوب ساعة كاملة عن قرش سقط منهما.. كنت لا أملك تعويضهم عنه بقرش بديل.. كانت الدموع تحتبس في عيون الرجل وتنحدر خلسة من عيون المرأة... شاركنا شاب متسكع النظرات والخطوات دقيقة ثم أفهمنا أن شوارع المدينة أصبحت تبتلع القروش في لمح البصر وأن محاولاتنا لاستعادة القرش الضائع سوف تنتهي بالفشل حتما... كان صادقا برغم سخفه... ذكرتني ملامح المرأة بوجه امرأة ريفية نحيلة كانت تركب الأتوبيس مرة والمحصل يحاصرها بالحاح لتدفع قرشا... كانت تائهة ولا تعرف من أمرها شيءا وكان المحل يمارس هوايته في الوعظ والإرشاد وإلقاء النكات البذيئة.. كان بارا في توبيخها وهي تستجير بالوجوه وستجدي بعيونها المستكينة أن يتطوع أيهم بالدفع لاسكاته لكنهم فروا بعيونهم وتشاغلوا عنها... كان هناك في أحد الأركان مجموعة من الصبية العابثين يضحكون على بعض النكات التي تدور حول جهلها وازدادوا صخبا عندما صفر المحصل لانزالها وشيعها بالسباب

ألفظ والشتائم المستهجنة... التفت إلينا وأكمل درسه الذي بدأه وكأنه واعظ قريتنا البعيدة الذي ينهي عـن الحـرام والموبقات ي خطبة الجمعة ويقضي بقية أيام الأسـبوع في معاونة المعسرين من أبناء القرية باقراضهم بالربـا الفاحش بعد الاستيلاء على الرهـون العينيـة وخصـم الفائدة..

الحساب :

خطأ بسيط × خطأ مركب + آلاف الأخطاء × آلاف أخرى غير محصورة من الأخطاء = أعدادا أعجز عـن بيانها من الأخطاء المركبة والمتشابكة... لم أكن متفوقـا في أي يوم من الأيام في مسائل الحساب... ولذلك كنـت أودع الخطوة الأخيرة في كل مسألة بدون حل وأتوقع في كل مرة نتيجة في غير صالحي ، لكننـي كنـت أفاجـأ بنجاحي على الورق برغم يقين في داخلي أنني ضـعيف بصورة واضحة ربما يعجز الأساتذة – لدواعي السرعة في التصحيح أو القصور في الفهم – عن اكتشاف سـر ضعفي..

الطفلة :

شقيقتي الصغيرة والتي لم تتجاوز الخامسة إلا بشهور قليلة لا أذكرها بسبب ضعفي في مسائل الحساب... قالت لأمي وكنا نتناول طعاما لا نحبه : ليتني ما جئت... ليتكم ما خلقتموني.. غلف الجمع صمت عاجزا عن القول واكتفينا بتبادل نظرات المقت..

الموت كمدا :

مازال سؤالها يدوي في أم رأسي... مازلت أسأل نفسي إن كان هناك ما يمكن الاستناد إليه لأبقى... أجيب بالنفي وألعن مخاوفي القديمة في مواجهته... قلت لنفسي إنه يتسلل إلى كما يحلو له ولا يدع لي فرصة الدفاع... كنت قد احتفظت بأنبوبة الحبوب المنومة ليقين أعرفه بأنني أتخوف من مواجهته صاحيا.. كنت أشعر في الساعة الأخيرة بأنني تهالك وأنكمش... قلت إن ابتلاع حبوب الأنبوبة واحدة إثر واحدة سوف يهون الأمر ويتيح لي الفرصة للحديث مع نفسي قبل أن أهمد وأكف عن العويل ، لا أعرف كم حبة ابتلعت ولست مهتما أن

أعرف... النوم يتسلل إلى قبل أن أكمل الأنبوبة.. الخدر يسرى في الأطراف دأب.. كنت أرغــب فــي ســاعة ارتياح... أرغب في الاستناد إلــى شــيء دافــئ... لا أرغب في الانزلاق والسقوط المعلق بين بين.. لا أرغب في... في محاسبة لصوص المدينة... ولا أرغــب فــي كفها الذي أحببته يتحسس الصدر في حنان ويمنحه لحظة دفـء... لا أرغب في الــدفـء... لا أرغــب فــي أي شيء... في امتلاك أي شيء... أريد ساعة نوم مرتــاح فوق بلاط الغرفة... أنام... أنــ.... أنــا... أنـــــ.. أ... م..

مجلة " المجلة " فبراير ١٩٧١

الوريث والميراث

-١-

جلس في صمت ، سألته عن الأحوال ، قال متحرجا :

- عمي برهوم يطلبك.

عجبت للأمر ، بدت على ملامحي دهشة ، أضاف :

- متأخر.

اهتز قلبي ، هل رقد برهوم ؟... رقد وتأخر وطلبني ، كل هذا بسبب الرجل ، لم يسمع كلامي ، تسبب في ضياعي ومت عبد الحميد ، والآن برهوم ، كان قلبه صخرا صلبا لا يلين ، أسرعت مع صالح وأنا أقول لروحي : ربنا يستر ، أخذنا عربة مخصوص من الحلة حتى الكفر ، دخلت عليه المندرة... أصفر ومعلول وعاجز عن الحركة.. كأنه عجوز... صوته عاجز وعيناه زائغتان في دنيا غير الدنيا ، لما شافني حاول أن يعتدل فلم يفلح ، قلت له : ارتاح.. قعدت إلى جانبه على طرف السرير قال : الحمد لله كنت أريد أن أراك قبل أن

أموت ، أبي كان منتصبا قبالة السرير ، مطرقا برأسه ، لم يهتم بوصولي ، لم يلتفت على... مد برهوم يده إلـــى يد أبي ، أخذها وقربها ناحيتي ، قال لأبي : سلم علـــى حسن... خلص أبي يده برفق وقال بجفاء : برهوم طلبك يا حسن ، نظرت إلى برهوم ــ ساعتها نسيت كل شيء حتى خصامي الطويل مع أبي وانقطاعي عنـــه لعشـــر سنوات، نسيت كل شيء إلا أن أرى برهوم يقف أمامي ، قال بصوت جاهد أن يكون مسموعا لكنه كان متقطعـــا واهنا :

– لو مت يا أبي فالأرض لحسن ، ولو عشت فقسمها بالتساوي.

" لحظة الموت لا يفكر الإنسان في الامتلاك " قلـــت أريحه من الكلام : كن في حالك ، أسكتنى بإشارة مـــن يده وتابع كلامه :

– كوم الطماع ناقص ، طمعت أمي في حقك وحـــق عبد الحميد ، كتبت لي الأرض فعجل بعمري..

تقطع قلبي ولم أعد أحتمل المزيد ، حاولت أن أداري دموعي كلنها كانت تسيل ، كلما نظرت إليه وغلى أبـــي المهموم في صمت ازداد حزنا ، بدأ الصوت يخفت أكثر والعينان تغيبان.. وكلما أفاق من غفوته يمسكني من يدي ويضغط عليها ثم يغيب من جديد... كأنه يتمسك بشـــيء في يدي أو يودع بها أمانة عزيزة يحرص على إيداعها ، كان يقول كلاما بلا رابط ، زفر أبـــي وخـــرج صـــوته جريحا واهنا من بعد طول صمت :

- لا فائدة..

كان أبي على حق ، فبعد لحظات كان الوجـــه قـــد شحب تماما والشفتان تستحيلان إلى زرقة قاتمة ، والفـــم يحاول البوح بشيء دون أن يستطيع ، نفذت الروح وهمد البدن تماما ودموع أبي تنسال على وجهه الصارم ربمـــا لأول مرة في حياته ، مطرقا كما كـــان ، والأصـــوات النسائية تشق الصمت وتنفذ ليس إلى الآذان وإنمـــا إلـــى صميم القلب.. هكذا انتهى برهوم بعد أن أودع بكفى سرا لم أستطع فهم معناه.. وكانت الدموع تنسال على وجـــه أبي تعلن أن فرغنا خاب وأنه أحس ربما للمرة الأولـــى

في عمره أنه خاب ، كنت أنظر إليه خلسة تزوغ عيناه هربا.. " اليوم تبكي وتخجل في مواجهة الموت وطوال عمرك لم تبك من أجل الحياة "...

كانوا يتهامسون في المندرة على حين كان المقرئ يتلو آي الذكر الحكيم، وكانت أصواتهم تنفذ إلى شماتة ربما ، وربما في محاولة لإظهار الود :

- ربك خلاف الظنون.
- مبروكة طردت الولدين وكتبت كل الأرض لبرهوم.
- رجل غشيم... شتتت أولاده بلا لزوم... من أجل امرأة..
- من يزرع الخير يحصد الخير ومن يزرع الشر يحصده.
- أراهنك لو كان يعرف الطريق إلى قبر عبد الحميد.
- تزوجته وظلت تزن على دماغه وهو يطاوع.
- كان يحسب أن الدنيا ملك يمينه يعطي من يشاء ويمنع عمن يشاء.

كنت أشعر بالأسى الممزوج بالغل ، برغم البلـوى لـم يوجه إلى الرجل كلمة ولا حتى نظرة... قلـت لنفسـي ربما يحسبني طعاما في شيء قلت له : لا أطمـع فـي شيء من دارك – كانت مبروكة في باحـة الـدار مـع الحريم ــ دخلت المندرة... كان على رأسها طين جـف وتيبس وعلى وجهها صبغة زرقاء ، أمسكتني من طوق جلبابي وراحت تصرخ فـي جنـون حقيقـي، عيناهـا تتضحان غلا وحشيا ممزوجا بهـم لا يطـاق.. كانـت مرعبة ومثيرة للإشفاق.. راحت تهزني وتصرخ :

– هل جئت لترث في الغالي ؟.. هل جئت لترث... ؟

كان أبي صـامتا... جـاء الغربـاء وخلصـوني مـن قبضتها... كانت القطيعة بينه وبيني لا تطاق... صرخت في وجهه :

– لن أدخل دارك بعد اليوم.

خرجت من الكفر ، تماما مثل المرة الأولى منـذ عشـر سنوات ، يومها كان عبد الحميد معي... شابين هـاربين من أب غشيم يصدق كل ما تقول به زوج أب لا يحتملها

إنسان... حتى موت وحيدها لم يتمكن من إخراجها من حضن الكراهية التي زرعتها في كل القلوب وخرجت بها نبتة الحب قبل أن تنمو أركان الدار...

-٢-

ويوم جاءني المرسال سافرت " هدك الموت يا أبي ، فعرف المرض طريقه إليك ؟ آت إليك برغم كل شيء فالقلب ينسى ولا يحمل غير الحنو والنسيان"، لما دخلت الدار وجدته جالسا في صحبتها على "دكة النورج " قلت وأنا أتجه ناحيته : بعد الشر عنك ، ظل ثابتا في قعدته وعلى تقاطيعه خطوط هم غويطة ، قلت لنفسي " ما زال مهموما من أجل برهوم " مددت إليه يدي فظل جامدا في قعدته لم يمد يده ، جلست بجواره في صمت.. ربما مازال غاضبا مني لأنني تركت الكفر غصبا وفرارا وسببت له شعورا بالوحدة جاءت مبروكة وجلست في صمت... قالت : شفت ؟ نظرت إليها بضيق ، ثم نظرت إليه وهو على حاله.. هل قطعوا لسانه فما عاد بقادر على النطق ؟ قال هو ليقطع الصمت الذي طال وظل يحوم حول الدماغ كدبور فقد قدرته على الزن واكتفى

بالدوران حول الرأس ليجعلها تتابعه غضبا وتدور هي الأخرى :

- هيه... كله بأمره...

بعدها بدأ يحرك عصاه في صعود وهبوط متتابعين فيدق بطرفها الأرض كأنما يأمرنا بالإنصات بينما نحن صامتون...

قال :

- أيه يا ولد... ماذا ترى ؟

كان في صوته شرخ لا يود أن يبين ، يجاهد أن يخفيه ، قلت متوجسا من نبرته :

- أراك بخير... و.....

قاطعني بصوت مهزوم مستسلم منكرا قولي :

- لكنني لا أراك...

- لحظتها أدركت كل شيء.. استعدت الموقف من أوله وأنا أطل إلى عينيه العسليتين الصافيتين واللامعتين كعيني قط برى أو حتى النظر في الملامح المتهدلة

والمتراخية كأنها لا تخصه... هذه الملامح بالفعل لا تخصه ، كأنما العينيان كانتا تحرسان الملامح وتشدانها إلى الوضع المعتاد ، تبعثان فيها دفء الحياة ، فلما عجزتا وأصبحتا بلا قيمة أصبحت التقاطيع بالتالي بلا حارس ، تراخت وتهدلت ، أصبحت مجردة كتل لحم عجوز متهدل بلا معنى ، كان الملامح بالفعل ميتة توشك أن تعلن عن انتفاء جدواها... وكانت خطوط الزمن تكذب وكلما حاولت التقاطيع أن تقول شيئا تعجز ،ولا شيء غير الاستكانة والأسى يطلان من خلال البريق الأعمى الضرير الذي لا يميز.

" ميزت في ماضيك كثيرا حتى أتعبك التميز ، نظرت بالعينين فخوفت الكل حتى نفذ من العينين كل الشعاع والآن تجلس.... لا تملك حتى أن تدخل بيت الأدب بلا مساعدة.. والذي أنقضى راح وولى ، وكنت في يوم من الأيام أصلب عود في شجرة أولاد عوف... لكن هل أخطأت بالفعل إلى الحد الذي جعلك تدمر الفرع كله ، هل كانت حياتك بأسرها غلطة كبيرة متتابعة الحلقات يستحيل أن تخرج من أسارها ، وهل شدك القيد

غصبا أو طوعا في كل محاولة للخروج لتسقط من جديد في دوامة التعسف الغشيم والتجبــر ، ومعاركــك التـــي حصلت بفعلها على الاسم المهيب الرنان والتي مـــازالوا يتحدثون عنها وكأنها حواديت ما حصـــلت ولا كانـــت ، وماذا يقال عنك اليوم في كفر عسكر ؟ ربما فرح البعض لأن البلوى حطت ولم يبق منك شـــيء ، ربمـــا تحســـر البعض وأنت تتهاوى حيالهم من مكانك القديم ومكانتـــك وتقعد في صحن دارك لا ترى عدوا ولا حبيبا "

لم يكن لدى ما أستطيع قوله أو أجسر على البوح به ، كان هو قد عودني على عدم البوح بشيء مما يدور في دماغي ، وكانت قعدته المستكينة المستسلمة قد قطعـــت لساني ، خيم السكون والعجز حولنا... حتى مبروكة لـــم تنطق بشيء... قال هو وهو يهتز أمامنـــا وخلفـــا مثـــل مقرئ الرواتب الكفيف الذي يتلو آياته بلا حســـاس ولا انفعال بصوت العاجز اليائس :

– العمر عدى وفات... ما عـــاد غيـــرك... بـــروم راح... عبد الحميد راح... وحتى النظر راح... وراحت

أيام القدرة... لم يبق عزم ولا قدرة... لو ترجع يرجع العزم ويشتد الحيل المهدود ، أشوف بعينيك بقية أيامى.

هذا كلام جديد... وهذا لسان غريب... وذلك الجالس بجواري رجل آخر.. أب لم أستشعر ناحيته إلا الخوف... الخوف المرعوب المتواصل.. الخوف الذي يتسلل إلى كل الخلايا ويصبغها بالرجفة الجبانة في مواجهته.. نظرت إلى مبروكة ، كانت ضئيلة وتافهة وعاجزة عن التعليق على شيء... كدت أشعر ناحيته بالإشفاق... وكأنما في تلك اللحظة قرأ ما كان يدور في داخلي... برقت عيناه فحسبته يدخل دماغي... يتسلل إليه ويقرأ ما يدور فيه... كأنه هزم العمى والعجز وبدأ يراني... وامتزج الإشفاق عليه بالرعب منه ، من نظرة اللوم المطلة من العينين وكل التقاطيع التي عادت تحيا بعد الموت ، كنت أشعر أنني بجوار أبي.. كأنما ولد إحساسي به في تلك اللحظة ، لم أعد أحتمل.. جعلت أنهنه.. من أجل الأب الذي غاب عني طوال العمر كنت أبكي ، قال : الظفر لا يطلع من اللحم... الدم لا يبقى ماء... وابتسم... كأنما استاد نفسه ، كأنما اطمأن إلى أنه

استعادني تماما... كانت تقاطيع الوجه تنتعش وتفيق ،تنفض عن نفسها البلادة وتحسن وتقول... والنبرات.. من حيرتي كنت أقول لنفسي... ليس أعمى... فاهما العينان تبرقان ببريق الواعي والإحساس والحياة... وكلما قال شيئا يزداد في قلبي الصخب... أو لو أحتويه... أجعله يحسني ويراني... وعندما أتوارى عنه بدمعة يحسها... يقول : الرجال لا تبك يا ولد... أنفى بالدموع والإجهاش أنني أبكى...

يقول : أخذنا زماننا فلن نأخذ زمانكم... شيء عجيب.. عبد القادر عوف يعلن أن للزمان دورة وأن لكل إنسان في الحياة دورا محسوبا يعيشه ولا يتخطاه... ليس أبي... من كنت أعرفه رجلا آخر.. أخرجنا بليل من داره... ربانا على الخوف منه والرهبة...

قلت : كنت زينة الرجال.. ولكن...

همهم : هيه.. كله بأمره.

ها هو يعاود التسليم بصورة لا تطاق..

يوم تعاركنا مع أولاد العزبة ضربوا عبد الحميـــد.. كان رجال العزبة قد عبروا الترعة وراحـــوا يضـــربون بالعصى.. فررنا.. لكنهم طالوا عبد الحميد... ظهر أبي وكأنه مارد من عالم خرافي... جسور واثق مطمئن إلى نسفه لحد التهور... اخترق صـــفوف الرجـــال وهـــوى بشمروخه على الرأس ، كان الرجـــل فحـــلا بشـــوارب مرفوعة.... سقط ولم يقم أبدا... فر الرجال مـــن حســـم الضربات... وكان أولاد عوف يطـــاردونهم بالعصـــى واللعنات.. كانوا يرمحون في كل الاتجاهات ويخوضون في ماء الترعة البني ويجعرون... والذي مات يا رجـــل راح دمه هدرا.. وعبد الحميد لما أفاق قلت له... أنـــت هزيل وليس لك الحق في أن تحمل اسمي مادمت تعجـــز عن الدفاع عن نفسك... وأطرق عبد الحميد يومها خجلا لأنه أحس بالخطأ الذي ارتكبه... أولاد عبد القادر عوف لا يعرفون غير الفوز في كل المعارك التي يـــدخلونها.. هكذا قال... وربما كان اختلافنا معه بسبب ورثنـــاه لـــم يرض عنه أبدا...

كان يحكي تاريخه القديم.. مستعيدا ذلك الزمان الذي ولي... هاربا من زماننا العويل إلى زمن العزوة والقدرة..

تذكر يوم عاركنا برابرة السلطة ؟ وأخذنا عطية الذي أخذوه ضمن من أخذوهم سخرة... أولاد الكلب ظنوا أن أولاد عوف مثل الآخرين...

كان يبتسم... عجبت.. سوف تظل كذا تحكي ولا تفعل ، سوف تظل مقعدا على دكة النورج... تتسمع مالا يرضيك وتصمت... وسوف تساعدك العصا في حركتك في جنبات الدار.. نفس العصا التي طالت رؤوس الغرباء وطالت حتى أولادك وخلفت لدي كل منا جروحا لم تندمل وآثار عاهات ، ترى هل من الممكن أن أحتمل رؤيتك هكذا ؟...

– عندما تعود خذني إلى أرضنا في الحوض الكبير... يصعب على أن أطلب هذا برغم اشتياقي لريح هذا الحقل...

دمدمت بكلام غير مفهوم.. سوف أقــوم إذا بــدور الدليل لرجل كفيف عاجز.. وسوف أمشــى فــي دروب الكفر أسحبك وأتسمع لمصمصات الشفاه ونكات الشماتة ونظرات الاستياء... سوف أعود للأرض لكنك ســوف تفسد كل شيء بهذا الكيان الجديد ".

قال : أيه يا ولد... متــى تعــود ؟ هــات زوجتــك وأطفالك واملئوا الدار...

قالت : طبعا... في الصباح اذهب وبعد أيام أعود...

قال : طال اغترابك يا ولد...

قلت لنفسي وأنا أخطو خارجا من عتبة الدار...

" لن أعود يا رجل.... " كان صدى كلماتــه التــي ترجوني ألا أغيب يترجرج فــي طبلتــي الأذن ويــرف حولي محاولا إغرائي بالعودة لكنى كنت أفــر ن تلــك النبرات الضعيفة الواهية ، أكره استعادتها وأرغب فــي سماع صوته القديم القادر على الفعل الذي يرى ويســمع ويحس ، أما هذا الرجل فهو مجرد بقايا رجــل.. نفايــة رجل لا أنتمي إليه ولا أعرفه برغم كل الإشفاق والحنو

عليه والرغبة في مساعدته كضرير يحتاج إلى عكاز بشري يتحسس له الطريق ويقوده إلى حيث يرغب أن تراه الناس...

جريد الأهرام ٢٨ يناير ١٩٧٨

المزاغل

قامت من مرقدها مع أول شعاع فاطمأنت لتلك الصحوة المبكرة، اغتسلت وارتدت ملابس الخروج ، نظرت إلى ساعتها فوجدتها السابعة إلا ربعا ، فاطمأنت وهي تهبط درجات السلم في طريقها إلى محطة المترو، كانت في يدها حقيبة صغيرة جهزت فيها بعض الأطعمة استعدادا للرحلة ، بدا لها ذلك الصباح هادئا ومريحا وقالت لنفسها إنها تخطئ بالبقاء في البيت أيام الجمع ، كان صباح الجمعة الموافق أول مايو..

وكانت في ميدان التحرير عند جامع عمر مكرم ثلاث سيارات أتوبيس تتبع المؤسسة المصرية مستعدة لنقل العاملين بها ممن طلبوا زيارة السويس، وطبقا لما هو معد سلفا في برنامج الرحلات توافدوا فرادي وجماعات واحتلوا أماكنهم قبل الثامنة بدقائق وخلافا لما هو معهود لم يتخلف أحد أو يتأخر عن الموعد المحدد ،

تحركت السيارات الثلاث إلى طريق القاهرة ــ السويس في طريقها إلى المدينة التي ظلت في خيال أكثرهم حلما دفعهم إلى التبكير بالصحو في يوم العطلة كمـــا حـــدث بالنسبة للآنسة سعاد ، كانت العيون تغالب النعاس فـــي النصف الأول ، أما عندما مرق سائق السيارة الثانية من جنب السائق الأول مصحوبا بتهليل ركابه أفـــاق الكـــل وراحوا يتبادلون النكات ويشـــجعون الســـائق ليتجـــاوز الآخرين.. كان سباقا شريفا لا يشـــوبه أدنـــى إحســـاس بالغرور أو الكراهية ، مجرد وســـيلة مبتكـــرة لإزجـــاء الوقت... بدا للبعض أنه تم بالاتفاق سلفا بـــين الســـائقين الثلاثة..

كانت العيون تتشوف طوال الطريق آثار ما جـــرى وتقرأ اللافتات الصغيرة التي توضـــح المســـافات التـــي تقطعها السيارات يحسبون ويطرحون ليصلوا إلى معرفة المسافة الباقية للوصول إلـــى المدينـــة ، قـــال موظـــف حسابات موثوق في كلمته :

– أنتم الآن على مشارف الكيلو ١٠١.

تفتحت العيون وبحلقت... حتى أولئك الذين راحوا في إغفاءة قصيرة بدأوا يتطلعون من خلال النوافذ ويمعنون النظر ، لكنه لم يكن هناك دائما ما يسترعى الانتباه ، صحراء جبلية فقيرة الإنشاءات والخضرة وبعض المخلفات غير المحدودة الهوية وسط كومات من المعلبات الفارغة التي أصابها الصدأ ، قال عامل التليفون وهو شاب حديث التعيين عائد من القوات المسلحة ويشيعون أنه كان يخدم ضمن قوات الجيش الثالث :

– فتناه ، الكيلو ١٠١ فتناه ، لم يكن أكثر من مكان تحوطه أسلاك شائكة وتتحرك حوله الدوريات.

ساد صمت قطعة عامل التليفون أيضا :

– نحن عند مدخل السويس ، هاهي المساكن الشعبية التي على اليمين ، كانوا قد احتلوها لكننا أفلحنا في طردهم منها، إنما بعد جهود شاقة.

التفت موظف كبير إلى عامل التليفون الذي كان واقفا يشير ناحية اليمين ورماه بنظرة استياء واستهانة.. ربما

لأنه سمح لنفسه بالحديث بدون إذن... قال مشرف الرحلة بحماس مضخما الكلمات بشكل ملحوظ...

- انظروا... هذه دبابة من دباباتهم دمرتها قواتنا المسلحة.

تابع عامل التليفون حديثه بهدوء :

- عندما دخلوا المدينة بالدبابات طلع الناس عليهم من كل ناحية وطاردوهم معنا.

همهم الموظف الكبير مستنكرا وبضيق :

- لكنهم لم يدخلوا السويس يا بنى.

قال عامل التليفون دون أن يبدو عليه الاهتمام وكأنه قرر إسكات الموظف الكبير تماما :

- وكيف جاءت هذه الدبابات المحطمة إذن ، كانوا يدخلون خلسة لكنهم لم يتمكنوا من المدينة ، انظروا... ها هو حي الأربعين ، تعرض للضرب بشراسة واستحال إلى حطام...

أشار مشرف الرحلة إلى عامل التليفون ليسـكت ، فـي حين توقفت العربات في أحد الشوارع ونبـه المشـرف على الكل بأن السيارات سوف تتحرك بعد سـاعة إلـى الضفة الأخرى للقناة... وتزاحم الكل على الأبـواب إلا الآنسة سعاد ، ظلت وحيدة في مقعـدها.. عـاد عامـل التليفون لما لاحظها وأشار لها بأن تنزل فرفضت بـدون إصرار ، أوضح لها متبسطا بأنه سوف يجعلها تتفـرج على أشياء لا يعرفها مشرف الرحلة نفسه ، لأنه حارب في شوارع المدينة ، ترددت الآنسة سـعاد أولا لكنهـا رضخت عندما وجدته جادا إلى الحد الذي جعلها لا تملك أن ترفض العرض الذي قدمه بصيغة تقترب من صيغة الأمر برغم كونها موظفة كبيرة من الدرجة الثالثة وهـو مجرد عامل تليفون مستجد ، ساعتها رسمت على وجهها قناع من يتبسط إلى حد الرضا بسـماع ثرثـرة عامـل تليفون ، قامت من مقعدها وتبعته ، كانت العيون تتبعهـا بفضول مستغرب ومتعجب وعندما انحرف معهـا إلـى شارع جانبي زعق مشرف الرحلة عليه مطالبا بعودتـه

حتى لا يتوه ، فهز أكتافه ولم يهتم بالرد عليه ثم همس لها مستنكرا :

- أتوه ؟ أنا أعرف هذه المدينة كما أعرف تفاصيل وجه أمي.

كانوا يثرثرون على الآنسة سعاد وهي عانس في حوالي الأربعين ، لها وجه حلو وقوام رشيق برغم السنوات ، وهي موظفة ممتازة لا يشوب سلوكها أدنى نوع من الشكوك لدرجة أنهم كانوا يأسفون لكونها حتى الآن بدون زواج ، قالوا أنها تتسلى خلافا لما اعتادوه منها من شدة المحافظة والوقار دون أن يدركوا أنها كانت ترغب في هذه اللحظات مشاركة عامل التليفون أي شيء حتى ولو كان الفرجة على بقايا مدينة ، وكأنما تسلل إلى قلبها نوع من الاطمئنان إلى هذا الشاب الواثق من خطواته إلى حد غريب... وبين أطلال البنايات المهدمة وعبر الشوارع الساكنة والخالية كانا يتحركان من حي إلى حي ، توقفا على الكورنيش لرؤية القطع البحرية الغارقة ، وعند الزيتية كانا يمعنان النظر ، وداخل " الجناين " رأت معه النخيل المحترق الميت

وغابات البــوص المتشــابك علــى جوانــب القنــوات الصغيرة... في طريق العودة لف بها من جهة أخــرى تخوفت فيها من الصمت والوحدة لكنه طمأنها ، وانهمك في وصف المعارك التي دارت ، وعندما تعثــرت فــي أنقاض إحدى البنايات سندها بخفة جعلهــا ترتــاح إلــى تقاطيع وجهه الجاد وتضحك ، قالت لنفسها وهي تتسمع لكلماته بارتياح :

- لاشك أنك أصبحت مجنونة... عامل تليفون يا سعاد ؟

قالت لتداري انفعالها :

- توهتني.

- لو عبرنا هذا الزقاق لوجدنا السيارات.

سألته :

- متأكد ؟

- طبعا.... قلت لك إنني حاربت في شوارع هذه المدينة لو تهت فيها لصادوني وأصبحت في خبر كان ، هــاهي السيارات.

قال مشرف الرحلة يستعجلهم :

- بسرعة ، من فضلكم كل واحد في مكانه ، سوف نعبر إلى الضفة الشرقية، حصلنا على تصريح المحافظة.

ركبت سعاد ، كانت وحيدة ، وحيدة إلى حد يثير الشفقة ، وكان عامل التليفون شفوقا بطبعه ، سألها إن كان من الممكن أن يشاركها المقعد الخالي جنبها ؟ نظرت إليه مليا واحتارت بماذا تجيب ، طالت وقفته فارتبكت عندما اكتشفت أنه ينتظر جوابها... قالت بنبرة حيادية وهى تومئ برأسها :

- تفضل.

جلس غير مهتم بالعيون التي كانت تنصب عليه في شيء كأنه الاستنكار أو الغيرة ، ربما لأنهم تركوا لها المعقد المخصص لراكبين دون أن يجرؤ أحدهم على مشاركتها ، حتى البنات كن ينظرن ويتضاحك بصوت مسموع لأنهن كن قد اعتدن أيضا على الابتعاد عنها ، لكونها متحفظة جادة أكثر مما يحتملن ، في مقعدها بجواره هذه المرة وعبر الطريق إلى الضفة الشرقية

للقناة كانت تستعرض حياتها في المؤسسة مــن يــوم أن جاءت وانتظمت في العمــل ، كانــت أول مــن يوقــع بالحضور وآخر من يوقع بالانصراف ، ســمراء واثقــة ملفوفة الشعر ، وكانت تشعر بأنها محط للنظرات النهمة ، وكانت تغازلها الكلمات الفجة لكنها أوقفت كل شيء ، بدت جادة ومتجهمة ، انتظرت من يأتيها من الباب لكنهم كانوا يحبون الفرجة خلســة مــن النوافــذ ، رفضــت مهاتراتهم وأيقنت أنها لن تجد بينهم من يحس نبضــها ، فراحت في ساعات الفراغ تفــتح المصــحف ، وتقــرأ لتستعين به على مواجهة الأيام التي كانت تنفلــت مــن عمرها دون جديد ، كانوا برغم إعجابهم بها يســخرون منها ويسمونها بالشيخة سعاد ، أو الدرويشــة أول مــرة يهتز قلبها كان يوم أن جاء صلاح وهو صعيدي أســمر جاد التقاطيع برغم المظهر الصلب ، كان حديث التخرج في الحقوق وكانت هي أكبر منه ووصــلت فــي ســلم الوظيفة إلى الدرجة الخامس ، في حوارها معه كان يهتم بمسألة الدرجات ، كيف تكون رئيسة الرجل امرأة ، بدا لها أنه لم يكن يعني العمل بقدر ما كان يعني البيت الذي

كان يحلم بدخوله، ولم يجرؤ بسبب تلك الدرجة الخامسة اللعينة . حتى في الحب تقف الدرجات عقبة يا صلاح ؟ كادت أن تقولها له بنفسها لتحفزه وتزيح مخاوفه ، إنما منعها الحياء... وذات يوم جاءها صلاح بنفسه وفي عينيه شيء كأنه الاعتذار المنكسر والعاجز عن البوح ، ليدعوها إلى حضور حفل خطبته إلى زميلة من السكرتارية " من نفس المستوى " كما قال ساعتها بحسرة الذي خسر بالرغم منه ، لم تفهم ساعتها بماذا تجيب، كان من الممكن أن ترتكب حماقة ، أن ترتمي تحت قدميه وتقول له خذني ، أن تعرض عليه استعدادها لأن تعطيه نفسها ، لكنها سكتت ، ثم باركت بالعينين أيضا.. عندما خرجت إلى الشارع تاهت ، لفت في أماكن لم تعرف تفاصيلها وحامت حول جهات عديدة كنحلة بلا خلية ، تدور وتدور، ولا تطمئن إلى حيز تحط فيه ، ولما هداها الطواف الحائر وجدت نفسها تتجه إلى البيت وتبكي على سريرها بحرقة ومرارة... من يومها تأكد لها وللكل أنها " درويشة " تعيش في ملكوت... والسنوات تمضي وتنسل من عمرها بدون أمل ،

وصلاح نفسه ترك لها المؤسسة مخلفا لها ذكريات يصعب التعزي بها ، أو وصفها لأنها كانت من أساسها شبه سراب خادع..

في الخامسة والثلاثين أسلمت نفسها إلى عجوز متصابي زاملها في المؤسسة واشتهر قبل إحالته إلى المعاش بجسارته ومجونه.. عندما عرض عليها مشاركته العشاء لم تمانع ، كانت تعرف سلفا أنها لن تكون سهرة بريئة... إنما كان عليها أن تجرب ، أن تؤكد شيئا يخصها ، يخص أنوثتها بالتحديد ، أن تشعر ولو للحظة أنها مرغوبة ، يومها لم يفلح الرجل في شيء سوى إثارتها دون فعل حاسم ، وكان في داخلها يقين بأنها لم تجرب قط... وكانت مستعدة لأن تبرهن لنفسها أنها لم تجرب ، وأن غشاء بكارتها مازال هناك في مكانه ، إنما هي في بعض اللحظات كانت تتشكك وتلوم نفسها على تلك الليلة فتبكي غير مدركة لماذا كانت تبكي..

قال مشرف الرحلة :

– نحن الآن في أرض سيناء الحبيبة... سوف ننزل إلى هذا الموقع ونرى طريقة تحصينه ، بنظام ، طابور واحد من فضلكم وبسرعة.

كان عامل التليفون يقف خلفها وكأنها أصبحت تخصه وكانت هي مرتاحة لذلك ، ووسط السرداب المعتم كانت يداه محطوطتين على كتفيها ، ربما انزلقتا إلى الأمام قليلا ، وكادتا أن تمسا صدرها في خشونة الرجل التي كانت تحلم بها ــ وعندما نظرت إلى الفتحة الضيقة والمستطيلة قال لها وللكل أيضا :

– اسمها المزاغل... كانوا يكشفون من خلفها مدينتي السويس وبور توفيق ، كأنها عيون سحرية ترانا وتكشف مواقعنا دون أن نصل إليها... كنا نسميها المزاغل ولا أعرف لماذا ؟

في الموقع التالي كان يحكي لها وهو يشير إلى مجموعة من البنايات أشبه بأهرام صغيرة متناثرة... كيف أن مدافع الموقع كانت قوية وشديدة التحصين لدرجة أن ضربات الطيران لم تؤثر فيها... عندما لاحظ

الكل أنه انفرد بها في ركـــن بعيـــد راحـــوا يثرثـــرون ويتابعون حركاتها بفضول شديد ، قال هو :

– لقد شاركت في الهجوم على هذا الموقع ، مـــات ناس طبعا، وأنا شفت الموت بعيني في هذا المكان ، لـــم يكن هناك حل إلا الاعتماد على الأفراد ، فالموقع كـــان حصينا بشكل خرافي ، المهم أننا أخذناه مـــنهم ، كـــانوا حوالي أربعين رجلا..

كان يتحدث وكانت تنظر إليه بشغف ،تود لو تســـمع منه أكثر... مد يده إلى كيس مفتـــوح مـــن " الخـــيش " أفرغه من الرمل الذي بقي فيه جزء منه... أعطاه لهـــا قائلا :

– لتتذكري طوال عمرك خط بـــارليف الحصـــين.. داريه.

في هذه الساعة توقفت ، نظرت إليه ، كانا منفردين ، كانت العيون : المزاغل بعيدة ، ودت لو تقـــول شـــيئا لكنها لم تستطع... قال هو بجسارة :

– في عينيك كلام.

سكتت ، تابع بجرأة :

- لماذا يسمونك الشيخة سعاد ؟

سكتت ، قالت لنفسها : "صرت عجوزة يا سعاد ، وهذا شاب صغير فاتركيه لحاله "... نظرت إليه بدقة وكادت أن تجري هربا من شيء في عينيه.. قال :

- لماذا تهربين مني ؟ من يوم جئت إلى المؤسسة أسمع عنك كلاما.

قاطعته :

- ماذا يقولون ؟

قال :

- يقولون إن معاشرتك صعبة، وأنا أعتقد أن من يعاشرك يحبك.

استفسرت وقد خفت حدة انفعالها :

- وماذا يقولون أيضا ؟

رد عليها :

- يتحدثون عن وحدتك الآن ، ويفسرونها تفسيرات شتى..

سألته منفعلة :

- وماذا أيضا ؟

قال بحسم وبدون أن يبدو عليه أدنى ارتباك :

- ممكن أسأل ؟ هل في حياتك شيء خاص مثلا يمنعك ؟ عفوا هو سؤال غريب ، إنما لدى رغبة في معرفة جوابه.

نظرت إليه بانفعال.. كادت أن تبكي تأثرا ، لأول مرة في حياتها تتعرض لمن يلاحقها بمثل هذا الإصرار باطمئنان الرجل الذي كانت تحلم به ، قالت باستخفاف ومرارة :

- الأغبياء يفسرون حياتي على هواهم ؟ ألا تلاحظ أنني كبرت ؟

مد يده إليها وجذبها من يدها ، لم يتكلم ، طاوعته وهو يتحرك في عالم كأنه امتلكه ، قال بعد فترة صمت :

- كنت وحيدا فأفسدوني بالتدليل ، لم أتم تعليمي ، لم أعرف معنى الحياة إلا من الجيش ، دخلته مستهترا وفاشلا وبلا مستقبل وخرجت رجلا لا يخجل أن يطالب المصلحة بصرف بدل السماعة ، ويبحث عن منطقة يبدأ منها حياته ، ما رأيك ، نبدأ من هنا ؟

بهتت ، بمثل هذه البساطة يسألها ، تحيرت ، طاف في خيالها شريط سريع لعمرها الضائع للسنوات العجاف ، توقفت ، كانت العيون المزاغل تنظر بفضول متحفز ، كانت النظرات عدوانية وشرسة... أحست أن العيون تستفز كل كيانها ، كانت تفكر بسرعة وتقيس كل شيء... قالت بحسم :

- أنا أكبر منك.

لم يرد.

أضافت :

– وقريبة من سن اليأس.

نظر إليها مهونا ومد يده إليها ، مدت إليه يدها وسط حصار العيون المزاغل ، توردت وجنتاها خجلا للحظة ، إنما سرعان ما راحت تطـوف بنظراتهـا علـى كـل الوجوه.. وبرغم كل ما بدا على الوجوه مـن إمـارات الاستنكار استجابت ليده التي تسحبها أثـره إلـى بـاب السيارة ، كان الأمل يتولد في لحظة غيـر محسـوبة ، كانت لحظة اليأس الشامل في سن اليأس تذوب ، وحلـم العطاء في داخلها يتولد وكأنه اليقين القادر على زحزحة كل الصعاب ، معركة دخلتها لتوها وقررت أن تكملهـا مهما كان الثمن... ونبض القلب وكل خلايا البدن تؤكـد لعقلها الذي أفاق لتوه الآن سخف ما كنت تحسب أن لـه قيمة... كانت تنوى أن تجتاز مع هـذا الشـاب حـاجز الزمان، كان يرقبها بهدوء وثقة وكانت طـوال رحلـة العودة تحكي على مسامعه حكاياتها الصغيرة بصدق نادر ، تعد بالكلمات والنظرات والبسمات ، وتتحول في طريق العودة إلى كائن مختلف ، وهبت له الحياة وسط مدينـة كشفتها المزاغل وحطمت بناياتها ضربات الغرباء.

مجلة القصة : ديسمبر ١٩٧٤

مداخل الندم

أترنح بالخطى المشنوقة بالاندحار... أمتص رحيق التوقع ممعودا بمسرى مرارات الخوف في الحلق الجاف... تتطوح مشاعري سكري بالتأملات الصعبة.. أشنق الرغبة في العويل مشيعا وجهه الذي كنته بدمدمات العجز.. أزيحه جانبا حتى لا أعود أحترق من الداخل والخارج كعصفور صغير تشتعل في أحشائه جمرة لا تخبو بينما صهد النار يشوي سطح لحمه العاري من ريش الحماية... أمسكت بعجز الكلمات عن وصف الآلام الرابضة عند عتبات التذكر.. وصهد لحظة الضجر اللافح يفري مداخلي المشتعلة وسطح الكيان تشويه شمس نهار صيف تخطى الحدود المألوفة المحتملة... أتنفس بالعناد حرارة ظهر اليوم الجاف إلى حد الذهول مع ذرات الرمال الدقيقة التي حجبت الرؤية ولونت المدينة بلون صحراء ملتهبة... أدوس أسفلت المدينة بالأقدام

المنهكة بالإصرار وأتنفس بالهواء الجاف الملوث ورغبة الاحتماء تولد تحت سطح رطب في طرقات المدينة التي استحالت إلى صحراء مفتوحة.. الشمس عمودية فوق المدينة والظلال المعدومة تجعل المشي جوار البنايات العالية معادلا للسير في عرض الشارع : فلا ظلال.

وأستعيد الأيام فتكويني ذكرياتها من الداخل... محاولات الخروج من دوائر القهر والنفاذ من جدرانها الصماء التي حفرتها بالأظافر واحتملت تقاطر الدماء من أطراف الأصابع فأكتشف أنني نفذت ليس إلى الخارج وإنما إلى داخل جديد أشد صلابة من الأول... أتذكر احتباس أنفاسي تحت ثقل المؤخرة يوم رحت أدق بالكفين والقدمين والرأس والصدر... ينز الدم والقهر من كل الكيان المحموم برغبة الخروج... وتكرار لعبة الخروج بالكيان في كل مرة منهكا من الداخل والخارج يجعلني أصرخ بالصمت المذهول والوجوم : لماذا ؟

قلت للطفل الذي كنته :

– اغرب عن وجهي فالجو خانق ولست على استعداد لاحتمالك...

لكنه تحرك في أحشائي ملتهبا... وددت لو أنتزعه من داخلي وألقي به فرارا من امتصاص عذاباته مرة أخرى.. قلت له مهدهدا وراغبا في إسكاته :

– لو كنت أنا هناك لما سمحت لهم بذلك فامنحني ساعة ريثما تحل رطوبة المساء.

أطل إلى من خلالي لائما وابتسم ابتسامة المهموم وهم بالخروج وحده إلى صهد العالم بإصراره المعهود على البقاء برغم كل الضربات... أحسست بالخزي لحظة فأشرت له بأن يبقي ليسمع ورحت أحدثه بالود والإشفاق عن بعض الجزئيات الدقيقة ربما لأؤكد له أنني أرجأت الحديث معه إلى حين أجمع الكلمات القادرة على مناقشته وأنني أخشى لو عجزت عن ذلك.. أشرق وجهه المهموم مبتسما وشرع يهز الرأس مؤيدا كلماتي... مرتاحا في أحشائي إلى حد الهناء ودون أن أعرف متى ولا كيف بدأت أحكي بالحماس والانفعال بحيث جعلته

يبكي ليس حزنا وإنما لأنني أفهمته أنني أعرف بعض تفاصيل حكاياته مشاركا إياه في عبء الاحتمال بالدموع... قلت ساعتها برغبة الإفلات به مرة :

" وأنت تبحث لروحك عن مدخل إلى خارج سراديب الإحباط... عارفا ما كنته قبلا راغبا في النفاذ فرارا من توالي مسيرة الاخفاق... كنت تتذرع بفكرة الاكتفاء بكثافة أحزانك إلى حد التشبع متوهما أن لأحزان العالم نهاية وأنه بالتالي لابد من يوم تشرق فيه شمسك الغاربة دوما.. مدفوعا بنهم الرغبة في الاستقرار المرتاح عند مرفأ مأمون بعد إنهاك السنوات.. وفي كل مرة كنت تجدف بالذراعين والمشاعر في لجة العواصف... وبالحماس الذي يبديه بحار عنيد سقط في متاهات بحر مجهول كنت تجدف حالما ببصيص نور خلف عتمة الأفق.. وصورتك المعهودة في عقول الأقارب والأصدقاء القدامي كائنا هزيلا بالجوع وخرق الثياب المهترئة والإنهاك ، على حين أن في داخلك شموخ مضحك لا يتناسب مع الشحوب الدائم... والضحكات

تجلجل من حولك سخرية من أحلامـك العريضـة فـي الخروج إلى وجه العالم لتصرخ في لحظة أنك هناك ".

وعناء البحث عن أم أب أخ أخـت فـي واحـد... واستحالة التحقق النابع من أرض المطلب المسـتحيل.. كل ذلك قلته في لحظات الانفعال المتوتر للبنـت التـي اختارتك برغم بشاعة الاسترسال في القول الصريح بلا خجل ولا صنعة... وبالحماس نفسه الذي استعدته رحت تحكي للذي خرجت منه وكنته عن بعض الأشياء ليطمئن في قرارك.

أعرف أنها يوم أخرجتك أسقطتك في هوة... ذلـك أنك كنت تمنى نفسك قبل الخروج من العتمة بـأن تجـد أرضا نسيجها كيانها المتداخل في كيانه.. لكـن النسـيج كان ممزقا ومهترئا بحيث يصعب إصلاحه ورتقه ، كان صعبا أن تضع الساق اليمنى فوق أرضية القرية وتمـد الأخرى إلى هناك حيث كان في زقاق مدينة.... ونظرت إلى العالم حولك مستطلعا فلم تجده... فتحـت عيونـك فوجدتها تتضور بالمهانة وتتعثر بكيانك الوليد في فرارها الدائم من مطامع رجال القرية فـي عودهـا الملفـوف

وملامحها المتألقة برغم غشاء الذعر.. إصرارها على الرفض بالانتظار ، الأمل يتكسر فوق صلابة توقع الكلمات والاتهامات التي تقال عن امرأة في ريفنا بلا رجل... وتوقع أن يتهدم جدار رفضها فوق أحلامك في البقاء لتمتص رحيقها الحنون يجعلك محموما وصاخبا ومخيفا... ويوم قدموا إليها عرض الرجل ذي الابتسامة العريضة والأرض الفسيحة لم تملك إلا أن تذعن فرارا منهم إليه... يومها تبدلت صور الأشياء واستحالت الرحابة والانفتاح إلى قوقعة مداخلها أزقة ملتوية مزحومة بالأنفاس والضجيج... وكفها الملساء تبدلت أيضا إلى عشرات من الأيدي التي تتداولك بعضها خشن الملمس والبعض الآخر يتحسسك بالمطامع والمجاملات وأحيانا بالرثاء.

يوم سألته بالعينين عنها هز الرأس متفكرا قبل أن يعلن رده المبتور لكنه المميت أيضا وقال كلمة لم تفهمها وإن كنت قد رددتها : ماتت... وصدقت أنت الكذبة أو تظاهرت بتصديقها ورحت ترددها على مسمع منه كلما

صاغ السؤال امتحانا لابد أن تجتازه في كل مرة ليطمئن قلبه.. يتهلل وجهه بالانتصار ويقول بملء الأشداق ابـــن والدك ، لكنك كنت تشعر الخزي كلما سألوك وكـــررت الجواب : ماتت... لأنك كنت برغم صغر سنك إلى حـــد العجز عن الإفصاح عما يجول في خاطرك موقنا يقـــين طفل في العام الثالث كتب له ألا يخيب بأنها تتنفس هناك في ركن من أركان قرية بعيدة لا تعرف كيف السبيل إلى مداخلها.

نظرات الرثاء كانت تستحيل في أغلب الأحيان إلـــى نظرات استياء فازدراء ومقت لأنك كنت تفســد ثيـــاب الغرباء... يزداد يقينك من أنك وحيد في هذا العالم بدون جدران للحماية، تعجز عن الصراخ في الوجـــوه التـــي تتحرش بالإنكار وتشيح عنك بالتجهم قبل الانصراف... وفي الزقاق لم تتوفر لك فرصة التصرف كما لو كنـــت ندا لأحد ليس لأنك كنت ضعيفا ومحاصرا بالعوز فقـــط بل لأنك كنت مهزوما بتوقع صراخ أم كل طفل مشاكس ، دفاعا عن خطاياه الصغيرة... وأيضا بالخزي تحســـه لكونك مقطوعا وغريبا فـــي عـــالم الزقـــاق المتشـــابك

المتداخل... فرعا مبتورا من شجرة مجهولة الصفات في عالم ضيق يحرص أشد الحرص على معرفة الأصـــول وتتبع الجذور المدفونة في صلب الأرض... وعندما كنت تسمع سؤال الاستفسار عنك : ابن مـــن هـــذا ؟ كنـــت تتوارى وتغوص في أعماق جب المهانة وترغب إلى حد الاستعداد للموت في سبيل أن تتحقـــق الرغبـــة فـــي أن ترتمي في أحضانها مرة وحيدة لتحكي لها كل شيء.

ويوم صرخت بالهمس في أذن واحد مـــن زمـــلاء الزقاق والمدرسة كان ينظر إليك دوما باستعلاء مقيـــت وبغض بأن لك في هذا العالم جذرا بتروك عنه بـــالرغم منك... أطل إليك مشدوها بالتكذيب كأنك زرع شيطاني نبت في الصحراء وتلصـــص علـــى الزقـــاق يتطفـــل الأنفاس... ثم أفسح لنفسه مكانا فـــي دائـــرة الـــزملاء الصغار يحكي لهم عنك ويتغامز فيضـــحكون اســـتنكارا ويتوافدون ليسألوك إن كنت حقا بلا أم مثلهم فتعجز عن الجواب وتتحرك بعبء إثم لم تصـــنعه بـــدون إمكانيـــة الدفاع عنه أو عنها.. وتصدر الأحكام تباعا في كل يـــوم بأن تكون ملفوظا ووحيدا كنتاج لأرض متهالكة بـــدون

درع للحماية... فتصرخ في أعماقك وأنت تطـــل إلـــى السماء ليلا : لماذا ؟

وذات مساء جاء إليك بامرأة وطالبك بأن تناديها كما لو كانت هي أصلك الضائع... ولما لم تكن تحمل لها أي عداء مسبق فقد ناديتها بأمي.. لكن الأم المصنوعة كانت تهوى إذلالـــك دون أن تـــدرك الأســـباب... وتأكـــدت مشاعرك من أنها غريبة عنك بحدة القسوة وعنفها علـــى مدى الأيام ، وسكوتها بينما تصرخ الأخريات في وجهك دفاعا عن أطفال الآخرين بينما ترغب في أن تصرخ هي الأخرى دفاعا عنك فتستدير إليك تعنفك في كـــل مـــرة ظالما أو مظلوما..وفي المساء تسر إليك بكل ما يـــدينك متشكية من أنك تجلب لها وجع الدماغ فيطل إليك بعيون مرعبة فتتوقع الضربات الهوجاء بلا شفقة.

وحتى لسانك الذي كان يتعثر فـــي بـــدايات النطـــق بأنصاف الكلمات كان يســـتحيل لـــيس إلـــى ضـــحكات متعاطفة مع لسان طفل صغير يحاول أن يقول... بل إن قرارها وقراره كان قد صدر بأنك فاقد بـــالقطع قـــدرتك على نطق الكلمات يوما... لكنك كنت تمعن في محاولات

غريبة بالصراخ وحدك في فراغ الشوارع البعيدة بالكلمات الصعبة رغبة في إصلاحها وقولها كما يجب.. وتعود منهكا باكتشافك وحين تكشف بشيء من الغبطة عن نجاحك الجديد تقابلك هي بعدم الاهتمام وتصيد أخطاء جديدة ، وكانت اللعبة مضنية وقاسية إلى حد اليأس لأنك كنت تكتشف دوما أن عالم الكلمات بحر فسيح تستحيل الإحاطة بكل جزئياته... وكما قالوا لك بعدها " **لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر** ".. ومن يومها استبعدت فكرة النفاذ بالكلمات إلى قلب الأم المصنوعة أو الأب التائه دوما بأنفاس الدخان الأزرق المخدر يمتصه من طرف البوصة المهذب بإتقان قبل أن يغيب بالصمت الممدود... وحتى بعد أن عرفت المزيد من معاني الكلمات ونظير بعضها بلغات أخرى ظلت المشكلة قائمة... لأن أحد الحروف قد تمرد عليك تماما ولم يخرج من حلقك سليما... وكان سببا في عقاب متكرر من أساتذتك يحيق بك كلعنة وسط ضجيج الأولاد وحتى الزملاء الكبار بعدها من عجزك البين عن قول

الحرف.. راء... راء... آر... آر.."، أررر... أررر... وحتى اليوم..

وحلم ليالي الشتاء الرطبة.. وجريمتك الصغيرة لأنك كنت تسمح لنفسك بأن تتداخل الحقيقة مع الأحلام... في كل مرة كنت تؤكد لنفسك أنك متيقظ تماما وأنك تبول حرصا من أن تبول ، بينما أنت نائم... وهروبا من العقاب كنت تتلقاه.. الرعب يفرز الرعب وينميه.. الخوف من أن تبول يجعلك تبول مفزوعا... ومحاولاتك العقيمة للفصل بين الحلم والواقع ليلة أن كنت تحلم بوجه لم تره من قبل يناديك فترمح ناحيته بكل رغبة البوح صارخا : أمي... أمي... وهمسها في أذنك بأن تبول في صحن الدار حتى لا تتعرض للسعات مسمارهم.. وعيونك التي أرهبها فزع هزات كف مغلول لتطالع وجه الأم المصنوعة وهي تسحبك في صمت.. ومحاولتك للتعلق بها تقابلها بسمة شامتة ويدها تزيحك بعيدا عنها في حين هو يحمل المصباح ينير لها لتطالع آثار الجريمة والقبضتين القويتين تلفان كيانك كله فيتعذر عليك الإفلات... والمسمار يعرف طريقه إلى أعلى زجاج

المصباح يكتسب حرارة ثم ينقلها إلى المؤخرة والفخذين العاريين وسط همهمات وضـحكات خليعـة وهمسـات متبادلة بينه وبينها... وتسأل التي كانت فـي الحلـم أن ترحمك لكنك تكتشف أنها خدعتك هي الأخرى وتخلـت عنك بالفرار... يحترق الداخل والخارج وتسـهر الليـل بطوله متخوفا أن تنام.

ونداء أطفال الزقاق باسمك الكريه كما علمتهم أمـك المصنوعة... المذلة تنتج في يقينك من أن الكل يعملها ، لكن الأمهات لا تفصح بالغل والتقريع كما تفعل.. وحتى لو أفصحت واحدة وهي تضحك منشـرحة فقـد كانـت تقولها وهي تتسلى وتشكي في مباهاة أن لها طفلا قـادر على إفساد الفراش.

وأصبح من اليسير أن ترتاح من لسـعات مسـمار الأمسيات الرطبة... لأنه يوما بعد يوم كنت أنت نفسـك تكف عن ارتكاب الخطيئة... حتى الأطفال نسوا اسـمك البديل الذي كنت تمقته فتتنفس بارتياح وتشاركه ألعـابهم على استحياء وتوقع أن يصل الذي يناصـبك العـداء ، والذي لم ينس على أي نحو اسمك البـدين ويلـوح بـه

أحيانا لك ليفرض عليك أن تطيع كل ما يشير به وأن تتحمس بدون إبداء الاستياء وإن كنت تبدي الاستياء والمعارضة برغم كل شيء في أغلب الأحيان.

لكن حريتك لم تطل فقد أتي إليك بأم جديدة حريصة على الخبز إلى حد الشح.. وكنت تعجب من أنها لا تجود إلا بأيسر اليسير ، عندما كنت تجوع إلى حد العجز عن الاحتمال وتلهث أمامها ككلب يعوي ويدق الأرض بالأقدام ويستجدي بالدموع.. تتأمل إذلالك بغبطة وتطالبك بالجلوس ، ريثما تأتيك بلقمة جافة بدون غموس وتأمرك بالنزول إلى الشارع.. وكنت تسأل نفسك كيف تحرص على إبقاء الخبز الجاف من أجلك وحدك ومتى تقدم إليك خبزا طريا كالذي تقدمه إليه في وجبات العشاء... لكنه أدرك سر شحوبك وسألك مرة إن كنت شبعانا فرحت تحكي له عن قوت يومك بالدموع وأنت تخشى عودتها سريعا من الخارج بينما كان يدفعك للقول بدون رهبة.. بعدها همهم ببعض كلمات لم تفهمها وأعطاك قطعة من الحلوى وأمرك بأن تأكلها عن آخرها لتحس الشبع للمرة الأولى منذ جاءت وهو يرقبك في ود ورثاء متفكرا قبل

أن تعود ويبدأ في امتصاص دخان المخدر الأزرق كما اعتاد.

اختفى شح أم الخبز الجاف فأصبح من اليسير أن تشبع حين تريد... ولم تعد تبكي من أجل أن تأكل... لكن الأم الجديدة اخترقت جدران حريتك في اللعب... اقتحمت عالمك يوما فوجدتك معاكسا لما ترجوه لك ويطيب لها... شرعت تمارس عبقريتها في ضربك بغل مسرف طالبة منك عدم النزول إلى الشارع أبدا أو إخراج الكلمات بالاحتجاج أو حتى البكاء بصوت مسموع... كانت تتفنن في إيلامك بالضرب المبرح في كافة أنحاء جسدك إلى حد الموات، تضرب وتضرب لتشفي غليلا متوقدا استحال شفاؤه بتكرار الضرب... وعندما كان يهدها الجهد المبذول قبل أن تخمد نيرانها الملتهبة برغبة التدمير تلقي بك أرضا وتدوسك أحيانا بالأقدام وأحيانا أخرى بالقعود بكل مؤخرتها فوق الرأس الذي يصعب عليه الغوص فرارا في أرضية الحجرة الصلبة... وتعجز أنت عن الصراخ والعويل... تعجز تماما حتى عن إخراج الأنفاس بانتظام وتتوه عن كل

شيء حولك.. تتوه عن تمييز الأشياء وتسأل نفسك قبـــل الغياب التام من هذا الذي يرقد وفوق رأسه مؤخرة امرأة يناديها بأمي ؟ من هذا الذي تحتبس أنفاســـه إلـــى حـــد الاختناق... أقدام من هذه التي تدق في كافة الاتجاهـــات وأصابع من تلك التي تنبش الأرض وتبحث عـــن خـــيط مستحيل الخروج.. وحين تصل إلى هذا الحد تهمـــد ولا تفكر أبدا في تكرار التساؤل.. وعندما كنت تفيـــق فـــي المساء تجده راقدا إلى جوارها وذراعه تلـــف الأكتـــاف العارية بحنان... الصدر فوق الصدر عريا فوق عرى.. والرأس جوار الرأس وحلقه يخرج الضـــحكات شـــخيرا مسطولا مقلقا.. الأنفاس مبهـــورة بالحركـــات الهوجـــاء المتوحشة المغرقة في الانهماك والانشغال عنك..

ويوم ضبطتك تمعن النظر علـــى أمـــل أن يـــراك صرخت هي بالفزع المحبوك وانســـحبت مـــن جـــواره فانسحب هو أيضا كفارس مذعور يتماسك في اللحظـــة الأخيرة ليفسد طعنة العيون المقتحمة بالبحث عن ثـــوب يداري به عريه ويسألها عن عصاه فتقدمها إليه بعـــد أن تتوارى هي الأخرى تحت ثوبها الأحمر الذي يشف عن

الكثير.. وتستخدم هي حبلا في ربطك إلى سريرهما بإحكام وغلظة قبل أن ينهال عليك ضربا.. وعندما تتناول هي العصا لتريه كما قالت كيف يضرب بإحكام لم يعترض وكأنه يرغب أن تفرغ هي من ذلك على أي نحو.. ولم تكن ساعتها تصرخ بآلام الضربات العربيدة الماجنة وإنما لأنك كنت ترى أسنان الشماتة تضحك في الوجه والتقاطيع بأسرها تكتسب غلظة ووحشية مرعبة ، فتنهار فكرتك في إمكان الاحتماء به منها بالقول ربما لينقذك من غلها المسرف... فها هي ذي تضربك حتى أمامه وبقسوة أيضا.. وها هو ذا درع حمايتك يستحيل إلى سوط مسلط هو الآخر يهدف إلى سفك دماء وجودك المتهتك بالجراح الجديدة فوق الندوب القديمة..

ويوما لن تنساه ضربتك إلى حد الموت.. الشرر يتطاير من العينين السمراوين داخل إطارين غير متناسقين من سواد كحلهما.. وطوف الموت حولك ساعة أن دست بوز فردة الحذاء القديم بين أسنانك وغاصت إلى الداخل.. إلى داخل الداخل وكيانك بأسره يعجز عن الحركة فالصدر تحت المؤخرة والأقدام ملوية تحتك...

والذراعان في كفها التي استخدمتها ككلابـــة فولاذيـــة.. واحتباس الأنفاس تماما وإحساسك بالذهول قبـــل خـــدر الموت الذي كان يسري في الأطراف.. لكنها أتاحت لك أن تتنفس مرة أخرى باللهاث حين أخرجت بوز الحـــذاء الملوث بلعابك الممزوج بخيط الـــدم... وإعادتـــه مـــرة أخرى بعنف أكثر... وتكرار اللعبة لا تدري كـــم مـــرة يؤكد لك أنك سوف تموت ليس مرة واحدة وإنمـــا كمـــا ماتت قطتك الصغيرة يوما سبع مرات...

وكنت تسمع الهمسات التي تحكي عن فشلها الأخيـــر في إنجاب طفل حي فترغب إلى حد العجز عن الاحتمال في أن يكون لك أخ أو أخت تحكي لها كل شيء.

***

أترنح بالخطى المشنوقة بالتوقعات غير المحتملة... أصرف الطفل الذي كنته خوفا عليـــه مـــن الاسترســـال واعدا إياه بأن أعود مرة للحديث عنه... أهمس في أذنه مطمئنا أنني أذكره وأحكي للبنت التـــي اخترتهـــا فـــي ساعات الضيق كل شيء بدون خجل أو رهبـــة وربمـــا

بغلظة تعادل غلظة الأشياء القديمة ولكن بصدق فأجعلها تتقزز ألما من بشاعة الصـــور التـــي كنـــت أعرضـــها وأحرص على انتقاء الكلمات بعد أن أســـتعيد المواقـــف بإعمال الفكرة في قاع اللحظات البعيدة.. مستحضرا إياها بكل تفاصيلها... أنحدر في أغوار الزمن الآخر إلى حـــد الذهول التام عن كل ما يحيطني... وأتساءل بـــالمرارات المعادة : من أنا... أتساءل عن الأشياء والوجوه الغريبة عن الزمن الآخر مستنكرا أن أكون رأيتها مـــن قبـــل... وأتسمع صوتي الذي يصبح غريبا عني إلى حد إنكـــاره فأتساءل : صوت من هذا... كف من هذه... جسد مـــن هذا الذي عبر المداخل ليدخل مداخل جديدة بدون مخرج وأسأل نفسي أيضا سؤالا أكثر صعوبة عمن هذا الـــذي يطلق أسئلته متعجبا من إصراره على سماع الأجوبة... ومن هذا الذي يسأل أيضا... وســـاعتها يهـــم الـــرأس بالطيران محلقا في فراغ خرافي بعيدا عن هذا العـــالم... وأسكت الطفل بتجفيف الدموع ومنحه قطعة أخرى مـــن حلوى الأب القديم يتلهى بها ويشبع ويســـد فمـــه الـــذي يتساءل فيربكني بالعجز عن الجـــواب... أعـــود إليهـــا

وحدى دافنا إياه في صلبي هادفـا إلـى الارتمـاء فـي صدرها برغبة الأخذ الممكن وأكرر لها ما قلته مرة من أنها الأم الأب الأخ الأخت بالإضافة إلى كونها الزوجـة العشيقة ومرفأ الأمان... وأحس أنفاسها فـوق صـدري اللاهث بعنف المطاردة.. وأحلق معها في أفاق خرافيـة متنهدا بلفظ مرارات الأمس الدفين وحبسها إلـى حـين تطالبني بأن أنسى ساعات الندم لحظـة الاحتـواء وأن أرتاح... أرتاح... أرتاح...

مجلة سنابل يونيو ١٩٧١

روح النهر

" في البدء كان النهر "

يوم الخروج :

خرجت من سجنهم صباح اليوم ، إنما يصعب على تحديد الأيام التي انقضت بشكل دقيق... في البداية كانوا قد علموني أن أرسم على جدران الزنزانة خطوطا متوازية أحصى بموجبها الأيام أو الشهور... داومت على رسم الخطوط مستخدما العديد من الأدوات وأحيانا بأظافر اليدين قبل أن أعجز عن الاستمرار في حساب تلك الأيام التي كانت تتساقط من عمري.. ربما بسبب التداخل بين الليل والنهار أو تشابه الأيام بصورة تجعل الواحد يحسبها يوما وحيدا أو ليلة ممدودة بلا مبررات.

ولما لم أجدني سعيدا بمعرفتي أنه صدر الأمر بإخراجي – خلافا لما كنت أتوقع – أرجعت الأمر إلى جهلي بالمدى غير المسجل على جدران الزنزانة ، لكنه

كان تفسيرا مؤقتا قررت بعده أن أتحاشى مناقشة الأسباب.

اليوم الثاني :

يضيق صدري بهموم خفية... يرتد ضيق الصدر فآكل نفسي... من داخلي أشعر بالتآكل وهو يوسع دائرته وينهش بغير رحمة وأنا أتمدد ولا أنام... أحس أني أتحول إلى شيء مجوف مثل بوصة... أخشى أن يمتد الخواء إلى السطح ، يطل فيكتشف عامل نظافة اللوكاندة التي نزلت بها أمرى ويسر إلى النزلاء فيتزايد حرصهم أو نفورهم مني.

هذا الصباح وأنا جالس في مواجهتهم لشرب الشاي كانوا يحومون بالنظرات ويتلصصون ، لا أدري برغبة التعرف أو بسبب الارتياب في أمري.. قمت تاركا كوب الشاي كاملا فوق الترابيزة وجاهدت لأبدو متماسكا في خطوي ومتعاليا أيضا وأنا أتجه ناحية الباب الخارجي.

في الشارع واجهت أيضا مزيدا من الوجوه البشرية وهي تمارس فحصها الدقيق والدءوب لملامحي..

يتمهلون لحظة قبل متابعة الفرار ربما من ذلــك الكــدر المرسوم فوق سحنتي... ويمتد الشارع بي في رتابــة ، وحتى البنايات التي كنت أعرفها تبدو مكتئبة وساكتة ولا ترغب بدورها في مبادلتي الود... توشك أن تستدير هي الأخرى وتحجب عني واجهاتها التي كنت أتعــرف بهــا معالم الطريق ، عندما خطفت نظــرة بطــرف العــين اليسرى إلى سطح الواجهة الزجاجية اكتشفت أنني أفــر وسط قطيع بشري هارب نحو مجهول لم ينعكس علــى سطح الواجهة الزجاجية... " هناك كان الحلم يغازلك لو تخطو مرة أخرى بلا رقيب ".

ابتسرت رغبتي في متابعة المسير.. قلت لنفسي إنــه من السخف أن أرضي بالتسكع في شوارع المدينة بــلا هدف محدد.. حتى رغبتي في الجلوس إلى شاطئ النهر كما كنت أرغب تتهاوي أو تذوب فــي وهــج الشــمس الحامي... وكما تلحظ فإن كل شيء يهون إلا أن يتأكــد لديك ختاما لرحلة الأسوار أنهم أخرجوك بعد ما صنعوا لك وجها مغايرا أو قناعا من جلــد أرنــب ، وتتراجــع

الخطوات المنهكة راضيا بمواجهة العيون في مدخل اللوكاندة ونظرة الشك في عين عامل النظافة..

نهار اليوم الثالث :

خرجت وركبت مركبة الترام المزحومة.. حسبت أن طراوة النهر سوف تعمل على تخفيف الصهد الحامي فعجزت وانعكست تيارا حاميا.. الصمت إلا من أنات شاحبة لسطح نهر ساكن بلا حراك لا يملك إلا أن يعكس الشعاع الشمسي والصهد " وكنت تتوهم أنك سوف تلتقي بعشرات الوجوه المألوفة تسألك عن الأحوال وتتابع شفتيك في إعجاب بقدرتك على الاحتمال.. السؤال الذي كان يلح عليك هو كيف تصوغ الكلمات لتحكي أو أن تتوارى خوفا من الانزلاق في البوح باللسان ، أن تكون جسورا أو ساكتا نزولا على تحذيراتهم لك هناك من البوح بما جرى وكان.. ها هم لا يأتون ولا يأبهون لك ويدعونك وحيدا على شاطئ النهر العاجز ترمى سطحه الساكن بالحصوات فتوجعه ويتشكى " يبدو أن الحديث

إليّ أمر غير مستحب لأحد... أعود إلى اللوكاندة عازما على أن أجاهد لصلب طولي عنـــد المـــدخل والادعـــاء بالملامح أنني راغب في عدم الالتفات إلى أيهم من باب التعالي.

منتصف الليلة الثالثة :

أقوم مفزوعا من مرقدي مناديـــا بصـــوت مبحـــوح وخافت : سالي... سالي..

أجاهد لإزاحة الرهبة التي خلفهـــا الكـــابوس لأنـــام غصبا فلا أفلح...

قالت لي في الزيارة الوحيدة :

- صعب عليّ انتظارك إلى أجل غير مسمى.

قلت : عندك حق.

قالت : لم أكن أتصور أنك...

قلت : لا يهم الآن... الآن أنت حرة.

قلت لنفسي : إنها تطلب التحلل من رباط لم يكتمــل ربطه من باب التمسك بمعـــايير الأخـــلاق الفاضــلة.. علموها في المدرسة أن تأخذ الإذن قبل فعل الفعل.

بعد الزيارة واجهت ما كان عليّ أن أواجهه دون أمل في زيارة أخرى ، ورغبتي في أن أمنحها حرية لم تكن تخصني من باب الإحساس بقدرتي على العطاء تذوب.. ظهرت رغبتها في التحلل غصبا وكنت أود لو أجعلهــا تعرف أنني فكرت في منحها الحق في التصـــرف كمــا يحلو لها قبل أن تحاصرني هي باستلاب وعودها التـــي منحتها وجعلتني أستند إليها أياما.

* * * *

" كنا في بدايات أغسطس أيضا... أخذنا التاكسي إلى الكازينو... قلت لها أن قرار التعيــين معـــي... كانـــت سعيدة.. رحت أتباهي بنفسي وأحكـــي عـــن الأســـلوب الواجب إتباعه مع الطلبة الخـــاملين ، قالـــت وعيناهـــا تدمعان من الفرحة :

- كف عن غرورك فلن تكون المعيد الوحيد في هذا العالم.

وضحكنا من قلوبنا المرتاحة لنسمة الهواء المـــنعش التي حومت حولها... في الليل ذهبنا إلى المسرح.

بعد العرض أوصلتها ، على درجات سلم عمـــارتهم تبادلنا القبلات.. قالت وهي تخلص نفسها مني وتبعـــدني برقة : تعال غدا وكلم أبي.. أضـــافت مقـــررة : أظـــن مركزك محترم ولن يمانع.. في السادسة ســـوف تـــأتي وتجده ينتظر.

في الخامسة والنصف من مساء اليوم التالي جـــاءوا وأخذوني وأنا أتأنق في ملبسي بعد أن أحســـنت حلاقـــة ذقني.

واليوم تحاصرني في المنام بعدما تخلت.. تحـــولني إلى صوت مفزوع ومحبوس ينادي باسم لا يهوي التلفظ بحروفه عارفا أنه لن يرد النداء.

ظهر اليوم الرابع :

قال الأفندي عندما سألته :

ياه.. غير الترام الذي تنتظره خط سيره المعتاد من زمن طويل.

كان ينظر إليّ مرتابا.. ليته يحسبني وافدا جديدا أو معتوها يتسكع في وقدة الشمس...

الخطو المتهالك لا يقود إلى مكان... شمس أغسطس تشوى لحمنا البشري... في طفولتي حدثوني عن آكلة لحوم البشر... كنت أتخيل الضحايا فوق أسياخ طويلة ممدودة فوق نار ملتهبة وهم عرايا يصرخون بعيون مفزوعة عاجزة عن الاستسلام الكامل برغم اليقين في استحالة الفرار.. ونقاط الدهن الساخن تتساقط فوق الكتل الملتهبة فتحدث أصواتا متتابعة كأنها آهات مستجيرة تزداد خفوتا مع كل دورة من دورات الأسياخ وقبل أن تكف تماما وتدع الأمر لأصداء الأصوات تتجاوب وسط السكون البليد.. يتبقى بعدها الموت والفزع...

صهد شمس هذا اليوم تشويني... كأنها وحش خرافي يتسلى بالنظر بعينيه الوحيدة بتلذذ شامت... وحش مفجوع بجوع منهوم لا يشبع... أصرخ من داخلي

وصورة اللحم البشري على الأسياخ تشاغلني.. ملعونة هي الشمس في كلا الشهرين ، يوليو وأغسطس..

ليل اليوم الخامس :

تسللت من باب اللوكاندة هادفا الوصول إلى شاطئ النهر... في الليل يزداد التوق إلى سماع صوت بشري أو حتى طنين الأمواج المتتابع يوشوش الداخل... لو صادفت وجها أعرفه فسوف أصحبه معي وأحكي له شيئا مما جرى أو كل ما جرى ، يتوقف هذا على قدرته على مواصلة السماع ، هاك وجه يتابع خطوى المتعجل على الرصيف المقابل... ربما زميل دراسة أو شيء من هذا القبيل ، لو يقترب أكلمه ، يسألني عن الأحوال فيكسر صمت الناس حولي أو يكسر صمتي ، أسمع صوته الموجه إليّ وحدي... لا يكف عن النظر ناحيتي... يمضى في طريقه بدون أن يفكر في عبور الإشارة المفتوحة... ها هو ذا الهوس يحركني فأعبر الإشارة إليه..أسير خلفه والعينان اللتان أطل من خلالهما تمعنان التركيز... تتشوف أن تتعرف، أن تتأكد ، أن تواجه العينين... تنغرزان في لحم الظهر وأقترب

كالمنوم بالرغبة في مطالعة الوجه... هذا الوجه مـــألوف لدى تماما... يقينا قابلته وعرفته وكلمته من قبل... إنـــه يتحاشى مواجهتي وإن كان قد التفت إليّ ثم تغاضـــى... لو أذكر الاسم لكلمته.... لا يهم الاسم :

- يا أستاذ...
- ....
- يا حضرة...
- ....
- تسمح من فضلك... " ووضعت يدي على كتفه ليتأكد أنني أحادثه وأقطع عليه فرصته في معاودة التجاهل ".
- أفندم.
- أهلا بك... حضرتك تذكرني طبعا ؟
- لا أعرفك.
- لكنك تعرفني... حاول أن...
- أبدا.

- أنا أعرفك... صدقني... التقينا وتكلمنا في....

- عفوا...

قالها متخلصا ومشى ، لم يسمع كلمتي : متأسف.. لا يهم أن يسمع لفظ الأسف... لا يستحقه.. استدار الوجه ومشى في عكس الاتجاه الذي اختاره لنفسه أولا.. هرب.. تزايد يقيني في أنه يعرفني ويعرف أنني أعرف أنه يعرفني وينكر.. الآن بعد أن زاغ في عكس اتجاه النهر أتذكر الاسم الحقيقي والاسم الآخر.. أتذكر تفاصيل علاقتي به بدون معنى.. أبرر لنفسي موقفي وأؤكد أنني لم أتطفل أو أتمسح في شخص لا أعرفه... تلح على مسامعي شطرة من قصيدة ت. س. اليوت " نحن الرجال الجوف بالقش ملئنا " أفتقد الطريق الذي كدت أعرفه..

- تسمح يا حضرة الشاويش...

- نعم " قالها متشاغلا عني بآلية ".

- لو تكرمت ، ميدان التحرير...

- أنت في ميدان التحرير " قالها بامتعاض وقرف ".

لم أصدق.. ليست كل الميـــادين الفســـيحة ميـــادين التحرير.. هناك ميدان تحرير وحيد وأنا أعرفه..

هو جلف أحمق يتعالم ويستغل شكوكي في معلوماتي الجغرافية ليخدعني... أخطأت لما سألته واضـــعا فـــي الاعتبار أنه مسئول عـــن توجيـــه التـــائهين وتصـــحيح معلوماتهم وليس إفسادها... تركته عارفـــا أن الوصـــول إلى ميدان التحرير الذي أعرفه يتطلب جهدا جديدا.

صباح اليوم السادس :

جاءني عامل النظافة وأفهمني أن هناك من يطلبني.. خفت.. قلت له يتفضل حتى أغتسل وأغير... صـــديقي القديم كان جالسا في صالة اللوكانـــدة... قـــام نـــاحيتي وأخذني في أحضانه.. تماسكت... أحسست أنني قشة أو عود حائر في مجرى هادر يرسو عند شاطئ.. يهـــدأ... خرجنا قال لي أنه كان من العسير عليه جدا لعديد مـــن الظروف المعوقة أن يلقاني قبل ذلك.. هون عليَّ أمـــورا أحسبها لا تهون... قال :

- أنت تغيرت... تغيرت بشكل شامل.. يصعب على المرء أن يصدق أنك أنت من كنت أعرفه.. من عينيـــك يشع ضوء مذعور لا يخصك..

تابعت الشكاية وهو يسمع.. جاهدت أن أكــف فلــم أفلح... تحولت إلى جرح ناطق لا يحتاج لغير وخزة من سؤال بسيط عابر أو أذن تسمع لينزف الكلمات.. بـــدأت في التوهان دون أن أحس قال مقاطعا وكأنـــه يصـــفعني لأفيق:

- كف عن سرد التفاصيل.

لم أكن قادرا على السكوت أو التوقف.. كان يتســـمع باندهاش مشدوه غير مصـــدق.. أحيانـــا أقـــرأ نظرتـــه الحيادية في حين كان هو على حافة المشهد يطـــالع مـــا كان من أمر البهلوان الجريح الذي أصبحته ، وأتســـاءل إن كانت رغبة في التأكد من اندحاري أو سكوت راغب في إخراجي ؟

قال :

- عليك أن تتماسك وتفوت عليم فرصة الإجهاز عليك..

قالها بإشفاق فزال شكي... أكملت :

- بينما أحلق بالدماغ هناك أحسست جذبا إجباريا إلى ذات المدار القديم الذي منه أهرب..

- قم بناء نتمشى عند النهر..

قمت مسرعا " إنه يعرف... هو يقودني إلى طرق أرغب في عبورها... إنه يسمعني.. يحادثني ، يعرف أنني واجهت ضياع شيء لا يمكن وصفه أو معرفته.. تسلل خلسة وعليه أن يعاود ملء حيزه الخالي.. هو اليقين الذي ضاع... فقدان الثقة في شيء أو أحد ".

وبان النهر... يحبو في بطء ممل وبلا حماس ، كان في البدء يندفع في قوة وجسارة ، إنه يكابد عناء البحث عن شيئه الضائع... إنه يتحرك في قنوط ساكن معاد... قلت لأقطع الصمت :

- النهر بطيء..

- أبدا... إنه السطح..
- لكنه يبدو ساكنا وبليدا...
- في الأعماق دوامات تغلي وتهدر...
- ....
- وهناك سد يحرسه... كان من المحتم أن ينظم خطواته..
- ينظم خطواته ؟
- بالضبط... وهو يجاهد هذه المرة أن يصل إلى كل القرى والكفور العطشى ولا يفيض فيدمر...
- هكذا ؟
- هكذا طبعا... ولابد أن يكون هكذا.
- كنت أتخوف من فقدانه لروح النهر.
- مجرد مخاوف بسبب هزة تواجهها... النهر هو النهر..

الزهور، ملحق الهلال ــ فبراير : ١٩٧٣

غياب المواطن سيد غزال

وكعادته كان يقف في الساعة السابعة صباحا وسط زحام المترو متوسط القوام متوسط الهندام لو انحطت عليه عين ما ميزته بشيء إلا تلك الانحناءة البسيطة التي يمكن بكثير من التحفظ القول بأنها نوع من الإهمال أو فقدان الرغبة في التمايز اكتسبها رجل في منتصف العقد الخامس في ظروف تخصه وكنتيجة لذلك تم اعتباره إنسانا متوسطا من كافة الوجوه ، وبتحديد أوضح إنسانا مألوفا ومكررا بشكل يصعب الالتفات إليه بأكثر من النظرة العابرة فهو دائما هنا موجود إنما وجوده غير محسوب ربما لأنه ليس من العسير العثور عليه في أي وقت ، فهو ضروري وغير ضروري في آن واحد بقدر ما هو موجود وغائب...

كان السيد / سيد غزال يقف في ذلك الصباح ناقلا بصره بين وجوه النساء وأجسادهن ، يبلع ريقه من آن لآخر ويتحول إلى الناحية الأخرى قائلا لنفسه إن النظرة

الأولى مغفورة لخلوها من الأغراض أما الثانية فحـــرام لكونها مقرونة بالرغبة كما علمه الشيخ وقد جاهد نفســـه جهادا طويلا وحقق كما يقول لنفسه تلك المعادلة الصعبة ، متع عينيه ولم يشعر في ذات الوقت بعبء الـــذنوب " والمدينة براح يا سيد والنسوان فيها أكثر من الهم علـــى القلب" نظر إلى ساعته... حسب الـــدقائق وتأكـــد مـــن إمكانية الوصول إلى مكتبه قبل المواعيد الرسمية التـــي يحرص عليها أشد الحرص عملا بنصح المرحوم والده ، كان راضيا عن نفسه لانتظامه طوال تلك السنوات التي عملها في سلك الوظيفة.. " وما الوظيفـــة يـــا ســـيد إلا الانتظام في الحضور والانصراف وطاعة الرؤســـاء ".. ولقد اعتاد تلك الصحوة المبكرة منذ زمان طويل ، ولولا سنوات النسيان الطويل التي جمدته بين الدرجتين الثامنة والسابعة لاختلف الأمر ، صحيح أن قـــانون الرســـوب الوظيفي أنقذه ودفعه إلى الدرجة السادسة الكتابية الجديدة ، وصحيح أنه بموجب حساباته يمكن أن يحصـــل فيمـــا بقيت له من سنوات الخدمة علـــى درجتـــين أو ثـــلاث درجات أخرى... لو خدمته الظروف...

عندما جاء المترو انحشر في زحامه وسط أجساد تتصارع وأقدام تتدافع، جاهد ليحتل مكانا مميزا فلم يفلح ، فترك جسده يواجه الضغوط من كل جانب وتحامل على نفسه عارفا أنها نصف ساعة من الاحتمال وعليه أن يحتمل برضاه أو غصبا عنه ، فطوع نفسه لأن يرضي..

عندما ترك المترو في آخر الخط اتجه ناحية البائع واشترى جريدة الأهرام ، طواها بحرص بالغ وحطها تحت إبطه الأيمن.. فتح عينيه تماما وهو يعبر الإشارة إلى ميدان الشهيد عبد المنعم رياض العلوي ودار نصف دورة انتهت به عند أول شارع التحرير ثم انحرف يمينا في شارع نوبار حتى مدخل وزارة الداخلية.. في مكتبه الذي تم تغييره منذ نقل إلى هذه الوزارة كان يجلس بوقاره المعهود في تلك الساعة ، فخورا بنفسه كل الفخر ومشاركا سعداء العالم فرحتهم بذواتهم ، طلب لنفسه شايا بالحليب وفتح الجريدة عند صفحة الوفيات وراح يقرأ أسماء الموتى وذويهم ويهمهم عند ذوي الحيثيات الخاصة الذين يهتم بهم بشكل يفوق اهتمامه بالنظر إلى

حريم المدينة ، ولقد دأب منذ سنوات على ذلك النظـــام ، ما إن يقرأ النعي الخاص بأي واحد من السادة المهمـــين حتى يبدأ في سرد تاريخه الخاص على مسمع من بقيـــة الزملاء في إدارته متباهيا بعرض ذاكرته الواعية التـــي تشبه العقل الإلكتروني كما يقولون ، لكنـــه فـــي الأيـــام الأخيرة تغيرت بعض الأمور لأسباب مجهولة مما جعل الزملاء في الإدارة غير متحمسين لسماع ما كان يعرفه ويجب أن يحكيه عن الأموات ، وكما لو كان قد بدأ يشك في أن ذاكرته الواعية أصبحت أقل قدرة علـــى اختيـــار الحديث في موضوعه المحبب أو أنه أصبح أقـــل قـــدرة على اختيار اللحظات المناسبة للحديث... كان موظفـــو الإدارة يتوافدون الواحد تلو الآخر... منهكين ســـاخطين على زحمة المواصلات كـــأنهم يعـــانون وحـــدهم مـــن صعوبتها ، كانوا بارعين في فتح مواضـــيع أخـــرى لا تخصه أو تخصه بدرجة أقل إلحاحا مثل أزمة الإســـكان التي حلها بحجرة سكنها قبل الأزمة ولحسن الحـــظ لـــم يتركها...

كانوا يتحدثون عن زيادة الأسعار وصعوبة الحصول على بعض السلع ناسين أن البلد تعيش في حالة حـــرب منذ سنوات ولما لم يكن قادرا على تقرير الرأي بشـــكل قاطع في بعض الأمور فقد فضل الصمت ولـــم يطالـــب نفسه مرة باستيعاب الأشياء التي لا تهمه.. ولقد كلفه ذلك السكوت نوعا من القلق الخفي مجهول المصدر اســـتمر شهرا بطوله وأوشك خلاله على طلب إجـــازة اعتياديـــة لولا الحياء من رئيس القلم وتخوفه من إمكانيـــة رفــض الطلب واضعا في اعتباره أنه لم يحصل خلال الســـنوات الخمس الفائتة على يوم إجازة واحـــد قـــائلا لنفســـه إن الإجازات لا لزوم لها وأن أولئـــك الـــذين لا يحســـنون استغلال إجازاتهم لابد تكتب عنهم تقارير سيئة...

كانت الدقائق تزحف ببطء بينما يقلب فـــي بعــض الأوراق أمامه بشيء من الفتور، ورغبته تقل فـــي فـــتح موضوع الرجل ذي الحيثيات الجمة المنشور نعيه فـــي ذلك الصباح نفسه والذي يعرف الكثير عن تاريخه ، بل إن الرغبة تهالكت تماما إزاء ما كانوا يتجـــادلون فيـــه بشكل حماسي زائد..

قال الموظف الجديد لرئيس القلم متسائلا :

- قرأت الرواية ؟

أجاب الرجل بوقار وتحفظ :

- نعم..

سأل الموظف الجديد زميله الجديد أيضا :

- لم تكلمني عن رأيك في رواية نجيب محفوظ الأخيرة ؟

الأستاذ غباشي قرأها أيضا..

قال الموظف الجديد الثاني :

- لا بأس بها.

قال الموظف الأول :

- تعليق عام.. قل رأيا محددا.

رد الموظف الثاني :

- أشعر أنه يسخر من عقولنا.

قال رئيس القلم مدفوعا بحماس رجل يخشى بالفعل أن يكون الكاتب قد سخر من عقله هو بالذات.

- هذا كلام فارغ..

قال الموظف الجديد الثاني :

- ليس معنى هذا أنها رواية سيئة ، أنا قلت أنه يسخر من عقولنا على نحو ما... فما هو الفارغ في هذا الكلام يا أستاذ غباشي ؟

وكرجل وقور متزن يمارس نوعا من الديمقراطية ويدفع عن نفسه نظرة الحماس المتحفز من عيون الولد الجديد قال رئيس القلم :

- عموما أنا قرأتها بعد السهرة ونوم العيال وربما لم أفهم كل ما فيها.

وهنا اندفع السيد / سيد غزال مدافعا عن عقل رئيس القلم كما يظن وناظرا إلى الموظفين الجديدين بنوع من التحدي :

- نجيب محفوظ أحسن كاتب في مصر.

وسأله الموظف الجديد الأول بابتسامة مستهينة :

- حضرتك قرأت رواياته يا أستاذ سيد ؟

أجاب مخزيا من تقرير الحقيقة :

- طبعا.. زمان وأنا في مثل سنك..

سأله الموظف الجديد الآخر مناكفا وكأنه يحاصره :

- وماذا عن روايته الكرنك ؟ قرأتها ؟

واحتار السيد / سيد في الجواب ، نظر إلى رئيس القلم يستمد منه العون لكن الرجل سكت تماما فاندفع هو بنفسه مرة أخرى مدافعا عن موقفه بحماس زائد قائلا :

- وحتى لو لم أقرأها ، هل تنكر أنه أحسن كاتب في مصر.

قال الموظف دون أن يظهر عليه أي بادرة من بوادر الهزيمة :

- هذه قضية أخرى ، ودخولك في النقاش دون أن تقرأ الرواية لا يفيد ، خذها من الأستاذ غباشي وبعدها نتناقش.

وخلص السيد / سيد نفسه من سقم الحوار قائلا :

- لا... لن أقرأها... ارتحت ، ونجيب محفوظ أحسن كاتب في مصر كما قلت لك.

كان يبدو مستفزا ومكبوسا بشكل يصعب فهم أسبابه فغير الأستاذ غباشي الموضوع حرصا على تلطيف الجو ونصح الموظفين الجديدين بإنجاز الأعمال إن كانت ثمة أعمال معطلة..

قال السيد / سيد لنفسه إن الموظفين الجديدين غريبو الأطوار ، الواحد منهم مازال في الدرجة الثامنة ولا يكفون عن إثارة المناقشات التافهة ويجرون معهم رئيس القلم في ثرثرات عقيمة لا تفيد كأن الواحد منهم ند لرئيسه وتساءل بينه وبين نفسه " من أين يتسنى لهم شراء الكتب " وطمأن نفسه قائلا : " إن على الموظف العام أن يتعرف على السياسة من الصحف اليومية فقط ، فالكتب حسب ما يعرف تفسد العقول وتخرب البيوت ".

هكذا انتهت ساعات العمل وحان موعد الانصراف فوقع في الدفتر وحمل جريدة الأهرام ونزل.

في ميدان باب اللوق شاف زميله القـديم الأسـتاذ / شعبان أبو المكارم فحاول أن يختفي منه لكن الأخير ناداه وعبر الشارع إليه ، صحيح أنها زمالة قديمة منذ كانـا معا في مدرسة التجارة المتوسطة لكنها استمرت ، وفي مدينة كهذه لابد للرجل المتوسط الحال من صاحب يذكره ساعات الضيق وهي كثيرة وقد كـان الأسـتاذ شـعبان صاحبا من هذا النوع ، فهو صاحب ميسـور ومتيسـر وقادر على المساهمة في تفويت حالات العسـر المـادي وتقديم سلف مؤجلة لنهايات الشـهور العصـيبة ، قـال الأستاذ شعبان بشوق طاغ :

- أين كنت يا رجل ؟

أجاب السيد / سيد متوجسا :

- هنا.. في الوزارة.

- كنت أفكر فيك طوال هذا اليوم..

- ياه... خير إن شاء الله ، متأسف لأنني تخلفت عـن موعدنا لم أجدني قادرا على سداد المبلغ هذا الشـهر فخجلت أن أزورك..

- آه... مبلغ ؟ لا... ليس من أجل ذلك..

قال السيد / سيد مبررا نفسه ومحاولا تقديم اعتذار مقنع :

- أنا مقصر في حقك فعلا أنا....

أوشك أن يسترسل في طرح مبرراته طلبا لغفران الأستاذ شعبان لكن الآخر قاطعه متسائلا :

- ما رأيك في أن تلاعبني عشرة طاولة !.

هان الأمر عليه وأومأ موافقا... سحبه الآخر من كوعه واتجه به نحو مدخل المقهى المعتاد.. هكذا دائما كلما قابله الأستاذ شعبان أخذه ولاعبه وهزمه ، وكل مرة يحاول فيها ألا ينهزم ، لكنه دائما ينهزم ، وأثر كل هزيمة يتوهج وجه المنتصر بنشوة الفوز في حين يحس بعنف العجز لكنه قال لنفسه وهو يرى الزهر : لا بأس أن ينهزم الواحد منا مادام هناك من يصر دائما على أن يهزمه...

قال الأستاذ شعبان وهو يرمي الزهر ويشير إلى الجريدة :

- قرأت ما هو مكتوب عن زيادة المرتبات ؟

رد بشوق وتلهف :

- لا... هل ستزيد المرتبات ؟
- لا شك... الموضوع محل دراسة.
- صحيح ؟ ربنا يبشرك بالخير..
- دبش.. لكن هناك مشكلة..
- .... ما هي ؟
- شيش بيش... مسألة الأسعار..
- مالها الأسعار ؟
- دورجي... مطلوب تثبيت الأسعار أولا...
- لا أفهم...
- لا يهم أن تفهم... شيش بيش....

وقال لنفسه إنه لم يسمع برغم أنه حاصل علـى دبلـوم التجارة المتوسطة عن شيء اسـمه تثبيـت الأسـعار ، ورمى الزهر...

فقال الآخر بفرح مفاجئ :

- إلعب يا شاطر... افتح... هائل.... دبش... عوضك على الله في خانة " اليك "..

أحس السيد / سيد بأن الهزيمة أوشكت على الحدوث ففتح خانة " اليك " مستسلما..

قال الآخر بشماتة وبشيء من السخرية من سيد :

- وسيرتفع مرتبك بنسبة كبيرة ، تماما كما ترتفع هذه الورقة السوداء على ورقتك البيضاء في خانة " اليك "... عندك أمل ؟

- رد السيد / سيد بحسرة وبشيء من اليأس :

- بعد ما حبستني في خانة " اليك " ؟! العب غيرها....

- لا... هذا يكفي...

هكذا إذن رفض شعبان أبو المكارم أن يمنح صاحبه فرصة الدفاع عن نفسه وتعويض هزيمته وأغلق الطاولة فقام أثر صاحبه متمتما بكلمات غير مفهومة مجاهدا أن يجد تفسيرا لسلوك صاحبه الدائب على هزيمته وعدم

منحه فرصة للتعويض أبدا ، ولما حار في الأمر وهو وحده قال لنفسه " أنت حنبلي يا سيد ، وماذا لو هزمك صاحبك في الطاولة ؟ المسألة كلها زهر ولا تخضع لبراعة حظوظ.. هكذا أراد الله... وما دمنا نلعب فلابد من مهزوم، إنما الغريب أنه يصر كل مرة على هزيمتك حتى في المرات التي تبدأ فيها بالفوز يصر على استمرار اللعب حتى ترجح كفته وينتهي الأمر لصالحه".

تركه الأستاذ شعبان أبو المكارم فسار وحده تائها، كان يشعر بدوخة وضعف شديدين فقرر أن يسند قلبه بنصف كيلو لحم وذهب إلى الجزار لكنه أحس بالحيرة أي الأصناف يطلب حتى أربكه الجزار بنظرة عدوانية فقال بدون أن يكون واثقا من حسن اختياره....

- نصف كيلو عجالي...

أضاف برجاء وفي صوت خافت ليزيح سكين الجزار عن مكانه.

- أحمر والله..

لكن السكين كان يتحرك حيث أراد الجزار وهو يقول في محاولة مكشوفة للضحك على الزبون :

- ملبّس إنما على كيفك.

قال هو مدافعا عن موقفه وكأنه يستغيث :

- أنا لا أحب الملبس... عندي عسر هضم وإسهال مزمن.

وأبعد الجزار سكينه عن الملبس ونظر إليه باحتقار..

- لو كل واحد ناكف معنا هكذا ملعون اللحم وملعون نصف الجنيه الذي دفعته ، خد فلوسك وتوكل على الله..

- لكن يا معلم...

- قلنا اتكل على الله يا أفندي وفوت هذا اليوم على خير..

كانت لهجته قاطعة وباترة كنصل سكينه المرهف لا تقبل النقاش وتحمل قدرا من الوعيد جعله يسحب نصف

الجنيه من يد الجزار ويتكل على الله في طريقه إلى محطة أول المترو...

انحشر في الزحام وأسلم نفسه للأقدار ولدفعات الأيدي والأكتاف في جو خانق ومحبوس.. بصعوبة وعسر كان يأخذ أنفاسه ، عندما جاءه المحصل لم يستطع تعيين المحطة الذاهب إليها فحسبه أخرس ، أشار إليه بيده متسائلا إن كان ينوي الذهاب إلى آخر الخط فلم يستطع النفي وأراح نفسه بأخذ التذكرة مضحيا بنصف القرش الزائد سائلا نفسه عن سر ذلك الضيق الذي يحسه في صدره... لعن الأستاذ شعبان وزنقته في خانة اليك ودعا على الجزار بخراب البيت... لم يعرف ما الذي جعله يستعيد كلاما سمعه من الشيخ الذي كان يحضر عليه دروس شهر رمضان الماضي.

" وهكذا ترون يا أبنائي أن الذين نجحوا في الحياة أقل منزلة منكم عند الخالق ، أنتم اشتريتم الآخرة بالأولى ، أما هم فيرغبون في ثلاث : المرأة والمال والسلطة ، وكلها أمور مبهجة وإن كانت من عَرَض الدنيا الزائل.. بل أنها لا تدوم حتى في الدنيا ولكم نسمع أنهم

يتصارعون على أكثرها دواما وهي السلطة ، يتزاحمون عليها ويتكايدون من أجلها ، يتوسلون إليها بشتى الوسائل ناسين أنها لا تدوم ، فاتقوا الله يا أولادي وبيعوا الدنيا فهي فانية واستمسكوا بحبل الله عسى أن يحفظكم الله ويتم عليكم نعمته وتكونوا من أهل الجنة ".

كان المترو قد وصل بالفعل إلى نهاية الخط تاركا محطة السيد / سيد خلفه وكان هو قد تاه تقريبا عما يدور حوله ، وأوشك على السقوط لولا أن سنده رجل متوسط الحال فأنزله إلى الرصيف بمساعدة سيدة عجوز ، كان وجهه يتصبب عرقا فشرع الرجل يهوي عليه بالجريدة اليومية ، ظل غائبا مدة ثم بدأ يحس بما يدور حوله ويستعيد وعيه... لما اطمأن الرجل إلى سلامته قدم إليه زجاجة مياه غازية كان قد اشتراها من أجله... شربها السيد/ سيد ممتنا وشكر الرجل ثم قام وشد على يده ووعده بتقديم أي خدمة وأعطاه اسمه وعنوانه ورقم تليفونه في الوزارة وهو أمر لم يتعوده السيد / سيد، وركب المترو العائد قائلا لنفسه أنها أزمة طارئة وسرعان ما سوف يستعيد نشاطه ويصبح ــ كما يقول

على نفسه دائما ــ كالحصان.. إنما عنــدما نــزل مــن المترو وسار في اتجاه البيت شعر بمغص فــي معدتــه وبالتهاب في جوفه وأحس بأنــه دائــخ فتماســك قــدر المستطاع حتى وصل إلى البيت..

* * * * *

في غرفته المعزولة فوق السطح أحس بالضيق أكثر ، عمل لنفسه كوبا من عصير الليمون وشعر بشيء مــن التحسن ، رقد ساعة وقام من مرقده ورغبته في الأكــل تجره إلى التفكير في نوع الطعام، عندما تحسس جيــب بنطلونه بحثا عن النقود اكتشف أنها غيــر موجــودة ، أحس بالحسرة لضياع جنيهاته الخمس التي كان يعــول عليها بشكل أساسي للإنفاق على نفسه حتى نهاية الشهر ، ذهل لما حدث وجلس على مقعد قديم يفكر لساعات لم يستطع أن يحدد قدرها ، كان الليل قــد حــل ودماغــه المرتبك يائس من إمكانية الوصول إلى السبب والوقــت والمكان الذي فقد فيه نقوده.. عاودته النوبة التي حصلت له أثر تناوله لزجاجة المياه الغازيــة ، أحــس بالخــدر يسرى في كل بدنه وتصبب العرق فوق جبهته.. لفحتــه

ريح فأشعرته ببرودة.. ففكر في الأســتاذ شــعبان أبــو المكارم كوسيلة قادرة على إخراجه من ورطته الماليــة لكنه استسخف الفكرة ، حاول الوصول إلى فراشه ليتدثر بغطاء ويرقد لكنه داخ وسقط على بلاط الغرفة ، كانــت السقطة مفاجئة وعنيفة... فتح عينيه وجاهــد أن يقــوم لكنه عندما نظر إلى ما خرج من فمه غصبا ازدادا كربا وأحس أنه انتهى لتوه لأنه كان قد طفح دما... كف عــن الحركة واستسلم تماما ارتخت أطرافه وكبس على صدره كائن خرافي جعله يئن فــي خفــوت موجــوع.. وبعــد لحظات ساد صمت وسكون،وفي عقله نصــف الغائــب كانت تتشكل كلمات كان قد قالها لنفسه أثر هزيمته فــي مباراة الطاولة ظهر هذا اليوم... لا بأس... مــن أن... ينهزم... الواحد... منا.. مــادام... هنــاك.... مــن... يصر... دائما... علــى.... حصــاره.... وهزيمتــه... وكبس... أنفاسه....

* * * *

صباح اليوم التالي قال رئيس القلم وهو ينظر إلــى ساعته :

- غير معقول.. سيد أفندي تأخر عـن مواعيـده... ليس من عادته أن يتأخر... شيء محير...

قال الموظف الجديد الأول :

- ربما فكر في الحصول على إجازة يرتاح فيها من زحمة المواصلات..

قال رئيس القلم وهو ينظر إلى الخانـة المخصصـة لاسم السيد / سيد غزال ويجاهد ألا يشطب على مكـان توقيعه بالحضور بقلمه الأحمر :

- منذ خمس سنوات لم يحصل على أي نوع مـن الإجازات أو يتأخر عن موعده.

قال الموظف الثاني الجديد :

- لكنه غاب... لا تسدد أمام اسمه أو دعنـي أوقـع له...

فانفعل رئيس القلم وأحب أن يوضح أنـه لا يسـمح بمثل هذه الفوضى قائلا:

- توقع له ؟ هذه فوضى واستخفاف بالوظيفة...

وبسرعة ونكاية في الموظف شطب بقلمه خانة الحضور ثم أقفل الدفتر ووضعه في درج مكتبه الكبير..

بعد مدة قال الموظف الجديد الأول :

- لا تعجب يا أستاذ غباشي، في سفر التكوين أن الله نفسه استراح بعد أن خلق العالم...

قال الموظف الجديد الآخر معلقا :

- أولئك اليهود خيالهم خصب بشكل غريب ، كيف يتصورون أن يستريح الخالق نفسه.

قال رئيس القلم لينهي النقاش ويخلص نفسه من سماع هذا التجديف الفاسق :

- كف أنت وهو عن الثرثرة ، كونوا في حالكم... خلصوا الشغل وبطلوا كلام...

* * * * *

في اليوم الرابع وبعد أن وضع رئيس القلم قلمه الأحمر أمام الخانة المخصصة للسيد / سيد غزال بحرف " غ " جاءهم الخبر على غير ما كانوا يتصورون... كان

الأستاذ شعبان أبو المكارم قد دخل المكتب حزينا لـــيعلن أنه اكتشف بالصدفة موت صديقه العزيز الســـيد / ســـيد غزال عندما راح يسأل عنه في مسكنه..

وكالعادة دار رئيس القلم يجمع القروش من مـــوظفي الإدارات من أجل النعي الواجب نشره فـــي مثـــل هـــذه الحالة عندما يموت موظف ذو أهمية خاصة.. وقد صاغ الموظف الجديد نص النعي وراح متطوعـــا إلـــى مقـــر الجريدة بشارع الجلاء ودفع من جيبه الخاص فوق المبلغ المطلوب لإصراره الشخصي على نشر صورة المرحوم مع النعي... وقد تصادف يوم نشر النعي مع الصورة أن مات رجل ذو حيثيات خاصة كان يعرفها الســـيد/ ســـيد غزل وقد أسف رئيس القلم أشد الأسف وكـــادت عينـــاه تدمعان لولا صلابته وبينما كان يقرأ نعي السيد / ســـيد ويقول لنفسه أنه لو كان المرحوم مازال حيا لسرد علـــى مسامعهم كلاما شيقا عمن مات من ذوي الأهميـــة هـــذا الصباح.. وقد كانت الصورة أمامه تطل علـــى الاســـم المجاور في الصفحة نفسها وتوشك أن تحكـــي فأســـرع رئيس القلم بطيٍّ الجريدة خوفا على عقله من الاختلال...

مجلة الكاتب : أغسطس ١٩٦٧

ضرب المواطن... فاضل التلاوي !

-١-

بدأ نهارا مزحوما بمشاريع المشاوير ، قاوم الصهد وقطرات العرق الزاحف على بدنه والمتزايد على جبهته ، لعله لم يشعر بمدى الإرهاق الذي كان قد وصل إليه لأنه كان يبدو مبسوطا من نفسه إلى حد الغبطة ، كانت ملامحه تعكس وجها متألق المشاعر مستبشرا خيرا ، ووسط الجموع كان يتحرك برشاقة طائر صغير ، كان يقول لنفسه... " أنني رجل مرموق بلا شك ، ستكون رسالتي موضع اهتمام خاص ، سوف أكون رائعا يوم المناقشة، الأستاذ المشرف لم يخف حماسه الزائد بالموضوع ، سأكون بعدها أصغر دكتور في هيئة التدريس ".

كان المواطن فاضل التلاوي كثير الانشغال في ذلك اليوم، كان قد سجل الرسالة واطمأن قلبه ، كان يسرع الخطى ليحصل على مرجع جديد من مكتبة الجامعة الأمريكية ، بعدها يعود لإلقاء محاضرته ويفرغ من

الشغل ، رفع عدسات منظاره ومسح عينيه بمنديله مـــن أثر العرق ، أعاد المنظار فاتضحت صور الأشياء إلـــى الدرجة التي تجعله قادرا على تحاشيها وعدم الاصــطدام بها ، وهو عادة لا يلتفت إلى ما حوله بأكثر من النظــرة العابرة، قال لنفسه " لقد اخترت طريقي وســوف أهــب حياتي للبحوث الجادة بدون تعصب لفكرة أو لعقيــدة أو لطبقة ، يكفيني أن أقوم بعرض النظريات بحياد العــالم فلا حماس لليمين أو لليسار ".

يوم مناقشة رسالته الأولى ضايقه أستاذ متعصـــب ، دس أنفه في أمور لم تكن تخصصه ، سأله سؤالا غريبـــا ، وارتبك كيف يجيب لكنه أفلت من الموقف عندما قال :

- موقفي هو عرض المواقف ، إنني باحث متواضع وليس لي فكر يخصني..

يحاصرونه في هيئة التدريس ، يحرصون على التأكد من انتمائه الذي يهمهم أكثر من أبحاثه ، يقول لهم كـــل مرة " أنا إنسان متوسط ، متوسط الذكاء ، متوسط الحال

، ومن أسرة متوسطة وليس لي أدنى اهتمام بما تحاولون جذبي إليه ".

تحير كثيرا في اختيار رسالته بالتحديد موضـــوعها وعنوانها ، جاهد أن يكون العنوان سهلا وغير مـــرتبط بأي فكر أو قضية ، أعجبه تمامـــا أن يجعلـــه " العنـــف كظاهرة ــ دراسة مقارنة بين المجتمعـــات الصـــناعية وغير الصناعية" لعله ارتاح بعدها لأنه حـــرص تمامـــا على تأكيد حياده التام ولعل هذا هو سر اغتباطه الحقيقي في صباح هذا اليوم وكأنما انشال عنه عبء كان ينـــوء بحمله.

-٢-

كان المواطن فاضل التلاوي وسط الميـــدان ، فجـــأة اكتشف أنه وسط الميدان ، فتح عينيه فأدرك أنه وســـط ميدان التحرير.. بالتحديـــد أســـفل الكـــوبرى العلـــوي المخصص للمشاة ، كانت الجموع تصعد درجات الســـلم في آلية وكان هو لأسباب يجهلها تماما غير راغب فـــي صعود الدرجات ، كان في داخله شيطان لعين يوســـوس

له ويحرضه على كسر القاعدة التي اعتادها والتزم بهـا منذ انتصب ذلك الكوبري العظيم البناء وفـرض عليـه وعلى غيره صعوده وهبوطه كل صباح كوجود حقيقـي لا يصح تجاهله ، وحيث إنه لم يكن وحده غير الراغـب في عدم الصعود فقد انساق وسط مجموعة صغيرة مـن الناس ربما كان أكثرهم من ذوي الميول غير المألوفـة والذين اعتادوا على تجاهل الأنظمة لأسباب متباينة مـن بينها الاستخفاف أو التكاسل أو مجرد عدم الرغبـة فـي الصعود.. ولعل بعضهم كـان مـن ذوي العاهـات أو المرضى ، المهم أنه اندس وسطهم وبدأ مشوار العبور.

كان عسكري المرور المنوط به جعل القـانون مصـونا يقوم بعمله المعتاد.. لكن تقاطيع وجهه لم تكن منبسـطة ربما لأنه كان راغبا في التدخين ومتخوفا من ذلك فـي الوقت نفسه بسبب مرور أحد الضـباط الكبـار علـيهم وتواجده في ذات الميدان ، كان يقوم بعملـه فـي آليـة وبشيء من عدم الحماس ، ولقد حدث أن عبرت مجاميع صغيرة من الخلق دون أن يتحمس لسؤالها عـن عـدم

استخدامها الكوبري وإعادتها مرة أخرى ، وتلك أمــور يقوم بها في العادة ببراعة وكفاءة مشهود له بهما..

كان المواطن فاضل التلاوي وسط مجموعة من الخلق تنوي العبور ، عندما توقفت السيارات زحف الجمع ، زحف في أثرهم متخلفا خطوة أو خطوتين لعله كان يبــدو متهيبــا بعض الشيء وغائبا عن نفسه بصــورة جعلــت العســكري يلتفت إليه ، أشار العسكري إلى فوج كان قد بدأ العبور لكن بدون جدية من قبيل أداء الواجب العســكري دون أن يبــدو عليه أنه مصر على تنفيذه ، لكن المواطن فاضل كــان فــي منتصف المسافة يزحف بخطواته لعله لــم يســمع صــوت العسكري أو سمعه وقال لنفسه " إنه لا يحدثني أنا ، كانــت في جيب قميصه علبة سجائر " ســوبر " ويعلــم الله لمــاذا انحطت عليها عينا العسكري قال لنفسه : أنــه يســتغفلني ، يسمع صراخي ويتجاهلني سوف أجعله يعود ولن أسمح لــه بإكمال مشواره " كان الجمع الذي في أعقاب المواطن فاضل التلاوي قد شرع في إكمال مشواره إلى الجانــب الآخــر ، ولكن العسكري أعاد حركة الإشارة إلى الكوبري الذي بــدا بعيدا وصعب الصعود ، كان العسكري قد ركب دماغه تماما

وهو يقول لنفسه : " إنه شاب مكتمل الصحة وليست به عاهة ظاهرة ، فليطلع الكوبري مثل خلق الله، أم أنـــه يحســـب أن على رأسه ريشة ؟ " وكانت المسافة الباقية مجرد خطـــوات لكن إصرار العسكري بدا واضحا، توافدت أفـــواج أخـــرى وعبرت مستغلة انشغال العسكري بإعادة المـــواطن فاضـــل التلاوي ، كان يقف بشكل حسبه الأخير استفزازيا ، بل إنـــه مد يده وسحبه من كوعه إلى منتصف المسافة بعيـــدا عـــن طريق السيارات ، طلب منه العودة إلى الكـــوبري أو يقـــوم بتحرير محضر له ، قال المـــواطن فاضـــل لنفســـه " إنهـــم يعبرون الشارع ولا يحرر لهم محاضـــر فلمـــاذا اختـــارني ليهددني ؟ " وأشار إلى مـــن عبـــروا وجاهـــد أن يوضـــح للعسكري أنه من غير المعقول أن يمنعه ويترك غيره يعبـــر لكن الأخير قال لنفسه : " إنه أفندي مناكف وطويل اللسان ، كأنه الوحيد المفتح وبقية الخلق عميان " لن أجعله يمر فـــي هذا النهار الأسود على دماغه "..

كان فاضل الهادئ المتزن قد انفعل وأحس بالغيظ من سلوك العسكري، كان ينظر للأمر على أنه استبداد غير عادل ولا مبرر له ، تبـــادل مـــع العســـكري نظـــرتين

عدوانيتين قبل أن يتبادلا حوارا متحمسا جاهد كل منهما أن يكون مهذبا وفي حدود الأدب، صحيح أن العسكري كان يشعر أنه من الخطأ أن يستمر مع هذا الأفندي المناكف، وصحيح أن فاضل لم يكن يملك وقتا ليضيعه.. لكنه خلافا لكل منطق ابتدأ الحوار واستمر وتمسك كل واحد منهما بحقه في الدفاع عن وجهة نظره ونسى نفسه تماما ، وهكذا وكمجرد صدفة بحتة غير مدبرة التقى شخصان لم يسبق أن انتبه أحدهما للآخر من قبل واختلفا وأصرا على الاستمرار في صراع خفي يتوارى خلف عبارات تقليدية وعادية بلا قيمة.

" ارجع يا حضرة ـ لن أرجع ـ قلت لك أرجع ـ لن أرجع ـ ارجع أحسن لك ـ رجع الآخرين ـ سأكتب لك محضرا ـ أكتب وسوف ترى ـ سأجرك بالقوة ـ احترم نفسك يا عسكري ـ عيب يا أفندم ـ أنت لا تعرف أصول شغلك ـ مالك أنت بشغلي يا جدع ـ سوف أعبر ـ لن تعبر ـ أنت لا تعرف مع من تتكلم ـ مع من ؟ ـ سوف ترى ـ أنت تهددني يا أفندي ـ وهل

أنت كبير ؟ ــ لو كنت حسن التربية لاحترمت النظام ــ أنا ؟ أنت لسانك طويل ــ أنت قليل الذوق ــ أنا ؟ ".

كان الحوار ممطوطا ولا يبدو أنه سوف يقف عند حد ولأنه كان ممطوطا فقد حدث ارتباك في حركة المرور ، جاء مساعد المرور من الناحية الأخرى فتنبه العسكري إلى أنه ارتكب غلطة لا تصح ، شد المواطن فاضل التلاوي من كوعه وزحزحه من مكانه بالقوة ، عاود دفعه فكاد يوقعه على الأرض لولا أن استند إلى الحاجز الحديدي ، تضايق فاضل من ذلك الأسلوب الوحشي وقال من بين أسنانه :

- حاسب يا حيوان.

كان العسكري يثق تماما بأنه ليس بحيوان ، وكان وجود المساعد قد جعله يشعر بنوع من الحماية والرغبة في تأكيد وجوده وقدرته على أداء عمله ، أحس بالإهانة على نحو يصعب احتماله فدفع المواطن أمامه وهو يصرخ:

- اخرس يا.. (قال لفظة نابية خارجة عن كل حدود الأدب) كان المواطن فاضل التلاوي يعرف أن تلك اللفظة التي وصفه بها العسكري تعتبر قذفا علنيا تستوجب المساءلة القانونية وتستحق العقاب ، فالعالم كما يراه ليس فوضى وإنما هو محكوم بقانون ، كان اللفظ البشع قد قيل على مسمع من خلق الله ، لكنه أراد أن يطمئن نفسه قبل أن يخاطب الشهود ، سأل العسكري ولعلها كانت فرصته الأخيرة ليتراجع ، قال فاضل كأنه لم يسمع :

- ماذا قلت ؟

وربما لو تراجع العسكري وأعرب عن أسفه أو حتى سكت لهان الأمر وانفض النزاع لكن العسكري كرر نفس اللفظ الجارح مؤكدا إصراره على الخطأ ومضيفا إليه أيضا :

-... وابن زانية.

كانت الإهانة هذه المرة لا تخص المواطن فاضل التلاوي وحده، أصبح الأمر أكثر تعقيدا ، كرامة أمه

تداس وسط شهود ، قال فاضل لمن حسبهم يحسون بالأمر بما في ذلك مساعد المرور :

– شاهدون ؟

اقترب منه المساعد أكثر وحاول أن يصرفه بالحسنى وينهي النزاع.

– يا سيد لا تغضب ، هون عليك ، أنت رجل متعلم فلا تعطلنا..

لو أن المساعد اعتذر لهان الأمر نسبيا ، لكن الأسلوب لم يعجبه ، كان من الواجب مثلا أن يلوم العسكري أو يؤنبه لكنه لم يفعل ، نظر فاضل إلى المساعد بتحفز مغتاظ وقال :

– أنت متواطئ معه ، أنتم تعلمون العساكر قلة الأدب.

سكت المساعد ولم يشأ أن يرد ، انصرف إلى شيء ما في الميدان وكأنما اعتبرها فاضل إهانة أخرى تضاف إلى مجموعة الإهانات التي تعرض لها، خطا فاضل خطوات مربوكة بين الجمع الواقف والعسكري والمساعد وهو يصرخ :

- أنتم شاهدون على ما جرى ، سوف أطلبكم للشهادة ، أمثالكم أيها العسكري لابد أن ينالوا عقابهم سوف تـــرى أنت أيضا أيها المساعد..

كان المواطن فاضل التلاوي يبدو كقــط جــريح لا يكف عن الحركة أو الصراخ والتهديــد وكــان المثلــث المكون منه ومن المساعد والعسكري يبدو عاجزا عــن حسم النزاع لأي الأطراف..

- ٣ -

على غير توقع ظهر رجل في حوالي الخمسين مــن عمره، كأنما انشقت عنه الأرض فانزرع وسط المثلــث الذي يتحاور ، كان عوده ممتلئا وعيناه تتخفيــان خلــف منظار شمس قاتم العدسات، كانــت ملامحــه صــارمة وكلماته قاطعة لا تسمح للسامع بغير التسليم بما يطلــب، قال للمساعد:

- اتركه لي.

خطا خطوتين في اتجاه فاضل ، شال يمينه وهــوى بها على صدغه فأحدث رنينا لافتا للأسماع والأنظــار،

طار الشرر من عيني فاضل وطار منظاره الطبي إلى مكان ما ، وطار أيضا صوابه ووعيه ، لم يسمع حتى ألفاظ السباب الجارح المهين الموجه له ، ولا رأى الوجه الذي يخطو ناحيته بثبات، نزلت قبضة الرجل محكمة على فكه الأيسر فترنح ، بعدها توالت الضربات والركلات مدعومة بسباب داعر غير هياب من فم الرجل، سقط فاضل عجزا عن احتمال المزيد لكن الرجل تابع ضربه وركله بالأقدام برغم أن الجسد كان قد استكان وعجز عن دفع الأذى وراح ينتفض في آلية كلما طالته ركلة جديدة ، أما العقل فكان مغيبا ومحصورا في بؤرة ضيقة كأنها كابوس بلا منفذ لا يود أن ينزاح..

ومن باب الرحمة اقترب البعض من الرجل في محاولة لتهدئته ومنعه من تدمير فاضل التلاوي ، لكن الرجل التفت إلى الناس وجذب أقربهم إلى يده بشكل عفوي لا اختيار فيه وكان شابا أسمر الوجه ، جذبه من طوق قميصه ، لم يفلح الشاب في تخليص نفسه فقد عاجله الرجل بضربة مفاجئة متهما إياه بإفساد النظام ، نزف الدم من وجه الشاب والرجل يضرب ويتوعد من

يقترح فتراجع الجمع، كان الرجل يضرب باقتدار وخبرة ، ضربات مدربة وقادرة على شل حركة الخصم الـذي فرضت عليه معركة لم يحسب لها حسابا ، وبعد لحظات تحول الشاب الأسمر إلى شيء آخر ، شيء جريح مهان عاجز عن النطق دفاعا عن نفسـه مسـتجيرا بنظراتـه بمجموعة من الخلق انشلت قـدرتهم علـى التفكيـر أو التفسير،كان الرجل يضـرب الخلـق أيضـا بنظراتـه وكلماته، كانت نظراته العدوانية مسنودة إلى شيء خفـي يطمئن هو إليه ويخوف به الناس في ذات الوقت ، كانت اللحظات تمر وسلاح الرجل يحسم الأمر لصـالحه مـن كافة الوجوه ، وكما دخل المعركة بشكل غامض تـرك الميدان أيضا بخفة وسرعة وعلى غير توقع، انسل مـن وسط الخلق قبل أن يدع لهم فرصة السؤال حتـى عـن هويته، حتى العسكري والمساعد بدا لهما الأمر غريبـا لأنه اختفى وخلف في دائرة اختصاصهما جريحين وهو أمر يعجزان عن التصرف فيه ، وعندما جاءت عربـة الإسعاف وحملتهما ذكرا في أقوالهما أنهمـا لا يعرفـان الرجل، تماما كما قال المساعد والعسكري وهكـذا قيـد

الحادث ضد مجهول وهو أمر مـــألوف عنـــد محـــرري محاضر الضـــرب عنـــدما يجهـــل المضـــروب هويـــة الضارب.

- ٤ -

تعب المواطن فاضل التلاوي كثيـــرا وأتعـــب معـــه الأستاذ المشرف على رسالته بسبب إصراره على تغيير عنوان الرسالة ليصبح : " نظرية العنف في المجتمعـــات النامية " ولقد بدا غريبا على هيئة التدريس ذلك التغيـــر المفاجئ في آراء فاضل ، وبدا غريبا أيضا سلوكه غيـــر المحايد الذي أصبح طابعا بارزا على غير ما كان مألوفا منه ، كان يتحاور بحماس ويؤكد أنه لابد للإنسان مـــن موقف يختاره وأنه ليس هناك باحث حقيقي بلا موقـــف ينطلق منه في بحثه ، كذلك كان يتحدث ، وكان يطيـــب له في أوقات الفراغ أن يطوف في الطرقـــات ويســـجل أحداثا بسيطة عن مشاهداته في الأحياء الفقيرة والهادئة ، كان يبدو في بعض الأحيان مهووسا بفكرة اكتشفها لتوه وتشبث بها ، وكان كلما عبر ميدان التحرير يقف علـــى الكوبري العلوي لبعض الوقت كأنه يبحث عـــن شـــيء

ضائع ولا يأمل في العثور عليه أبدا ، لكنـــه يقــف ولا يفكر مجرد تفكير في عبور الشارع مهما أغرته الفوضى في بعض الأمسيات ، وكأنما كان قــد أصـــبح مغرمــا بالنظام الدقيق وقادرا على تفسيره.

الكاتب نوفمبر ١٩٧٧

تصفية دم المواطن سيد عوف

الجرح :

انفلتت تعبر ميدان التحرير بلونها الرمادي المميز وامتدادها المفرط ، كسرت الإشارة وخبطت المواطن سيد عوف غدرا ، لم يتيسر التقاط رقمها من فرط سرعتها ، سقطت علبة اللفافات أولا ، طوحها رد الفعل ورماها على بعد أمتار من البدن الذي اختل توازنه أثر الضربة المفاجئة ، ترنح وهوى ، صفعته الأرضية الصلبة فانتفض ، تقلص ملموما على نفسه ولكن بعد فوات الأوان ، لو أنه تقلص قبل الضربة بلحظة واحدة لكان شبيها بحيوان القوقعة ، يتقلص ويتوارى داخلها فتهون عليه أثر الخبطة ، تتلقاها عنه ، حتى لو تحطمت وغاصت أطراف أجزائها المهشمة في لحمه فربما ينزف إنما أثر لحظة الاستعداد للنزف ، ربما يموت إنما بعد أن يكون قد توقع الموت ، وربما عبر لحظة أو جزء من لحظة يدرك ما يدور حوله، يهون الأمر على نفسه عبر

اللحظة التي يختصر فيها العالم ، يقيسه ويتشبث بـــه أو يرفضه ، يدينه أو يصفح عنه... لكن ما حدث في ميدان التحرير كان يختلف ، فالذي سقط قبل أن يتوارى داخل قوقعته إنسان.. سقط ملموما على نفسه كرد فعل عـــاجز حتى عن استحضار لحظـــة الإدراك لمـــا هـــو فيـــه ، فالضربة لم تدع له فرصة البوح بسر ود لو يقوله لكنـــه خاف ولعله في تلك اللحظة الواعية كان يتأكد لديـــه أن الخوف يتساوى مع الجسارة ، كان من الممكـــن إذن أن ينطق بشيء ما لكنه لم ينطق بكلمة ، أخرج من حنجرته صوتا لا هو بالأنين ولا هو بالحشرجة ، علـــه صـــوت التداخل المفاجئ لجزئيات البدن البشري المخبوط منفلتـــا من حنجرة فقدت وظيفة الحنجرة "هـــ.... ع ".

قالها متقطعة وبعيدة الصلة عـــن أصـــل الحـــرفين المنطوقين.

كان الدماغ المضروب قد غاب فـــي الـــلا وجـــود وتحولت العينان السوداوان إلى عدســـتين مفتـــوحتين لا يطل من خلالهما أحد ، تهالك الكيان على أرضية الميدان منكمشا على نفسه ثم منتفضا ، ملموما ثم مفرودا بجســـم

قاطع وعبر لحظة وحيدة تقطعت خلالها الأنفاس وسكن البدن في وضع محدد ، تجمدت العدستان المفتوحتان المشدوهتان على الفراغ المحدود متجاوزتين كل بنايات العالم وخلقه.... صرخت بنت فالتفت من لم يلتفت.. اقترب أكثرهم على مواجهة اللحظات العصيبة ، خبط كفا بكف وراح يدمدم بكلام غير مفهوم... سأل أحدهم إن كان أي منهم قد التقط رقم السيارة فهزوا رؤوسهم نفيا ، قالت البنت أنها تحمل رقما جمركيا لكنها لم تستطع قراءته برغم حدة إبصارها ، قال رجل متوسط العمر ، إن السيارة من طراز " شيفروليه " سنة ١٩٧٦ جادله رجل آخر بأنها مرسيدس وليست لها أرقام على الإطلاق.

لم يكن ثمة جرح ظاهر ، لم تسل على الأرض قطرة دم واحدة.. قطع السكون الذي خيم للحظات سائل متعجل قائلا :

- من الذي خبطه ؟

لم يتلق ردا فتأكد لديه أن أحدا لا يعرف الحقيقة ، هز كتفيه ومضى في طريقه ، وكعادة الناس في ميدان التحرير عندما يسقط أحد في حادث تطوعوا بصحف الصباح وغطوا البدن ، كان في بعض العيون خوف مرعوب من مجهول يمكنه أن يحيل الواحد منهم إلى كومة من اللحم الساكن بلا حراك وفي وضح النهار ، قال عجوز يرتدي جلبابا شعبيا :

- دمه هربان.

قال أفندي متحذلق :

- يمكن أن يموت الإنسان دون أن ينزف ، هناك شيء اسمه النزيف الداخلي..

أصر العجوز على أن دم المواطن سيد عوف هربان ، فقط هربان ، أكدت البنت وهي تبكي وسط مجموعة من المواطنين أنها لا تعرف القتيل وأنها لمحت رقما لا تذكره على مستطيل أزرق مما يدل على أن السيارة حديثة الاستيراد ، هون البعض عليها وأبعدها رجل عن مكان الحادث حتى لا تصاب بالانهيار العصبي كما

قال... بعدها أطل على أوراق الصحف التي تغطى البدن طفل يحمل جهاز استقبال صغير ، أبعدوه ففتح الجهاز ليرتفع صوت مطرب شهير بأغنية تقول كلماتها :

- تخونوه وعمره ما خانكم ؟

كانت ورقة الصحف التي تغطى الرأس قد تلوث طرفها بشيء أحمر ، اقترب العجوز وأزاحها ، كان خيط الدم ينزف في بطء إنما بانتظام من مؤخرة الرأس ، بحثت عينا العجوز عمن كان يجادله فلم يجده ، دمدم بلا حول ولا قوة إلا بالله ، ظل خيط الدم ينزف ويلون أوراق الصحف ، حتى عندما جاءت عربة الإسعاف واتخذت لنفسها مكانا قريبا ، ونزل رجالها وفحصوا البدن لم يتحمسوا لعمل شيء وبدا للجمع الملتف أنهم بخبرتهم الطويلة يفهمون الحالة تماما ولذلك اتخذوا لأنفسهم ركنا بعيدا دون أن يبدو عليهم أن الأمر يخصهم بأي حال من الأحوال.

قال أحد المارة معلقا على استهجان البعض :

- الإسعاف لا تختص بحمل الموتى.

عقب رجل متواضع الهيئة !

- ربما كانت فيه الروح.

قال شاب متوتر الملامح :

- إنهم حتى لم يفحصوه كما ينبغي ، اكتفوا بالنظر والابتعاد...

ردت سيدة سمينة :

- كأنهم في نزهة.

قال رجل تبدو عليه الطيبة المفرطة :

- ربما عندهم تعليمات بعدم نقله من الميدان إلا بعد المعاينة..

قال الشاب المتوتر وكأن الأمر يخصه دون خلق الله..

- كانت عربة الإسعاف تلف الميدان قبل الحادث ، هل يعتبرون أنفسهم من الوجهة الإدارية غير مسئولين لأنهم لم يتقلوا بلاغا من أحد ؟

قال آخر :

- لكنهم شافوه ورؤيتهم في حد ذاتها بلاغ.

قال العجوز :

- ربما ينتظرون ريثما تتم تصفية دمه.

سخر الشاب المتوتر وقال بمرارة :

- حتى لا يعوضهم..

لكن الدم كان ينزف ورجال الإسعاف في ركنهم دون أن يبدو عليهم أنهم منوطون بعمل أي شيء في هذا الخصوص.

ولم يتحقق شيء.

اللوم :

" أنت مشروع لم يتم "

قالتها البنت هدى للولد سيد فكف عن الضحك ، تقلص الوجه وانعكست في عينيه نظرة غريق سقط لتوه في هوة بلا قرار ، تكهرب الجو وتغير طعم المشروب في الأفواه ، قال الولد أحمد لنفسه.. سوف يحسبني قلت لها كلاما عنه بهذا المعنى وعنده حق... حطت أجنحة

الصمت عليهم في ركن أمريكين سليمان باشـــا فســـكتوا وحاصرتهم الهمهمات من حولهم ، بقيت نظرة الولد سيد متجمدة وجريحة ، كأنه يستجير بالصمت ، كانت البنـــت هدى تتلهف للخروج من المأزق الذي حطت نفسها معهم تحت سطوته... فكر الولد أحمد في أنه من الممكـــن أن يكون في كلامها شيء من المنطـــق الحـــريص علـــى مصلحة صاحبه إنما العبارة حادة ومفزعة بشكل يصعب احتماله ، لو أنها كانت أقل قسوة لاحتملها سيد فهو قادر على الاحتمال ، وجد بصيصا من ضوء في التهوين من الأمر ، قال وهو يلتفت إلى شقيقته :

- أنت تقولين كلاما غريبا يا هدي ، لم أتصور أنك تعشقين الطنطنة بالكلمات الرنانة.

ظل الصمت على حاله فالتفت إلـــى صـــديقه ســـيد وقال :

- إنهم جيل متعجل في أحكامـــه كمـــا تـــرى ونحـــن مطالبون بفهمه وتصحيح أخطائه.

كان الإنسان الجريح مازال مرتبكا وعاجزا عن النطــق وإن كان ظنه المسبق قد انزاح ، كان الولد أحمد يجاهــد في أن يتحول الموقف إلى شيء عابر دون أن يخلف في النفوس أثرا ، قال وهو يتحسس الكلمات ويزنها متخوفا أن يتأكد ما يحاول نفيه :

- أنا واثق أنها قالت ذلك من باب الحرص عليك ، ثــم أنها تقول لي كلاما شبيها بذلك ، وبعيدا عن تبرير مــا قيل ، أستطيع أن أعدل الصياغة ، ســأقول مــثلا أنــك مشروع قابل للتحقيق بقدر ما أنت قابل للضياع ، أعنــى أن أسلوب حياتك يجعلك تبدو مستسلما لضياع وقتك في أمور لا تفيد.

قاس الولد سيد كلام صديقه ووجده قابلا للرد والمناقشة.. قال بدون أن يتحمس :

- إنه مرض العصر وكلنا مصاب به كما تعرف إنما لا يحق...

قاطعه الولد أحمد بابتسامة :

- أعرف... أعرف.. أنا مثلك وأعرف أن وصف الإنسان بأنه مشروع لم يتم يعتبر إهانة ، لكن يمكن أن توضح لهدى أنها مخطئة لأنها لا تعرفك تماما وليست هذه مسئوليتك ، اللوم الحقيقي موجه لأختي..

قالت البنت هدى بحماس :

- أنا حريصة عليه ولم أقصد تجريحه..

قال الولد أحمد ملطفا الجو :

- وأعرف ذلك أيضا ، إنما أنت لا تعرفين مثلا أن لسيد مسرحيتين شعريتين مكتوبتين ومرفوضتين... أنا لم أقل لك هذا من قبل..

أضاف سيد وشبح ابتسامة يرف على جانبي شفتيه :

- وديوان كبير غير قابل للنشر لظروف عديدة.

قالت البنت بخجل وكأنها تتدارك شيئا فاتها :

- لكننا كلما نزلنا البلد وجدناك ، أنت نفسك اعترفت بضياع وقتك أكثر من مرة.

أحس الولد أحمد أنه أفلح في تحويل الموقف إلى مجرد موضوع قابل للنقاش، قال لنفسه : " إن أقسى ما يواجهه الفنان هو إلغاء وجوده وتجاهله عن عمد أو الحكم عليه بالموت وهو حي يعطى ".

وقال لنفسه أيضا : " إن سيد شاعر موهوب في مدينة لا تفتح صدرها إلا لأنصاف الموهوبين ، إنه يدفع وبكامل رضاه ثمن اختياره يوما بيوم وساعة بساعة "...

تدخل الولد أحمد في النقاش الذي أصبح عتابا بين سيد وهدى وكأنه بين أخ أكبر وأخته قال :

- كله محسوب من أعمارنا لكن ما حيلتنا ؟

قال الولد سيد :

- على أي حال هذا الكلام جعلنا ننتبه لأنفسنا يا صاحبي.. علينا أن نخطط لمستقبلنا حتى يتحول إلى مشاريع قابلة للتحقق...

وافق الولد أحمد والبنت هدى واندفع ثلاثتهم في عمل برنامج للقراءة والكتابة والوقت الضائع ، وكل ما كان يجيش في نفوسهم من رغبة في الخروج من أزمة

الإحساس بالضياع قالوه ، وإمعانا في علمنة اللحظة اتفق أحمد مع سيد على اللقاء في الخميس القادم وفي جيب كل منهما خطة مكتوبة وقابلة للنقاش ، وتحول الموقف إلى لحظة عابرة بين شاعرين وبنت تنتمي لأحدهما بصلة الدم ولكن في يقينها أنهما لا يختلفان في شيء برغم أن الآخر غريب ، وفي التاسعة والنصف كان الوداع بين ثلاثتهم على أن يكون اللقاء التالي في السابعة من مساء الخميس...

ولم يتحقق شيء...

* * * *

" أنت مشروع لم يتم "...

كذلك قالت البنت هدى للولد سيد في ذلك المساء ولم تكن تدرى ما هو السر الذي جعلها تجرؤ على الحديث إليه بمثل هذه اللهجة ولقد لامت نفسها كثيرا قبل أن يسألها الولد أحمد عن السبب الذي جعلها تضايق صديقه بمثل هذا الاتهام الأحمق " دافعت عن نفسها بأنها لم تكن ترغب في مضايقته وأنها تحبه كما لو كان أخاها ، وأنها

لم تعرف السبب في أنها قالت له ذلك ، وهي تحب قراءة قصائده وتحترمه ، كل ما تعرفه أنها نظرت إلى عينيه بينما كان يضحك وقالت لنفسها إنه مشروع لم يتم ، وقبل أن تسأل نفسها عن معنى ذلك التعبير انفلت لسانها وقالته وكأنما فقدت سلطانها عليه تماما وسألت أخاها إن كان من الممكن أن يقول الإنسان كلاما في صحوه بدون أن يدرك سره أو معناه أو حتى يوافق عليه ، فأجابها بأنه لا يعرف ، وقال لنفسه.. ما جدوى أن ألومها على ما قالته ما دامت لا تعرف كيف قالته.. وأضاف لنفسه أيضا.. أن سيد شاعر بحق ولذلك أثر فيه كلام البنت برغم أنها صغيرة وسوف ينسى ذلك بمرور الأيام...

ولم يتحقق شيء..

* * * *

رحلة البساتين :

كانوا ينتظرونه عند مدخل الشركة ، كان أكثرهم شجاعة قد قالها :

– سيد عوف مات..

رفض أن يصدق ، أكد الخبر ، رفض ، كان ذاهلا ، كأنما حط عليه كابوس لا يحتمل ، ضغط الكابوس على قلبه ، أخذوه أخذا وأركبوه معهم ، بكي أحدهم بصـــوت مسموع ، بكى الآخر بصوت مكتوم ، ظل الثالث جامدا يدخن ، كان يقول لنفسه.. لو أصيب في حـــادث فمــن الممكن أن يكون جريحا أو حتى فاقدا لعضو أو عضوين من أعضائه ، أما أن يخلو العالم من وجهه فهـــذا هــو السخف بعينه ، حاول إسكات الباكين رافضا أن يصـــدق لكنهم نهنوا أكثر ، ظل يقاوم الفكرة ، عند باب المشرحة وجد خلقا نزلوا ، كان أصحابه وأصحاب سيد يتحلقــون حول الباب ، تأكد لعقله التائه أن الأمر حقيقة ، انفجــر في بكاء حاد وهو يستند على إبراهيم الذي يبكـــي هــو الآخر ، قال له مؤمنا على ما سمع :

– سيد مات بحق ، سيد مات يا إبراهيم..

جاء صوتها من هناك ، من أحد الأركان حيث كانت تجلس على مقعد ، كانت تنادي ، فقط تنادي :

– يا سا... يد... يا سا... يد..

لم يكن في عينيها أثر لدموع لكن صوتها القوى كان ملتاعا ومشحونا بالمرارة ، قالوا أمه ، لكنه كان يبكي ، لم يكن بقادر على التماسك ، لم يكن معه منديل،كان الجو خريفا سخيفا،كان الحزن يعشش عند بـــاب المشـــرحة ، كانوا عشرات الصحاب تجمعوا على غير موعد وتحاشى كل منهم النظر في عيني صاحبه ، في قلب كـــل مـــنهم حزن يخصه ولا يملك أيهم القدرة على أن يطل في وجه الآخر ، تجمعوا وانفصلوا فـــي ذات اللحظـــة ، لحظـــة الموت الرهيب الخطاف ، كانت زوجتـــه هنـــاك تبكـــي بصوت مسموع وبدموع ، أمه كانت بلا دمـــوع ، كـــان النداء يتكرر في الأسماع فيكويها ويلسعها بواقع قاس لا يحتمل ، قال لنفسه... كان أكثرهم وعيا وبساطة ، كـــان إنسانا.. تحسس في جيبـــه خطـــة العمـــل المشـــترك... موعدهم مساء الغد فهل يذهب ؟

أركبوه معهم ، قالوا للسائق :

– مدافن البساتين...

الموت والأشباح المتحركة صوب المدافن ، تختفـــي المدينة ، وتهل المدافن ، عندما نزلوا أجلسوه على حجر عند باب أحد المدافن ، كانوا في انتظاره ، كانت الدموع تسح من العيون خلسة ، والكلمات التي فقدت كل معانيها في مواجهة الموت لا تقال ، " ماذا تبقى منك يا ســيد ؟ كلماتك المسطورة في أوراق عجزت عن نشر أكثرهـــا وأنت تحيا ، ومنذ آلاف السنين يموت الشعر والشـــعراء في أرجاء مدينتنا ، كأنها مؤامرة مدبرة علـــى العقــل ، يترصدهم قدر واع بدوره لا يمل الاختطاف "...

كان القبر مفتوحا في انتظار الجسد ، عنــدما جـــاء حملوه ، حمله عشرات الصحاب وسط العويل المتواصل والنداء الجريح يخرج من أعمـــاق الأعمـــاق مرعوبـــا ومرعبا ، متشبثا باللحظة ، مدويا في جنبـــات المـــدفن وعند بابه ، يزحف الجسد ببطء صوب الفوهة الضـــخمة التي لا تمل الابتلاع والقادرة على ابتلاع الكل ، يهـــبط الدرجات في تثاقل وكأنما لديه سر يلبد تحـــت الأكفـــان البيض ، يبحث عن يد جريئة تنزعـــه ، لكـــن الجمـــع الملموم لم يجرؤ على انتزاع الكفن ، يشرعون في العمل

، تتطاول اللحظات حتى لتوشك أن تكون أعمارا بكل ما فيها من مرارات .توضع الأحجار على سطح الفوهة المرعبة وينهال الرماد ، تتساوي أرضية المدفن ، يحبكون الخدعة وكأنما لم يبتلع القبر لتوه إنسانا في أحشائه المعتمة.. منذ آلاف السنين يتفننون في دفن الإنسان في أرض مصر حتى لقد قال أستاذ التاريخ القديم " إن حضارتها تخص الموتى أكثر مما تخص الأحياء "...

لا تجف الدموع بيسر ، تظل الجفون دامية والألسن خرساء والعقول عاجزة عن التفكير ، ويزحف الجمع البشري صوب المدينة... وفي القلوب حسرة الوداع دون وداع...

– لم يتحقق شيء..

العزاء :

كانت البنت فردوس ترتدي السواد ، أدخلته حجرة صاحبه، جلس على طرف سريره ، كانت الحجرة تخلو منه ، كانت فردوس تقف قبالته وتختلس النظر إلى سطح

المرآة ، كانت تضع راحتي يدها على رأسها المعصوب بطرحة شيفون سوداء ونظرتها التي تتكرر إلى سـطح المرآة تجعله يتقزز ألما واختناقا ، قال لنفسه مسـتنكرا.. ترى هل تطمئن على حسن هنـدامها فـي مثـل هـذه الظروف ، في مواجهته وبطول الجدار كانـت رفـوف الكتب مشحونة ، وكان الدولاب الذي تنعكس على سطح مرآته صورة البنت فردوس موضـوعا بـين السـرير والمكتبة ، كان السواد الذي افترض الأرض يمتد كلسان وحشي خرافي إلى مدخل الحجـرة ، ويغطـى الصـالة الفسيحة ويزحف منحنيا إلى اليمين ثم إلى اليسار حيـث الحجرة التي يخرج منها ذات النداء ، نداء الألـم الـذي يخرج جريحا ذاهلا ولا يمكن إلا إمكانية الضـياع فـي سراديب الآذان النسائية ، كان الصوت واهنا ومبحوحا :

- يا سايد.... يا سا.... يد.... يا سايد...

" ترى مازالت عيناها لا تدمعان ؟ " كانـت الكتـل المجللة بالسواد والتي تغطي المكان وتجعله مقبضا وقاتلا تؤكد أنه ضاع " إن ما يدور واقع يستحيل الفـرار مـن جبروته ، نفس النداء يتردد لكن الذي اختفى هو الوجـه

المذهول التائه والعينان الجافتان تماما ، لكنه كان أكثر قوة ، لعل اليقين لم يكن قد غزا القلب وحوله إلى آلة مضغوطة مستسلمة لشيء أكبر من الطاقة ، ها هو ينهد ويخفت ويبدو شاحبا...

ثرثرة البنت فردوس تدور حول نفسها ، حول تضحيتها بكل شيء من أجله واختيارها له برغم كل من تقدموا إليها ، حول عزمها على تربية ابنه الذي لم يولد بعد ، كان نداء الأم يقطع الثرثرة معلنا عن وجوده غير أنه كان كالسراب ، ففي نفس تلك اللحظات يرقد سيد هناك في العتمة وحديا دون أن يقدر على الحركة ودون أن يتمكن من الوفاء بالوعد الذي قطعه على نفسه بالمجيء... " هكذا يا سيد كنت تخلف المواعيد وعندما نلتقي كنت تضحك وتقول أنك انشغلت غصبا "..

" تولد المشاريع ولا تتحقق ، يولد الشعراء ولا يكملون العطاء " قال الولد أحمد لنفسه ، قام وهو يحاول أن يداري دموعه عن عيون الخلق ، لم يكن ثمة شيء يقال فأسر إلى نفسه وهو في الشارع " أنهم يقتلون الشعراء"...

" لن يتحقق شيء "

* * * *

يخلو العالم من وجه المواطن سيد عوف ، تتعاقب جلسات الصحاب ويتحاشى كل منهم الخوض في الأمور التي كانت تخصه، ينتهي الخريف وتكف رياح الخماسين عن إثارة الزوابع.. يوشك أن يكف الصحاب عن ذكر اسمه ، لكنه عندما كان يطل الواحد منهم في عيني صاحبه ويمعن النظر كان يراه ، يلمح وجهه بابتسامته العريضة وحماسه الزائد ، كان سيد هناك في أغوار الحدقات وعلى سطوح ما كان يترقرق من مشاريع دموع ، يرسخ الهم في أعماق القلوب راضيا بالبقاء هناك وغير راغب في الطفو على السطح ، تنقطع سيرته تماما ، لكن الولد أحمد يذكره ويوشك أن يؤكد لنفسه كل مرة أنهم يذكرونه بنفس القدر من الوفاء.. وعندما يغيب ويسأله واحد من الصحاب عن سر اختفائه الطويل يقول كلاما غريبا :

- المدينة مزحومة كما ترى وأنا لا أشعر فيها بالأمان ، كلما نظرت إلى المركبات والسيارات الآتية من بعيد أقول لنفسي أنه من الممكن أن تدهمني إحداها ، إنني أضع في جيبي عنوان أهلي في البلد فأنا كما تعرف غريب وأختي لا شك سوف تعجز عن التصرف في مثل هذه الأمور ، إنني أمشي جنب الحيطان وعلى الأرصفة ولكنني لا أطمئن ، لدي شعور كأنه اليقين في احتمال أن تدهمني سيارة في أي لحظة وبلا مقدمات ، يهون عليه أكثرهم الأمر ويؤكد لديه أنها أوهام وعليه أن يتخلص منها لكنه يجادلهم بحماس بدون أن يذكر لهم شيئا عن سيد الذي يعرفونه تماما ثم يتابع حديثه :

- وما المانع في أن تدهمنا هذه السيارة الآتية من بعيد ، تطلع الرصيف وتدوسنا ، المدينة مزحومة كما ترى وهي تزداد زحاما يوما بعد يوم ، إنني أرى الموت على أبوابها وداخل سراديبها لا يحكمه المنطق ، وأخشى ما أخشاه هو تصفية الدم قطرة قطرة ، أفضل الموت مرة واحدة لكن بدون تصفية الدم ، بدون تصفية الدم...

وعبثا يحاولون إعادته لعادته القديمة لكنه يهمهم...

- وسط هذا الزحام الخانق غير المبرر لن يتحقــق شيء..

الهلال ــ مارس ١٩٧٧

ادعاءات المواطن سخم سخام رع

بيانات وثائقية غير رسمية :

الاسم الرباعي : سخم سخام سخموي ماعت.

الوظيفة : مسجل قوائم ملوك الــزمن الأول ، تــم تحنيط جثته بأمر فرعون قليل الشهرة ، كانت له مقبــرة وتابوت وتمثال على البــاب الشــرقي لكنــه تعــرض لمجموعة من التراكمات واختفى كل شــيء حتــى تــم اكتشاف التمثال وتابوت المومياء في بدايات القرن التاسع عشر من التقويم المعاصر الموافق نهايات الألف السابع لجلوس الملك خع سخم على عرش مصر ، وقــد تــم تدمير المومياء وإفسادها بفعــل أثــري مبتــدئ يتميــز بالخرافة وكان قد جاء مرافقا لغزوة أحد مشاهير القــرن الفائت بدعوى أنه عالم مصريات..

وكيل المدعى الغائب :

مفتش آثار في الأربعين يصعب البوح باسمه الحقيقي خوفا على وظيفته ومختصر الاسم المستعار هو س. س. ر.

الموطن الأصيل : جنوب مصر (قرية جنب وادي والملوك أو ما يسمى حاليا بمدينة الأقصر)

اللون : جرانيتى أحمر تحت الأتربة والوساخات..

الشهود :

١- لوحة المجاعة الأصلية ، وقد تعرضت لإهمال حكام مصر من فراعنة الأسرات المتأخرة وبسبب عصور الانهيار المتعاقبة إلى أن جاء أحد ملوك البطالمة المتأخرين وسمح بإعادة تسجيل ما كان مسطورا على الأثر الأصلي " لم يكن فرعونا بأي معيار وإنما هو غاز استتب لأسلافه الأمر في مصر ، وكان يجهل مثلهم تاريخها جهلا مطبقا ولا يعرف حرفا من لغتها "، وقد حدث أن أخطأ الكاهن المسئول عن قراءة النص وقام بإملاء متعجل فتم تسجيل الاسم الآخر سخم سخام رع وجعل الوظيفة تتحول إلى مضحك جلالة الملك زوسر

والذي طول قامته شبر ونصف الشبر ، وربما جعل الأمر هكذا ليكون طريفا حيث لم يكن ثمة دليل على احتمال أن يكون الخطأ غير مقصود حبا في الدعابة.. ومازالت لوحة المجاعة مطمورة تحت أنقاض المدن التي خربتها جحافل الغزاة من الفرس والرومان وكل من تبعهم ويلزم البحث الجاد لإخراج اللوحة الأصلية...

٢- (كا) سخم سخام سخموي ماعت (روح) وهي حائرة منذ تدمير مومياء المذكور أعلاه ، تبحث عمن يسمع شكاياتها دون جدوي.

٣- مجموعة من أوراق البردي المسلوبة موزعة على متاحف لندن واللوفر وبرلين وتورين وغيرها من متاحف العالم بالإضافة إلى هواة جمع الآثار وتجارها في العالم الغربي على وجه التحديد.

٤- التمثال الأصلي وهو مركون في دار آثار فرعونية بإحدى عواصم المحافظات ومدون أسفله الاسم الحقيقي والمهنة والديانة، " ومنها يتضح أن المدعى كان من عبدة الإله خنوم ولم يعرف في حياته شيئا عن الإله

رع ولم يكن له عليه ولاية طوال حياته إنما آمنت الروح مؤخرا بالإله رع باعتباره إلها مصريا يستحق التقـــديس "..

الادعاءات :

متشعبة على هيئة دلتا النهـــر فـــي الـــزمن القـــديم وأخطبوطية كما يقال في الزمن الحديث..

* * * * *

أوهام طالب الآثار حول تمثال رمسيس :

كان قد أخذ الأمر بجدية تفوق مـــا يمكـــن احتمالـــه بمعنى أنه وهب نفسه لاستكمال أحد البحوث حول أصل التمثال وتاريخ صنعه وكل النصوص التي تتحدث عنه ، وكثيرا ما كان يثير مناقشات عجيبة لا تخطر على بـــال أحد وتسفر دائما عن بلبلة في أوساط الطلبة ، ومرة جاء ببردية وعرضها على الأستاذ مدعيا أنها مجرد اكتشاف ضمن مجموعة من الاكتشافات المزمع اســـتكمالها وقـــد عجب الأستاذ وطلب منه تسليمها فـــورا إلـــى مصـــلحة

الآثار فلم يمتثل للأمر بدعوى أنها ستكون في أمان معه ولن تتعرض لأي سوء..

في إحدى الأمسيات وبينما المدينة غافيـــة وحـــارس التمثال راقد على قاعدته الجرانيتية جاء الطالب وجلــس عند قدم التمثال اليمنى وأخرج آلة حادة وراح ينبش بها عند الكعب تماما وظل على هذا الحال ينبش في تــؤدة ، وعيناه تتلصصان على الحارس محاذرا أن يكتشف أمره وقد انقضى الليل بطوله على هذا الحـــال حتـــى بـــدأت المواصلات مسارها المعتاد فقام من جلسته بينمـــا كـــان الحارس يتحرك حركة عفوية تنذر بالصـــحو ، نفــض الطالب ملابسه وتخلص من ذرات الحجر وابتسم وهـــو يداري سلاحه ويتجه إلى محطة المترو دون أن يلحظـــه أحد ، وقد أدهش الجميع عندما وقف في المحاضرة يعلن بحماس كأنه اليقين رأيا غريبا قائلا للأستاذ :

– رمسيس الذي يقف الآن مشدود القوام شامخ الأنف متطلعا باستعلاء وشموخ إلى كل الكائنات عند مـــوطئ قدميه لا يمل ملامح الفرعون الحقيقية، إنه مجرد تمثـــال مكرر ، نسخة مقلدة من التمثال الحقيقي الذي ضاع..

دهش الأستاذ من تلك الدعوى وقال بعد تفكير بشيء من المكر :

- وما أدلتك على هذه الدعوى..

أجاب الطالب بحماس :

- عندي مجموعة من الوثائق ، وهناك دليل آخـر ، أنت قلت لنا أن التمثال كتلة مصمتة ، في حين هو مجوف من الداخل ، وأنا أزعم أنهم سرقوا التمثال الحقيقي وهربوه في غيبة الحراس أوحتى في حضورهم...

اصفر وجه الأستاذ وبدت عليه الحيرة لحظات ثم تماسك وراح يسأل الطالب بنبرات وقورة :

- والوثائق ؟ أين الوثائق ؟ الموضوع خطير كما ترى ولابد من دليل.

ورد الطالب باستخفاف وهو يحدق في عيني الأستاذ :

- الوثائق عندي ولن تراها إلا بعد التحقيق في الأمر كله ، أنا أعتبرك مسئولا معي إلى أن تتضح الحقيقة.

وهنا اغتاظ الأستاذ من تلك الجسارة التي تصل إلى حد الوقاحة ، أحس بضيق شديد وطـرد الطالـب مـن المدرج ، وساد صمت انقسم الطلبة والطالبات بعده إلـى فريقين متخاصمين أحدهما يؤيد الأستاذ في سلوكه علـى حين كان الآخر يرى أن الأسلوب الذي اختـاره بطـرد الطالب تنقصه الكياسة وهو على كل حـال أسـلوب لا يتسم بالديمقراطية وأنه كان من الواجب مناقشة القضـية مادامت في مجال العلم بدلا من استخدام السلطة في طرد من يخالفون الأساتذة في وجهات النظر ، وقد رد الأستاذ على ذلك الفريق المعارض بأنه يأسف لما جـرى وأنـه لظروف خاصة لم يكن مهيئا للاسترسال في مناقشـات تتسم بهذا القدر من الخطورة في هذا اليوم بالتحديد، ثـم وعد الطلبة بمناقشته في المحاضرة وطلب منهم إبـلاغ الطالب بذلك وأنه ربما يتزود بـالرجوع إلـى بعـض المصادر حول الموضوع ليكون النقاش أجدى..

لكنه في المحاضرة التالية والتي تلتهـــا لـــم يظهـــر الطالب وظل غائبا طوال العام الدراسي وكأنما ابتلعتــه الأرض في غفلة من جميع الناس ، وفي صباح الامتحان تساءل الطلبة والطالبات عن زميلهم الغائب فقال أحـــدهم أنه سمع أنه أصيب بلوثة في عقلـــه ودخـــل مستشـــفى الأمراض العقلية وعقب آخر بأنه ربما تعرض لـــبعض الشرور لو صدقنا الأساطير التي تقال عن لعنة الفراعنة لأنه اكتشف أو كاد أن يكتشف سرا لا يجوز اكتشـــافه ، وهنا همس أحد الطلبة في أذن زميل له بأنه تصادف أن مر بميدان رمسيس في ذلك المساء التالي لليـــوم الـــذي اختفي فيه الطالب وقد رأى بعيني رأسه مجموعـــة مـــن علماء الآثار يلتفون حول قاعدة رمسيس ويبدو أنهم كانوا يقومون بعملية ترميم لساق التمثال اليسرى وإن كان غير متأكد من وجود أستاذهم وسط الجمع..

وفي آخر أيام الامتحان همست بنت في أذن زميـــل لها كانت على علاقة وثيقة به يمكن أن توصف بالحـــب والثقة قائلة أنها سمعت من أحد الرجال المرموقين وهـــو يمت إليها بصلة قرابة كما يعرف الطالب نفسه ، سمعت

بأن زميلهم محبوس منذ ذلك اليوم الذي ناقش فيه أستاذه على ذمة التحقيق في قضية مخدرات ، وسرعان ما نشر الولد الخبر على كل من صادفه من الزملاء دون أن يدري لماذا ، وربما كان يشك في أن الأمر لا يزيد عن قضية ملفقة أو شائعة لا أساس لها من الصحة..

حكاية الولد الذي كان يصعد الهرم :

ولما تخرج المواطن س. س. ر من معهد الآثار عينوه مفتشا في منطقة الأهرام وقد تعرف على ولد من نزلة السمان كان بارعا في صعود الهرم بشكل مميز لدرجة أن السياح كانوا يدهشون بسبب جسارته في الصعود بيسر وكأنه يمشي على الأرض ، كان عمر الولد لا يتعدى الحادية عشرة بحال من الأحوال ، وقد أحبه مفتش الآثار وكان يعطف عليه لأنه عرف أنه ابن لحارس قديم من حراس الهرم مات في ظروف غامضة منذ سنوات ، كان الولد اسمه عادل وكان يتيما ومحببا إلى نفس مفتش الآثار لدرجة أنه لما كان يغيب يسأل عنه كل من يصادفه ، وعندما يقابله يجيبه عن كل الاستفسارات التي يطرحها حول منطقة الأهرام وكان

يسمح له بدخول حجرة الدفن بلا مقابل ، وقـد اكتشـف المواطن س. س. ر من خلال المناقشات أن الولد عادل لم يكن خالي الذهن تماما عن حقيقة البناء لدرجة أنه كان يجادل المفتش نفسه في بعض الأمور ويـذكره بـبعض التفاصيل الدقيقة التي نسيها بسبب مشاكله الاجتماعيـة ، والعجيب أن الولد عادل كان يجيد الحديث حول الأهرام وتاريخها بالإنجليزية والفرنسية وأحيانا بالإسبانية ، يمكن القول أن الولد بدا لمفتش الآثار كنزا وأعجوبـة ، كـان أحد حراس الهرم يكره الولد عادل ، ويطـارده أحيانـا ويمنعه من صعود الهرم ولكنه في حضور المفتش كـان يحس أن الأهرام كلها ملكا له ، وقد دبر الولـد وسـيلة لإشباع رغبته في صعود الهرم وكتابة اسمه على أحجار قمته ، وقد باح للمفتش بأنه ينوي تسجيل اسمه على كل من أحجار القمة وعددها ألف حجر تقريبا وعندما سـأله المفتش مستفسرا عن عدد أحجار الهرم أجابه بأنها تزيد على المليونين فدهش المفتش وقال للولد أن الأمر سوف يرهقه لكن الولد هون الأمر وقال أنه يلزمه حوالي ثلاث سنوات لو سجل اسمه كل يوح على حجر وابتسم المفتش

للولد وأعطاه كتيبا من مصلحة الآثار مخصصا للسياح ويحتوي على مجموعة لطيفة من الصور الأثرية..

في صباح باكر ارتدى الولد ملابسه وقال لنفسه إن ميعاد المدرسة لم يحن بعد وحسب الوقت وقال لنفسه : يمكنني أن أصعد وأسجل اسمي قبل استيقاظ الحارس ، حام حول الهرم فلمح الحارس الذي لا يحبه وتوارى عنه، كان الجو مشحونا بالضباب وكان هناك مع الحارس سائح غريب وعدد من الحراس وكان ثمة شيء يقومون بتحميله في سيارة كبيرة نصف نقل كأنه تمثال أو مومياء ، ولقد سمع الولد همسا غريبا فلم يهتم ، كان مشغولا بنفسه وبدأ في صعود الهرم ، وقد انطلقت السيارة بحملها على حين كان الولد يصعد في طريقه إلى القمة ، وعندما بلغها بدأ يكتب اسمه على أحد الأحجار في عجلة من أمره وهنا ظهر له الحارس الذي كان يصعد خلسة ويقترب منه بشكل بدا له أنه سوف يمسكه، وقد شخط الحارس في الولد بكراهية طالبا منه النزول ومهددا إياه بأن يرميه ، وقد توترت ملامح الولد ولم يستطع مقاومة الخوف ، أحس بنوع من الدوخة وعندما

تحركت قدمه اليمنى تتحسس الحجر تحته انزلقت وأفلتت يداه الممسكتان بالحجر الأعلى فتدحرج إلى الهاوية كأنه كرة من المطاط تهوى دون أن يعترض مسارها شيء ، هكذا إذن كان الحارس سببا مباشرا في موت الولد عادل وقد نزل مسرعا وأفهم الحراس الآخرين أنه لو شهد أيهم ضده فسوف يعترف بتفاصيل كل ما جرى فـــي منطقـــة الأهرام منذ عين فيها حارسا ويجر بذلك أقدامهم معـــه ، وكما قال مهددا.. عليَّ وعلى أعدائي ، ولكن الحـــراس كانوا من محترفي التكتم على الكثير مما يعرفون ، لكنه اتضح في مساء اليوم نفسه أن ظنهم قد خاب لأنه حدث أن السائح الذي هو في حقيقة أمره مجرد لص آثار كان قد قرر شحن ما أخذه من آثار على ظهر إحدى الســـفن وحدث أن تصادف أن شك أحد المختصين في الشـــحنة وفتح الصندوق واكتشف الأمر ورفض بعناد مـــا قدمـــه السائح من عملة صعبة كنوع من الرشوة ليسكت، غيـــر أن المختص كان حديث التخرج ويقوم بعملـــه بصـــورة مثالية تفتقد إلى المقدرة على السكوت عـــن مثـــل هـــذه

الأمور فأبلغ الشرطة وتم القبض أيضا على كل حـــراس منطقة الأهرام..

ولقد بدا لمفتش الآثار الذي كان حزينا من أجل الولد عادل أن سرقة الآثار في هذا الصباح لها علاقة بسقوط عادل فأسرع يدلي بأقواله لمن كانوا يتولـــون التحقيـــق موضحا أن عادل له علاقة بالأمر وأن سقوطه من فوق الهرم يشبه ما رآه في أحد الأفلام الأمريكية التي تناقش نشاطات عصابات المافيا ، وقد شكره المحقق على هـــذه المعلومات ذات القيمة...

من يومها التفت المواطن س. س. ر إلـــى حقيقـــة كانت غائبة عن ذهنه قال لنفسه " إنهم يسرقون الآثار ".. وبدأ يستعيد حكاية زميل دراسته الذي ناقش الأستاذ مرة عن تمثال رمسيس ثم اختفى بصورة أسطورية ولم تظهر له آثار ، فقال لنفسه أيضا " إنهم بارعون في الخـــلاص من كل من يعرفون" وخاف على نفسه فقـــرر أن يبـــدو جاهلا بكل ما يدور حوله وأن يجهد نفسه فقـــط للقيـــام بتسجيل أمين لكل الحقائق التي عرفها والتي يمكـــن أن يكتشفها.. وطوَّع نفسه على عدم البوح بشيء مما يعرفه

لأحد حتى زوجته وقد تيسر لمفتش الآثار أن يقوم بعـــدة أبحاث ذات قيمة علمية خاصة ومن بينها بحث يستند إلى بعض الوثائق وتدعمه مجموعة لا بأس بها من القــرائن حول موضوع المواطن سخم سخام سخموي ماعت الذي نقلوا اسمه من لوحة المجاعة الأصلية بطريقة خاطئة إلى اللوحة الأخرى فأصبح بذلك يـــدعي ســـخم ســـخام رع والذي من كثرة ما اهتم بدراسته بشكل تفصيلي متتبعـــا حياته ونشاطاته وما تبقى من آثاره أصبح يشعر أنه جزء منه ، لدرجة أنه كان يتجلى له أحيانا في أمسيات الشتاء ويحدثه بالفعل شاكيا مما حصل له بسبب لصوص الآثار وحراس المقابر المرتشين ، ولولا أن مفتش الآثار كـــان يمتلك قلبا شجاعا لا يعرف الخوف، ولولا أنه اهتم فـــي فترة سابقة من حياته بتحضـــير الأرواح وآمـــن بعـــدها بفكرة الحلول بمعنى عودة الأرواح لتحـــل فـــي أجســـاد أخرى جديدة في أعقاب كل دورة فلكية مداها نحو سبعة آلاف سنة ، لولا كل هذا الإيمان لكف عن البحث.. ولما صدق على كل حال أنه هو نفسه الذي سجل بقلمه تلـــك الملاحظات العجيبة عن حياة سخم سخام رع ، ولربمـــا

كان يقول لنفسه أنها مجرد أوهام أو أن ما تـــم تســـجيله ليس إلا وثيقة قديمة قام بنقلها حرفيا في كشكول يمتلكه، ولقد رفض مفتش الآثار شكوكه هو نفسه في أن يكون قد أصيب بما يسمى بلعنة الفراعنة.. فغاب عقله أو كـــاد ، فاستمر دءوبا على ما كان قد بدأه وعكف على تســـجيل كل ما كان يراه متدرجا من الزمن القديم بنظـــام حتـــى العصر الحديث قائلا لنفسه " ربما يفيدهم هـــذا البحـــث مستقبلا ".. لكنه بسبب الوسواس الذي كان يلازمه دوما ويبرع في زرع المخاوف في صدره عاد وبعثر ما كان مسطورا بنظام في كشكوله الأول الذي مزق أوراقه قبل أن يحرقها وراح يطالع ما سطره عن ذات الموضوع في كشكول آخر ويهز رأسه استحسانا ويقول لنفسه مطمئنا : " حتى لو وقع الكشكول في أيـــديهم فســـوف يحيـــرهم ويجعلهم عاجزين عن لملمة أطراف ما يحتويه " وارتاح المواطن س. س. ر. نوعا وعقد العزم علـــى معـــاودة ترتيب المعلومات بعد أن يحال إلى المعاش.

* * *

جانب مما ذكره المواطن سخم سخام رع على لسان مفتش الآثار :

اطمئنوا بالا فسوف يعود الرجـــال الرجـــال ، بنـــاة الأهرام والرعامسة والتحامسة ، وغيـــرهم مـــن ملـــوك الزمن الأول ، سوف يعود على الأخص سقنن رع تاعا وأحموزي وكل الشجعان من أسلافكم بعد طول الرقاد ، ولسوف ينساح الرجال في اتجاه الشرق.. يكنســـون مـــا تبقى من فلول الغزاة، غزاة الزمان الأول لم يرحلـــوا إلا بعد ما ضحى الرجال ، مومياء سقنن رع تشهد بما كان ، الدماغ المهشم ببلطة غادرة ، واللسان المضغوط عليه بالأسنان وعجلة الكهنة في تحنيط الجثمان ، كـــل ذلـــك يوضح أنهم لم يرحلوا إلا بعد أن ضحى الرجال والملوك ، بعدها انساحت جيوش أحموزي في اتجاه الشرق ، إن كنتم نسيتم ما جاء في برديات الأسلاف وما سطروه لكم في كتاب الموتى ومتون الأهرام ووصايا الحكيم القـــديم أيبور فيلزم أن تعاودوا فتح الصفحات، ربمـــا لتصـــلوا بعدها إلى سر الأسرار أو ما كـــان يـــدور فـــي قـــدس الأقداس... إنما الأكيد أنه سيعود الرجال الرجـــال فـــي

ثياب جديدة وسوف يتم إخراج كل من وطـــأت أقدامـــه أرض مصر غصبا ، ويومها يلزم أن تبحثوا مع الرجال عن لوحة المجاعة الأصلية ، أن تصحوا مومياء البائس سخم سخام رع ، أن تعيدوا كل ما سلبوه منكم وأنتم في غفلة من أمركم بدءا بحجر اللغات الـــثلاث الـــذي فـــك رموزه وافد أجنبي مع غزوة وصلتكم في بدايات القـــرن الفائت وانتهاء بآخر جعران مسلوب بواسطة سائح يهوي جمع الآثار من كل بلاد الحضارات البكر ، وثمة أشـــياء لا يجوز نسيانها بحال من الأحوال : قنـــاع حتشبســـوت الذهبي ، عصا إخناتون ، وأساور وقلائد الملكات تـــي ، أياح حتب وتتي شري وغيرهم ممـــا أخـــذوه وجعلـــوه لزوجاتهم في البلاد البعيدة ، ثم برديات كتـــاب المـــوتي وكل النصوص ذوات القيمة والتي تحكي عن ميـــراثكم الذي تجهلونه ، ساعتها سوف يجيء الرجـــال ويســـود الحب والسلام وحتى شمسكم التي كانت تطلع عليكم كل صباح باستحياء سوف تستعيد جرأتها على التطلع إلـــى وجوهكم فتفتح عيونكم على نورها الحنون وتـــرون مـــا

يدور حولكم ، وسوف ترون ما يدور حولكم ، وســوف ينمحي العماء من كل العيون وتزول أشباح المخاوف..

صلوا لرع

* * *

٢- وشاية :

ليست وشاية كما تحسبون ، إنها شهادة لوجه الإلــه الذي تعبدون ، كان ثمة تمثــالان بائســان مــن حجــر الجرانيت الأحمر لمواطن يدعى سخم سخام وقــد ظــلا مطمورين تحت أنقاض قرية قديمة عبرتها جيوش الغزاة ، وقد تم اكتشاف أحدهما في أوائل خمسينات هذا القرن عند أحد أبواب المقبرة ، وعلى قاعدته كتابة بخط واضح يمكن تفسيره ، أما التمثال الآخر فقد تم اكتشــافه قبلهــا بسنوات لكن ما كان مسجلا على قاعدته اســتحال إلــى حروف مطموسة وباهتة وهو موجود في أحد متــاحف الأقاليم بعد أن واجه العديد من الصعاب ، في أول الأمر شالوه وحطوه على عربة تجرها الجياد العربية الأصيلة ، ثم وضعوه وسط كومة من التماثيــل وأوراق البــردي

والجعارين والأدوات التافهة في أحد مخازن القلعة ، ثم نقلوه إلى دار بالأزبكية ثم بولاق وبعدها استقر حيث هوالآن ، كان هذا هو ما حدث للتمثال الثاني ، أما التمثال الأول فقد لاقي من الأهوال ما جعله أشد بؤسا ، ذلك أنه رأى بعينيه الغرباء يدخلون المقبرة ويدمرون مومياء المواطن سخم سخام بعد ما سلبوا كل ما وجدوه من حلى وأوراق بردي بل إنهم كسروا التابوت نفسه ، وقد كره التمثال حياته من يومها لأنه بتدمير المومياء ستتوه الروح في عوالم مجهولة، هكذا إذن ضاعت " كا " سخم سخام لسنوات طوال حرموها خلالها من الاطمئنان إلى وجود بدن تستقر فيه وظلت تحوم في ظلمات العالم تندب تاريخها المطموس وتنعي حظها التعس الذي جعلها تدور في مسارات بلا غاية ، تماما كما حصل لتمثاله في رحلة الضياع المألوفة..

في البدء حملوه على سيارة نقل وربطوه بحبال متينة ثم وضعوه في صندوق ودفعوا بالطبع لكل من رأى وسكت ، كان اسم السفينة التي استقل ركنا على سطحها

" فريدم شب " وقد قال السائح المثقف والذي خلص كل شيء بعملته الصعبة موجها حديثه إلى التمثال :

– لا تحزن يا صديقي فسوف نهتم بك في بلادي ، سوف نضعك في المكان اللائق لتراك الملايين من أبناء وطني المتحضر وسوف تخلص من غباء الجهلة الذين عاشرتهم آلاف السنين دون أن يلتفتوا إليك ، كانوا كما تعرف يحسبونك مسخوطا غضب عليه الإله فحوله حجرا ، هئ... هئ... ألم يكن الأمر كذلك ، المساخيط ؟ أنا أعرف لغتهم ، تعلمتها من أجل تخليص ما يمكن تخليصه من أيديهم ، سبق أن خلصت مسلة كاملة وسليمة..

وسكت اللص المثقف كما سماه التمثال بعدها ، وراح يحشو غليونه ويشعله ويمتص دخانه ملتذا ، وعندما وصلت " فريدم شب " إلى الميناء أنزلوا التمثال ثم نقلوه بحرص بالغ إلى العاصمة وفي الشارع الرئيسي حيث يقوم المتحف أنزلوه مرة أخرى ، كانوا يهنئون الرجل وكأنه فتح عكا فعجب التمثال الذي وسعوا له مكانا نظيفا وفسيحا وأحاطوه بزجاج شفاف وسلطوا عليه

الأضواء بشكل رائع ، كان المكان مكيفا وكانوا يتوافدون بنظام ودأب ودون كلل ، يقفــون ويتــأملون منبهــرين ويتجادلون في بعض التفاصيل الخفية ، هكذا إذن ظــل التمثال منصوبا في متحف غريب لسنوات طــوال وقــد جاءه اللص المثقف الذي قام بنقله يوما وقال مــن بــين شفتيه بحماس :

- مسخوط سخم سخام ســخموي ماعــت ، كيــف الأحوال ؟ أنت مسجل قوائم قديم وتعرف قيمة التــاريخ جئت أخبرك بأن هناك صفقة لو تمت لاستحق اسمى أن يسجل في صفحات التاريخ ، سنشترى هذه المــرة كــل آثاركم المكررة فنقدم للعالم المتحضر خدمة لا ينســاها ، كل هذا من أجل عمليتنا الصعبة يا صاحبي ، إن لها فعل السحر ولها قدرات جمة على شراء التماثيل والمســلات والجعارين بنفس درجة قدرتها على شراء ذمم المرتشين وذوي الضمائر ومحدودي الأفق والأذكياء..

وقد سكت التمثال طبعا لأنه لم يكن مطالبا بــالرد ، ليلتها حامت حول التمثال روح سخم سخام قلقة متــوترة مغتاظة بسبب ما كان يشيع أيامها عن احتمال عقد صفقة

لبيع الآثار المكررة " إن أرواح الأسلاف تطن في فراغ الوادي دون أن يسمعها أحد ، ومياه النهر تلعن كل من يشرب منه جرعة ويرضي بمثل هذا التفريط المهين بالثمن البخس " بهذا كانت الروح تهدر بدون أن تدرك أنها تخاطب تمثالا بائسا وعاجزا من حجر الجرانيت..

ومرة أخرى وبعد سنوات قليلة جاءت الروح وهي في حالة من الهياج يرثي لها وكانت تتشكي هذه المرة من شر رهيب كما قالت : " إنهم السماسرة وتجار الخردة واللصوص من ذوي الوجاهة هذه المرة ، يجتمعون سرا مع مجموعة من الغرباء لبحث الإجراءات الواجب اتخاذها لإتمام صفقة آثار يستحيل تعويضها ، هذه المرة سيكون الأمر سطوا ولصوصية وسوف تباع كل دلالات حضارتنا في واحدة من مدن الغرب وهي على كل حال مقر عالمي للسماسرة والأفاقين وهواة المغامرة من ذوي الأرصدة الفلكية الأرقام ، دعك أيها التمثال من اللصوص الصغار ممن يطمعون في بضعة آلاف ودعك من حراس المناطق النائية الذين يفرطون في بعض الجعارين أو حتى مومياء بائسة لمواطن

مجهول ، كل هذا لا يهم ، الأمر هذه المرة خطير ، إنه مهزلة تتمحي بعدها كل دلالات الحضارة في وادينا الحبيب... أوه ، أنت لا تسمعني.... قد لا يعود الرجال الذين فات على موتهم الأول سبعة آلاف... هيه.. ماذا تقول "...

وكأنما أجهد الروح كل هذا الحديث ، واغتاظت من صمت التمثال ، لكنه لم يكن ثمة مهرب من أن تطرح مخاوفها حتى ولو لتمثال حجري أصم ،تساءلت الروح هذه المرة بدون أن تنتظر جوابا " هل يجرؤ واحد من الأبناء هناك على إبلاغ الشرطة وحراس الآثار الشرفاء وحراس الحدود أو حتى علماء اليونسكو ؟ "...

وهنا سكت التمثال أيضا لأنه اعتبر نفسه غير مطالب بالرد ، كان يقول لنفسه " إنها روح ثرثارة وتحب الوشاية كطبعها القديم ، ثم أنها وجدت لنفسها بدنا جديدا ويمكن بذلك أن توضح الأمر لو كان حقا وصدقا إلى كل الجهات المعنية، أم ترى هو الحرص على سنوات العمر الجديد ؟ " بهذا كان التمثال البائس حائرا بالفعل وعاجزا حتى عن الانتقال إلى أرض مصر ليرى

ويسمع بنفسه كل شيء كارها أن يصدق تلك الوشـــايات متخوفا أن يكون لها ظل من الحقيقة...

صلوا لرع

الطليعة : أبريل ١٩٧٥

مدينة الباب

إهداء

لمصر المستقبل

والبسطاء غير المدعين أبنائها

مدينة الباب...

محاصرين بالأسوار كنا.. عن يميننا ينتصب السور المشترك مع مصلحة الضرائب ، لم يكن سورا بـــالمعنى المألوف... كان جدارا شامخا متعاليا يلتصق بـــه ســـور مدرستنا القديم المتآكل الذي كان قزما هـــزيلا مســـنودا على عملاق متجبر حديث البناء ، وعن يســـارنا يوجـــد السور المشترك ، والذي يفصل ما بين حوش مدرســـتنا وحوش مدرسة المعلمات ، ورغم ضآلته لم يكن يســـتند على شيء... أما امتداد السور في الجزء الخلفي والـــذي كان متعامدا مع السور المشترك والجدار الشامخ بطـــول المدرسة فلم يكن أكثر من ستار يحجب أكوام النفايـــات التي نلقي بها وما كان يتساقط من نوافذ عمارة الأوقاف الجديدة ، والتي استغل سكانها المكان مثلما فعلنا ، أحيانا كنا نعبر هذا السور غصبا للإتيان بكرة طوحها الحماس أو فردة حذاء رماها تلميذ مشاكس.. أما الجبهة الأمامية فكانت بناية متآكلة تحتلها الإدارة، النـــاظر والـــوكيلان

وحجرات المدرسين والسكرتارية والبوابة الحديدية الضخمة التي يحرسها عم شعبان وهو نوبي عجوز يصعب خداعه أو حتى رشوته أو التفكير في الزوغان من منطقة اختصاصه...

كذلك كنا محاصرين من كل الجهات ، منفذنا الوحيد غير المباح هو السور الهزيل المشترك مع المعلمات ، ورغم الحزم في مراقبة هذا السور إلا أنه بدا في أغلب الأحيان أن التلاميذ كانوا أخف وزنا وأسرع حركة وأكثر مرونة من كل الأوامر التي يصدرها الناظر في طوابير الصباح ، والتي كثيرا ما كانت تفقد كل أثر لها في فسحة الغداء ــ بالتقادم ، ذلك أن محاولات غزو هذا السور لم تتوقف أبدا في ظل أصعب الظروف ، أصبح الغزو عادة يصعب إبطالها بأمر وزير المعارف نفسه ، صحيح أن الأمر لم يتعد في أغلب الأحوال إلقاء نظرة على البنات ، وربما شيوع بعض القصص الكاذبة عن علاقات غرامية سرعان ما ينكشف زيفها.. إنما كان الأمر يستحق المغامرة على كل حال خصوصا أن " حسنية " وهي سيدة متوسطة الطول خفيفة الدم والحركة

كانت قد حطت بضاعتها إلى الجانب الآخر من السور وشرعت في التلصص علنيا لتسلب قوانا الشرائية.. كانت تعتلي مقعدا وتسرب إلينا أكواب الشاي وزجاجات البيبسي وتبيع الأقلام والكشاكيل والكعك والحلوى وتضحك على متعهد " الكانتين " الذي يضرب كفا بكف ويتشكى للناظر وهيئة التدريس ويحاول اجتذابنا للشراء منه دون جدوى...

ورغم كثرة الإخطارات التي كانت تصل إلى أولياء الأمور مؤكدة أن التلميذ فلان يخرق النظام العام وأنه " مفصول لحين حضورك شخصيا ".. إلا أن أولياء الأمور عندما يأتون ويشاهدون بأعينهم شيوع الخطأ الذي تم استدعاؤهم من أجله... كانوا يتحاورون مع الإدارة ويحتجون مؤكدين أن أولادهم كباش فداء لا يستحقون كل هذا التشدد طالما أن غيرهم يمارسون غزو السور دون أن تتمكن الإدارة من منعهم..

هكذا إذن ساهمت الإدارة في استفحال الأمر لأن أولياء الأمور لم يتشددوا مع أبنائهم ، وهكذا أيضا قرر متعهد الكانتين أن يحمل أشياءه التي لا تباع معلنا لوكيل

المدرسة أنه خدع يوم فكر في التعامـــل مـــع شـــياطين مدرسة التجارة المتوسطة... ومن يومها أصبح الســـور مطية يعتليها العشرات وعرفا ســائدا ، وعلـــى امتـــداد السور من جهتنــا تنــاثرت قطــع الأحجــار الجيريــة ليستخدمها قصار القامـــة كـــدرجات للحصـــول علـــى متطلباتهم دون وسطاء.... وتباعدت الأوامر الصـــباحية التي تخص السور... وأصبحت تتركز في التنبيـــه إلـــى وجوب الحرص عند اعتلاء السور مخافة السقوط...

ورغم أن ناظرة المعلمات كانت لا تكف عن تقـــديم الشكاوي إلا أن الأمر لم يسفر عن شيء ذي بال ، فتعليه السور وهو ما كانت تطالب به ـــ يحتاج إلـــى موافقـــة وزير الأشغال وتأشيرة من مدير الصـــحة المدرســـية ، وقرار من نائب وزير الأوقاف وأخـــرى مـــن وزيـــر البلديات وعشرات من الإجراءات عسيرة التحقيق ممـــا جعلها تستسلم في النهاية وتكتفي في كل صباح بتحـــذير البنات...

* * * *

قبل أن يأتي ويحدثنا عنها ، كانت مجرد تعبير جغرافي قرأنا عنه سطورا في كتاب دراسي سخيف لكنه جاء وحدثنا عنها فتحولت إلى مدينة ، ورغم أنه قال مرة أن لكل مدينة في محيط الأرض اسما ، وأنه يحدث أحيانا أن تعطى الأسماء لمشاريع المدن ، إلا أنه أعطاها اسما غريبا علق بأذهاننا منكرا اسمها الحقيقي الذي عرفت به ، ولم نكن ندري سر إصراره على ذلك الاسم العجيب " مدينة الباب ".. كذلك كان يسميها من جاء إلينا على غير توقع ليعلمنا الحساب والمحاسبة ويحكي لنا ما كنا نجهله تماما من تواريخ المدن...

كنا نعبث في جنبات الفصل.. دخل الوكيل الأكثر سمنة ، تظاهرنا بالمفاجأة ، دخل هو.. فارع الطول حاد الملامح... عيناه تبرقان ببريق جسور وتقتحمان الوجوه ، تجوسان في سرعة خاطفة وتقيسان أبعاد الفصل... تبادلنا نظرات مرتابة في هويته ، ربما حسبناه طالبا حول أوراقه من مديرية أخرى.. سرت همهمات مستطلعة سر تلك الزيارة غير المتوقعة... أسكتنا الوكيل

بخبطات العصا فوق السبورة آمرا ومتظـــاهرا بقدرتـــه على إسكاتنا في كل الحالات :

– هش... عيب.. انتم في سوق ؟..

كدنا ننطلق في ضحكة جماعية ، لكن الآخــر كـــان هناك يرقبنا في صمت ويفرض علينـــا التمهــل.. تـــابع الوكيل حديثه في عجلة مزهوة بالصمت ، راغبـــا فـــي الخلاص ليتحاشى تطاولنا عليه وفقدان الاحتـــرام الـــذي ناله في لحظة الدهشة...

– الأســـتاذ صـــلاح آذار... مـــدرس المحاســـبة الجديد...ثالثة أول يـــا أســـتاذ... أحســـن فصـــل فـــي المدرسة... كلهم أولاد ناس... هه.... الفصل هادئ كما ترى... أي مشاكل ؟ الإدارة تحت أمرك...

قالها وانبسطت أساريره لأنه نفض عن نفسه العبء الذي احتمله بتسليم الفصل إلى الأستاذ صلاح.. أســـرع بالخروج فشيعناه بابتسامة جماعية عندما أوشك أن يتعثر في خطواته ناحية الباب... بعدها تبادلنا ســـويا نظـــرات مرتابة منكرة أن يكون الماثل حيالنا بالفعـــل أســـتاذا...

انصبت عليه النظرات تقيس ، تحسب سنوات عمـــره ، كان في مثل سننا ، بسيطا في مظهره بحيـــث لا يميـــزه عن أكثرنا شيء... يرتدي قميصا وبنطلونـــا.. وبلـــوفر بيج.. أساتذة المحاسبة والحساب وإدارة الأعمال يرتدون حللا كاملة ويحرصون على أربطة العنق ، ولـــم نكـــن ندري لماذا ؟ لكننا ألفناهم هكذا ، بأربطة عنق..

جلس متجاهلا كل الهمهمات والهمسات الصـــبيانية ، ظلت عيناه تتنقلان من وجه إلى وجه كأنما يحـــاول أن يقرأ ما كان يدور في عقولنا.. ثم راح يقطـــع الفصـــل طولا وعرضا... أطل من النافذة التـــي تواجـــه حـــوش مدرسة المعلمات.. انطلق صفير من أحـــد الأركـــان... التفت مستهينا ولم يعلق بكلمة... ودون أي اتفاق مســـبق ساد بيننا صمت ، ربما أحسسنا بالخزي مـــن نظراتـــه اللائمة ، قال :

– مراسم استقبال على ما أظن ؟

سألنا :

– من منكم يعرف عبد الرحمن الرافعي ؟

ساد صمت... ابتسم.. هز رأسه.. قال بدهشة وعجب :

- مع أنه من مواليد مدينتكم...

قال لنا مرة :

- عندما تقوم بعملية الجرد السنوي فالمفترض أن تتساوي الأصول مع الخصوم ، وأي خلل في عملية الجرد يعني عدم انتظام ميزانيتك...

وقال أيضا :

- لو لجأنا في كل الحالات للحساب المعلق فهذا يعني أننا عاجزون عن اكتشاف الخطأ ونفشل بذلك في حل التمرين...

كان يستخدم السبورة في الحل المباشر... تتطاير ذرات الطباشير من حوله... تغطى شعره وقميصه وتتكلس في الفراغات بين أظافره ولحم الأصابع لكنه كان يفلح دائما في ضبط الميزانية.... تتعادل الأصول مع الخصوم ، يبدو لنا كساحر صغير دءوب.. تتصبب على جبهته قطرات العرق لكنه يصر على الحل المباشر

وسط نظرات الانبهار والإعجاب.. ويوما في أثر يـــوم بدأنا نطمئن إلى العلم الذي كان بالنســـبة لنــــا طلاســـم يصعب تفسير رموزها ، ويوم أخطأ أحد الطلبة ووضع حسابا في غير مكانه بدا عليه أنه قـــد أصـــيب بفجيعـــة كبرى... ولأول مرة نراه يثور ويغضب.. قال:

- كيف ؟... كيف ؟... تلميذ صـــلاح آذار وتضـــع الحساب المدين مكان الحساب الدائن ؟

كانت هي المرة الوحيدة في محـــيط الفصـــل التـــي شعرنا فيها بالخجل الحقيقي.. كانت خيبة أمله في هـــذا اليوم هي التي منحتنا شعورا بالثقة في أنفسنا.. شـــعورا يحمينا من الأخطاء البسيطة ويزرع في قلوبنا الاطمئنان إليه... ولم تعد المسألة مجرد علاقة بين مجموعة مـــن الطلبة المشاكسين الذين لفظت أوراقهم مـــدارس التعلـــيم العام لكبر السن أو ضعف المستوى.. وشاب في مقتبـــل العمر ، تصادف أن جاءنا ليعلمنا ما كنا نجهله في شتى أنواع المعارف... بحيث تحول إلى اكتشاف بـــاهي بـــه كافة الفصول... عالم بأسره يعطي ويلح في العطاء...

حدثنا عما كنا نجهله من تاريخنا القديم والحديث.. عن المدن والغزاة، عن الملك والحاشية وصفقات السلاح... عن السخرة والكرباج والديون وفتح القناة... عن ديلسيبس والامتياز وصحن المكرونة الشهير الذي التهمه سعيد باشا... قال....

- أعرف أن يتسمى الإنسان بالمدينة... يحملها لتكون له علامة...أما أن يعطيها اسمه فهو أمر عجيب... سمعتم عن البغدادي... الخوارزمي.. البخاري.. الجزائري.. كلها أسماء لعلماء ينتسبون إلى مدنهم ، ما رأيكم لو سميناها مدينة الباب... فلنسحب البساط من تحت أقدام سعيد باشا ونسميها مدينة الباب....

ومن يومها بدأنا نعشق المدينة... عندما كان يحكي عن المدن وكأنه عاشق يغرس الحب في القلوب... يجعلك تتمنى لو تعيش فيها... ربما تندم لأنك لم تنتسب إليها ، ذلك أنه كان يحكي بالحماس كله.. فنوشك على الطيران إلى هناك بأحلام البطولة في السنوات البكر...

حدثنا أيضا عن الإسكندرية لكنه لم يخترع لها اسما... رضي باسمها القديم وراح يحكي عن البحر والميناء والأحياء المائية ، عن محطة الرمل والترسانة البحرية ، عن غيط العنب والسيالة والعجمي ، عن سيد درويش وبيرم التونسي وقلعة قايتباي والتي تحتل مكان المنارة القديمة إحدى عجائب الدنيا السبع.. كان يحدثنا عنها وفي عينيه بريق مشتاق للأهل... للبنت التي يهواها ولا يخجل من وصف ملامحها.. يحكي عن البحر والميناء ومسقط الرأس في غيط العنب وعشقناها.. ذبنا بها وجدا وحبا.. طافت خيالاتنا في شوارعها التي تغسلها الأمطار في الشتاء...

في أمسيات الخميس كنا نلتقي.. نتجول في شوارع مدينتنا ثم نجلس على المقهى الكائن في شارع البحر... يطلب الشطرنج ويلعب معي أو مع الدسوقي ، يوضح للآخرين طريقته في نقل القطع.. يمنحنا أكثر من فرصة أثر نقلاته الخطرة.. وعندما يعجز الواحد منا عن التصرف يبتسم بينما اللفافة تهتز بين أسنانه ويقول :

- سوف تخرج من هذا المأزق...

تمتد يده ويحرك قطعة الخصم ويفلته من الحصار... يقول محذرا :

- لو أخطأت نفس الخطأ مرة أخرى فهذا يعني أنك لا تحسن التفكير... ويحق لي وقتها أن أقتل الملك... لا يصح أن أمنحك فرصتين عن خطأ واحد...

كان يغتاظ من الخصم عندما يتكرر الخطأ في نفس الدور... تدمع عيناه ببريق غريب.. ويبدو وكأنما قد خاب أمله في شيء ما ، وفي هذه الحالات كان ينهي الدور لصالحه أثر نقلتين أو ثلاث وكأنه يطرد الخصم طردا...

بوحى منه جمعنا مساهمات الفصول والإدارة.. وبحماس الطلبة انفتح الكانتين.. يشرف الأستاذ صلاح على حساباته ويمنى الجميع بعائد الربح على المعاملات ، هكذا إذن تضاءلت قيمة السور المشترك.. وانزاحت قطع الأحجار المرصوصة... وفشلت حسنية في اجتذاب العملاء...

وبوحي منه أيضا تكونت الفرق الرياضية.. كرة سلة... كرة طائرة... كرة قدم... وقامت المنافسة بين الفصول... وأصبحنا نحن محط أنظار بنات المعلمات... لكنه لم يأت ليشهد المباراة الفاصلة بيننا وبين الفصل المنافس...

جاء الناظر وفي عينيه شيء كأنه الدموع.. ونبرات صوته تعلن لنا أنهم نقلوه إلى هناك... إلى مدينة الباب...

تظاهرنا في الفصل وفي الحوش وعلى أبواب المدرسة لكن الأمر الإداري بنقله كان قد صدر... والناظر يؤكد لنا بشتى الوسائل عجزه عن إعادته فما هو إلا عبد المأمور... من يومها اختفى صلاح آذار من حياتنا... وباتت المدرسة كما كانت شيئا بغيضا وكريها يدعو إلى الاشمئزاز...

تمضي السنوات سراعا ويبقى اسم المدينة عالقا في الذهن يذكرني به.. كأنما أصبحت التسمية التي أعطاها للمدينة هي الأساس ، ربما يعيش فيها الآن... يجلس

على أحد مقاهيها ويلعب الشطرنج.. ربما تركهـــا وراح إلى مسقط رأسه... ربما هاجر في زحمـــة المهـــاجرين ربما... لكنها ظلت في خيالي كمـــا ســـماها... مدينـــة الباب... حتى عندما تحولت إلى مدينة مفتوحة وارتـــبط اسمها بكل أنواع البضائع المستوردة كنت أسمع الاســـم الذي أعطاه لها متجاهلا اســـمها المـــألوف... أســـمعهم ينادون على أرصـــفة الشـــوارع المزدحمـــة يروجـــون لبضائعهم.. لبان مدينة الباب... قمصان مدينة البـــاب... شباشب مدينة الباب... داكرون... هيلد... شموازيه.... بارفان... جينز.. تليفزيونات.. أجهزة تســـجيل.. أولـــد سبايس.. كنت روثمان... دانهيل.. ترافييرا.. شيفون... شمواه ، وكلها مقرونة باسم مدينة الباب التي تحولت إلى علامة تجارية مضمونة التوزيع.. تتسمع الآذان وتحفـــظ الأسماء...

يبرع التجار في التأكيد على جودة البضائع المهربـــة ورقيها.. تشيع أنماط الثياب... ويلح الخلق في السؤال.. يتفتق الذهن عن عشرات الحيل عن كيفية غـــزو مدينـــة الباب والخروج دون التعرض لمصادر الجمارك.. تنظم

الرحلات ، يعد الإنسان للرحلة ويمنى نفسه بالشـــراء.. يتصادف أن يكتشف بعض الناس أن الأسماء العالمية أقل جودة من شركة بيع المصنوعات....

* * * * *

قلت لها لا داعي للمغامرة فأصرت.. قلــت لهــا لا داعي للذهاب فازدادت إصرارا... قلت لها سوف ندخل في متاهة، فلوت بوزها أسبوعا وأقسمت على الذهاب..

كانت تتسمع بينما نعبر شــوارع مــدينتنا وتســأل التجار... كانت تستفسر من كل صديق ذهب وعاد عــن الأسرار... تختزن ما تحصله مــن معلومــات مســلوبة الإرادة تماما.. كأنها منومة ، اقتصدت واحتالــت علــيّ وجمعت مبلغا يتناسب بحسب تقــديرها مــع خطــورة الرحلة.. عندما عادت لتفاتحني في الأمر وتسرد علــى مسامعي كل ما تصيدته من أسرار وكأنها اكتشفت ســر خاتم سليمان قلت لها أن الفــارق طفيــف وأن للوقــت الضائع ثمنا.. أن الجهد المبذول لا يتعادل مــع الفــارق المادي... أن المهربين لم يــدعوا شــيئا للصــدفة وأن

العقلاء يفضلون شراء حاجاتهم من شارع الشــواربي... لكنها كانت قد ركبت دماغها وأصرت على الــذهاب... قلت لنفسي.. ما جدوى المعارضة؟... مدينة الباب غزت عقول البنات...

خجلان من نفسي كنت أحمل الحقيبة الفارغة.. كانت في يميني عبئا وعارا ولم أكن أدري سر ذلك الشــعور الذي غزاني طوال الطريق إلى موقف التاكسي الــذاهب إلى مدينة الباب...

أما هي فكانت تطوف بخيالها في شوارع مدينة لــم تدخلها قبلا وتتعجل الوصــول.. قلــت لنفســي ربمــا يتصادف أن ألقاه.. وسألت نفسي : تــرى لــو التقينــا يتعرف على تلميذه القديم أم أنه نســيه ؟... كعصــفور خرج من القفص نزلت هــي مــن التاكســي... تبتســم للبنايات والتجار والزوار والطرقات... ووسط الزحــام كانت تكتشف الأشياء وتنبهر بالأسعار.. تشترى وتدفس ما تشتريه في الحقيبة وكأنها طفل صغير يمارس السرقة لأول مرة في حياته... لكنها في السادسة مساء أعلنت أن كل مدخراتها قد أوشكت علــى الانتهــاء... طمأنتهــا

ونصحتها بالاكتفاء.. عدت أطمئنها بأنني حسبت حسابات لكل شيء وأنني أخفيت مـا يـوازي الرسـوم وأجـرة التاكسي العائد... لم تطمئن إلا عندما أريتها مـا كنـت أخفيه عنها.. نظرت إليَّ لائمة وأوشكت علـى الشـراء لولا أن حذرتها بحسم من مخاطر المغامرة في مدينة لم ندخلها قبلا... استسلمت.. وركبنا التاكسي العائد...

كانت السيدة البدينة تجلس بجوار السـائق، رأيناهـا تلف ساقيها بقطع القماش ، تربطها بإحكام بخيط الدوبارة ، سمعناها تساوم السائق على مبلغ تدفعه مقابل أن يحمل عنها بعض الأشياء، رجت الركاب أن يتطوع كل مـنهم بحمل نصف دستة من الأكواب مؤكدة أنهم لن يتعرضوا للمساءلة ، الآخرون كانوا يتسمون بالهدوء.. هدوء مـن يثق في قدراته على الانفلات أو من يدرك أنه لا يحمـل شيئا يستحق مثل هذا القلق...

وفي الثانية عشرة تماما أنزلنا موظـف الجمـرك.. أمرنا بحمل الأشياء وتـرك التاكسـي.. أدخلونـا إلـى الصالة.. لمحت في عينيها خوفا زائدا... كان في حقيبة يدها زجاجة عطر مستورد وأخرى لزيـت الشـعر...

سألتني في توتر إن كان من الممكن أن تعبر بهما... كانت الحقيبة معي.. أكدت لها أن الأمر بسيط... وأن كل ما عليها هو أن تقف في طابور الحريم... وقفت هي بينما رحت أستفسر من أحد الموظفين عن المبالغ الواجب دفعها... هز رأسه باستهانة وحدد مبلغا... أعطاني ورقة تصف الأشياء وتحدد الأثمان والمبلغ المطلوب... سألت عن الخزينة لكنني لمحتها وهي تنسحب من الطابور وتسرع ناحيتي... بفزع :

– إنهم يفتشون السيدات... المفتشة تتحسس ما يتخفى تحت الثياب...

عجبت لأمرها.. ذكرتها بأنها لا تداري شيئا تخشاه... وأن كل ما عليها هو أن تقف في الطابور.. ودون أن يبدو عليها الاقتناع ذهبت لتقف في آخر الطابور.. كنت ألمحها وقد ازدادت توترا... كلما اقتربت من المفتشة ازدادت توترا... كانت الأخرى تمارس عملها وقد بدا عليها الإرهاق.. تكابد مشقة إقناع بعض السيدات بوجهة نظرها... وعندما تعجز تقطب ما بين

حاجبيها وتكف عن العمـل تاركـة الطـابور بصـخبه وضجيجه...

كنت أقف في طابور الرجال وأراها.. كأنها فـأر مذعور محاصر في أحد الأركـان... تتحـين الفـرص وتتأخر.. كان طابور الرجال يزحـف وكـان علـيّ أن أتأخر أنا الآخر حتى أراها وهي تخرج مـن البـاب... جعلت أشجعها بالإشارة وسـط الضـجيج... أخرجـت زجاجتي العطر والزيـت وأشـارت إلـيّ.. طمأنتهـا بابتسامة... وتحرك الطابور... عندما وصلت هي إلـى المفتشة قلت : هانت.. دار بينهما حوار لم أسمعه... بدا على الأخرى ارتياب مفاجئ... ربما سألت نفسها وهـي تتفحص محتويات حقيبة اليد... إن كان من الممكـن أن تدخل فتاة إلى مدينة الباب ولا تشترى شيئا.. انتحت بها إلى ركن وراحت تجادلها... ثم بدأت تتحسس ردفيهـا.. وساقيها.. تحسست صدرها... ثم ازدادت شكا فأمعنـت في الفحص.. رأيتها تزيح قميصها الداخلي فيظهر لـون جسدها... وللحظة التقت نظراتنا.. رأيتها وقد أصـبحت إنسانا آخر.. يستجير بنظرته المذعورة وينفي عن نفسه

تهمة لم يرتكبها.. ابتسمت المفتشة وهمست لها بكلمات ، بدا أنها لم تفهمها... ربتت على كتفها وقالت كلاما... ساعدتها في لملمة أشيائها المبعثرة...

كانت أختي قد غابت عن الوعي تماما... جرجرت ساقيها في اتجاه الباب.. أفقت على المفتش يسألني عن قسيمة السداد... قدمتها إليه.. راح يتفحصها ويتفحص الأشياء.. يتأكد من مطابقة المبالغ والتقديرات مع المحتويات...

عندما خرجت من باب مدينة الباب وجدتها وقد اختارت ركنا وعيناها غائبتان عن الوجود... تبرقان فقط.. سألتها عما جرى... نظرت وانفجرت في الصراخ والبكاء.. حاولت تهدئتها فأزاحتني عنها ثم سقطت على الأرض... ألقيت بالأشياء أرضا وحاولت حملها لكنها خلصت نفسها بعنف أكثر وعاودت السقوط.. التف حولنا جمع من الناس... قال البعض إنه إغماء طارئ...

سألت السيدة البدينة عما جعل المفتشة تمعن في الفحص مؤكدة للجميع أنها لم تكن تداري شيئا على

الإطلاق... حاولت أن أحملها لكنها كانت قد تحولت إلى جرح ينزف الدموع والصرخات... رشوا عليهـــا مـــن زجاجات العطر المستورد لكنها لم تشأ أن تفيق.....

أشار أحدهم أن تعود إلى مدينـــة البـــاب لإســـعافها فصرخت أكثر... ووسط دهشة الجميع حملتها بمســـاعدة إحدى السيدات وأركبناها التاكســـي... كـــان صـــراخها الملتاع المتواصل يخرق الصمت على أبواب المدينـــة.. ويفسد على الذين أفلتوا مـــن التفتـــيش الـــذاتي متعـــة المغامرة... وعندما اكتمل عدد ركاب التاكسي وقبـــل أن يتحرك بدا لي أنني ألمحه وسط الظلام الـــذي يمـــتص صرخاتها المرعوبة من وحش خرافي لا يـــراه أحـــد... لمحته بنظرته التي طالعنا بها في أول لقاء.. ويخيل إلى أنني سمعت قهقهاته بينما يتحرك التاكسي مبتعـــدا عـــن أبواب مدينة الباب... ولا أدري إن كانت ضحكاته تعبر عن سخريته من تلميذه القديم الذي نسي قوانين الاستيراد والتصدير ، أم أنه كان يضحك إشفاقا عليّ وعليها أو... ربما كان يضحك غضبا من مراسم استقبالنا في مدينـــة الباب.....

الموقف العربي ــ يناير ١٩٧٩

منزلق :

هكذا بدأ المواطن فتحي فتوح أبو الفتوح الذي يعمل مفتشا للتموين في إحدى المحافظـــات الكبـــرى دعـــاءه للخالق أن يسترها معه ويفوت سقطته الأولى على خيـــر داعيا في سره الله حتى لا يسمع صوته أحد من البشـــر فيفتضح أمره ، كان يقول في سره، بينما يسير في تؤدة وحذر :

" يا رب... استرها معي... أنت يا رب أعلم بحالي من غير شرح ولا تبيان... يا رب هل يرضيك أن تظل زوجتي عفاف التي أحبها وأنا مفتش التموين مرهـــوب الطلعة.. هل يرضيك أن تظل تستخدم وابور الجاز فـــي الطهي والغسل وعمل أكواب الشاي والحلبة واليانسون ؟ يا رب أنت تسمعها بنفسك حين تدفع الكباس وتشرع في تزويد أنفاس الوابور اللعين الذي تخبو ناره رويدا رغـــم كل محاولات الإصلاح... تخبو ناره فتلتهب النـــار فـــي صدر عفاف ويندفع لسانها كأنه كباس هو الآخر يشحنني

بالضيق والإحساس الأكيد بالعجز عن مسايرة العصر... يا رب أنا أشرح لك هذا لتتأكد من صدق عبدك فأنا يا رب لن أخون أمانة ولن أفشي سرا ولن أحصل على رشوة من أحد ، كل ما هنالك أنني سوف أجعل الرجل الذي تعرفه يتحاشى التعرض للغرامة المالية ، لقد وعدني الرجل بجهاز بوتاجاز مصانع بالتقسيط المريح ، وسوف يحاول الرجل كما تعلم أن يكف عن أخذ الأقساط لكنني أعدك بسداد الثمن ، يا رب أنت تعلم ما تخفي الصدور وأنا يارب أشعر بنوع من العذاب الهادئ يغزو صدري فارحمني يا رب من الإحساس بالذنب الذي يلاحقني هذه الأيام "...

" يا رب إنني أعرف الرجل لن يمنحني هذا البوتاجاز بدون حجز من أجل سواد عيني وإنما لأنه يعرف سلفا قيمة التساهل مع مفتش تموين ، أقولها بوضوح.. إن شبهة استغلال الوظيفة في تسهيل الأمور الخاصة قائمة "..

استمراء :

قال المواطن فتحي لنفسه أيضا وهو يحتسي الشاي :

" أكثرية أصحاب المخابز لصوص ، يسلبون الوزن من الرغيف أو يخالفون المواصفات بشتى الوسائل فتتزايد مكاسبهم وتتكدس، ومهما حررنا لهم محاضر فهم مصرون على الاستمرار في السلب والاحتيال ، أحيانا أسأل نفسي إن كان وجودي في هذه المدينة قد أفادها في شيء "...

" أنظر إلى الرغيف فأجده كما كان حتى في دائرة اختصاصي رغم أنني أؤدي عملي بأمانة وشرف وأدرك أن حلف أصحاب المخابز يسير الأمور على هواه برغم كل إمارات الخوف والهلع المرسومة على الملامح ساعة الزيارة الدورية ، أسأل نفسي إن كان تحرير المحاضر واكتساب عداوة أصحاب المخابز أمر لا جدوى منه "...

الحاج فضل الله رجل مشهود له بالأمانة النسبية في المدينة ، كان يتودد عليّ في الأيام الأخيرة لدرجة أنه زارني في بيتي، يومها تحولت من مفتش تموين إلى صاحب مخبز غشاش فوجئ بحملة مفاجئة تكبس على

أنفاسه... وتحول الحاج فضل إلى مفتش تجوس عيناه في كافة الأنحاء ، كانت الشقة أقل بكثير مما يجب أن تكون عليه ، كنت أجد تعارضا واضحا بين سلطاتي التي تجعله يرتعب ونظراته إلى أشيائي من علٍ بشيء من الاستياء الممزوج بالرثاء من أجلي...

حدثني عن شقتي وكيف أنها سيئة التهوية وضيقة ، حدثني عن عمارة يبنيها وعن شقة يمكن أن يدبرها لي... حدثني عن النزاهة التي يتحلى بها، وأنه لم يتقاض خلو رجل أو مقدم إيجار من أحد على الإطلاق ، زرع الاطمئنان في قلبي ، جاءت أكواب الشاي فحمدت الله أن البوتاجاز أغنانا عن صوت كباس وابور الجاز اللعين وإلا كان حدثني عن كيفية عدم وجود جهاز بوتاجاز في بيتي... قبل أن أحدد له مطالبي (أعرف بالطبع أن زيارته لي لم تأت عبثا وإنما هي مدبرة ووراءها مطالب) نظرت إليه أقيس استعداداته فعاجلني قائلا :

- ابني فضل مهندس مبان ومقاول في السعودية ، عنده عمليات كثيرة ولولا انشغاله بالبحث عن عمال ومهندسين وموظفين لتسفيرهم للعمل معه لجاء

يزورك معي... وبالمناسبة أي خدمة من الســعودية تحت أمرك ، عقود عمل ، طلبات ، تحت أمرك ،

أضاف الحاج فضل الله وكأنه قرأني كما قرأته :

– ابنى راغب في خدمتك بأي شكل بعد ما ســمعني أشكر في أخلاقك ونزاهتك ، الشرفاء قلة في هذا الزمان كما تعرف...

شكرت الحاج فضل الله والباشمهندس فضــل علــى حسن ظنهما بي... قلت لنفسي.. " هذا عرض مغــر بعقــد عمل يحل كل مشكلاتي الحالية والمستقبلية ويجعلني أعيش " سألني الحاج فضل الله عن تاريخ الحملة التموينية التي سوف أقوم بها لمخابزه بطريقة ذكية وبشكل عَرَضِي جعلني أحترم حسن تصرفه ، قلت لنفسي " لو طردته لكنت جلفــا يــرفس النعمة التي جاء بها فضل الله ، ولو ذكرت له التاريخ فسوف يعمل استعداداته وتحفظ الشكاوى المقدمة ضده دون أن يعلم سواك يا رب بما جرى"... انفلت لساني عفوا وسمعته يقول للحاج فضل الله :

– ٩/٦ يا حاج... ربنا يرزقنا زيارة النبي...

في ٩/٦ كان الحاج فضل الله قد أزال كل المخالفات الظاهرة والخفية وأكمل وزن الرغيف والتزم بكل المواصفات الظاهرة، أصبح كل شيء أمام الحملة مثالا يحتذى به...

لم أجد ثغرة أنفذ منها أو ينفذ منها أي من أعضاء الحملة... كان الحاج فضل الله يمثل دور الفأر المذعور بينما خالف قط سمين بحيث لم يتطرق أدنى شك في علاقتي بالرجل ، وهكذا حدث أن أخطأت وحفظت الشكاوى وجاءني عقد العمل ، يا رب أنت أدرى بما أنوى عمله.. أول كل شيء أنني سأزور قبر حبيبك المصطفى وأتوب عن كل الخطايا ، وأتطهر في أرضك الطاهرة... "يا رب أغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر إنك أنت الغفور الرحيم "...

تبجج :

كان المواطن فتحي أبو الفتوح يستكمل أوراقه ويسعى لاستخراج جواز سفره وجواز زوجته، ويسعى في الوزارة والمحافظة ولدى رئيس إدارة الشركة التي تعمل بها عفاف أيضا ليحصل لها ولنفسه على أجازة بدون مرتب لمدة

عام قابل للتجديد... كان يدور في متاهات ويسعى بحماس وجدية في كل الاتجاهات... يوثق صلاته بخلق الله ممن يستطيعون تقديم الخدمات بمقابل أو بغير مقابل ، وكان يتضايق أحيانا من اضطراره لدفع بعض الرشاوي الصغيرة لبعض النفوس الصغيرة المستعدة لأخذ أي شيء حتى ولو كان سيجارة ، لكن أحلامه في المساء كانت تتأرجح مع أنغام الموسيقى الكلاسيك التي اكتشفها حديثا...

وبينما هو على هذه الحالة سعيدا إلى حد الغبطة ، مبسوطا إلى حد الانتشاء إذا بعفاف تفاجئه في لحظة ود وتعاطف بأن رصيدها من النقود قد نفد عن آخره ، تحير لحظات فعرضت عليه دون أن تكون جادة في عرضها أن يبيع الذهب الذي كان قد تقدم به إليها يوم أعلنت خطبتهما ، أفاق مفتش التموين إلى نفسه تماما... قام مفزوعا ، ثم قال لنفسه بينما يتحرك في جنبات الشقة..

– إلى هذا الحد وصلت الأمور بك ؟ : كنت تعيش حياتك في هذه المدينة منغلقا على نفسك ، في كل المكاتب التي عملت بها كنت غريبا على الزملاء ، ينظرون إليك وكأنك تحفة أثرية من عصور سحيقة وعتيقة ، وكأنك إنسان

خرج لتوه من الكهف ، يسخرون منه ويتغامزون ، مثاليا إلى أبعد الحدود، ومتعففا إلى حد المرض ، حادا وحاسما كفارس في عصر بلا فرسان ، تضيق عليك الدائرة يوما بعد يوم حتى تصل إلى هذا الحال المؤسف ، تعرض عليك عفاف – وكأنها تسخر منك – استعدادها لبيع ذهبها وأنت مفتش التموين ؟

في تلك الليلة لم ينم مفتش التموين ، ظل صاحيا ينتظر مواعيد العمل الرسمية على أحر من الجمر.. لم ينم ولذلك لم يحاسب نفسه على الخطايا الصغيرة والنوايا الشريرة التي تطوف برأسه ، وعلى ذلك لم يسأل الله المغفرة كما اعتاد.. كأنما نسى أن يطلب الغفران في تلك الليلة بالذات...

في الثامنة والنصف قام واغتسل ، حلق ذقنه ولم يحمل أوراقا كما هي عادته.. قال لعفاف وهي تخرج إلى مقر عملها :

– لا تحملي هما يا عفاف فسوف أدبر أموري على خير وجه...

في التاسعة والنصف مر عرضا بالشارع التجاري... دخل أحد محلات بيع الأقمشة : نظر إلى صاحب المحل واتجه إليه ، همس في أذن الرجل ببضع كلمات ثم خرج ، جلس إلى ترابيزة في ركن القهوة التجارية ، احتسى شايا بالحليب وراح يتصفح الجريدة الصباحية بغير اهتمام ، تابع بقية أخبار أزمة الشرق الأوسط فلم يعرها اهتماما ، تمتم :

- مالي بأزمة الشرق الأوسط ، المهم أن تنفك أزمتي...

قال لنفسه دون أن يسمع صوته أحد :

- تجار القماش يأخذون حصتهم من القماش الشعبي ويخزنونه في مخازن سرية... لا يبيعونه للشعب أبدا بسعره الرسمي ولهم أساليب شتى في تصريفه بأسعار مضاعفة في السوق السوداء... المنحط يتأخر عن موعده ، هل سأظل انظر هكذا ؟...

جاء الرجل... جلس في صمت ، ابتسم لمفتش التموين ابتسامة صفراء... نظر إلى الجريدة الصباحية.. تلفت حواليه... دس يده في جيبه... أخرج مظروفا لونه

أصفر... حطه في صمت تحت الجريدة.. ابتسم ، قام ومد يده مسلِّما وهو يقول :

- متشكر يا فتحي بيه... أستأذن..

مد مفتش التموين يده وتناول المظروف.. دسه في جيب سترته... وأحس بالأمان والدفء.. وبأن مشكلته قد انحلت ربما إلى الأبد...

الموقف العربي ــ أغسطس ١٩٧٨

ضرب البحر

عجوز البحر :

برغبة الانفلات من سخف البحر كنت أضرب بالذراع اليتيم أمواج التربص ، أتلقى الضربات المحكمة التي تصفع الوجه والظهر وتشل الأطراف ، الدوامات تجعلني أدور حول نفسي وأدوخ، أوشك على التراخي والغوص منهزما ، وعندما أتمثلهم يتهامسون حول فشلي في إخراج نفسي إلى الشاطئ القريب أمعن في ضرب الأمواج فتطاوع

وتلين ، أعجب لأنني فكرت في التخاذل لحظة ، أبصق في وجه البحر وأتابع تخليص أطرافي من سيطرة الدوامات ، أرفض فكرة الصراخ طلبا لعون الآخرين بكبرياء البحار القديم الذي يعاودني ، يشدني الإصرار ناحية الشاطئ ويخلصني من رجفة الرضا بالموت غرقا قائلا لنفسي إنها دعابة سخيفة أن أستسلم للموت بهذه الطريقة.

عند الشاطئ تابعت خطو العناد رغم غوص الضياع ، جئت أهمس دونما حذر مطمئنا إلى الشاطئ الرخو ، تشيخ رغبتي في التشكي من ذات الأمور التي يدمدم بها الكهول ، وعلى موج الجموح شابت مشاريع الشكاية ، ومهما حاولوا إقناعي بالبقاء معهم في طوابير العجزة الخبثاء فلن أرتضي أن أداري عنكم سر البحر ولعله يحق لعجوز مثلي أن يتكاسل ويستكين بعد أن طوف في أركان العالم بحثا عن مستحيل يخصه وعاد خاويا إلا من الانكماش المرعب وانهزام البريق في العينين الفاحصتين ، وحلول النظرة المهمومة فوق الملامح التي لا تهدف إلى استجداء نظرة الإشفاق منكم ، ولأن ما كنت أحلم به وأحن إلى تحقيقه غاص في أعماق البحر فإنه من غير المستحب أن أترككم

دون البوح بسر البحر ، فقط أسـألكم أن تعـاودوا فحـص الأشياء التي تحيطكم في وعي ودون حماس زائد أو تـوتر عصبي ناتج عن الاكتفاء بالنظرة الخاطفة إلى سطح البحر ، وإصدار الأحكام عنه بلا روية ثم الوقـوع فـي المحظـور ليستحيل إخراجكم من إلحاح تصوراتكم الموروثة أو وصايا الكبار ، وربما وصلت إلى مداخل الآذان محـض تهتهـات مقهورة لرجل متهالـك ، علـيكم إذن أن تقومـوا بإكمـال الحروف المبتورة وحذف النبرات الزائدة ليفهم البعض منكم ما أعنيه عندما أتحدث عن ضرب البحر...

أعرف أنني عجزت في رحلتي الأخيرة عن ضرب البحر وأنني أدركت على الفور أنني أصبحت غيرما كنت ، استسلمت لصلف الأمواج وهدير الدوامات وارتضيت الفرار منه إلى الشاطئ مقهورا ومتأملا في غل أمواجه التي شيعتني موصوما بالعجز ، وكما ترون فـإن الأشـياء مـن يومهـا تمتصني وتستهلكني ، همسات الكهول تنصحني بأن أدعـي مثلهم الضعف وانعدام الحيلة ، أن أحدثكم مثلا عن حسـرتي على سنوات العمر الفائت ، أطـالبكم بضـرورة حمـايتي ورعايتي كما كنت أرعاكم في سالف الزمان ، لكنني أرفض

الفكرة ليقين في داخلي أنه ليس من حق الكهول أن يتحسروا على ضياع العمر، أنهم يحسون غالبا غبطة الفوز دونكم بكل السنوات التي عاشوها قبلا واستمتاعهم بما لم ــ وربما لن ــ تجربوه، وهاهم يكتفون بالضحك مني عندما أشرع في الحديث عن ضرب البحر، إنهم يحسبون في مهارة ما تبقى من أيامي قبل أن أسقط سقطتي الأخيرة، بل إن بعضهم يلوح لي بإمكانية إلقاء جثتي لوحوش البحر كما يفعل البحارة وهو أمر لا يهزني كثيرا باعتباري بحارا قديما، إنما ما يغيظني هو أنهم يجعلون من الأمر وسيلة لتهديدي، وهم يعرفون بالطبع كل شيء عن كراهيتي لوحوش البحر، لكنه من الحتم أن أسر إليكم بكل شيء قبل ضياع الوقت، وليتني فكرت في البوح قبلا بما كان يعتمل في الدماغ عن سر البحر..

في البداية كنت أبدأ رحلتي ناحية البحر بخطي حذرة، متوجسة بينما يثرثر الرجال متفكهين سخرية من رغبتي في إزاحته عن الشاطئ، كنت أعرفهم في شبابي وأضيق بعيونهم الملونة الثاقبة والتي تترصدني وتحصي حركاتي وتمارس الحسد أيضا، ومهما حاولت أن أراوغ من حسد

العيون كانت العيون تطل وتحاصرني ، إنهم ينتشرون كما تعرفون في كافة الموانئ ، يكتفون بالجلوس على الشواطئ ، ويتابعون المتحمسين من رجال البحر الراغبين في استلاب أي شيء مما يخفيه في جوفه ، يمارسون الحسد والكراهية حتى عندما يحصل صياد صغير على بعض الأسماك من جوف البحر ، وأبدا لا يغامر الواحد منهم بالنزول إليه لخوفهم من الغرق ولو في شبر ماء ، وحتى عندما كنت أترك لهم الموانئ وأتخفى في المدن والنجوع كنت أجدهم ينتشرون في أطراف الشوارع والأزقة ويتسللون إلى البيوت ويحسنون اختيار المخابئ ، وعندما يظهرون يفرضون على العالم احتمال نزواتهم بدعوى العجز والمرض، يتشعبون في كل الأرض ، يحتلون الصفوف الأولى للمصلين في المساجد والكنائس وأركان الحانات ومنحنيات الطرق والأرصفة، إنهم باختصار يحتلون كافة الأماكن ، يكتفون بالتحديق الصامت إلى الآخرين في وهن وطيبة مصنوعين، ويبرعون في ابتكار الوسائل لاغتصاب الغرف المشمسة الفسيحة والفراش المريح الناعم ، ولقد ظلوا يحسبون السنوات والأيام التي يمكن أن أعيشها في صبر حائم انتظارا لظهور إمارات

العجز وبياض شعر الرأس ، وعندما بانت الإمارات طالبوني بأن أطاوعهم وأكتفي بتكرار تاريخي الطويل على مسامعكم قائلين أنه مليء بالأشياء الغريبة وأنواع الحيتـان وأسـماك القرش وكلاب البحر ، وهم يحسبونها وسيلة مثمرة تسـوغ انبهاركم بي وبقائي بينكم مطمئنا متخاذلا ومرتاحا ، وبالقطع أتواني وأمارس نظرة الحسد مثلهم وأقول الأمثـال الكفيلـة بتثبيط الهمم ، ولقد ظلوا يؤكدون ضمانهم إسـعادي علـى حسابهم حتى لو أمسكت بعدها عن الكلام واكتفيت بـالتلميح إلى ما أطلبه منكم ولو كان عسيرا ، بل أنهم أوصوني بـالا أهتم بمساعدتكم على إزجاء ساعات الفراغ الطويلة حتـى ، ولأنكم سوف تجدون أنفسكم مجبرين على تقديم كل ما أريده دون مناقشة وإلا فسوف ألوح لكم باتهامي إيـاكم بـالعقوق والجحود ونكران الجميل ، وسوف يتملقونهم في شبه مجلس يدين سلوككم المشين قبل أن أتعب نفسي رسميا بالشـكاية ، لديهم بالقطع وسائل الإقناع والمناورة والوصايا عن ضرورة تقديم آيات الولاء والطاعة وتقبيل أيادي الكبار في الصـباح والمساء إمعانا في التعبير عن الخضوع ، هكذا إذن تـرون أنني أتخلى عن تلك المزايا المكتسبة بحكـم كـوني رجـلا

عجوزا ، فقط أطلب منكم أن تهتموا بما سوف أطرحه عليكم وأن تصموا آذانكم مرة واحدة عن سماع الكهــول الخـــرفين الذين يتسللون إليكم بدعوى القرابة أحيانا فيأمرون وينهون أو بدعوى غربتهم ووحدتهم واستحقاقهم للرعاية بينما يطالبونكم بعمل الخير ورميه في البحر ، لكـــنهم علـــى أي الحـــالين يسخرون من حسن نواياكم وطيبة قلـــوبكم الشـــابة ، وقـــد يظهرون لكم الحب عندما يتحدثون عن رغبتهم في تزويجكم قبل موتهم ليفرحوا بكم ويزداد اطمئنانهم عليكم ، لكن هـــل فكر أحد منهم في تزويج أي واحد منكم واحدة من عـــرائس البحر ؟ إنكم بالقطع لا تعرفون أنهم لم يطرحوا الفكرة أبـــدا خوفا على البحر من أن تتسرب أسراره إلـــيكم مـــن خـــلال عرائسه ، إنهم يحرصون مثل البحر على عرائس البحـــر ، وسوف أحدثكم بنفسي عن واحدة من عرائس البحر.

عروس البحر:

استلبها البحر مني فلم أركن لضياعها ، جعلت أدور متخبطا في جنباته لأتأكد في الختام من استحالة إعادتها بغير ضربه وإخراج ما ظل ما يخفيه في أحشـــائه علـــى امتـــداد العصور ، لقد دأب البحر على الاغتصاب ، يغتصب الأشياء

النادرة ويحتفظ لنفسه بها ، يخفيها في جوفه ويجند الدوامات والأمواج والعواصف لحراسة ما يداريه خلف ستار السطح الساكن ، وفي الأعماق حيث حبات اللؤلؤ الثمين وأحجار الماس النادر ، حبس البحر محبوبتي التي ابتلعها وأحاطها بطوابير الحيتان وجموع الأخطبوط وأسماك القرش والوحوش البحرية المرعبة ، وتأكدوا من شيء أعرفه وأبوح لكم به لأول مرة ، كل عرائس البحر أسرى ، كن يعشن في أمان على الأرض ملكات أو أميرات أو عذاري طاهرات يتميزن بالجمال الخارق فطمع فيهن البحر ، ولقد اكتشفت ذلك بنفسي يوم اختطف البحر محبوبتي وضمها إلى طوابير أسراه من العرائس ، من يومها لم يبق لي غير الجلوس إلى الشاطئ ، أسترجع الملامح النادرة وأتسمع شهقاتها المحزونة دون أن أقدر على اقتحامه ، أعرف أنه لا يكف عن إظهار رغبته النهمة في ممارسة الحب معها بينما تتأبى عليه وتطلق الصراخات المستجيرة ، ولو أنه في الإمكان وصف " ضحى " لما تراجعت عن وصفها ، لكنه يبدو عسيرا على عجوز مثلي أن يصف وجهها الرائع القسمات.

وماذا تهم الملامح بالنسبة لكم ، الذي يهم هو ما كنت أحسه في داخل الداخل متجاوزا كل الصفات ، كانت محبوبتي وهذا يكفي ، سوف تسألون من أين جاءت ، ربما من امتزاج قطرات الدم والعرق بحبات الرمال العطشى ، من انصهار مكونات البراكين لحظة التفجر عبر فوهاتها منطلقة في صخب إلى مسالك العالم ، وربما من ضربات حراب العواصف البدائية في صدور الجبال الصماء المنصوبة كهياكل العظام في تصورات الأذهان المرعوشة بالمخاوف ، أو من تغلغل الشعاع المتوهج في عتمه الكهوف المهجورة، من كل ذلك ربما جاءت وتشكل طيفها في ثوب العرس قبالتي ، فرحت أتلمسها غير مصدق لدرجة أنني كنت أدق الأشياء حولي بالكفين والقدمين والدماغ مرتبكا بنشوة لحظة العثور الخرافية وأتأكد من صحوي ، لحظة شروق المستحيل خلال حلكة ليل معتم بعيد الفجر ، لحظة ميلاد الضحكة المنشرحة المفلوتة من أسوار سجن الكآبة وانحدار دمعة الفرح بالوصول إلى شاطئ الوجود الآخر ، وهل أستطيع أن أصف لكم تلك اللحظة التي انفصلت عن الزمان بأسره ؟ ذلك الزمان غير المحسوب ، زمان الاحتواء

المستميت ، زمان النشوة أثر عبور مسالك متاهات الغابــات الخرافية صعودا إلى قمة اللامكان فوق كل مكــان ، نشــوة النفاذ من حوائط ، صلب الصعاب إلى مداخل الشــمس ، أو هي نشوة البحار العجوز المحنك عندما يفلح في قهر البحــر ويطل في ثقة إلى أمواجه يطمئن إلى عجزها عن الوصــول إلى سطح مركبته ، لكنه لا جدوى من محاولة التذكر ، ولعله من الأفضل أن يتناسى كل شيء ، شيء واحد أعجــز عــن نسيانه وأنتفض لمجرد التفكير فيه هو أنها ضاعت ، كيــف ضاعت ؟ كيف سمح البحر لنفسه بابتلاعها ، أســأل البحــر العنيد المتجبر فيكتفي بالهدير الصاخب غيــر راغــب فــي إعادتها أو البوح بسر اختطافها عروس عرائس البحر تاهت ، غاصت في أعماق رهيبة وظللت وحــدى عنــد الشــاطئ أتسمع شهقاتها المستجيرة تختنق بزمجراته المهددة إيــاي أن اقترب أو بحث بالأمر لإنسان ، وصوتها يطالبني باستعادتها بينما يزداد إحساسي بالعجز والهزال وعدم القدرة ليس بسبب تهديدات البحر أو الرعب الذي يشيعه من حولي ودعواه بأنه قادر ولا يمكن لقوة بشرية أن تغلبه وإنما أيضا لأنني أتذكر ما كان من فرس البحر قبل ذلك الزمان الذي عشته أســعى

في طريق عروس البحر ، كانت فرس البحر زماني الآخـــر ويلزم أن أحدثكم عنه وعنها..

فرس البحر :

راهنت عليها قبل الرهان الأخيـــر ، وهـــي مهـــرة عجيبة ، ظللت أبحث عنها في كل حلبات الســـباق برغبـــة الرهان مضمون النتائج لكنها خذلتني بسبب البحر، خـــذلتني لحظة الاطمئنان الكامل إلى ضمان الفوز ، سقطت عند خط النهاية (كنت معتادا على كبوة الجواد الذي أراهن عليه قبـــل نهاية الشوط الحاسم – وكنت أيضا أراهن على مهرة عربية أصيلة ويخيب ظني) أدفع بحماس مقـــامر محتـــرف بعـــد اختيار أفضل مهرات الحلبة وكثيرا ما كنـــت أمنـــى نفســـي بالعثور عليها في أي من حلبات السباق التي أرتادها ، ورغم فوزي المتكرر إلا أنني أشعر بالخيبة لأنني لم أكن قد عثرت على مهرتي المأمولة " ضحى " تلك المهرة التي خرجت من البحر خلسة لتقطع العالم طـــولا وعرضـــا غيـــر هيابـــة أو متخاذلة ، شفتها بنفسي بينما تخرج منه ، كنت عند الشاطئ فرحت أرمح في أثرها برعب أن تتوه منى في أدغال العالم ، ظللت ألهث في أثرها بينما ترمح بلا توقف حتـــى غابـــت

عني ، بعدها احترفت البحث عنها في كــل الحلبــات وقــد تتشابه المهرات أحيانا لأنني كنت أتوهم العثور عليها وأراهن ، كانت المهرة التي أختارها تزاحم رؤوس الخيل في البداية ، تمرق كسهم مدفوع بيد مدربة إلى غايتها ، وكلما ازدادت المسافة اتساعا بين ذيل المهرة وذيل الحصان التالي يتأكــد لدي أنها هي هي " ضحى " ، ولكنها وحتى في المرات التي كان احتمال اللحاق بها لا يزيد على واحد مــن ألــف ألــف احتمال كان الشيء نفسه يتكرر ، كنــت أعــايش إحساســا بحصار عيون الكهول المغلولة والبحر يطل أيضا حتى ولــو كنا بعيدا عن شطآنه ، أحس بوادر الخطر ، تتلكــأ المهــرة التي راهنت عليها ثم تحرن على غير توقع وتتــيح لــرأس الفرس التالي أن يقترب أكثر ، وعندما تتسمع هي خبطــات سنابكه تقترب تتعثر ، يسقط " الجوكي " فوق خــط النهايــة مصابا برضوض وربما كسور مميتة ، وقد كنت أرثي حال هؤلاء " الجوكية " الشجعان الذي كنت أقــرأ فــي أغــوار عيونهم رعب المواجهة العاجز عن تحاشي الضربة الحتمية ، ولقد ناقشت الأمر مع نفسي مرارا وطرحت فكرة تراجعي عن البحث المتواصل المحموم عنها ، لكنه كان من المستحيل

أن أتراجع ، وهل يستطيع المرء أن يتراجع عند منزلق السقوط في هاوية المصير المحتوم ؟ أن يخرج مثلا من لعبة عمره دون الإمساك بخيط البدايات المرغوب؟ وماذا لو كانت اللعبة قد أصبحت تتخلل قطرات الدم نفسها وكريات الدم قد تحولت إلى مهرات متعجلة تتسابق في حلبة الشرايين والأوردة وتركن في جنبات القلب مع " ضحى"..

ولقد حدث مرة أن رأيتها بالفعل بينما كنت أجلس وسط جمع من الرجال في حلبة من حلبات السباق ، كنت يومها أكتفي بالتأمل دون المراهنة لكنها فازت بالروعة التي أتصورها فرحت أتراقص بغبطة العثور بعد عناء البحث ، أمسكت بطرف الخيط ساعتها ولم أراهن خوفا عليها من السقوط أو الفرار إلى البحر ولكي أحسب لكل ما يجري بعيدا عن الحلبة حسابه وأثره في قوانين اللعبة ، كانت لعبة العمر كله وكان علي أن أفيد من خبرة سنوات الاحتراف لتقصي كل ما يستتبع حدوثه من تعديل أو تبديل في نتائج السباق مهما كان طفيفا ، ولقد تأكدت بعد طول التأمل أنها هي بنفسها " ضحى " فلم أراهن عليها رغم خسارتي ودوام فوزها لأتأكد ، ويوم راهنت بكل ما تبقى لي عليها ظلت

ترمح وترمح وتدع خلفها فاصلا فسيحا يصعب تعويضه على الحصان التالي.

كانوا يمارسون الحسد لأنني فزت رغم إدراكهم قدر ما كنت أعاني من شقاء في سبيل اللحظة ، لكن الكهول يملكون دائما الحق في الحسد ، وهكذا وعلى غير توقع انحرفت " ضحى " عند خط النهاية ناحية البحر ، انحرفت وسط دهشة الكل وبينها وبين خط النهاية شعرة أو جزء من شعرة في خطوات أسيرة مكرهة ، بدت لي ضريرا مشدودا بحبل خفي لا يرحم ، كنت أسمع صوت البحر يناديها وكنت أصرخ مناديا في هلع " ضحى... يا ضحى " حتى بح صوتي ، كرهت البحر الذي جرني في أثرها إلى تلك الحلبة قريبا من شاطئه وفي متناول يده يشير إليها فتذعن بالذهاب ، ولما تأكدت كلاب البحر " كل كلاب البحر تعمل عيونا للبحر " من أنني راهنت قادها البحر إليه من مقودها فسارت مستسلمة وعاجزة عن إكمال الخطوة الأخيرة ، وغاصت بينما أراها في قاع البحر ، ققز " الجوكي " خوفا على روحه من عسف البحر ، ظللت أصرخ دون جدوى ولكن الرجال الكبار كانوا يرقبون الأمر في شماتة وغبطة رغم الرعب من

أن أفضحهم وأفضح البحر بانفعـال اللحظـة... أسـرعوا يهتفون : مجنون... مجنون ، تبعهم الآخـرون بـل إنهـم حاصروني عند باب الخروج وألبسوني قميصا عجيبـا لـه أكمام طويلة أجادوا لفها حول بدني كحزام متين فأبطلوا بذلك حركة اليدين، وتصلب اللسان في الحلق ، صـلبت عـودي وسرت كرجل محترم وبحار شريف ومـراهن خسـران لا يهوي إثارة الشغب وتنحصر رغباته في أن يكسب ، يكسب سباق عمره دون خدعة ، وعفوا... لأنني انهمكت في سـرد بعض التفاصيل عن مهرة حمقاء جـذبها البحـر وأخفاهـا وجعلني أنهزم وأنسحب مربوطا بقميص غريب مـن حلبـة السابق ، مكتفيا بعد الخروج بالذهاب إلى الشواطئ واستراق السمع لأتمزق مع كل صرخة تطلقها وأهم بالغوص ناسـيا ذراعي الضائعة ودونما حساب لأنفاسي المتقطعـة التـي لا تتيح لي المقدرة على الغوص الطويل المدى بحثا عن سجن " ضحى " ، وكلما ارتفع فوق سطح البحر وحش أو كلب بحر تذكرت نظرات الحسد التي كانت تطاردني أيـام الصـبا ، لحظتها أتخوف من الاندفاع في محاولة جديدة لضرب البحر دون أن أوضح لكم ما أعرفه عن سر البحر..

سر البحر :

يحرصون على الاحتفاظ بسره ومحاولـــة إيهـــامكم بمقدرته على قهركم وابتلاعكم وقتما شاء ، يحسنون كتمـــان سره في صدروهم حتى في اللحظات التي يواجهـــون فيهـــا شبح الموت ، يظلون على حرصهم على عدم البوح ، وهـــو الآخر يدأب على الاحتفاظ بأسراره ويضن علـــيكم بأخبـــار الضائعين في أعماقه ممن تحبون ، ولقد حاول الرجال الكبار تخويفي من عنفوانه وقسوته أيـــام طفـــولتي ، حـــاولوا أن يزرعوا بذور الرعب في صدري فنفضتها عني فـــي عنـــاد ممعن في التهور ونزلت إلى البحر، وقد تعرضـــت مـــرارا للموت بينما أحاول ركوبه ، ورغم أنه كان بحـــرا صـــغيرا وديعا في مظهره إلا أنه لم يكن يختلف عن كل بحار العالم ، كان يتربص ويتآمر ويمعن في محاولات ابتلاعي وهضمي ، كان رائعا أيامها أن أفلح في ركوبه وعبوره إلـــى الشـــاطئ الآخر ، كان يكفي أن أنجح في عبور بحر لا يزيد اتســـاعه عن بضعة أمتار قليلة ، ولقد تمكنت من التخفي في كل مرة أنتوي فيها ركوب سطحه ، كنت أتلصص بنظراتي متوجسا خيفة أن يلمحني أي من الرجال الكبار ، وكان البحر قد أفلح

في ابتلاع أحد الصبية مـــن القريـــة فارتفعـــت الصـــرخات النسائية المفجوعة وتزايدت وصايا الرجـــال لكـــل الصـــبية تحذرهم من الاقتراب حتى الأمسيات المقمرة ، أركبه بحماس وثقة وأسأله عن الصبي الذي ابتلعه وأحيانـــا أغـــوص فـــي جوفه مفتوح العينين بحثا عن وجه الصبي الذي كنت أحبـــه لأنه كان شجاعا ودائبا على اقتحام البحر سرا ، بل إنه كـــان في الواقع معلمي الأول لكيفية ركوب البحر ولكـــن البحـــر جعل يوشوش أعماقه ذات مساء مدبرا أمرا ، وعندما فكرت في دوامة صغيرة فسقطت في أسر شباك النباتـــات الكثيفـــة المتداخلة التي تغطي أرضيته الطينيـــة الرخـــوة ، خلصـــت أطرافي من أصابع النباتات الحية ، وارتفعت بالإصرار إلى السطح مرة أخرى ، بعدها بأيام أشاعوا أنهم عثـــروا علـــى جثمان الصبي في قرية مجاورة فلم أصدق وظللت أبحث عنه قائلا لنفسي : إن البحر ليس معتوهـــا لـــيلفظ مـــا ســـبق أن اغتصبه عنوة وأنه قادر على هضم الصبي أو تقديمـــه إلـــى أسماكه الشرهة والتي تتفنن في أخذ لقيمات الخبز وقـــرض " الطعم " من شصاص الصيد دون أن تتيح لنا فرصة صيدها من البحر برغبة شيها والفخر بقدرتنا على الحصول عليها ،

كنت أكذبهم حينما يشرعون في خداعنا وإلقاء اللوم علينا لأننا نفكر في ركوب البحر موضحين أنه يقدر على إغراق القرية بأسرها إذا أراد ، وأنه من الواجب أن نطاوعهم بالابتعاد عنه.

ذات مرة سألت أبي العجوز عن السر الذي جعله يدع كل هذه المسافة بين رأس الحقل وشاطئ البحر دون زرع ضحك مني ، وأفهمني أنه لا يجوز لنا زراعة الشاطئ حتى نتجنب غضب البحر وكي لا يعمل على ابتلاعي كما حدث للصبي الآخر ، يومها ضحكت سخرية من سخف الفكرة وألقيت بنفسي في البحر ورحت أجدف بملابسي لأعبره وعندما عدت إلى الدار أمسكني الرجل وظل يضربني بعنف وقسوة مغلولا ، هجرت القرية إلى مدينة البحر الكبير وهناك تضاعفت رغبتي في ركوب السطح الأكثر اتساعا، ومهما قلت لكم عن فرحتي في كل مرة أتمكن فيها من صلف البحر وغروره ، مهما قلت لكم عن وصولي إلى الشواطئ البعيدة التي تصعب رؤيتها بالعين المجردة وعن الجوائز التي كنت أحصل عليها والرقصات البدائية الجذلة عند الشواطئ فإن ذلك لا يعادل بأي مقياس متعة

الغزو المطمئن التي كنت أحسها عندما كنت أضرب البحر بعنف وأحس القدرة غير المحدودة على السيطرة عليه ، أن يطمئن الإنسان إلى قدرته على قهر كائن خرافي مثل البحر ويسخر من دواماته الدائبة الجذب إلى الأعماق المعتمة ، أن يكتفي المرء بالنظر إليه في كبرياء وشموخ فيكف هو ويستسلم للضربات المحمومة الحاسمة ، كان الغزو المطمئن يكفي... وبتكرار الجولات عرفت سر البحر... إنه يتخير الضعفاء من الرجال الذين يخطون نحو شواطئه ورعشة الخوف تفضحهم ، يكتفي بابتلاع الجبناء والعجزة والمتهورين الحمقى الراغبين في قهره دون وعي أو إدراك لخطورة أمواجه ووحشية دواماته ، ولقد أفهموني قبلا أنه لا معنى لكراهية البحر مادام يسمح لنا بركوبه وعبوره واستخدامه على ظهور البوارج والغواصات وناقلات الزيت وبعض السفن الشراعية أو القوارب البخارية ، لكنها خدعة مكشوفة ، أنتم تتوهمون أنكم تركبون البحر بينما هو الذي يركبكم... فقط أمعنوا النظر واستعيدوا ما حدث عند البدء، كيف اغتصب لنفسه من أجدادكم الأقدمين حيزا فسيحا من براح العالم وحرمهم من الانتشار الطليق في كل الأرض ،

بمعني آخر... أنه يركب أرضكم ولا يكـف عـن اسـتلاب المزيد ويضيفه إلى نفسه ، ينـاور بمـده وجـزره وتدفقـه وانحساره ، بشلالاته وبحيراته ونهيراته وسيوله ، ينـاوركم ويحاصركم في أشلاء العالم الممزق ، يتربص بكم ويتحـين الفرص لعزل كل منكم عن الآخر ويحول دون اجتماعكم أو حتى إمكانية اجتماعكم بينما هو قائم دوما عقبة يصعب معها وصول الواحد منكم للآخر إلا بشق الأنفـس وبعـد فـوات الأوان ، وماذا لو رحت أعدد لكم الآلاف ممن ابتلعوا البحر ؟ أعداد غفيرة يصعب تبيانها وحصرها ممن رغبوا في قهره أو حتى الابتعاد عن شره ، أنتم تـذكرون حكايـة الحـوت الشهير الذي ابتلع يونس وظل حتى هذه اللحظة يدور طليقـا به في بحار العالم..

ولقد شاهدت حوتا آخر صورته السينما الأمريكيـة وهي بارعة في عمل الأفلام المرعبة ، كان الحوت قد ابتلع ساق البحار العنيد الباحث عن زيت الحوت ، ظـل الحـوت يطارد الرجل وليس العكس كما حاولت السينما أن توضح أن الحوت المسكين ظل يفر من البحار الراغب فـي اصـطياده وعصر كبده لإخراج الزيت...

لقد أفلح الحوت في ابتلاع الرجل نفسه ، ليس دفاعا عن النفس طبعا كما حاول الفيلم أن يقول وإنما إمعانـــا فـــي السخرية من البحار الذي قال مرة وهو في شدة الانفعال " لو اعتدت عليَّ الشمس لصعدت إليها وأخذت ثأري " وأنا أقول لكم أنه من غير المناسب أن تسمحوا للبحر أن يستمر ســيدا للعالم ، وعليكم إذن أن تنفضوا سكوتكم وسكونكم إزاء صلفه وسخف عواصفه وأنوائه وضراوة دواماته وأن تتحركوا في مواجهة غدر وحوشه المتخمة بأبـــدان وأطـــراف الرجـــال والصبية والأطفال ، أن تستعيدوا الأرض الساكنة تحت وطأة أقدامه والتي تستصرخ الهمم.

ولديَّ خطة مدروسة لضرب البحر... خطة محسوبة لقهره واستعادة ذراعي الضائعة والتي مضغها إخطبـــوط... لست راغبا في شيء من الماس أو حبات اللؤلـــؤ النـــادر أو الأصداف الغريبة ولا حتـــى الأرض ، فقـــط أن تســـتعيدوا حكمتكم إزاء البحر... لو أنكم عقدتم العزم فعلا على ضربه بشيء من الحماس الصادق لانهزم وانكمش إلى أقـــل حيـــز ممكن ، لقد فعلها موسى وحده ، بدأ بأن سب الفرعون وفـــر ناحية البحر الذي انفتح عن طريق عـــريض لرجالـــه ، لـــم

يجرؤ على الامتزاج إلا بعد أن داست جيوش الفرعــون ـــ الذي كان يطارد الرجل المتمرد ـــ المرعوبة أرضه ، (ذكر أحد المتحمسين أنه عثر على بردية سرية تحتوي على نص اتفاق بين الفرعون والبحر لكنه أخل بشــروطها كمــا هــو معهود فيه من صفات الغدر ولست أميل إلى تصديق حــرف منها)..

لقد خاف البحر مرة وانزاح ، أســفر عــن وجهــه الرعديد مرة بفعل ضربة وحيدة من عصا موسى ، إنه ليس بمثل القوة التي يحاول الكبار تصويرها ، ربما يخشاكم الآن ولا يفصح ، يعمد إلى تغليف وجهــه بالصــرامة والحــزم والغموض كوسائل عتيقة لإيهامكم بقوته ، ومهما كان هديره أو صخبه ومحاولاته الظهور بمظهر المتجبر فإنه بالقطع أقل قوة مما تتصورون وهو يخشى في هذه اللحظــات اكتشــاف سره المفضوح ويحاول بالعويل والهــدير الــذي يتتــابع أن يغطي على صوتي الشاحب الرنين..

في شهور الصيف تذهبون إلى الشواطئ وتتمرغون في مياه البدايات دون الجرأة على الدخول أكثــر ، يتغنــى الشعراء السذج بجمال البحر وانفتاحه ، وغمــوض مياهــه،

يتناسون مخاوف الأطفال من النزول إليـــه تنفيـــذا لنصـــائح الكبار المعادة ، إنهم يتخوفون من ابتلاعهم فيكتفون بـالعبـــث برمال الشواطئ تنفيذا للوصايا ، وإذا حدث وتقدم إلى الداخل طفل يبتلعه البحر أو يبتلعه الخوف ، البحر يضـــحك كلمـــا أمعنتم في تدليله ومجاملته بينما يســـتحق أن تشـــرعوا فـــي ضربه بكافة الأشياء ، العصى والفؤوس والحراب والنبـــال والمدافع وقنابل الطائرات وبكل ما يمكن أن يصل إلى الأيدي من أدوات الضرب ، لو أنكم أفلحتم في بناء الآلاف والآلاف من البوارج الضخمة أو السفن الكبيـــرة أو حتـــى القـــوارب وبدأتم باحتلال الشواطئ لانحسر وانزاح قليلا إلـــى الـــداخل تحت الثقل حتى ولو كانت مراكبكم تستخدم المجاديف ، إنني أعرف أن البحر سوف يحاول إرعابكم بإطلاق كلابه الشرهة أو جواسيسه تتبعها أسماك القرش لتخـــيفكم أولا ، وإذا لـــزم الأمر تشرع وحوشه في نهش لحمكم البشري ، هناك بالطبع طوابير الحيتان تتخفى في الداخل ويقودها حـــوت يـــونس ، لاشك أن هناك مئات ومئات من أمثال يـــونس فـــي بطـــون الحيتان التي تختفي في البحر ، تحتمي به ، وعلـــيكم إذن أن تكونوا صادقين وجادين في ضرب البحـــر ، ودون خشـــية

الوحوش أو الحيتان التي تحتمي بالحبر ، ومهما تراجعت خطاكم إذا رأيتم جحافل الإخطبوط فإنها لن تدعكم حتى لو هربتم إلى الشواطئ ، إنها لعبة البقاء أو النهاية وعليكم إذن أن تعقدوا العزم بحزم وإصرار قبل البداية ومهما ارتسمت على ملامح الجبناء منكم من إمارات الذعر والخشية والاستسلام ومحاولة الظهور بمظهر الودعاء فإن البحر سيتدبر أمرهم أيضا ، ربما يقضي عليهم أولا ، إنه يمارس كل أموره في خبث ودهاء ويكره الجبناء والمتخاذلين أكثر من الشجعان والمتحمسين وعنده العواصف والدوامات والوحوش تلبد في جوفه وتنتظر منه الإشارة دون أن تمل الانتظار أو تضيق به...

هل عقدتم العزم معي على ضرب البحر ، صدقوني أنها معركة رابحة، هناك أكداس وأكداس من اللآلئ وأحجار الماس والمعادن النادرة وبراح الأرض البكر المحشوة بالخامات الشحيحة ، سيكون لكم كل شيء مباح لو استطعتم ضرب البحر، فقط كونوا أقوياء، ودبروا أموركم معي وأنا على كل حال لا أطمع في غير الصبي الذي ابتلعه البحر قديما وذراعي التي مضغها إخطبوط وأرغب بالطبع في

استعادة مهرتي العجيبة التي خدعها وأغراها بسكني جوفه وعليكم أيضا أن تبحثوا معي وسط عرائس البحر التي سوف تؤول إليكم عن وجه " ضحى " الرائع القسمات ، محبوبتي " ضحى " ذلك الوجه الغريب الذي سوف يتأكد لديكم كم هو رائع بحيث استحال عليَّ وصفه ، أسألكم سؤالي الأخير وأطلب منكم الجواب....

هل آن الأوان لتحلوا حزام الأكمال عني ، إنه يلتف حولي ويشل حركتي ، يمنعني من البوح بأسرار البحر ، بكل أسرار البحر وكل شيء في عالمكم يشبه البحر، إنني أكره الرجال الكبار ، أبعدوني عنهم لأخلص من سخافاتهم ونظرات الحسد المتأنق تدعوني للتكاسل والركون حيث أنا دون أن أفكر في الحديث إليكم عن سر البحر.. ويضيقون بنغمة التحريض التي اخترتها لأجعلكم تشرعون في ضرب البحر...

مجلة المجلة ــ أغسطس ١٩٧١

أزهار السنط العريانة

السنط :

في بداية الأمر حاولت أن أبدو هادئــا.. أن أطـــرح مخاوفي وأتشاغل عنها بالثرثرة غيــر المثمــرة ، لمجــرد الرغبة في النفاذ من دوائر الصمت.. لكنني في كل مرة كنت أسأل نفسي عن جدوي الكلمات الصدئة... أتمثل محبــوبتي التي أراها في كابوس المساء مشلولة الأطراف... ترعبنــي في حدقتي عينيها نظراتها المشدوهة الخرساء وأناتها الوجلة ، وعندما يتسلل الإشفاق عليها إلى داخلي أتناســى إدراكــي بأنها زرع بلا ثمرة.. أود لو أحتويها.. أن أبعث في جسدها المتجمد بجليد الأمس تيارات الدفء، أعادوا ريها بقطــرات الإصرار الراغب حالمــا بمولــدها وأســألها عــن طفلنــا المأمول... فتذكرني للمرة الألف أنها زرعت مكان أشــجار السنط الشحيحة الظلال نبات الصبار الوحشــي... وعنــدما أزداد بها التصاقا قانعا بالانتظار إلى حين، تمنيني باحتمــال أن يهل علينا في فجر قريب..

رأيتها في منامي تلفظ مع اللعاب رعبها الدائم، تخلع ثياب العجز عن صدرها الناهد، تثبت حزام عفتها تحت قميصها المحبوك... رأيتها حورية في ثبات العيد تهدهد طفلها وتلثم بالرجاء جبينه الفضي، وعندما سألت زميلي عن تفسير الرؤيا هز الرأس، قال إنه عرف في صباه أرملة جميلة، جاءت من ضمير الغيب، لا يدري متى جاءت، لكنها وهبت نفسها للكل دون مساومة.

وفي صباح السبت التالي راح أحدهم يحدثني في زحام الترام بلا مقدمات عن صيد أمسه، يسخر من وجهها المدهون بالأصباغ والإرهاق، من رأسها المنهك وصدرها الهادئ الأنفاس، ولما كنت لا أرغب في سماع حكايته الماجنة عن امرأة لا أعرفها غادرت الترام عند المنحنى.

على بعد خطوات طالعت لافتة تحذر من البصق فبصقت.. كانت اللافتة موضوعة في مكان مقزز.. جدار قديم منشع ومتآكل تعيش العناكب في أكثر تجاويفه، وأسفله " مبولة " غير قانونية لكنها قائمة كواقع لا يقبل الجدل... ومزبلة تتوسطها بقايا كلب متعفن يمتصها الذباب.. وكنت لا

أملك غير بصقة وحرصت أن تصل إلى منتصـــف اللافتـــة تماما.

كنت أحس بالدوار والموت فأخرجت لفافة وأشعلتها، رحت أمتص دخانها في محاولات عقيمة لإخراج الصـــورة المقززة من أعماق الرأس.. عندما أيقنـــت مـــن لا جـــدوى الأنفاس ألقيت باللفافة أرضا.. وشرعت في مناقشة المســـألة من بدايتها في حياد تام هادفا إلى الوصول إلى بعض الأسس التي استندت إليها أصلا... تـــذكرت البدايـــة أو مـــا يشـــبه البداية... تأكد لدي أنني كنت أتخوف من تقليد الصبية الكبار في المدرسة الثانوية بتـــدخين اللفافـــات ســـرا فـــي دورات المياه... وأنني عندما كبرت وفكرت في الشراء، تراجعـــت أولا.. ويوم أزحت التراجع بخطوات الأقدام ودفعـــت ثمنـــا لعلبة اللفافات الأولى كنت أتردد في إخراج اللفافة التي يحل عليها الدور قبل أن أزرعها في ركن فمي.. وكثيرا ما كنت أتلكأ في البحث عن علبة الثقاب أو حملها لأفوت على نفسي مهمة التدخين الشاقة.. غير أن المسألة لم تخرج مـــن حيـــز التعطيل إلى حين.. حتى كدت أن أصدق ضـــرورتها تمامـــا مثل مشواري اليومي إلى مكتبي بالشركة التي أعمل بهـــا..

وفي إحدى المرات وكنت قد أفلحت في إقناع نفسي بفساد علبة الثقاب التي كنت أملكها... وبسخف تعطيل نفسي لاستجداء أو شراء واحدة... حدثت نفسي قائلا :

" إنني متعجل كما نرى.. وأنا مطالب بالذهاب إلى مكان ما في وقت ما.. وأي انحراف عن خط السير من أجل الحصول على أعواد الثقاب يعني هوسا لا يمكن احتماله ".

ولم أكد أهم بإخراج اللفافة غير المشتعلة من ركن فمي حتى أسرع أحد المارة متطوعا بإشعال طرفها من لهب ولاعته، وعندما تأكد لدي أنني أضيق بأنفاسها عديمة الطعم، رحت أبحث عن الرجل لأركله في بطنه لأنه سمح لنفسه بالتدخل في أمور لا تخصه..

عندما ناقشت الأمر مع زميل لا تفارق اللفافة ركن فمه... أكد لي أنه لا يستمتع بغير الأنفاس الثلاثة الأولى من لفافة الصباح.. وأحسست بأنني أحسده.. فالملاحظ في حالتي أنني أرفض الفكرة من أساسها وإن كنت أمتصها وأتشممها ثم أزفرها حانقا لإحساس بمرارة الممارسة ، كنت أقرأ على

وجه صاحبي علامة استفهام وتعجب متقاطعة شــملت كــل أركانه فقلت له موضحا :

- إنني أحسها قيدا جديدا... وممارستي للتدخين تأخذ شكلا آليا بغير رغبة، ولست أعرف في الحقيقة شــيئا عــن المحصلة الختامية لكل هذه الحركات المتماثلة.

وبدا جليا أن زميلي لم يفهم ما كنت أعنيه فقد امتدت إليَّ يمينه بلفافة على سبيل التحية والحفاوة بمقدمي.. وحــين هممت بالرفض كشر غاضبا وأقسم أن أحرقها.

* * *

لو أنها محبوبتي لقالت لي عن سرها المــدفون فــي صندوقها السحري.

محبوبتي التي كنت أمارس معها الحب خفية كانــت تعد في كل مرة.. كنت قد عقدت عليها في الخفاء قرانــي.. خفت أن يعترض أبي ــ وكثيــرا مــا يعتــرض أبــي إزاء رغباتي العديدة ويبصق فوق وجهي مؤنبا موبخــا.. كنــت أعرف أنه يعرف أنها ضاجعت من قبل مولــدي رجــالا لا أعرفهم.. ومن هنا فقد كان احتمال دخوله التجربــة معهــا

بنفسه قائما.. ربما كان يمارس اللعبة حالما بمعاودة العطـــاء الذي انقطع.. كنت قد حذرتها من البوح بسرنا لأبي أو لواحد من رجاله.. وكانت نهي تهمس مستنكرة... ثـــم تحتـــويني بأنامل رقيقة وكلمات عذبة مشجعة لأغوص مرة جديدة فـــي عالمها المسحور ، وأتوقع في كل مرة أن تهمس فـــي دلال الأنثى طالبة مني أن أكون أكثر حرصا على بشارة التكـــوين في بطنها الأملس... لكنها كانت تبدو كبئر عميقـــة شـــبقة لا تشبع.. وكنت أحس أحيانا بالملل والســـأم وأحيانـــا أخـــرى بالرغبة في الامتناع القاطع والرفض.. ثـــم الخـــلاص مـــن المحاولات التي لا تثمر.. فهي لا تخلف عاداتهـــا الشـــهرية أبدا.. وفي لحظات السأم كنت أتوقع دقات كف أبي فوق باب الشقة، فأرتعش حتى في اللحظة التي أحتاج فيها إلى مزيـــد من الصلابة والحماس.. وأتوهم أن السأم نفسه لـــم يكـــن إلا وليدا للتوقع الدائم ولرعشة التراجع عندما أتخيـــل أن هنـــاك صوتا أو طرقا أو حتى أنفاسا غريبة.

رغم أن المسألة كانت تحتاج إلى إصرار لا يعـــرف التراجع ، ومن ثم فأنا مطالب بالتقـــدم دون الالتفـــات إلـــى الوراء أو التوقف أو حتى توقع وصول أبـــي فـــي لحظـــة

العطاء، ومطالب أيضا باكتشاف السبل والمداخل وولوجها دون أدنى تراجع أو رهبة... إلا أنني كنت أجبن في مرات كثيرة... ورحت أستفسر عن منفذ يمنحني الحماس والقدرة على المتابعة ، وقد أوهمني البعض أن في المخدرات خلاصي... كنت أعرف أنه خلاص مريب... لكن لما كانت المشكلة نفسها تبدو محيرة وغير محلولة فقد مارست التجربة وطوفت معها في أفكار جريئة كنت أنسى خلالها أبي.. وعندما أفقت من غفوتي ذات صباح اكتشفت أنني لم أتقدم خطوة إنما تعثرت... ويوم سلمت قيادي مرة أخرى إلى صديق يعاني من نفس الشيء وكانت له خبرات جمة في أسعار الخمور الرديئة.. رحت أعب في جوفي حتى يمتلئ إلى الحافة وأستشعر الدوار والرغبة في أن أتقيأ أو أن أبول في عرض الطريق ظُهْرا... وكانت هي قد قررت أن تهجرني مالم أكف عن تلك الهوايات غير المجدية في نفس اليوم الذي قررت فيه أن أكف من تلقاء نفسي وأن أبحث عن مخرج أكثر أمنا.

العرى :

عندما سألت طبيبي المعالج عن البديل قال متأففا :

" لا تتعبني فلا بديل "

ساعتها تأكد لدى أنه قدري ألا أخلف من بعد أيـــامي الباقية أثرا.. وشاهت على الأثر كل البنايات التـــي شـــيدتها قبلا.. أمست الرغبة عذابا في حالتي الممارســة والامتنــاع ورحت أمضغ صبار عجزي المحتمل مع خطواتي المريـــرة المهمومة... وأتأمل الشفاه الباسمة الوليدة، وأحس ثقل العبء الملقي فوق كاهلي... وأتساءل.. كيف ولدت الحياة من جب الموت... وكيف أفرز الشلل وجودا متحركا مثلي... فأبي هو الآخر أصابه نفس الشيء الذي يتهـــددني... بعـــد أن ألقـــي البذرة الحية في لحظة حظ موفور... بعدها راح يتهم أمـــي ويدافع عن نفسه في محاولات دعوبة لإقناع الكل بمعقوليـــة الادعاء... غير أن أبي كان يملك على الأقل جـــدارا يســـتند إليه وإن كان هش البناء... لكنه كان قائما في انتظار لحظـــة السقوط الحتمي...

البداية كانت سؤالا من صديق عجوز أعزب :

- مازالت تجزم أنك قادر على العطاء ؟

وتسربت قطرات الشك إلى داخلـــي... توقعــت أن يكون ثمة شيء في أعماقي يحول دون ذلك فعلا.. وأن الأيام والسنوات التي لم تثمر تتوافق مع وجود جدار يتفتت ويتهالك داخلي... وفي البداية حاولت أن أهون الأمر وأتغاضى عنه، فرحت أنفي لحظة الشك وأنا أهز الكتفين استخفافا، وأمـــارس الحب عاما جديدا مع محبوبتي التي اخترتها بنفســـي، لكـــن الأيام لم تمض على ما يرام... فقد تـــدفقت أمـــواج الشـــك وراحت تثقب جدار اليقين أكثر من مرة ليصبح احتمالا قائما كإمكانية لحدوث ما كنت أسميه بالمستحيل وأصبحت أعرف أنه الممكن... ورحت أسأل عن مهرب وأبحث عـــن منفـــذ وأطمئن نفسي أحيانا قائلا:

- إنك تتعجل الأمور التي تتطلب الهدوء والتريـــث وعدم الانفعال.

لكن أيام العام الأخير الذي بدأته انقضت ولـــم يـــأت ضجيجه الذي انتظرته مع مخاضـــها الـــوهمي.. وعشـــش الاحتمال الجديد في الجمجمة بأسرها حتـــى أصـــبح حقيقـــة واقعة لا تقبل الجدل وتأكد لدي أنني أعيش أيـــامي الأخيـــرة سدى... وأنه بقيت لي فرصة انتظار الموت ومواجهتـــه أو

البحث عنه.. وكنت أسأل نفسي عن معنى الخوف قبل لحظة المواجهة... مادمت لن أخلف بعد أيامي أثرا...

في مساء الأمس جبنت عن استخدام الشفرة في قطع شريان يدي اليمنى.. خفت أن أتأوه ألما عندما أغيب عن الوعي فأوقظها من نومها العميق... أو أن تجهضها رؤيتي في الصباح جثة فيفسد كل شيء... لأنني أيضا كنت أعتقد أنها أثمرت في واحدة من لحظات السكر الداعر غير المدرك لما يدور حوله.. كل هذه الاحتمالات كانت تتراءى لي رغم صمتها المطمئن القسمات الغامض.. ولما طالعت شهادة ميلادي صدفة، وقمت بعملية الطرح البسيطة، لم ينسجم باقي الطرح مع ظنوني بأنني واحد من أهل الكهف أنتظر لحظة موت طبيعية... وكنت لذلك أعجب من إحساسي بأنني أشيخ وأشيخ، وفي الصباح وأنا أتحرك في خط مسيري المعهود والذي كنت دارسا لكل جزئيات تفاصيله قلت لنفسي :

" لا داعي لإنكار تلك الحقيقة.. فأنا بالفعل دمية... كتلك التي يملكها ابن جاري الطفل.. ففي كل صباح أراه يملأ " الزنبرك " ثم يتركها على بلاط الصالة ويعرف مقدما ــ رغم صغر سنه الواضح ــ خط مسيرها الدائري.. يعرف

بالضبط متى تعود إليه وهو في نفس المكان دون أدنى إرهاق أو متابعة".

وقلت أيضا :

- إنني أريد أن أتخلص ليوم واحد من أثر " الزنبرك " الذي يحركني.

ويبدو أنني كنت محقا في طلبي، فقد احتملت الذهاب المبكر كل صباح إلى الشركة التي أعمل بها.. أقابل نفس الوجوه طوال هذه السنوات.. أوقع في نفس الخانة المخصصة لاسمى دون محاولة أو حتى التفكير في محاولة التوقيع في خانة أخرى.. ثم إنني كنت أجلس في نفس الركن على ذات المكتب وأعبث بنفس الأوراق... وكانت رغبتي الدائمة واللحوحة في ألا أذهب إلى العمل تؤرقني.. تلك الرغبة التي لازمتني لسنوات طويلة كنت أقتلها كل صباح وأستسلم لفعل الزنبرك، يقودني ويدفعني... لكني في صباح ذلك اليوم خرجت عن خط المسير المعتاد وقررت أن أحقق رغبتي قبل أن أموت..

الإنسان الذي انتصر وحطم خط مسيري المعتاد كان يتراقص في داخلي وهو يعبر الصالة الفسيحة عند مدخل المبنى المجمع.. كان يردد.. هنا بديل لم يعرف عنه الطبيب شيئا وسوف يقرأ الخبر ويكتشف جهله في صباح الغد...

محبوبتي التي اخترتها وعقدت عليها أملي كانت في الأيام الأخيرة ساكنة لا ترمش بالعينين كأنما هي تمثال من الشمع... وكأنما وجهها قناع هادئ لا يعرف الانفعال... ولم أكن واثقا تمام الثقة من أنني كنت مخطئا في ظنوني نحوها أو نحو نفسي.. بل إنني كنت ازداد ريبة في وجود خلل ما... لم أتبين مصدره بصفة مؤكدة.. ومن هنا كنت مدفوعا إلى صعود أدوار المبنى المجمع وأنا أصفر لحنا مرحا أثار فضول البعض وحفيظة البعض الآخر.. وفي الطابق الثالث عشر ساد صمت رزين وأنا أرتكز براحتي على حافة السور الحديدية الرطبة ، وأطل من مكاني إلى الدائرة البعيدة ولا أشعر بالدوار كما كنت أتوقع.. فقط أحسست بالارتباك لأنني رأيت بعض الوافدين من بلاد الشمال يعبرون المدخل... خفت أن أسقط فوق رؤوسهم... كان عليَّ أن أناديهم محذرا وطالبا إليهم إفساح مكان مناسب لي.. لكنني تراجعت

وفضلت أن أسقط في صمت واخترت الانتظار قليلا لمناقشة بعض الأمور العاجلة عن احتمال يُتْم طفل مازلت أظن أنه يكمن في بطن محبوبتي...

سخرت من نفسي وأنا أتذكر كيف أتلوى من الألم في المرة الأولى بينما الطبيب نفسه يثرثر ويثرثر مهونا من فداحة الأمر :

- لا تحمل هما فالدنيا على قرن الثور... والثور خبير فلن يسقطها.. فقط لا تفكر واذهب إلى الفراش مبكرا... وحذار من السهر والعربدة... وهناك أيضا " شربة " الملح الإنجليزي.. جربها وسوف ترتاح...

وفي المرة الثانية تشاغل عني ببعض الأبحاث غير المثمرة.. وفي الثالثة أكدت أنه اكتشف أن جرثومة المرض أضاعت كل أمل في النجاة وراح يعنفني ويسخر من إهمالي... ورغم اعترافه بأنه تجاهلني عن عمد أكثر من مرة.. وأنه لم يبتكر بعد علاجا لحالتي.. فقد وصف لي علاجا خرافيا لأنه كان يكابر في كل المواقف الشائكة التي لا يعرف لها حلا... وطوفت باحثا عن العلاج في كل

الصيدليات فلم أجن سوى نظرات مريبة متشككة... وبدا كل شيء أمامي واضحا، وحين واجهته طالبا منه بديلا موجودا قطع الشك باليقين قائلا أنه لا بديل، وتذكرت صباح العيد الذي لم أشارك فيه قط.. كنت أتمثل عملية الخصاء التي تسبقه بشهور طويلة يترهل خلالها خروف العيد.. وكان من عادة أبي أن يتولى العملية بنفسه.. كنت أحس أنه ينتقم بصورة أو بأخرى أثناء إجرائها... فقد كانت تشع من عينيه فرحة شيطانية مبهمة لم أصل إلى تفسيرها أبدا... وكان يعدنا في حماس وفخر بلحم طيب.. كنت أخافه وأشارك الضحية آلامها في سبيل إشباع نهمه.. ولهذا كنت أكره العيد نفسه وأكذب مظاهر الفرح المفتعلة ولا أشاركهم..

عندما رأيته عاودت سؤال نفسي عن جدوى الخوف قبل لحظة المواجهة.

كان يطل من الطابق السابع مهددا بإسقاط نفسه.. حين نظرت إليه من المكان الذي اخترته لنفسي لم أتبينه تماما... كانت مئات العيون تتابعه ويتابعها.. كان يصرخ محتجا لا أدري على أي الأشياء التي تتطلب منه الاحتجاج.. كأنما يفرغ جعبته المكدسة لزمن طال.. أعجبتني شجاعته

في مواجهة الكل مع الموت... وحين أمعنت النظر اكتشفت أن له ذراعا وحيدة يستخدمها في براعة لخلع ثيابه.. خلع القميص والبنطلون والسروال الممزق وتكشف للكل عاريا كما ولدته أمه.. وكانت أصداء كلمات لا أعرف لها مصدرا تتردد :

- لاشك أن له أما تتميز بالقسوة :

لم أتبين سر عجزه عن إلقاء نفسه رغم أنه كان يبذل جهدا واضحا في كل محاولة.. الرجال من حوله يوسعون له الطريق إلى الهوة في حياد تام ودون منعه أو دفعه.. وكان يرمح قبل أن يرتكز على حافة السور بذراعه اليتيمة.. ويبذل جهدا مضنيا في محاولة مخلصة لتجاوزه إلى الهاوية... ويستمد من اندفاعه إلى الأمام بعد أن يرمح بضع خطوات طاقة تعوضه عن الذراع الضائعة لا أدري أين... وحين نزلت إليه اكتشفت سره.. كان الرجل قزما مبتور الساقين إلى ما تحت الركبتين بقليل وكان يستخدم ركبتيه كأقدام بدائية مدورة للمحافظة على توازنه... كانت اللعنات تخرج من فمه للكل لأنهم لا يجسرون على تقديم يد المساعدة إليه لإسقاط بقاياه كما يريد.. اتهمهم بالجبن والنذالة فساد وجوم قبل أن

تتعالى ضحكاتهم الحذرة... وحين فكرت في أنه من الواجب أن أساعده في تحقيق رغبته الأخيرة على الوجـــه الأكمـــل، ممنيا روحي باكتساب ثواب كبير أخير... تـــذكرت مهمتـــي التي جئت من أجلها خوفا من أن أكون قد نسيت، غير أننـــي كنت أتمني لو حملته إلى الطابق الثالث عشر لأقوم بمساعدته في نفس لحظتي.. ثم خجلت من نفسي لأنني سمحت لنفســـي بالتدخل في أمور لا تخصني تماما مثل الرجل الذي أشـــعل لفافتي التي كنت أرفضها من لهب ولاعته... ورحت أصـــعد الدرجات وحدي..

كنت قد قرأت قبلا عن رجل ألقى بنفسه من الطابق الخامس.. قالت الصحيفة الوحيدة التي اهتمت بأمره أنه كان يئن في وهن مستسلم بائس قبل أن تصفعه أرضية المـــدخل وأنه وقد انتفض مرة وحيدة قبل أن يلفظ أنفاسه.. وقد لفـــت نظري يومها إعلان كبير عن نوع من اللفافات المســـتوردة فكرت في أن أجربه من باب العلم بالشيء وخلاصا من فكرة الضجيج المدمرة.. كنت أتخيل صوت ارتطام الصلعة فـــوق بلاط الصالة.. ولحظة الصمت المتعجب وأعجب أيضا مـــن اختيار القزم المبتور الساقين والذراع تلـــك الســـاعة ليلفـــت

الأنظار نحوه طوال هذه المدة.. قلت إنها ستكون بديعة سقطتي.. سوف أتهاوى بينما ينظر البعض من الأدوار الأولى إلى القزم في الطابق السابع والبعض الآخر ينظر من أعلى إلى الطابق الثالث عشر أيضا... لذلك ستكون اللعبة مبتكرة ورائعة، ولو كنت واثقا من أن القزم سوف يسمعني إذن لقلت له مشجعا أنه سيكون بديعا وخرافيا وهو أيضا في لحظة السقوط.. يرفرف بجناحيه كحمامة مذبوحة قبل أن يهمد... تماما كخروف العيد بعد عملية الخصاء الطويلة المدى.. وسألت نفسي : ما جدوى الخوف قبل لحظة المواجهة.

أزهار :

عندما وضعت قدمي اليمنى فوق السور وحملت بعضي فوقه رأيتها.. مشدوهة خرساء كأنما ملامحها مشلولة.. كانت ترقبني من الجانب الآخر بعيون مستنكرة مؤنبة.. كنت أرى فيهما قبلا حقول الحنطة الغضة في قريتي البعيدة... وأشجار الليمون التي زرعناها قبل السنط.. أحسست الحرج لأنني فكرت في الخلاص وحدي... ولأنني كنت أشك في عجزها المطلق عن العطاء وأرفض بالتالي

فكرة عجزي بشكل أكيد وأتوجس خيفة من أن يكون أبي قد ساوم الطبيب المعالج ليوهمني بعقم محاولاتي لأن أخلف من بعد أيامي أثرا.

أعدت ساقي لا أدري كيف وأسرعت نحوها.. كدت أن أشكو لها الآن الذي أصبح فيه الموت خلاصي... كيف انداحت شمس الغد وبقي الغيم.. ولماذا ماتت كلماتي وسط بحار الرعب والرهبة.. ومتى تسرب الخرس والشلل إلى اللسان أيضا بعد أن قلت لهم عن آلامي فهمهموا وطالبوني بالسكون والسكوت... كانت رغبتي في احتوائها تولد... أنام على صدرها الناهد أعبث بخصلات شعرها الذهبي الناعم... أغوص في أعماق عينيها الخضراوين وأهمس لها في اشتياق وبدفء أكثر " أحببتك.. ولكم أحببتك بكل ما في روحي من قدرة على العطاء المبذول... غير أنني لم أجد للعلاج الوهمي بديلا.. سحق الطبيب حلم الغد في صلبي..."

وتأملت علامتي استفهام في حدقتي العينين الخضراوين فازدادت رغبتي.. أحسست بطاقتي تتفجر حيوية واندفاعا ومددت إلى العينين منديلا أزيح به قطرات الدموع المنسالة في خجل راغب... ولما أطلت هي إلى القزم

العاري راح يرتدي ثيابه في عجلة ويميت رغبتي ورغبته في السقوط.. وعاد الصوت المجهول المصدر يهتف في طبلة أذني اليسرى " ألم تلحظ يا عبيط أنها حامل " وتبينت بروزا غير ملحوظ في أسفل البطن.. واحتويتها بين الذراعين عازما على أن أذوب معها في بوتقة كافرة بالموت والحياة... أنصهر معا في وجود وحيد... أسلم لها روحي في انتظار لحظة المخاض المأمول.. وساعتها لم أفكر في وجه أبي الغضوب العابس ولا في طرقات كفه الضخمة فوق باب الشقة المغلق ".

مجلة القصة ــ فبراير ٧٠ ١٩

تأملات رجل فوق مقعد صخري

الشغل :

في الشركة عينوا لي ركنا وضعوا فيه مكتبا مقبضا ومتربا في أكثر الأيام.. والمقعد كان كالحا معفرا من الخشب الجاف الذي لا يتمتع بأي ليونة.. كأنه صخرة مصبوبة على شكل مقعد... وقد تبينت أن عظمتي الحوض تغوصان في لحم مؤخرتي كلما أطلت الجلوس فوقه فتنتج عن ذلك بعض الآلام التي لا قبل لي باحتمالها، و كنت مدركا أن أعمال الشركة تنحسر وتتناقص بشكل لافت للأنظار وأنهم برغم ذلك سمحوا لي باحتلال مكتبي مجاملة لرجل حدثه أحد أقربائي في أمري... سمعت أحدهم يتكلم عن ضرورة أن ينام الإنسان على الجانب الذي يريحه فقلت لنفسي أن ما يناسبني ويريحني فعلا هو المشي في شوارع المدينة الرئيسية بلا هدف سوى إراحة مؤخرتي من الجلوس الممل فوق المقعد الصخري... وقد مارست الحركة بحرية ودون إبطاء أو تراجع، غير أنهم تراجعوا، فلظروف لم أتبينها

تماما وضعوا عند باب العمارة التي تحتلها الشركة رجـــلا لا أعرفه مهمته سؤال الداخلين والخارجين عن وجهتهم... ولقد ضقت بالتردد على الرجل لأنه كان ثرثارا ودائبا على إلقـــاء أسئلة محيرة يعجز الإنسان غالبا عن إجاباتها دون ارتبـــاك وكان طبيعيا أن أبحث عن فكرة جديدة تسليني وتبعدني عن المقعد الذي أمقته تماما... فجربت قضاء الوقت في صـــعود أدوار العمارة ومعاودة الهبوط والابتسام لـــبعض الـــزملاء الباحثين عن أي وسيلة من وسائل إضاعة الوقت...

وكان الحديث المتكرر عـــن العـــلاوات والأســـعار وزحام المواصلات والمساكن يغيظني، وعبثـــا حاولـــت أن أجرهم معي للحديث عن الحرب الدائرة والتي لا يهتم أكثرهم بها.. وكانوا في ساعات العمل الأخيـــرة يناقشـــون أنـــواع الأطعمة والمشروبات في نهـــم... ويتجـــادلون فـــي أمـــور مسابقات الكلمات المتقاطعة التي أصبحت تعشش في أكثـــر العقول وتجتذب انتباهها..

رغم أنني لم أكن وسيما بالقدر الكافي إلا أن قـــراءة الكف جعلتني مألوفا لدى الجميع بعد أن أكد البعض للـــبعض أنني أفلح أحيانا في استكشاف ما تخبئه الأيام ــ وأنني أقـــدر

ـــ لسبب لم أتبينه بعد ـــ على قراءة الوجوه ومعرفة تاريخها بشيء من الدقة.

الحدث :

كنت أقرأ الطالع... أتتبع خط العمر... وحتى تلك اللحظة لم أر غير كفها المفرودة... حقيقة أنها كانت ناعمة رقيقة لكن مهمتي لم تتعد محاولة، وربما أشك في قيمتها لتحديد خط العمر، وذات مرة رفعت رأسي إلى الكف الممدودة... اكتشفت أو توهمت أنني أطالع وجها وسيما تتوسطه عينان خضراوان لهما بريق مميز.. ابتسمت في ود وقلت كلاما، فرحت البنت وتوردت وجنتاها.. ومن يومها داومت على قراءة ذات الكف واستكشاف ما يتوارى خلف وجه صاحبته.. بينما كنت أقرأ الكف في اليوم السابع وربما العاشر كانت همسات أحدهم " وهو رجل قصير القامة مجدور الوجه يتميز بمقدرة عجيبة على الكلام مع نفسه متوهما أن ما يقوله يصل إلى كل الآذان من حوله " قال شيئا لم أتبينه لآخر.. ابتسمت عيون وارتسمت على وجوه البعض علامات تعجب بعد أيام سمعت كلاما وقرأت في وجوه بعض الرجال الآخرين أشياء لم أعهدها قبلا.. ابتسمت سخرية مما

سمعت وفكرت في أن يكون الجلوس فوق مقاعد صخرية بلا مهام أساسية قد أثر في عقولهم فراحوا يتسلون بحكايات ربما تبعث في بعض القلوب النشوة ولكن على حسابي الخـــاص.. لكنني لم أكن لأهتم أدني اهتمام لأنني كنــت أرغــب فـــي إسعادهم..

ممنوعات :

عبثا حاولت تفسير الرغبة في إجلاسي فوق مقعـــدي الصخري لساعات ست دون حركة، قلت لنفسي وأنا أتملمــل فوق مقعدي أن عدم اهتمامي بالحديث مع زملاء الحجرة في أمور العلاوات والترقيات وحل الكلمات المتقاطعة جر علـــيّ مشكلة تستفحل كل يوم.. وإن ملفات التعليمات المتكررة فوق المكاتب تتضخم وهو أمر سوف يدعو إلى تحريــك الســعاة رغم اعتيادهم على الكسل ورغبتهم في التجمــع والثرثــرة حول القروش التي أصبح الأفندية يبخلون بها علــيهم رغــم احتياجهم الشديد إليها.. وأن الأمر سوف يحتاج إلى مراتــب صغيرة فوق الكراسي حرصا على صحة الأفندية من نزلات البرد الداهم حين تحل وتتسرب إلى المقاعد.. وقد تضــمنت ملفات التعليمات التحذير من قراءة الكف أو النقاش في أمور

الحرب وهو الأمر الوحيد الذي أستطيع أن أجيــده... وأنــه بالتالي سوف يؤدي ذلك إلى إجلاسي فوق مقعدي الصخري كصخرة.. ولما لم أفهم الأسباب التي تدعو إلى ذلك بوضوح طلبت إجازة مرضية هربا من رطوبة الجو وخلاصــا مــن الأوامر وإلى أن يحين الوقت للتحرر من رهبتها بالتقادم..

السفر :

كنتِ تتخوفين يا " منى " من عيون النـــاس.. ظللنـــا عبر سنوات الدراسة لا نملك إلا النظر كل منا إلـــى وجــه الآخر بلا كلمة... الكلمات تتحبس في الحلــوق والســنوات تمضي.. وانتظار غريب لشيء لا نعرفه نحلم به يحررنا من صمتنا الممدود خجلا وخزيا من لحظة البداية لأنــك كنــت ترغبين في أن أبدأ بنفس القدر الذي كنت أرغــب فــي أن تمنحيني على الأقل الفرصة لأقول.. وحــل يــوم التخــرج فحاصرتنا عيون الزملاء.. ولما امتنعت أنت عــن الكــلام تراجعت بدوري عن قول أشياء حلوة كنت أرتبها وأنتقيهــا وأحرص على قولها عندما ترغبين.. وقد عرفت بعدها أنــه كان من الواجب علينا انتزاع اللحظة انتزاعا من أنيــابهم...

وأن خوفنا من لحظة البداية أفقدنا إلى الأبد حقنا في الجلوس معا بالشكل المرغوب...

حين التقينا في القطار صدفة بـدأت بسـؤالك عـن الأحوال.. كنت مازلت تطالعين الوجوه من حولنا في حرص وقلق.. كلماته المرعوشة الرنين المتخوفة بلا أسباب كانـت توقف الكلمات في حلقي وتحذرني من الاسترسال الطليـق.. كأنما هي سجان رغبتي في تلك اللحظـات، رحـت أطـالع الوجوه لأحصي حركاتها وأقرأ في العيون التي بـدت لـي كتابا مفتوحا... الملامح التي تنضج المشاعر المتباينة رغـم الحذر الشديد والرغبة في الإخفاء.. لكنني نفذت مـن سـتار الحرص لأقرأ مرارة رجل في الستين لم يحقق شيئا ورعبـه من نهاية لا يعرف متى تحل.. ورغبة امـرأة فـي العقـد الخامس تحس الخواء يتسلل إليها.. وحلم فتاة في العشـرين وسأم شاب جاد مجهول لا يملك أن يزوغ منه ربمـا كـان المحصل... وقرأت خرافك من كائن خرافي تتوهمينه يطـل عليك وحدك من عيون كل الناس وكأنك محـور الكـون... قلت لك "يا منى " إن العالم مشغول عنك بهمومه المتشابكة الأطراف ، وأنه من الأجدى أن تستكملي الأشياء الجوهريـة

التي سلبت منك سلبا حيث لا معنى للسكون بينما الدنيا من حولنا تدور... وعندما استفسرت عن الكيفية التي يمكن بها أن يستعيد الإنسان شيئا خسره قبلا قلت لك " بانتزاعه قسرا بعد انتزاع خوفه "..

ولما أعدت إليك شيئا من هدوئك وكدت أزرع في داخلك مقدمات صرخة احتجاج قديم جاءت محطة وصولك ، ولم أسألك اللقاء مرة أخرى لأني أحسست بأن ما قلتيه من كلمات مرعوشة لا يختلف كثيرا عما عهدته فيك قبلا.

الحلم :

تهمسين يا " سها " بحلم الخروج إلى العالم ثم تتراجعين... تحلمين بفارس لم يولد ثم تتعثرين، تتأرجحين بين الرغبة في البوح بمشاعرك والصمت المتخوف الرعديد..تودين مخرجا من ارتباكك فلا تجدين.. حين سمعتك كنت أضحك.. حين رأيتك في الحلم كنت أضحك، لو أردتك يا سها لأخذتك لأنني على الأقل أحاول أخذ ما أريده دون رهبة أو انتظار لأخذ حقوقي على شكل منحة لأنني أرفض الوصاية في الأمور الخاصة..

في الحلم كنت تروغين متوهمة أنني أسعى لأخــذك، كنت أصرخ محتجا لأنني لم أبدأ مشواري نحوك.. كل مــا كنت قد فعلته هو قراءة كفك المفرودة وتحديد خــط عمــرك والنظر المبهور إلى أغوار عينيك الخضراوين ومحاولة فهم البريق المتألق النادر الذي يشع منهما دوما... وفــي الحلــم أيضا كنت أراها.. ملاك أحلامي الشابة.. في ركن الصـــالة الفسيحة تقف كأنها لاعبة باليه محترفة وأقف أنا في الـــركن المقابل كل منا يخطو نحو الآخر خطوة عبر الزمان بأسره.. عيون الكائن الخرافي ترقب في فضول وتتــابع ابتســامتينا الجريئتين.

في الحلم قلت لنفسي " لو أن ملاكي تــردد لحظــة لتراجعت من فوري".

لكنك في المنام يا " سها " كنـــت تســألين إن كـــان تراجعي جبنا وقبولا لهزيمة، وحيث إنني كنت أحلم بينما أنا نائم أصلا، لأنه من المستحيل أن أحلم بينما أنا مستيقظ.. فإنه كان منطقيا أن دماغي لم يكن بقادر على التفكير السليم ومن ثم كان مستحيلا أن أجيب على سؤالك المطروح فــي غيــر الوقت المناسب.. فأمثال هذه الأسئلة تحتــاج إلــى اليقظــة

التامة.. ثم إنني كنت أشعر بينما أنا نائم – وهو شعور يتسم بالبلاهة قطعا– بلا جدوى الاستمرار في قبول التحدي من أجل لا شيء.. ذلك لأنك كنت تهمسين وأنت جواري ــ في الحلم أيضا ــ أن طريقنا مسدود لأنني لم أستكمل بعد ملامح الفارس المأمول بسبب إسرافي في السهر ليلا ولأن رغبتي لم توجد بعد، فلو وجدت كنت أخذتك دون أدنى رهبة.

العجز:

كان ذلك في أحد الأفلام الأجنبية السخيفة... البطل ظل يضحك علينا بحركاته التي يتجاوز بها المستحيل ألف مرة.. ينتصر وينتصر.. يضحك ساخرا من خصومه، وكأنه إنسان فولاذي يستحيل تدميره.. لكنه فاجأنا بالسقوط متعثرا في حصوة وفي نفس اللحظة تنهال على كفيه ضربات مطرقة مغلولة متوثبة تدفعها يد حاقدة.. وبينما تتكسر الأصابع، تمتزج قطرات الدم برمال الأرضية المملحة الدقيقة.. تغوص ذرات الرمال عبر الجروح.. ربما أيضا تتخلل العظام المفرومة.. وعندما يتم سحق عظام الأصابع والكفين وتتحول إلى قطعتين هلاميتين من اللحم الدامي بلا معالم محددة.. يئن البطل في وهن مرعوب من مواجهة

الأيام التالية مجردا من حق الانتصار وممارسته.. الخصــوم يضحكون وأحس بالانقباض.. يقهقهون وأكاد أبكي.. يعبثون بسرواله وأهم أن أقوم لأزيحهم ناسيا أنه سوف يقوم وينتصر دون مساعدتي.. أحد الخصوم قال من خلال أسنان مطمئنـــة شامتة بعد أن ألقى بجوار الكف المطحونة الداميــة ســلاحا ربما كان مسموما : فرصتك الأخيرة يا بطل.. سوف نلقـــي السلاح الذي نحمله لنتيح لك فرصة أخيرة لتوجيه ضـــرباتك المحكمة الشهيرة، قرأت في عيني البطل ذل الإنسان عنـــدما يعجز عن قبول التحدي رغم رغبته التي تجتاحه وتتخلل كل ذراته وتهتف به أن يقبل وأن يقوم ليتحرك أو يقول وتذكرت موقفا كنت قد نسيته... سألت نفسي إن كان التراجع في كـــل الأحيان جبنا وتسليما... لكنني فوجئت بالمطرقة تهوي مـــن جديد فوق الكفين.. وعندما أمعنت النظر طالعت وجها شبيها إلى حد مرعب بوجه محبوبتي "سها".. انتفضت خوفا وكدت أصرخ لأنني كنت أعرف أنها لم تمارس التمثيل قطعا علـــى الشاشة يوما وإن كنت لم أعرف يقينا إن كانت تهوى التمثيل من عدمه..

أمي :

ذلك المساء وأنا في حضن أمي لم أنم... كنت أحسبه أرقا ناتجا من جهد الأيام الأخيرة وسفري الطويـــل.. لكـــن اللحظات كانت تمر وئيدة مملة.. رغبتي في رؤيـــة النهـــار تميتها دقات المنبه الرتيبة وعقاربه البطيئة الحركة... تقلبت أمي في نومها وحركت كفها كعادتها تتحسس جبـــين الراقـــد بجوارها.. عادت لتتأكد بكف ملهوفة هذه المرة، انحدرت إلى بقية الوجه ثم العنق والصدر.. قامت مفزوعة تتأملني، ولمـــا وجدتني صاحيا سألتني إن كنت مريضا قلت لهـــا إننـــي لا أشعر بغير الرغبة في البكاء بلا أســـباب أعرفهـــا كطفـــل صغير، لم أصدق أنني كنت محموما وساخنا إلـــى حـــد لـــم تعهده قبلا، وأن العرق يشمل ملامحي وينحدر ليغطي جسدي بأسره رغم رطوبة الجو.. قامت بعد ذلك إلى المطـــبخ ثـــم عادت مسرعة بكوب الشاي وعصرت عليه ليمونا وطالبتني بالشرب.. ركنت كوب الشاي ورحت أتأمل المصباح وأحاول أن أنفذ إلى مناطق الشعاع المبهم.. ساد الصمت فترددت في الفراغ أصداء بعيدة لنفيق ضفدع مطمئن رتيـــب.. عجـــزت عن قبول الصمت فقلت لأمي حكاية البنت التي أحب النظـــر إلى عينيها الخضراوين والتي تراوغ قبل أن تولد رغبتي في

امتلاكها كأنها تهرب، كلمتني عن الأصول وأشياء أخرى لم أفهمها تماما.. ظلت تثرثر حتى عجزت عن الاستمرار في سماعها، قمت تاركها لها الغرفة وكوب الشاي باالليمون واتجهت إلى حجرة شقيقتي الصغرى..

هـدى !

ساعتها كانت نائمة وسنواتها الخمسة عشر ترسم فوق ملامحها أحلام الغد.. امتدت إليها كفي وهمست بالاسم.. فتحت عينيها العسليتين الصافيتين وأزاحت خصلة الشعر عن جبينها وابتسمت، لا أعرف كيف يمتلك وجهها الصغير كل هذه الدعة في لحظة الصحو.. " اسمعى يا هدى " قلت لها، " عندي حكاية " اعتدلت فأسمعتها حكايتي مع البنت التي أرتضيها.. قلت لها عن منى.. وعيني سها المتألقتين.. قلت لها عن وجهي الذي يتأرجح في عقول الناس بين وجه الذئب ووجه الحمل.. والذي لم يصادق بعد من اكتشف أحد أنه وجه إنسان.. قلت لها عن لمة الأصحاب في مقهى الضجر وأصداء الكلمات البدائية الرنين..

قالت هي كلاما غريبا.. حدثتني عن الحرب في الصحراء وعن الرجال الذين أهوى الحديث عنهم.. نصحتني

بأن أعود إلى مدينتي الصغيرة آملة في أن أقوم ببناء طابق بيتنا الثالث.. قالت أيضا أنها تكره لعبة الكلمات المتقاطعة وترغب في تعلم قراءة الكف مثلي... سألتها وأنا أحتوى جسدها الصغير عطفا ممزوجا بالإكبار عن زملائها الجدد في مدرستها المشتركة... انطلقت تحكي عن التلاميذ الصغار كيف يعبثون ويحلمون.. سألتها إن كانت تحس بأدنى حرج أو تخوف عندما تتكلم مع أي الأولاد وإن كانت وجنتاها تتوردان مثل سها خجلا... ضحكت مستنكرة وطالبتني بأن أسألها في التاريخ.. سألتها عن العصر التركي وحريم المماليك.. ضحكت وهي تذكرني بأنها تدرس التاريخ المعاصر... أضافت بأنها تعرض بعض الأشياء التي أعرفها أصلا.. راحت تتكلم فوضعت رأسي في حجرها وأنا أستشعر الأمان بينما كفها الرقيقة تعبث بشعر رأسي..

" طالعت وجه سها.. ضحكتها كانت تطل من عينيها.. حين امتدت يدي إلى يدها تراجعت خوفا.. قلت لها إنني سوف أقرأ الطالع وأستكشف غدها.. استسلمت فأمسكت بالكف أحتويها بين يديّ.. حاولت سحبها فشرعت أضغط عليها مستمسكا بحقي، أفهمتها أنه لا معنى للخجل وأن

احتواء كفها بين يدي لا يعدو رغبة أولية تجتاحها لكنها تحبسها وتسد عليها المنافذ حرصا على أشياء خرافية لا تنفع.. بعد دقيقة امتدت كفها الأخرى إلى يدي وراحت تعتصرها بالرغبة.. قرأت في العينين أملا في الاحتواء.. رحت أطل في الملامح ولا أتحرك.. قلت لنفسي أنها بدأت مشوارها نحوي وأنه من الأفضل أن تجذبها الرغبة بدلا من أن تجذبها يداي.. وفي اللازمان أحسستها في داخلي تعتصرني وأعتصرها بالشوق الجارف والحنين "...

في الصباح قالت هدى أنني كنت أهذي في الساعة التي أغفيت فيها بكلام لم تفهمه تماما... وأنني كنت أئن وأصرخ وأحارب مماليك العصر التركي... ابتسمت لها وأنا أتخيلها بعد سنوات وبجوارها شاب لم تتحبس في حلقه كلمة أو رغبة..

بعد العودة :

رغبت أشد الرغبة في معاودة رؤية الفيلم المرعب ربما لأتأكد أن المطرقة لا تحمل وجه سها فعلا.. وربما خلاصا من فكرة القعود مرة أخرى فوق المقعد الصخري

بعد انتهاء الإجازة المرضية التي توشك أن تنتهـــي قبـــل أن أفكر في تجديدها...

مجلة سنابل ــ أبريل ١٩٧٠

بلهوان أحزان :

لست سعيدا وأن بدت ملامحي مبسوطة.. أنا أهـــوى الضحك المتواصل برغم كل شيء.. أعنى أنني كنت أهـــوى الضحك... كنت أمارس إضحاكهم بدأب متواصل متحمس.. حقيقة أن البداية فرضت عليَّ أن ألعب لكل من يراني لعبـــة البهلوان.. كان الحصار شديدا ومباشرا وكان عليَّ أن أبحث عن أي الثغرات وأنفذ من خلالها، كان قناع البهلوان الـــذي كنت أعيشه هو الثغرة الوحيدة التي استطعت النفاذ بفعلها من جدران الحصار الصماء..

قال مدرس الحساب إنني معتوه وأبله.. أكد مـــدرس العلوم أنني ملحوس وأهبل، عندما اكتشف مدرس الألعـــاب أنني بهلوان سألني أن أؤدي بعض الألعاب الخطرة، انفجـــر الأطفال في ضحكة منسجمة فتهاوت علـــى الفـــور جـــدران الحصار الصماء.. وشرعت في وضع قناع البهلـــوان فـــوق ملامحي..

" ألعب لنا لعبة البهلوان الحزين.. ولعبة ابن الليل وبنت الليل.. ولعبة الثلاث ورقات.. وارقص لنا رقص الغوازي ... والعب لنا الأراجوز.. والصعيد مع النصاب وابن البلد لما يهده الجوع... ولعبة السمسار مع السكان.. ولعبة الدراويش وتجار الكلام... ولعبة المساطيل مع العسكري في عز الليل.. العب.. آلييه "..

كان عليَّ أن أحاول وأمارس اللعبة بدأب وبغير انقطاع.. حتى في أحلك ساعات الليل ظلمة.. غير أنني بدأت في الأيام الأخيرة أستشعر الملل.. أمتصه مع الهواء الجاف وأزفره مع آهاتي ملتهبا معبرا عن السأم.

قلت لروحي وأنا أحط قدمي فوق الرصيف.

- قناع البهلوان الذي كنت أعيشه لم يعد يناسبني.. لقد ازدادت جبهتي اتساعا بفعل الصلع..

خفت في ساعة التمرد أن ألفظ القناع.. تذكرت على الفور وصية أبي:

- لا تلعق بصقة لفظتها ولو كانت فيها روحك.

أنا أعيش الأيام الأخيرة لأقاوم البصـــقة المتـــوترة، عندما زحفت الكآبة وارتسمت على ســـحنتي تأكـــدت أنهـــا صباغة ثابتة لا تزول إلا بزوال الملامح.. آفتي الحقيقية هي أنني أدقق النظر في الأشياء أكثر مما ينبغي.. قالوا إن إمعان النظر في الجزئيات يؤثر في قوة الإبصار ، سمك عدســـات منظاري أكد لي صحة القول.. برغم ذلك مازلـــت أمـــارس التحديق المتأمل بإمعان في جزئيات القناع الـــذي أعيشـــه.. أغوص في أعماق التفاصيل الدقيقة وأخرج من جوف الفكرة مرتبكا.. مترددا في اتخاذ قرار حاسم للخلاص مـــن وجـــه القناع القديم أو الرضا بأن أتوارى خلفه إلى الأبد.. عنـــدما انعكست صورتي على سطح المرآة المشروخ تذكرت الكآبة المحفورة بإلحاح فوق ملامح أبي.. تمثلته وهو يلفظ المرارة مع خيوط اللعاب ويشفعها بالكلمة المعتادة..

- صبر.

الرجل الذي رباني يعاني مـــن التهـــاب حـــاد فـــي مرارته.. نصحني صديق بأن أحوطه برعايتي خلال الأيـــام الأخيرة التي يحتمل أن يعيشها...قلت لأبي في اللقاء الأخير:

- اسمع يا رجل.. لن أتمكن من متابعة دفع أقساط الديون المعهودة.

كنت أتكلم من مركز السلطة إلى رجل بسيط وعاجز.. وللمرة الأولى أشعر بقطرات الخجل المركز تتقاطر فوق جبهتي ومقدمة صلعتي.. عندما حاولت أن أضع فوق ملامحي قناع البهلوان لألعب معه لعبة التاجر الناصح أحسست بأنني أعيش لحظة ارتباك حائر.. أفقت على الحقيقة.. كنت أختلف منذ البداية مع مدرس الحساب... ثم مع أستاذ الاقتصاد السياسي... كنت أكره من أعماقي حساب الأرباح والخسائر فقد تعودت على وضع الجانب المدين مكان الدائن وبالعكس.. النظرية التي تعلمناها كانت تقول إن المنشأة لا تحقق صافيا للربح في ختام السنة المالية تتعرض للإفلاس.. قلت للرجل الضعيف وأنا أتهاوى من مركز السلطة المزعوم:

- اسمع يا رجل.. سوف أتابع دفع أقساط الديون المعهودة وأحقق صافيا للخسارة كما كنت أفعل أيام الدراسة.

همس الرجل في صوت خجول متعاطف:

- اسمع يا ولدي.. لا تفكر في مشكلاتي.. حاول أن تصنع من روحك شيئا.

قال رأيه وتابعه بدعواته النابعة من أعماقه.. للمرة الأولى أحس أنني سخيف وغبي.. كنت أطلب من الرجل أن يذوى بينما أتأمله وهو يحتسى كوب الشاي الداكن في ركن القهوة التجارية.. نفس الركن الذي تعقد فيه أخطر الصفقات في المدينة.

قلت لنفسي إن هذا الرجل غريب الأطوار.. مشكلاته تتلاشى تماما حيال الموقف، هذا الرجل وضع نفسه في موقف ولم يتزحزح عنه أبدا.. عندما استعرضت تاريخه معي خلال دعواته المتتابعة المخلصة أحسست بآلام حادة رهيبة في أم رأسي.

عندما أخرج أبي خيوط المرارة مع اللعاب ولفظها في ركن القهوة التجارية تمتم بالكلمة المعتادة :

- صبر.

ازداد الحرج والارتباك فتزايدت قطـــرات العـــرق النابت فوق جبهتي ومقدمة صلعتي.. أحسست بأنني بهلـــوان تافه بلا ظلال.. وتذكرت الوصية:

- لا تعلق بصقة لفظتها ولو كانت فيها روحك.

كنت أخشى أن أكون بقناع التـــاجر ضـــمن بصـــقة الرجل التي رماها في ركن القهوة التجارية، ارتفع الضـــجيج من حولي.. تداخلت الأصوات.

" العب لنا الأراجواز.. ولعبة الـــدراويش.. وتجـــار الكلام.. ولعبة ابن الليل.. وبنت الليل.. ولعبة ابن البلد لمـــا يهده الجوع.. ولعبة المساطيل مع العسكري في عز الليـــل.. ولعبة السمسار مع السكان.. وارقص لنا رقص الغوازي ".

كانت عندي حدوتة.. وددت لو أحكيها لأبي ليكـــف عن لفظ خيوط المرارة مع اللعاب في ركن القهوة التجارية.

" البنت التي أهواها لم تمت.. قلت لصديقي إن البنت ماتت.. شعرها المسترسل الهفهاف غطـــى وجههـــا تحـــت الكفن.. كنت قد شيعتها في خيالي إلى جوف مقبرة.. وأعلنت عليها الحداد لأيام خمسة " كان أبي قد أوصاني بأن أتريـــث

في بعض الأمور الخطرة.. كنت قد قررت في مساء اللقـــاء الأخير أن أخرج البنت من دائرة الاهتمام اللاإرادي.. كنـــت محظوظا في موقف.. كانت آلام أبي لا تتوقف.. آهاته كانت تمزقني..

كنت قد أفرغت جيوبي ونفضتها قبل أن أغادر بيت أبي وأعود إلى المدينة، عندما التقيت بها شرعت في ســـرد تفاصيل الحكاية.. كانت أذناها تتصيدان أصوات الكلاكسات، وتسرح بأفكارها.. كانت أحلامها تطوف حـــول شـــقة فـــي عمارة بعينها تطل على فرع النيل، كانت تتابع في نهم آخـــر ما أنتجته بيوت الأزياء الأجنبية.. وكلماتها تهـــوى كســـياط لعينة على واقعي المرير.

عندما تأملت نفسي رحـــت أتـــابع اللعبـــة.. بـــدأت بالضحك الساخر المجنون بلا مقدمات.. لم أكن سوى بهلوان بلا ظلال.. تداخلت الأصوات.. ارتفع الضجيج من حولي.

" ألعب لنا الأراجواز.. ولعبة الـــدراويش.. وتجـــار الكلام.. ولعبة بابن الليل.. وبنت الليل.. ولعبة ابن البلد لمـــا

يهده الجوع.. ولعبة المساطيل مع العسكري في عز الليل.. ولعبة السمسار مع السكان.. وارقص لنا رقص الغوازي "

كنت منهمكا في رقصة الغوازي بانفعال.. انفجرت هي الأخرى في ضحكة صاخبة.. كانت الأيدي تصفق في حماس وانفعال.. أحدهم كان يستخدم كرشه كطبلة جوفاء.. كنت أجيد الرقصة.. رحت أمارس إضحاكهم في دأب متواصل.. همس أحدهم :

– ولعبة البهلوان الحزين.

أطرقت من فوري وتابعت المسير.. كان قراري قد اكتمل.. عندما شرعت في تنفيذ القرار خرجت بصقتي هوجاء مغلولة.. وخرجت معها أحلامي في البنت الحلوة ذات العينين الخضراوين والشعر الطويل لأنها شاركتهم في السخرية من عجزي عن تحقيق الأمنيات.. لحظتها شعرت بالارتياح وأنا أشيعها إلى حيث خرجت من مداري لتدور في مدار الولد الآخر لأنه يملك.. ليلتها قادتني أقدامي إلى صديق قديم.. قدم إلى الصديق رغيفا وكوبا من الشاي.. ناولني لفافة فرحت أمتص دخانها مصا شرسا متوترا.

قلت لصديقي وأنا مغموم إن البنت ماتتن بعدها رحت أبحث عن قناع جديد لأحشر نفسي في ملامحه.. تأكـــدت أن القناع الضاحك لم يعد يناسبني.. عجز تمامـــا عـــن تغطيـــة المرارات التي كنت أعايشها وأبتلعها مع اللعـــاب.. أمســـى قاصرا عن تغطية جبهتي التي ازدادت اتساعا بفعل الصـــلع الزاحف في عكس اتجاه منظاري..

قلت لصورة أبي وأنا أحط قدمي فوق الرصيف :

– ألم تجد سوى التهاب المرارة ميراثا تمنحني إياه ؟

قلت لطفلي المأمول الذي كنا قد صنعناه ســـويا فـــي لحظات انعدام الوزن:

– اخرج من رأسي فقد ماتت أمك مساء أمس.

كنت أبحث عمن يسمع كلماتي.. لوت المدينة بوزها وسدت آذانها.. دخت في بحثي عن صديق يسمع الحكاية بلا جدوى.. كان في واحد من أركان المدينة صديقة.. كنت أحلم لشهور ثلاثة بأن أحكي لها حدوتة قديمة..

" أمي منحتني في يوم العيد قرشا يتيما... كان ذلـــك بعد غياب السنوات الخمس"

يومها كان في رأسي حكاية ظريفة.. وددت لو أطير إلى أمي لأحكيها.."

كانت زوجة أبي قد أوحت لأطفال المدرسة والشارع الذي كنا نسكنه بأنني أبول فوق فراشي كل ليلـــة.. حصـــار الأطفال كان يتضاعف كل يوم.. كنـــت معـــزولا وملفوفـــا ومحروما من ممارسة اللعب معهم.. عندما اكتشف مـــدرس الألعاب أنني بهلوان أمرني بتأدية بعض الألعاب الخطرة... رحت أنفذ الأمر وأنفذ من جدران الحصار.. أديـــت نفـــس اللعبة مع أطفال الشارع فانزاح الجدار الصلب ورحت ألعب مع الأطفال وأخرج لساني لزوجة أبي إمعانا في عنادها.

أبي كان يضربني عندما يسمع بعض الهمسات فـــي آذانه.. كان يصرخ متخوفا بينما العصا تبحث عـــن أمـــاكن بعينها من جسدي.

- أراجوز.. أنت أراجوز ؟

لم يبد على أمي أنها مستعدة لسماع بقية الحكايـــة.. كانت مشغولة عني لا أدرى بماذا..

جدتي لأبي غمزت بعينها اليسرى فأدركت ما كان يدور في رأسها من أفكار.. ودعت أمي وتركت في كفها قرشها اليتيم شاكرا.. تابعتني بنظرة مشغولة.. وتابعت أنا المسير في أثر جدتي لأبي في اتجاه المدينة الصغيرة..

- العب لنا لعبة البهلوان الحزين.

قلت للضجيج وأنا أجر أقدامي فوق أسفلت الطريق :

- أبطلناها.

أخرجت من فمي بصقة متوترة محمومة حانقة.. لفظت قناع البهلوان قبل أن أقرر الأمر في تؤدة وأناقشه في هدوء.. قلت لروحي وأنا أحط قدمي تحت الرصيف عاقدا العزم على عبور الطريق.

- لن ألعق قناع البهلوان القديم ولو كانت فيه روحي.

ديسمبر ٦٨ – كتاب القصة

الأمنيات الحبيسة

مرة أخرى سوف أحدثكم عن حـــدث الســـقوط فـــي دوامات اللحظات القاتمة والتي أستحيل فيهـــا إلـــى شـــيء محمول في فراغ دون إمكانية الوقوف والثبات.. الذي حدث منذ البداية وحتى الآن جعلني معتادا على توقع الضربات من كل الاتجاهات وفوق كل الجزئيات المضروبة سلفا في كياني المحدد الأبعاد والذي لم يحدث وقطعا لن يحدث على أي نحو أن أتجاوزه بالتضخم أو الانكماش، في مشوار العودة وحيدا قلت لنفسي أنه يبدو أن العالم أصبح بـــالقطع غيـــر صـــالح للتعايش معه، وأنه من الأجدى أن أفر إذا ســـنحت الفرصـــة لفرار حقيقي، فالفرار في المرات السابقة سرعان مـــا كـــان يستحيل إلى بؤرة إنهاك جديدة مزحومة باللحظات المعـــادة، والشروع في الفرار من جديد بوهم إمكان الثبات والســـكون عند مرفأ أمان أملا في مشوار الحركة صعودا إلـــى آفـــاق مجهولة أو الدخول إلى عوالم أكثر انفتاحا ورحابة.. كل ذلك كان محض محاولات خاسرة للخروج فعلا.

محبوبتي- وهي كما تعرفون السبب في كـل هـذا الارتباك والتشتت- صفعت مشاعري في اللقـاء الأخيـر.. ليس لأنها استدارت وتركتني وحدى أو لأنها كشـرت عـن أنيابها هي الأخرى بالغدر كما حدث أن صادفت قبلا.. على العكس فقد ظلت معي حتى اللحظة الأخيرة ولم ألمح ما يمكن أن أصفه بأنه مقدمات التأمل الغادر أو ارتعـاش مـا قبـل الخيانة.. وصدقوني فأنا أعرف كل هذه الأشياء التي جربتها قبلا.. على العكس من كل هذا.. سكتت.. فقط سكتت لبضع لحظات كانت كافية لأن أغوص من جديد في جـب التوقـع وأن أنزلق في سراديبه اللزجة.. هل تعرفون أننـا نحتـاج أحيانا إلى سماع الآخرين.. ليس كل الآخرين بالطبع وإنمـا أولئك الذين نرغب في سماع أصواتهم ربما لنتأكد في كـل مرة أنهم مازالوا يحسوننا كما نحسهم وأنهـم كمـا نرجـو وينبغي، الذي حدث إذن هو أنني كنت أثرثر وأثرثر متـدفقا بحماس المطمئن، مبسوطا ومنسجما كنت أحوط كتفها اللـين بذراعي وأضمها نحوي بالقـدر الممكـن وسـط العيـون المستطلعة والوجوه المتأملة، المهم أنني كنت أثرثر وكانـت هي غارقة في الصمت لا أدري لماذا.. وعبر لحظة أحسست

سخفي وضآلتي في مواقف مشابهة- أن تتحدث بالحماس إلى إنسان تطمئن إليه وترتاح معه تماما... إن تتكلم بثقة الفارس لأنه يفهمك بكل ما فيك من الداخل والخارج وأنـــه بـــالقطع يهضم كل ما يقال، وأنه ينفعل به بالقدر الذي تريده.. ثم تفيق لتجده صامتا.. وتعجز في تلك اللحظة عن إدراكــه وفهمــه لتنزعج بصمت السطح لأنك تتخيل التهاب الأعماق وتفســر الأمر كله في غير صالحك فتلوذ بالصمت أيضا وتجعله يمتد ويمتد..

ذلك المساء سرنا مشوارا طويلا وكل منا داخل نفسه تماما.. تهالكــت رغباتنــا فــي أن نطــرح المزيــد مــن الإيضاحات.. ورغبت فقط في أن أفهم سر كل ما يحــوطني وأن أفسر كيف ومتى تمكنت مني كل هذه القيــود.. ســألت نفسي عن ألف خيط أحسه يلفني ويشدني إلى الفــراغ وأدور في فلكه دون إمكانية الوقوف والثبــات.. انهزمــت بالفعــل عندما عرفت أنني أطالبها بالكثير أكثر مما ينبغــي لأننــي ببساطة لا أملك حتى إمكانيات العطاء..

سرت متهالكا بالاستسلام في مشوار العودة دون أن أتكلم أو أن أجعلها تتكلم ربما لأوفر عليها وعلى نفسي عبء

تكرار الأحاديث المعادة ومعاودة التحمس شروعا في البـــدء من جديد. وبدا سخيفا أن أرسم فوق الوجه ابتســـامة عاشـــق عاجز عن امتلاك المأوى لكنه يأمل ويأمل..

أنكرت برغبة التماسك والمكابرة أن أعترف بأنهـــا بداية النهاية وأننا بالفعل سئمنا أن نحلم.. سئمنا أن نحلم وأن نتطوح مع صوت المطربة الدافئ بالأكاذيـــب والأمنيـــات.. سئمنا أن نستمر في قبول أكذوبة العشق في سراديب العجـــز والعوز وأننا نستطيع ونستطيع..وأنه مـــن الممكـــن ومـــن الممكن ..وسوف نسوي هذا الأمر وذاك.. وحتمـــا ســـوف نتخرج من كل مأزق.. كل هذا سئمناه في نفس اللحظة معـــا وأنكرناه تماما دون أن نتكلم فلم يكن الأمر يستحق أن نقـــرر ما سبق أن قررناه قبلا يوم قالت هي:

- ما جدوى أن يحب كل منا الآخـــر دون إمكانيـــة التواجد المطمئن معا؟

وقلت ساعتها ما يؤيد اللاجدوى ويؤكـــدها.. ســـرنا بالصمت كل منا في طريق وصوت المطربة يدوى كسرطان وحشي تتضخم أصداؤه في زحام المدينة المحمومة برغبـــة

السماع حتى الفجر، سرطان.. كان الصوت حبالا سـرطانية تحوطنى وتعلقني فوق الأمنيات المكذوبة ويدى تحوطها في اللحظات الأخيرة حذرة على غير العادة وكأنما هناك شـرخ يتكامل بيننا، أو ربما لإحساسي بأن هناك في داخلها كما في داخلي لهيبا متأججا نعجز عن البوح به عينا لعين ووجها لوجه.. ليهيبا متشابها إلى حد التطابق والنظرة الأخيرة تغوص في داخل الداخل معربدة.. شفرات اللحظة تغرى رغبتنا في مرفأ الأمان، صدر الآخر، ومشوار الفرار من الجديد يبدأ ككل مرة في العرى.. وغروب شمس البدايات الممكنة خلف سحب الخيوط المحكمة الشد حول الكيان تأسره.. وأومئ لها شروعا في الفرار بالخطى المذعورة وأتأكد بعد خطوات أنني مازلت في داخل الخيوط اللعينة بكياني الذي لم أتجاوزه بالتضخم أو حتى بالانكماش.. معلقا في فراغ وذاهبا إلى فراغ.. وأن كل ما حدث هو أن الصوت السرطاني يتضخم ويجلجل في الأفق سخرية من أحلامنا التي ننسجها بالأغنيات المعتادة.

ألهث في هلع وأنا أرقب صورتي فوق سطح مرآة مشروخة وأتهالك فوق الفراش قبل أن أقوم وأبصق بينما

محاولة استخدام الشفرة في قطع شراييني كما ينبغـــي تبـــوء بالفشل ربما لأنني أجبن بالفعل في الغــوص بحـــدها إلـــى الأعماق أكثر.. وأظل أتنفس رغمى.. أتنفس رغمى.

مجلة صباح الخيرــ نوفمبر ١٩٧٠

مقدمات التراجع

تنويه:

قبل الهبوط في سرداب التراجع أسأل إن كان من الممكن أن أرى وجهك المأمول يا " سها " أختنق بانتظار لحظة الحصول عليك وأسأل نفسي أيضا إن كان في مقدوري مواصلة الرمح وحدي في محيط الدائرة الرحبة رغم اكتشافاتي المتكررة أنني أعود مكدودا إلى ذات النقطة التي انطلقت منها في المرة الأولى هادفا إلى العثور على وجهك المستحيل الذي حسبته في البدء ممكنا، وقبل التراجع يوشك وجهك أن يروغ من ركن الدماغ ساعة أن تختلط ملامحك بملامح الآخرين، أهم بأن أستدير موليا لصورتك ظهرى، لكنما عيناك الخضراوان تظلان من حيث لا أدري فأحس المهانة وأنكمش حول نفسي بحيث أستحيل إلى شيء ضئيل إلى الحد الذي يوشك أن يكون وجودي فيه عدما، أعود برغبتي في العثور على عقلي المرعوش بفكرة التراجع فأراهما، عينيك بدرجات اللون الأخضر المتشابك، أنتعش

بمحاولة قراءة بضع كلمات فيهما عن الغد الموعود، تتألقـــان وسط وجهك الأسمر المشرب بحمرة التوهج النادر، وســـياج من شعرك المسترسل يحرس الملامـــح ويؤكـــدها فتـــزداد اتضاحا قادرا على سحق الضجيج من حولي وفكرة التراجع لحظتها أسمع صوتك المميز لحنا شجيا قادرا على النفاذ من طبلتي الأذنين وأتراجع تماما عن فكرة التراجع قائلا لنفســـي كلاما كثيرا حول احتمال العثور على وجهك في فجر ربمـــا يكون خيطه في يدي ولا أراه.

عن التراجع:

قبل القول شروع مرعوش بتراجع الحروف وتزاحم الرغبة في إخراج الكلمات المحمومة دون إخراج، تتلوى في الصدر كائنات مقبضة ومرعوبة، يـــنكمش القلـــب فيضـــيق بامتلائه إلى الحد الذي يكاد أن يوقفه، ينز الشريان الرئيســـي ببطء ممل يوشك أن يكون سكونا بـــاردا، تـــثلج الأطـــراف العطشى إلى قطرات الدم، في محاولة أخيرة لاختراق حاجز الصمت الوهمي الذي يتجسد في الرأس جدارا صلبا، تســـقط

الرغبة في الكلام عند أطراف أصابع القدمين فآنف من الانحناء لاستعادتها حفاظا على عودي المستقيم.

تستكين بينما أثق أنه من الحتم أن أسمع صوتك، صمتك المطبق المسنود إلى سمرة البشرة المتوهجة وتزايد التوهج فيها عند أقل انفعال يشدني إلى قوقعة الصمت بينما ملامحك تدفعني دفعا لأن أقول ما أريد بالصدق قوله، أجدني حائرا بين قطبي مغناطيس خرافي مشحون بطاقة لا تنفد يقدر على تمزيقي وتحطيم أضلاعي واقتسامي نصفين متساويين، وأود لو كنت قادرا على الاعتراف الذي عطلته أحزان عمر ورثتها ولم أبح بكل خفاياها لبشر قبلك، وأود أيضا لو كنت قادرا على الانتظار لأجل غير مسمى بينما عشت حياتي أحب الحركة وأكره السكون، أحاول استرجاع ما حدث أيام كنت أفوز في مسابقات الوثب العالي والطويل أيضا، وأسأل نفسي إن كان من الممكن أن أخرج من قتامة اللحظة إلى فكرة الاستمرار الوئيد الدءوب لأحتفظ بوجهك الذي عشقته عمري، ساعتها تسري في عروقي شحنة مكهربة تبعث الدفء في الأطراف الباردة مثل الرصاص،

وألفظ فكرة التراجع مع اللعاب المر الذي ارتضيت بـالقهر وحده امتصاصه على مضض.

عن القهر:

أفتقد قدرتي على الإصغاء إلـى كلمـات زوجتـي المنمقة، أتفحص ملامحها الشاحبة لا أدرى عجزا أم حزنـا على أحلامها الوردية المضيعة، أحـاول النفـاذ إلـى سـر شحوبها الدائم وأتردد في أن أتقدم نحوها متوهمـا ضـياعها الممكن، أجدني مرتبكا بالرغبات المتباينة، ووجه أمها الـذي لم أطالعه غير مرة وحيدة يتمثل حيالي جاد الملامح صارما يأمر فيطاع بينما لم أعود نفسي على الطاعـة دون اقتنـاع كامل، أحاول الابتسام بعد إحساس عنيد بأنني كنت مفروضا بشكل أو بآخر، أخشى أن تصدقها زوجتي إن قالت كلاما في غير صالحي، أخرج المكان الذي أرغب البقاء فيه وأرغـب أيضا في احتواء زوجتي بين جدرانه وأقنع من كـل العـالم بدفئه اليسير، تتحير هي فأراها أكثر شحوبا ربما حزنا وربما قهرا، أتصور أمها وهي ترقبني في فراشـي مـع زوجتـي

بصرامتها وجفاف مشاعرها، ورغبتي في الاحتفاظ بها تتعادل مع رغبتي في الحفاظ على عودي المستقيم ورفض فكرة الانحناء لأريح أمها، أتقدم وأتراجع، أرغب في الاحتواء والفرار، الامتزاج، والوحدة، وأشياء أخرى تطرق أم الرأس وتهددني بأن تسحقه.

"عشنا سنوات الحب الأولى "يا سها " يمنى كل منا الآخر بالغد المشرق، ومارسنا كل الصدق الممكن لنحبك الأكذوبة الكبرى من أنها كانت عنك عوضا وبديلا ومأوى، وابتسمنا سخرية من عبوس السحنة المتوقع حين يواجه كل منا الآخر أو يواجه مقدمات عاصفة تخصه بينما الآخر يتأمل في حياد عاجز عن الفعل، ولحظتها تتقاطر ذرات الشك في مقدرة الآخر على الصمود أو عدم الرغبة في الإنقاذ فيزداد الوجه شحوبا ويغلفه ضباب قاتم يزول بمولد الإصرار وطرح فكرة التراجع، أصدق ما سبق أن قلت به قبلا من أن كل الكلمات المنطوقة لا تساوي جزءا من ألف جزء من فعل واحد".

عندما استحال كل ما كان بيننا إلى رؤوس ذكريات يمكن أن تهوى فوق أعناقها مقصلة الرعب ساءلت نفسي إن

كانت "سالى" قد صدقتني القول هي الأخرى قبلك وأجيب وقد تسربت قطرات الشك إلى الدماغ بأن ممارسة الحب بالكلمات سهل وأن الصعب هو الفعل، أبكى مرارات عمر لم أحصـــل فيه على ما يوازي جهدك وحماسي للعطاء بلا مقابل وأبكي بلا دموع لأنني تعريت أمامها هي الأخرى وقلت بالصدق ما كنت أستشعره.

"كانت تدعى أنني جئت قبل موعدي بينما أصر أنها جاءت متأخرة، ولقد أدركت في لحظـــة وعـــي خـــاطف أن التوقيت لم يكن في صالحنا على أي نحو وأن ما كانت تثيره من مخاوف على علاقتنا لم يكن أكثر من مقـــدمات ســـلبية تنسجها لسحق ما كان يدور في دماغي مـــن رغبـــة فـــي الإحساس بالأمان، أتصور وجه أبي فيزداد إحساسي بالقهر وأقول لها أنني جئت إلى العالم عاريا من كل دروع الحماية وأنني بالقطع سوف أغادره أكثـــر عريـــا وإن محاولاتهـــا الدعوية لإقناعي بالاستمرار في الصعود ليست أكثـــر مـــن همهمات حيادية دون دفع حقيقـــي باليـــد أو بالفعـــل، وأن محاولات الصعود وحيدا تتناقص سرعتها و حدتها كلمـــا أمعن الإنسان في الاســـتمرار دون نتـــائج ملموســـة، لأن

جرعات السأم الملول تغوص بالحواس في قـــاع الســـرداب الرطب الذي أقطعه طولا وعرضا باحثا عن منفذ أو بصيص ضوء ولا أجد".

عن الهبوط:

أشرع في الهبوط والسرداب الخرافي يمتـــد ويمتـــد، أقدامي تمعن في الهبوط المتوتر المغلوب دونما تفكيـــر فـــي التوقف، أستعيد فكرة تدمير نفسي التي أفهمتني "سالي" بأنها سخف وأن الأجدى لي ولها أن أبقي، أفكر في مهرب آخر، أسهر الليل بطوله راغبا في إنقاص وزني وهدم كياني ببطء، وأعجب كيف تستحيل الرغبة المحمومة في العطاء والمـــنح إلى رغبة في التدمير أثر اليـــأس مـــن اســـتعادة الحقـــوق المسلوبة، أشرع في الهبوط أكثر لأنه ليس صعبا فـــي كـــل الأحوال، فالدرجات العليا تدفع الأقدام دفعا إلـــى الـــدرجات السفلى وجاذبية الأرض تمارس نشاطها الأبدي فـــي حيـــاد سلبي ومن ثم فمنذ فكرت في الهبوط وأنا أهبط حتى قبل أن أحرك الأقدام بالإرادة إلى الدرجات السفلى بينما عندما كنت

أفكر في الصعود كنت أجد مشقة بالغة في رفع الساق إلى الدرجة التالية، أجهد نفسي لضغط الدم في حيز القلب المنهك بمشوار العمر الفائت، كنت أضغط وأضغط وأتوهم أنني أرتفع، لكنني اكتشفت الخدعة حين وجدتني لم أرتفع في حقيقة الأمر عن الأرض شبرا، وعندما يختلط وجه أبي الباحث في جيوبي عن عملة لا أملكها لأنني لم أحترمها بوجه أمها التي كانت تبحث في جيوبي أيضا عن أشياء تبتغيها ولا تجدها، عندها أحس بسخف الأشياء وأمعن في الرغبة الحادة في تدمير كل ما أملك من طاقة حتى النفس الأخير لأخرج من عالمهم إلى جوف مقبرة العظام المحطمة.

ذكريات:

تتكمش زوجتي حول رغبتها وتتمدد، يتلوى داخلها شيء لا أعرفه، أتمدد إلى جوارها متكاسلا وراغبا في إراحة نفسي قبل الاحتواء الثالث، أعجز عن الاستمرار رغم محاولاتها للأخذ التي تتوافق مع رغبتي في العطاء إلى حد الإسراف، أحيط جسدها النحيل الضامر بالذراعين وأدفنها في صدري المهدود المنهك، ربما لأنسى وجه أمها الغاضب المتسلط وثرثراتها المعادة، تتحدث هي عن مخاوفها المبهمة

من أن شيئا ما ربما يباعد بيننا فترة ثم عن تفاؤلها الذي أشك فيه بأننا سوف نعود كل منا إلى الآخر بعـد ذلـك، أنـدفع مغتاظا لأعبر لها عن نفس المخاوف لكن دون حلـم وردي بالعودة، أقول بينما أتأمل وجهها المخطوف لا أدري حزنا أم خوفا أم فرحا، أنني مثلها أستشعر الخطر وربما أكثر، وأنني حبيس مكره لأحاسيس عنيدة تلح عليّ بأن أعد نفسي لاحتمال فقدها إلى الأبد، وأن رحلة عمري تبـدو دعابـة سـخيفة، وأحدثها من جديد عن طفلتي التي لم تأت بعد وأؤكد لهـا أن "سها" كانت محض أمان جائعة أرتجيها في عديد من لحظات الضياع، تحدثني عن عجزها عن إعطائي الأمان أو إنجـاب طفلتي وتأسف على شهور الحمل الكاذب التي تتكرر.

ختام:

"كأنك أميرة باهرة الحسن في قصر تحرس أسـواره عيون الراغبين، وكأنني حطاب لا يملك السيف البتـار ولا الحصان المدرب على تخطى الأسوار الصلبة، لكنني لو كنت موقنا من وجودك في أي مكان من هذا العالم مـا تراجعـت عن محاولة امتلاك السيف والحصان وتضييع عمـري مـن أجل امتلاكك لحظة".

يقولون يا "سها" إن الطريق إليك محفوف بكل أنواع المخاطر وأنني سوف أنتظر كثيرا، لكنني أعجز عن البقاء في مكان، ذلك أنني أفضل الدوران في شوارع المدينة كل مساء متوقعا أن أرى ظلك أو أن أسمع صوتك حتى ولو وجدتني في الصباح أدور في نفس الميدان الذي بدأت منه رحلتي، أحادث الصحاب والأصدقاء وحتى العابرين عن "سها" فأعرض نفسي لاتهاماتهم لي بالهوس، أدرك أنها حلم حياتي وبؤرته وأنني بغيرها سوف أعيش مرارة لم أعهدها غير مرارة الضياع في أحراش الطرق المتشابكة، أزهد فنفسي حين أفكر في التراجع عن البحث عنها وأرضى بالشقاء رافضا فكرة الترك والفرار بالموت، قانعا بلحظات يسيرة أستعيد فيها أنفاسي قبل القول الأكثر جرأة وتجديد رغبتي في البحث عنها دون الاستسلام لفكرة الهبوط أو التراجع.

مجلة القصة ــ أبريل ١٩٦٩

سادس أيام الخلق

الغرق:

في أواخر يونيو ٦٧ انتحر ولد في نيـــل المدينـــة، كانت المدينة تتمدد في بلادة ولا تود أن تفيق صرخت عنـــد الشاطئ الغربي امرأة ترتدي السواد، توافد النـــاس وراحـــوا يرقبون ــ من خلال عيونهم ثقيلة الجفون التي تغالب النعاس ــ جسده الذي يصارع بتراخ وقنوط دوامات النهر.. لم يكن على الوجوه حماس، اكتفوا بالنظرات الفاترة، ربما لأنهـــم على هذه الضفة من النهر كانوا قد اعتادوا على رؤية الأولاد من تلاميذ المدارس والجامعات يسقطون في النهر غصبا أو طوعا أيام النتائج.. قال ولد لولد آخر: (ارتاح)، قال رجـــل متوسط العمر لنفسه: مات فطيسا.. التفت كهل متـــأنق إلـــى الولد الذي تكلم أولا قائلا: مات كافرا، ثم تابع كلامه معنفـــا: وأنت أيضا كافر مثله، إنكم نسل شياطين، تأتون إلى الـــدنيا فتأكلون خيرها ثم تموتون على هواكم قبل أن نستفيد منكم..

قالت المرأة التي صرخت أولا: إنه يغرق، همهمت: ربما لم يكن راغبا في الموت، ربما انزلق أو سقط أو اختل توازنه، ربما كان مدفوعا بفعل فاعل...

قال الكهل بلهجة قاطعة: مستحيل أنا أعرفهم تماما أولئك المجانين من تلاميذ هذا الزمان، إنهم جاحدون مختلفون وذوو أفكار هدامة، إنهم يموتون بهدف إجبارنا على الالتفات إليهم.. أضاف مطمئنا إلى سيطرته على الجمع الذي يسمع دون معارضة: إنهم لا يكفون عن الضجيج والصخب وإثارة المشاكل، كأنهم ورثوا العالم، ولما نحذرهم من الاسترسال في أفكارهم الحمقاء يتركون لنا الدنيا ويخلفون لنا مضايقات جمة، اسألونى عنهم، ابن أختى فعل نفس الشيء في الشهر الماضي.. قال العبارة الأخيرة وعيناه تدمعان من فرط الانفعال، التفت إلى الولدين الذين كانا يتسمعان حديثه عن قرب، أمسك بيده خصلة الشعر الأمامية من رأس أولهما ثم راح يهزها بانفعال مرعوش وعلامات الدهشة تحط على الوجوه فتخرسها، كان الكهل يهذي عن صلابته أيام كان في مثل سنهم، عن خلاعتهم وكراهيته لشعورهم الطويلة كشعور البنات، عن قمصانهم زاهية الألوان والتي لا تليق بالحريم..

كان العجوز يبدو وحيدا في الحلبة، كأنه لاعب وحيد في ملعب خال تماما، كان الولد ينظر إليه متضرعا دون كلام لكنه لم يكن يبدو مخطئا في شيء يستحق العقاب، عندما ضعفت اليد القابضة على خصلة الشعر تراخت وانفرجت الأصابع، أصلح الولد ما أفسده الكهل براحته اليمنى وعلى الوجه شيء كالرعب، جره زميله الآخر من كوعه ومشيا، غابا عن النظر وبقى الكهل وسط الجمع يهذي ويلعن، كان الولد الذي انتحر في نيل المدينة قد غاب هو الآخر أو ربما ذاب في دوامات النهر الخرافية.

قال الولد الثاني للولد الأول: لا تغضب من كهل معتوه يقطع طريق الخلق، قال الولد الأول للولد الثاني: لكنني لم أدخل معه في حوار أو أعارضه في شيء، قال الثاني: كدت أضربه لولا كبر سنه، أضاف: لا تفكر في الأمر فهو بسيط، ابن أخته مات في ظروف غامضة فأفقده عقله.. قال: طيب، وسكتا.. قال الثاني: بالنسبة للكتب والمذكرات لا تشغل بالك.

استفسر الأول: بنصف الثمن كما اتفقنا؟

ووافق الثاني... قال الأول مبديا استياءه مــن عــدم تحقق رغبته في الالتحاق بكلية الطب: تصور نصف درجــة سببت دخولي الهندسة غصبا، هــون الثــاني عليــه الأمــر موضحا له مزايا الهندسة قائلا: إنها في نهاية الأمر شــهادة مثل كل الشهادات، خفت حدة الضيق عند الأول وهان عليــه الأمر.

سأل الثاني عما جرى عندهم أيام المظاهرات فقال له أنهم كانوا مثل الجميع في ارتباك وحيرة، يقبعون في أركان المدرجات بشكل بائس يرفضون الامتثال لنصائح العميد، قال أنهم تحمسوا في الرفض إلى حد الهوس وأنه كــان يشــارك الآخرين الحديث بأصوات شديدة الانفعال مرعوشــة كأنهــا ألواح زجاجية مشروخة شروخا متوازية بفعل فاعل.

سأله الأول عن الأيام التي قضوها هنــاك فــأخبره بأنهم بقوا على إصرارهم وتماسكهم وعنادهم وأنهــم كــانوا يتلاقون في الطرقات وعند أركان السور الداخلية يتبــادلون الآراء حول كيفية تدبير الطعــام وغيــره مــن ضــرورات المعيشة وتفويته من دائرة الحصار، قال أن الــدائرة كانــت تضيق وتضيق وأنهم في مساء يوم لا يذكره تســلل إلــيهم

دخان مسيل للدموع أفقدهم القدرة على التمييز فكفوا عن المقاومة وتغيرت الأمور لغير صالحهم، وأنهم في صباح اليوم التالي وجدوا أنفسهم في مكان آخر، انزاحت عنهم صفتهم الأولى والتصقت بهم صفة جديدة وأنهم ردوا على كل الأسئلة والاستفسارات بكلمة وحيدة، كان أحدهم قد قالها بحماس وانفعال رغم كل ما تعرض له فشاعت وترددت على كل الألسنة وراحت تطن في آذان السائلين: مصري... مصري... مصري، كأنها عريضة الدفاع أو الدعوى في آن واحد، ولما سأله عما جرى بعدها أجاب بأنهم ظلوا دائبين على المعاندة وإثارة الضجيج فكانت النتائج مؤسفة ولا تدعو إلى الفخر.

قال الأول أنه شارك بحذر أولئك الذين كانوا ينادون في الشوارع وبعض الميادين العامة يساعدهم الصبية من تلاميذ المدارس في عمليات الظهور والاختفاء وترديد الهتافات المختلطة، قال إن الأصوات كانت تتجمع ثم تتفرق، تتجمع ثم تتفرق حسب مقتضيات الحال ودون رغبة في إنهاء الأمر، قال إنه رآهم يكتبون قصاصات الورق في أركان الحارات وعند مداخل البيوت ويوزعونها على المارة ثم

يتبادلون معهم المناقشـــات الحـــادة ويحتملـــون مـــا كـــانوا يتعرضون له من سخريات وأمور أخرى لا تليق، قال أيضا إنه لم يكن يملك الجسارة الكافية للاستمرار على النحو الذي كان يرجوه بسبب أنه لم يكن طالبا في الجامعة بعد فخاف أن يأخذوه من تهمة الاندساس بينهم، حكي كيف أن الأيام توالت وحماس الخلق يقل ويتناقص، يخبو ويخمد ثم يصبح فـــاترا وبلا قيمة ربما بسبب بعض الإجراءات غير المألوفة التـــي اتبعت في المدينة، وإن المدينة نفسها باتت في سكون بليد لا يدعو إلى الفخر، وأنه أسف أشد الأسف وعجز عن استيعاب المواد كما ينبغي مما تسبب في عدم تحقيق رغبته الحقيقيـــة في دراسة الطب، وأنه لما ظهرت نتائج الامتحانات ونجـــح مع الناجحين لم يشعر بالزهو لأسباب لا يعرفها كاد بســـببها أن ينتحر في نيل المدينة.. همهم الثاني مؤيـــدا أو معارضـــا ولم يتكلم، كان ينظر إلى النهر الذي يحبو في ســـلام بـــارد ودعة ودون أن يبدو عليه أي أثر لابتلاع جثة الولد، كأنمـــا هو وحش خرافي لا يشبع، أو كأنه لســـان وحـــش خرافـــي ممدود في وضع الاستعداد لابتلاع شباب المدينة تماما كمـــا

ابتلع ذلك الولد في الصباح وعلى مرأى من جمـــع بشـــري محترم.

في ظهيرة نفس اليوم الأخير من شعبان جلس جماعة من شباب نفس المدينة أمام أو في مقدمة أو واجهـــة مقهـــى مألوف بحيث يتاح لضعاف البصـــر مـــنهم – وهـــم كثـــرة يستخدمون العدسات الطبية – فحص الحـــريم مـــن ســـيدات المجتمع العابرات والدائبات على المرور أمام المقهى بحكـــم الرغبة في أن يكن محطا للاهتمـــام ومثـــارا للتعليقـــات أو لضرورة قضاء الحاجات المتبادلة.. كان الحـــوار المفتعـــل حول النساء يستهلك الساعات والساعات، إنما عندما جلســـوا في ظهيرة هذا اليوم المبارك كانت الأمور قد تأزمت تمامـــا وكان الحديث الممجوج قد عجز عن تسلية العقول المشغولة حقا بشيء آخر لا يبين... مارسوا الثرثرة المعادة فـــي كـــل الأمور المهمة والتافهة بنفس القدر من الافتعال الشنيع وبقدر محترم من البهلوانية المتوحشة، بل إنهم تبادلوا خلسة نظرات الحذر والريبة، وفهم البعض أن البعض الآخر قد انتقد تماما إمكانية الاطمئنان إلى أحد، عندما جاء أحدهم وألقى بالجريدة المسائية التي اشتراها لتوه وعقب على فعلته بتعبير اســـتياء،

نظروا إليه بارتياب أكثر وطالبوه بأن يذهب بنفسه إن كان شجاعا إلى مقر الجريدة ليقدم احتجاجه مكتوبا أو منطوقا إلى من هم منوطين بها.

قال أحدهم أنه لا جدوى من فتح مناقشات محفوظة لا جدوى من تكرارها للمرة الألف بلا فائدة... همس أحدهم في أذن الآخر:

- إنه يود أن يجرنا للحديث في السياسة كما ترى، رد الآخر مزيحا عن نفسه التهمة: مالنا بالسياسة يا عم؟

عقب الأول: جعلهم يتكلمون عن سر الحرب التي توقفت بلا تفسير مفهوم...

قال الثاني: وما قيمة الحرب؟

قال الأول محموما: أنت جبان.. قال الثاني: اخرس يا نصاب..

قالها بانفعالها وضيق وغير مكانه مبتعدا قدر الإمكان عن الأول الذي يشك فيه ونظر إلى عنوان الجريدة الملقاة على الأرض فلم يجد فيه شيئا ذا بال

فقام خارجا إلى الشارع قائلا لنفسه أنه لو تكلم لتعرض لهجوم أقسى مما تعرض له من ألقاها أرضا.. طالت الجلسة إذن وأخرج كل منهم ما في جعبته من نكات سخيفة، يلقونها ويخرجون الضحكات المتشنجة والقهقهات العصبية الموتورة وتقاطيع الموات التي حطت على الوجوه تزداد اتضاحا وتزيح ما تبقى من إمارات الحياة، كان كل منهم يحس انقباضا في صدره لا يعرف مصدره المباشر بيسر.

تجاسر أحدهم وراح يسخر من بعض الأمور العامة بصوت مسموع غير مهتم بمن يرقبونه خفية فانحطت عليه عيون الآخرين توبخه بتلك النظرة الجامدة، حس بغصة في حلقه وكف عن متابعة الكلام منكمشا على روحه لحظات قبل أن يتعلل بحجة واهية ويرحل وسط سكوتهم.. شرعوا بعد رحيله يتبادلون الاتهامات المشينة ويتحزبون ويغتابون أولئك الذين انصرفوا عنهم، كانت أعشاب الكراهية قد نمت في صدروهم وعششت فجعلتم جزائر معزولة كل منهم في محيط، ازداد استعدادهم للشجار لأوهى الأسباب، ورغم كل

شيء كان ثمة أمر أو أمور خفية تفرض عليهم استمرار التجمع، تربط بينهم برباط يستحيل الخلاص من قوته ويتجاوز ما كان يبدو شكلا من انقسامهم إلى معسكرين على أقل تقدير، يهتم أحدهما بحل الكلمات المتقاطعة ويفتعل التباهي بالقدرة على حلها في مدد وجيزة ومن ثم كان حرصهم على شراء كافة الصحف والمجلات بشكل مرضي، بينما الآخرون قد أعلنوا بشكل قاطع مقاطعتهم للصحف اليومية بدعوى أنها لا تحوى ما يستحق الاهتمام، وهكذا إذن رغم كل هذه الخلافات دأبوا على المجيء إلى المقهى بعد انتهاء مواعيد العمل أو أثنائها إذا تيسر، تماما مثلما حدث في ظهيرة هذا اليوم المبارك، يوم طفت على سطح المجلس خلافات جديدة وجاء أحدهم يلهث فاقتحم المجلس وقال متحمسا أنه وصل إلى الحل وادعى أنه توصل إلى فكرة قادرة على حل كل الخلافات القديمة، كانت نكتة قالها متظارفا: أنتم تختلفون حول الصحف اليومية، حسنا، عندي حل رائع يريح كل الأطراف، إنني أشترى الصحف مثل أصحابي هواة الكلمات المتقاطعة لكني لا أهتم بها ولا أقرأ فيها حرفا ولا أفكر في حل مسابقاتها تماما مثل أصدقائي

الآخرين، وكما ترون وتعرفون أنني إنسان من حزب الوسط المتحرك إنني أعترف لكم الآن بأننى أراجـوز عصـري، أشترى الصحف لغاية أخرى لا تخطر على عقولكم، إننـي أسكن الدور السابع ومواسير دورة الميـاه لا تسـعفني فـي اللحظات العسيرة، اتفقنا إذن؟ يجب أن تتعاملوا بهذه الكيفيـة في بعض الأمور المحيرة، مفهوم إذن؟ ما رأيكم؟

هكذا أنهى أراجوز الوسط المتحرك خطبته الحماسية غير مفهومة القصد وسط فتور ساكن غير ملتفت إليـه، لـم يضحك أحد ولم يعلق أحد بكلمة، سكتوا تماما فـأحس هـو بالخزى أولا ثم تسلل الخزي إلـيهم جميعـا وشـمل كـل مكنوناتهم، نفذ في عظامهم حتى النخاع، كانت المهانة تعشش فوقهم وحولهم وداخلهم، قاموا من مجلسهم فرادي وتفرقـوا دون بحث عن مبررات ولو مفتعلة.. ساروا فـي طرقـات المدينة البليدة وتشعبوا في أحيائها حتى انهدت قـواهم ولـم يشعر في ختام المطاف أيهم بأي قدر من الجدوى... ولم يكن ذلك بسبب ما قاله أراجوز الوسط المتحرك فقط وربما كـان بسبب أمور أخرى خفية يصعب حصرها والتعـرف علـى وصف مؤكد لها.

في مساء اليوم الأخير من شهر شعبان أيضا وعلى الشاطئ الغربي للممر المائي ذي التاريخ الحافل والسمعة الرنانة، كان أفراد الخدمة المتناثرون على امتداد الموقع يحرسونه، يتبادلون عند نقاط الالتقاء حديثا خاطفا ثم يستدير كل منهم إلى الاتجاه المعاكس ليلتقي في الطرف الآخر بفرد خدمة آخر يتبادل معه حوارا خاطفا ثم يعود... أيديهم على مقابض الأسلحة وعيونهم ترقب ما يدور على الشاطئ الآخر خلف الساتر الترابي الهائل، وعندما يحين الوقت لتغيير الخدمة يزفر الآخرون في شيء من الضيق لاستمرار الوضع على ما هو عليه، يتساءلون متى تتاح لهم الفرصة للعمل الفعلي من أجل تبديل ما صار رتيبا ومقيتا... على امتداد الشهور كان الحنين ينمو ويتزايد يزدهر الحنين ويتشكل عبئا جديدا، وكثيرا ما كانوا يتحاورون حول السبب الذي يجعلهم عاجزين عن احتمال النظر إلى هذه الضفة دون فعل، يتساءلون عن إمكانية التسلل خفية ودون أوامر إلى الجانب الآخر وليكن ما يكون.

ولما كان الأمر من بعض وجوهه يقل من حيث الأهمية عند البعض منهم أو بشكل آخر كان الأمر فوق

قدراتهم على احتمال المزيد من أيام الانتظار فقد دأبوا على محاولات الحصول على إجازات وتفننوا في الحصول عليها بأساليب متباينة، لكنهم عندما كانوا يعودون مرة أخرى يحكون بضيق كيف ضاعت الأيام والساعات في المدن حيث الأضواء أو القرى المعتمة دون إحساس بقيمة التواجد وسط الأهل والصحاب، وأنه لم يكن شيء غير إزجاء الوقت والطواف بلا هدف أو معنى ثم التعرض لبعض المضايقات غير المباشرة.. وأن الاختلاف الشديد بين العالمين يجعلهم يوشكون أن يعودوا قبل أن تنتهي الأجازات.. كانت في عيون البعض حسرة وألم سقيم عاجز عن الاحتجاج بشيء على مظاهر الترف الزائد في جوانب المدن وشيء كأنه الانكسار الصامت يشع من العيون العاجزة عن الدفاع أو الهجوم، كانوا في ساعات الليل يتبادلون الحكايات عن أصحاب الأمس وكيف غيرتهم الأيام فصاروا عاجزين عن فهمهم أو حتى التعرف على تقاطيعهم، كانوا يحسون بالأسى وافتقاد الإحساس بالزهو بما كانوا يقومون به من جهود أو مسئوليات أو تعرضهم للكثير من المخاطر دون القدرة على ذكر شيء من هذا الأحد، شيء من العار لم يكن يخصهم

لكنه التصق بهم خلسة ولم يشأ أن يدعن دونه، شيء غريب لا ينتمي إليهم لكنه يلبد في حلوقهم ويحجب كل الكلمات التي تقترب بشكل أو بآخر من معنى الزهو.

وحتى الذين ظلوا دون إجازات وكانت لديهم قدرات أكبر على الاحتمال لم يشعروا بالحنين إلى القرى التي جاءوا منها، كان الحنين كله والشوق كله قد انصب على رمال الشاطئ الشرقي، صحيح أن الرمال هي الرمال كما قال أحدهم مرة إنما رمال الشاطئ الشرقي كانت تختلف على نحو أو آخر.. وأولئك الذين ظلوا دون التفكير في الحصول على إجازات كانوا أكثر حماسا وكانوا أكثر ارتباطا برمال الشاطئ الشرقي.

وفي خواطر البعض ممن عادوا لتوهم من الأجازات صورة المدينة التي تقبع في تكاسل جريح ويخيم فوقها ضباب كاذب لا يود أن ينزاح، والآهات المستجيرة غير المنطوقة ونظرات الانكسار في العيون تتراءى لهم في المواقع.

كان الأمر رتيبا ومتكررا ولا يوحي بإمكانية استمراره على أية صورة، لكن الأحلام لم تتوقف وكان أحدهم قد عاد وراح يحكي للزملاء حكاية الولد الذي غرق صباح هذا اليوم نفسه في نيل المدينة وقال أحدهم دون وعي: ارتاح فحكي الأول ما رآه في هذا الصباح من الرجل الكهل وما قال، فقال أحدهم: رجل مجنون ولاشك.. لكنهم عندما شرعوا في النوم كانوا يتمثلون جثة الولد الغريق بينما أسماك النهر تتجاسر وتعبث بأطرافه.. وعلى العموم كانت حكاية العائد سببا في عدم استمتاع أيهم بنوم هادئ وظلوا على هذا النحو يثرثرون حتى جاء أوان الطابور الأول فقاموا من نومهم ونسى أحدهم أنه شهر الصيام فشرب من لتر ماء أمامه ولما ذكره الآخر عجب للأمر وسأل كيف عاد رمضان بهذه السرعة العجيبة.

أيام الخلق:

-١-

في ظهيرة اليوم السادس من أكتوبر ٧٣ وصلت إلى من كانوا يقبعون في مواقعهم أوامر، تبادلوا نظرات الأفاقة

وتحركوا، في خفة النمور المدربة كـــانوا يتحركـــون وفـــي وضح النهار.. كانت اللحظة المرتقبة قـــد حلـــت فانزاحـــت الهموم القديمة و تحولوا إلى كائنات جديدة، لم يكـــن الأمـــر مجرد عبور لجسر أو لحاجر، كان أكبر، انـــدفعوا بحمـــاس طائر مفلوت من قبضة يد، حلقوا في الفضاء أو تسللوا عبر الأثير وحطوا على رمال الشاطئ الآخر، عبروا بكل معداتهم ذلك الممر المائي ذي التاريخ الحافل والسمعة الرنانة، أصبح الممر في لحظة العبور لهم، لم يكن للنار قدرة على تخويف الطائر المفلوت ولا كان الحديد بقادر على صـــده أو تقليـــل سرعتهم، كانت لحظة الصحوة فانساحوا على طول الشاطئ الآخر وبصورة غير محسوبة أو قابلـــة للتصـــديق، ذبحـــوا مخاوف السنوات الفائتة بالاقتحام الجسور، ساح دم الخـــزى القديم على رمال الشاطئ الآخر وتفجرت على الشفاه الواثقة أغنيات لم يفكروا قبلا في كلماتها، كوحش خرافـــي كـــانوا يتواثبون ويتشعبون، ينزاح الحاجز الترابي وترفرف علـــى بقاياه أعلام مصر وعلى بعض الأجـــزاء منـــه دمـــاء مـــن سقطوا، ورفرفت أعلام الـــدم وتواثـــب العـــابرون فـــانزاح الكابوس الغشيم مرعوبا إلى الداخل.. تقوقـــع فـــي مخابئـــه

وتحصن بحصون يسيرة الاقتحام، وكان الطـــائر المفلـــوت يزحف، يضيف إلى رصيده أجزاء جديدة من سمائه وأرضه والكابوس المذعور يتراجع في رعب، والمـــارد البشـــرى القادم من أرض مصر يطيح بكل ما صادفه مـــن حصـــون، سقط رجال على رمال الشاطئ لكن الوصية كانت واضحة، الاستمرار والتقدم.. كانت قطرات الدم تتكاثف علـــى أرض الشاطئ الآخر.. وبالدم وحده انـــدكت الحصـــون وانهـــزم التبجح.. وولدت الأرض أبطالا من بطنها الجريح، ولم يكن ثمة شيء غير الاستمرار في العيون ورغبة محمومـــة فـــي تحطيم ما تبقى من آثار العار المزروع على أرض الشـــرق، وكانت الألحان تتزايد ،والشفاه الواثقة تغنى لحـــن الخلـــق.. وبدا كما لو أن الانكسار قد راح زمانه وبأن الأحلام كانـــت تعشش في كافة الأركان واعدة من يعيش بعالم جديـــد فيـــه شيء من الزهو.

-٢-

"يرتضون المهانة و يرضخون لتيـــار المذلـــة مـــن يندبون الأرض ولا يكفون" قال ذلك رجل فقد نصف عقلـــه أثر معارك يونيو ٦٧ وظل يجوب أنحـــاء المدينـــة محـــدثا

الآخرين دون أن يهتم به أحد.. إنما كان يحلو لبعض الدارسين إيقافه وإدارة الحوار معه وغالبا ما كان الحوار ينقطع بسبب أنه كان جريئا بشكل لا يطاق بحيث يلعن بعض الشخصيات المهمة دون رهبة مما يؤدي إلى ابتعاد الناس عنه اتقاء لشره وحرصا على حسن السمعة.. ذلك المساء وحتى انطلق مدفع "الإمساك" ظل يتراقص في الشوارع الجانبية والرئيسية مرددا أفكاره وشعاراته دون أن يدرك أحد إن كان قد استرد نصف عقله الذاهب أم أنه فقد النصف الباقي.. لم يكن ليهتم به أحد في تلك الليلة بالذات، لكنه كان قد تغير على نحو جذري وإن كان من العسير التأكد تماما من دعوى الأكثرية ممن رأوا أنه استعاد توازنه الفكري في ذلك المساء نفسه.

-٣-

عندما انبعث البرق الخاطف أفاقت المدينة، ربما يومها خلقت المدينة.. كانت الوجوه قد نفضت عن تقاطيعها غبار المهانة، انزاحت نظرة الانكسار منكسرة، تبدلت إلى

نظرة مبهورة بما تسمع، ربما كان في البدء إنكــارا، لكــن الأطراف المتكاسلة كانت تتحفز للفعل من بعد طول السكون ، في تلك الأمسية قال رجل لرجل: لو فاتت هذه الليلة علــى خير يكون هناك أمل.

في ظهيرة اليوم التالي تجمع في المقهى الشهير كافة الناس من ذوي الرغبات الحادة في السخرية من كل الأمور، كان المجلس مكتملا لكنه لم يكن ثمة نكــات ولا ســخريات، التفوا حول جهاز استقبال صغير يملكــه الســاقي وراحــوا يتسمعون.. كانوا يتبادلون نظرات الأفاقــة، كــأنهم غرقــى خرجوا لتوهم من بحر صاخب ووصلوا إلى الشــط، فتحــوا العيون و راحوا يستعجلون الكلمــات فــي كــل البيانــات، ويجتازون معها مواقع رهيبة كانت تحجب عنهم الشعور بأي قدر من الأمان، كانوا يعبرون مع من عبروا إنما بالمشــاعر والأحاسيس وكان الوافدون يتســاءلون عــن آخــر الأنبــاء فيذكرون لهم أرقام البيانات ويطمأنون من فاته بيــان إلــى حسن سير الأمور.. وأحيانا يسألون، يحاولون التأكــد مــن شيء أو التأكيد على شيء.. وذابت كل الخلافات القديمــة، الهينة والعويصة، جفت أعشاب الكراهية في الصدور، كانوا

يستنطقون جهاز الاستقبال ويود الواحـــد مـــنهم أن يســـتبق الكلمات، وفي عيون المناكفين القدامى دعة وسكون فـــرح.. ينزاح الموات القديم الذي عشش على الوجوه زمانا وتستطيع التقاطيع الآن أن تشتاق وتحلم وتحس، كانت أسباب الخـــزى قد غابت في هذه الساعة، و تقافزت في صـــدورهم قلـــوب أوشكت قبل ذلك أن تكف عن الوجيـــب، وحتـــى أراجـــوز الوسط المهتز أعلن أنه مستعد بصدق وشرف في هذه الساعة أن يحمل السلاح ويذهب إلى هناك، وأضاف إلى معلومـــاتهم عنه أنه صياد ماهر وأنه يعرف كيف يتعامل مع المدافع من كل الأنواع، وكان البشر يولد والمدينة تخلق لأن الخلق كمـــا بدا لهم أيامها كانوا يتحركون ويتسابقون في تسميع البيانـــات كتلاميذ شطار في جدول الضرب.

– ٤ –

حوالي منتصف أكتوبر، ربما كان الخامس عشر أو السابع عشر تقريبا، كان رجل يتسم بالوقار ويثق الجلوس في كلامه لأسباب كثيرة، وبسبب أنه كان صادقا طوال عمـــره وكان أيضا مضيافا حسن الحديث، كانوا قد انتهوا من طقوس وجبة الإفطار الرمضانية وجلسوا في استرخاء يدخنون، فتح

الرجل الوقور جهاز التليفزيون وتتابعت البرامج، ظهرت بعض المشاهد الخاصة بتحرير مدينة على الشاطئ الشرقي، ساعتها راح يشير إلى أحد العابرين من أبناء مصر مؤكدا بإصرار شديد أن ابنه بنفسه يشارك في تحرير المدينة ويرفع العلم، وتاه الضيوف في متابعة عشرات العابرين على الشاشة الصغيرة الذين أكد لهم الرجل لأسباب مجهولة أنهم جميعا فرد واحد هو ابنه، ولولا الحياء لكذبه الجميع لأنهم يعرفون ابنه ويثقون أن من يرونهم يتشابهون معه فقط في زي الميدان، هكذا بات الرجل الوقور سعيدا جدا لأنه لم يصادف من عارضه في أن ابنه هو الذي حرر المدينة.

-٥-

صباح عيد الفطر المبارك تجمع بعض الصبية من تلاميذ المدارس في ضاحية المعادي رغم أنهم لم يسبق أن دخلوها، كانوا على موعد مع زميل لهم ذاهب لزيارة شقيق له مصاب، وقد توافدوا على الجريح وراحوا يسألون بإلحاح أن يحكي لهم عما رآه، بعد نصف ساعة تاه الصبية في عنابر المستشفي وتشعبوا حول كل الجرحى دون أن يدرك الواحد منهم لمن جاء أصلا، تحولت العنابر إلى شبه مدرسة

أو مدارس، لم يكفوا عن الأسئلة حول سر الحرب وقدموا للكل هداياهم دون تنظيم، حتى كراريسهم التي حرص البعض على أخذها معهم قدموا أوراقها مع أقلام الرصاص وشاركوا في كتابة الرسائل – رغم الأخطاء في قواعد اللغة – إلى أهالي الجرحى ممن يجهلون مصائر أولادهم، وكان الحماس والفوران أكبر من أعمارهم فدمعت بعض العيون النسائية السريعة التأثر والانفعال قبل أن تنتهي الزيارة.

-٦-

"ثرثرة حول ما جاء في سفر التكوين من أن الأب استراح في اليوم السابع" عنوان جانبي في مشروع مقال صحافي مبتدئ فكر في تبديله لكنه لم يوفق بسبب الإرهاق الشديد الذي صادفه في ذلك النهار، وقد نام الصحفي المبتدئ بعد أن أجهد ذهنه في بعض الأفكار المحيرة حول العالم الدائب على الصراع وانتشار الجهل وصعوبة الاستمرار في حروب التحرير، وكيف أن الجو لم يكن مواتيا لتحقيق ما كان يبتغيه في مستقبل حياته، وعندما قام من نومه مفزوعا في منتصف الليل بسبب الجهد الذهني الذي بذله جاءت أمه وأحاطته بذراعيها ودفنت رأسه في صدرها ثم أوصته بعد

أن هدأ أن يحكم الغطاء حول نفسه حتى لا يصـــاب بـــالبرد وهو ضعيف.

الشرارة

البيروتية ــ نوفمبر ١٩٧٣

جواز مرور بهلوان

يقولون أنه جاء إلى المدينة عفوا، وأنه لم يكن ينوي في البداية سوى قراءة الفاتحة على قبر أمه.. عندما ســـألوه عن التاريخ الذي تسلل فيه إلى قلب المدينـــة.. لاذ بصـــمت خجول آسف.. من يومها وأحاديث الناس عنه تدور في ذات الإطار، ويبدو أن أفكارهم جميعا أمست متشابهة.. عندما يهم الواحد منهم بالحديث حول موضوعهم الدائم، يقاطعه الآخـــر مكملا بنفس الانفعال والحماس.

وعندما تأكد لأهل المدينة أن كلا منهم لا يملك أفكارا تخصه وأنه يدور مع الآخرين في نفس المدار... عندما تأكد لديهم أن ما يدور في الرؤوس مجرد تكرار لما يدور في عقول الآخرين... عاشوا أيام الملل الأخيرة.. كان إحساس كل منهم بأنه واضح ومكشوف بشكل يغيظ يطاردهم ويدفعهم لممارسة لعبتهم القديمة... ورغم أنهم يجهلون التاريخ الذي تغيرت فيه معالم الأشياء... فإنهم يذكرون ملامح البهلوان العجوز الذي تسلل إلى قلب المدينة في مساء معتم من أمسيات شتاء بعيد.

حقيقة أن حارس الطريق كان قد أدى مهمته وأوصاه بمراعاة النظام.. أشار إلى طابور الوافدين الممدود ناصحا إياه بالوقوف في مؤخرته شارحا له ضرورة الحصول على جواز للمرور.. وكانت الفكرة تحتاج إلى وقت طويل.. ساعتها أخرج البهلوان العجوز لسانه وتابع المسير في طرقات المدينة المفتوحة.. لم يكن للمدينة أبواب ولم يكن لها سور بحيث بدت الفكرة سخيفة وبلهاء.. يومها قال لنفسه:

- جئت فقط لقراءة الفاتحة على روح أمـــي، ولـــو اتبعت هذه التعليمات فسوف أتجمد من البـــرد عنـــد مـــدخل المدينة.

كان الحديث يدور همسا في شوارع المدينة وأزقتها حول جوازات المرور... كان الناس يتبادلون الاتهامات فـــي عصبية وانفعال.. كانت في العيون نظرة متشابهة متحفزة.. كل منهم كان يرمي الآخر بأنه لا يملـــك جـــوازا للمـــرور ويتسابقون لإبراز أوراقهم الخاصة أمام الخصوم في حمـــاس بالغ.. كان رجال الحرس يبتسمون في ود خالص لكل مـــن يثبت أنه أكثر محافظة على النظـــام واتبـــاع التعليمـــات... كثيرون كانوا يصمون القوانين ويستعرضون أمام خصومهم قدرتهم على الحفظ والتكرار.. كان واضحا أن العلاقة طيبة حتى ذلك الوقت بين حراس المدينة وسكانها الذين يحملـــون جميعا جوازات مرور مدموغة ومبصومة.. كانت اللافتـــات منتشرة في كل الأحياء والأزقة.. تعلـــن أن نظـــام المدينـــة يفرض على ساكنيها والوافدين إليها حمـــل جـــواز مـــرور رسمي... كان الوصف الرهيب للجزاء يجعل الناس تتســـابق للدفاع عن نفسها بإخراج أوراقهم الخاصة.. ابتسم البهلـــوان

لنفسه وهو يتخيل نفسه داخل الصندوق الفولاذي المودع في وسط الزنزانة التي تقع في نهاية السرداب المسحور.. كان يتخيل نفسه في هذا المكان الجهنمي ويحس في أعماقه بمدى الخطر الناجم عن عدم امتلاكه لجواز رسمي للمرور في مدينة كل ما فيها منظم وساكن ورتيب.. لكنه لم يفكر في العودة ولم يرتجف بحيث لم يفكر أي الناس في اتهامه.. وعندما شرع في البحث عن قبر أمه واجهته بعض الصعاب.. لكنه كان خبيرا بشكل ملحوظ في التخلص من كل المشاكل الصغيرة..

قال لنفسه إن السنوات التي عاشها في جزيرة الشيطان علمته الكثير.. كانت الجزيرة بأسرها وكرا للجان والأبالسة.. ورغم ذلك فقد استطاع أن يندمج معهم ويعمل في سفن الموت التي كانوا يجوبون بها البحار السبعة.. وبدت له هذه المدينة بسيطة وسهلة بالنسبة لخبرة بحار قديم وافد من جزيرة الأبالسة.

في واحد من الأحياء المتهالكة سمع البحار القديم قبل أن يتحول إلى بهلوان حكاية المهرج الذي مات في ذات المساء المعتم من أمسيات الشتاء.. قالوا أنه سقط ميتا وسط

حلقة الملعب الكبير.. أكدوا أنه لم ينتحر وإنما خانته شجاعته فأخفق في حفظ توازنه وهو يؤدي لعبته الخطـــرة والمحببـــة إلى النفوس.

كان واضحا أن المدينة تبحث لنفسها عـــن مهـــرج جديد.. ثرثروا كثيرا حول الوجه المأمول.. بهلوان جـــريء يغسل ما علق في نفوس البعض من أحزان متراكمة، يبـــدد تلك النظرة المتجهمة التي تتقلص بفعلها الملامح وتبدو رهيبة الاكتئاب... خطواتهم كانت منظومة ورتيبة.. كأنها بنـــدول ساعة لا يتخطى حدودا بعينها.. الذي يســـرع خطـــاه يـــتهم بالجنون والذي يتكاسل تدوسه النعال.

قال البحار القديم قبل أن يتحول إلى بهلوان رسمي.. إن آلام رجال المدينة تبدو مستحيلة العلاج ومن ثم فلن تجدي المحاولات التي يبذلها الإخصائيون في عـــلاج الأمـــراض النفسية.. كان البحار العجوز قد اكتسب خبرات كثيـــرة فـــي ترجمة الأنات المبتورة والآهات الخافتة.. حـــين انعكســـت أصداء النبرات المحزونة الحائرة والأنين الخافت الصادر من أفواه الرجال والنسوة لم يعد في حاجة إلى مزيد من الوقـــت ليعرف مدى ما وصلت إليه المدينة من الارتباك والملل.

كانت جرعات السأم تتسرب إلى أكواب المياه رغم الجهود التي بذلت لتخليص الأنهار منها.. كان الهواء نفسه يحمل الجرثومة.. أكد واحد من الخبراء أن الجو مشبع تماما بجرعات السأم.. كان من العسير على الخبراء أن يتوصلوا إلى حل سريع للمشكلة.. لكن البحار العجوز كان إنسانا رغم أنه عاشر الأبالسة عمرا..

وفي لحظة من لحظات التفكير العميق تناسى البحار العجوز قبل أن يتحول إلى بهلوان مهمته التي تسلل إلى المدينة من أجلها... نسى تماما أنه جاء إلى المدينة خلسة لإنجاز عمل بعينه.. حقيقة أنه لم ينس وجه أمه الذي اقتاده ليدخل المدينة قبل أن يحصل حتى على جواز للمرور.. لكنه فكر في تأجيل الزيارة وأعلن أمام نفسه قراره الخطير:

- سوف أعمل على إضحاك المدينة المحزونة.

في زقاق حالك السواد استطاع البحار العجوز أن يصنع لوجهه قناعا لطيفا وطرطورا طويلا ملونا.. وراح يجرب بعض الألعاب التي عملها له أولاد الأبالسة، وعندما اطمأن تماما إلى مستواه اتجه ناحية الملعب الكبير.. لم يكن

للمعلب الكبير باب.. وعندما توسطه البحار القديم الذي تحول إلى بهلوان يضع فوق جبهته طرطورا لطيفا.. انفجر الخلــق في ضحكة مدوية مبسوطة لأول وهلــة.. سخســخوا علــى روحهم لدى رؤيته.. كاد البعض أن يفطس من الضحك لولا أن البحار العجوز كان يتوقف لحظات عن عــرض ألعابــه ريثما يستنشق البعض أنفاسه..

كانت هي المرة الأولى التي شعر فيها الخلق بنــوع من الدفء.. ومن عجيب الأمر أن البعض أكد على مسئوليته الخاصة أن الشمس أشرقت في ذلك الصباح.. كان البحــار العجوز مسليا تماما.. مسليا لدرجة أن العيون راحت تركــز نظراتها عليه في سعادة غامرة.. صفقوا له كثيرا... لكنه لم ينحن لأحد.. كان معهودا لديهم أن المهــرجين ينحنــون ردا على التحية.. على الأقل كان يجب أن يومئ لهم برأسه لكنه كان بهلوانا فريدا من نوعه.. حقيقة أن السؤال دار في كــل العقول.. لكن أحدا لم يستطع أن يصرح به علنــا.. كانــت غطرسته واستخفافه تشبه شيئا عالقا في الحلق.. لكــنهم لــم يفكروا في إحراجه بالسؤال.. ارتضوا بهمســات مســرورة منسجمة ودوت ضحكاتهم المبسوطة في كل أنحاء المدينــة..

ومن كل الأطراف وفدت جموع.. يشاهدون المعجزة الجديدة التي استطاعت أن تزيل من الوجوه تلك الكآبة البغيضة وأن تمسح أحزان القلوب.

وخلال ذلك الشتاء التالي تناقصت جرعات السأم بشكل ملحوظ.. بل إن الخبراء أكدوا أن الهواء نفسه أصبح أكثر نقاء.. ولم تعد جرعات السأم تتسرب إلى أكواب المياه.. بل إن الضحكات كانت تجلجل في كل الأحياء.. حتى خطوات الخلق أصبح لها طابع آخر.. فهي سريعة ومتحمسة ومتفائلة..

كان البحار العجوز الذي أصبح بهلوانا يتمشى أحيانا في طرقات المدينة في ثياب البهلوان.. ولكم قابلوه بالتهليل المبسوط:

– بهلواننا الحبيب الشجاع.. بهلواننا الحبيب الطيب.

كان الناس يتسابقون في سرد بعض الحكايات الغريبة عن المهرج الجديد.. ولكن طاب للبعض أن يضيف للحقيقة بعض الرتوش الطفيفة.. ليضفى على الصورة مزيدا من الاهتمام... كانت المناقشات تحتدم والأصوات تتعالى..

وإصرار البعض على خداع الآخـــرين ومحاولـــة إقنـــاعهم ببعض التفاصيل التي لم يكونوا على استعداد للاقتناع بهـــا، كل ذلك كان يشكل موضوعا متصلا ودائما للنقاش الطويـــل الحاد..

قال البعض المتحمس إن بشرة البهلـــوان العجـــوز حالكة السواد.. وإنه هارب من مدينة لا تدخلها الدواب لأنها تستخدم ظهور السود في نقل البضائع والرحلات والأسفار.. نفي البعض الآخر تلك الفكرة وأكد أن جلده في لون الشـــمع الأبيض.. وصرح البعض في صوت خافت أن لون بشـــرته أحمر أو قرمزي أو ربما بنفسجي غامق.. تفننوا في وصف المهرج المسكين الذي تطوع مختارا ليبدد أحزانهم.. عـــادوا إلى لعبتهم القديمة وراحوا يتبادلون الاتهامات فـــي عصـــبية وانفعال.. وارتفعت موجة التحفز وراحوا يسألون خصومهم عن جوازات المرور.. تخلص بعض الخصوم من الموقـــف بإبراز أوراقهم الخاصة أمم الحراس.. أسرع البعض الآخـــر إلى البيت يبحث عن جواز مروره الذي كان قد أهمله منـــذ شتاء قديم.. كان الخوف من صندوق الزنزانة التي تقع فـــي نهاية السرداب يدفعهم دفعا لمتابعة البحـــث عـــن جـــوازات

المرور.. واتباع النظام.. ومرة أخرى ساد النظام جنبات المدينة، طوابير الوافدين منتظمة.. جوازات المرور في الجيوب أو معلقة فوق الظهور، خطوات الناس رتيبة ومنسقة.. الذي يسرع خطاه يتهم بالجنون والذي يتكاسل تدوسه النعال..

وفي واحد من الأيام تجرأ طفل مهووس مشاغب لا يعرف النظام وخطف طرطور البحار العجوز الذي أربكه النظام الدقيق فكف بالتالي عن ممارسة ألعابه كبهلوان يؤدي واجبه في إضحاك الرجال.. بانت تجعيدات الجبهة لدى اختطاف الطرطور، كانت التجعيدات محفورة منذ آلاف السنين.

في صباح اليوم التالي امتدت يمين واحد ممن لا يحملون جوازا للمرور لتسلب قفازات البحار العجوز.. اتسعت أشداق الرجال من الدهشة.. لم يكن لبشرة البحار العجوز لون.. ازداد شباب المدينة جرأة وجردوه من ثيابه.. ووقف الرجل العجوز وسط السامر الكبير عاريا كما ولدته أمه.. غضت النسوة والفتيات أبصارهن بينما أعجب الرجال والأطفال بالمنظر.. لم يكن لجلد البحار العجوز لون.. انفجر

الجميع في ضحكات هستيرية مهووسة بلا أسـباب.. كـان يكفي أن يهمس أحدهم بكلمة فيبدو عاريا تماما أمام الآخـر، كان منظرا فريدا من نوعه.. مهرج عار في مدينة عـراة.. مجموعة ملحوسة من الرجال والشباب تمارس الضحك لأتفه الأسباب... كأنهم سكارى.. بل إنهم كانوا سكارى.

ومن جديد جاء الحراس بالحراب والدروع يحاولون فرض النظام الذي ارتبك تماما وأدى بالتـالي إلـى تسـلل البعض ممن لا يحملون جوازا رسميا للمرور.. اقترب رئيس الحرس من الرجل العجوز المجرد من ثيابه.. سـأله عـن جواز مروره.. أجاب البحار العجوز الذي لم يعد بهلوانا بأنه ضاع منه في الزحام.. سألوه عن المكان الذي كان يحـتفظ فيه بجواز مروره.. قال أنه أخفاه في طيات طرطوره العزيز يوما.. جاءوا له بالطرطور والثياب والقفازات المسـلوبة.. راحوا يتأملونه وهو يفتش بوجه حائر عـن شـيء معـدوم الأثر.

احتدم النقاش في ذلـك المسـاء.. ازدادت موجـة الانفعال.. أشار أحدهم بطرد البحار الدخيل مـا لـم يحمـل جوازا رسميا للمرور.. عارضه آخرون قائلين بأن المدينـة

تحتاج إلى مهرج دائم يساعدهم على الخلاص من جرعات الملل والسأم التي تتسرب إلى أكواب المياه.. أضاف البعض الآخر بأن ألعاب البهلوان المجهول كانت سببا في خلاصة المدينة من شحنة السأم وأنها أفلحت فيما لم يفلح فيه الخبراء..

قال ولد مشاغب أن وجود البهلوان خفف من نسبة العراك..

جاء رجل عجوز وأشار إليهم بسؤال البحار نفسه وإذا ما كان ينوي البقاء.

أسرع واحد من الحرس بتفريق الجمع الملتف.. تبعه آخرون.. ذكرهم واحد من كبار الحراس أن قوانين المدينة لا تسمح إطلاقا بمناقشة مثل هذه الأمور... أردف واحد ممن شهدوا المنافسة من بدايتها قائلا إن المادة الأولى من الدستور الدائم تنص على عدم مناقشة المسائل المرتبطة بالغير في وضح النهار.. كاد آخر أن يسرد على مسامع الواقفين نص المادة الخامسة الخطير.. لكنهم حاصروه تماما.. كان واضحا أن المدينة دخلت في دوامة جديدة من دوامات السأم.. كان

من اليسير أن يقرأ الواحد منهم أفكار الآخرين.. أصبح الكل مكشوفا بشكل يغيظ.. الرؤوس جوفـــاء وعاريـــة والأفكـــار متشابهة.. والخطوات أيضا والكلمات.. ومـــن جديـــد دارت المدينة في فلك الاتهامات المتبادلة ولافتـــات التحـــذير مـــن الصندوق المحطوط في قلب الزنزانة الكائنـــة فـــي نهايـــة السرداب المسحور..

وتغلغلت جرثومة السأم في أكواب المياه فـــي الجـــو الرطب نسيم خانق.. وأعلن الخبراء عن فشلهم التـــام فـــي مقاومة الموقف الصعب.. وعندما سألوه للمرة الأخيرة قبـــل الرحيل عن سر دخوله المدينة وتاريخه.. أجابهم بغير انفعال قائلا إنه جاء إلى المدينة عفوا وكان ينوي في الحقيقة قراءة الفاتحة على قبر أمه.. وعندما تسلل المهرج العجـــوز مـــن المدينة هاربا في إحدى الأمسيات.. عاد النظام مـــن جديـــد صارما حازما.. مسيطرا على كـــل الأمـــور.. والصـــورة مازالت عالقة في أذهان الجميع.. لكن الصمت كان أبلغ من الكلام.. كانت الصورة ماثلة ومأمولة.. بهلوان جديد.. يزيح عن صدور أهل المدينة آلام الانتظار... مهرج جريء بـــلا

قفازات.. يبدد المخاوف وينتصر علـــى الفــزع.. ويـــدخلها مرور مدموغ ومبصوم..

الأقلام العراقية ــ مايو ٦٨

الغائب

تقلبت في فراشها وقد حاصرتها الأفكار والمشاعر المتباينة، كانت وحيدة بشكل لا يطاق، وحيدة إلى حد جعلها تستجير بجدران الغرفة، تحادثها وتبحث عن خلاصها بتلمسها، لتؤكد لنفسها لحظة سريان رطوبة في الجدار المقابل حيث تزايد النشع فصنع رسوما وهياكل غريبة، خيل إليها أنها تراه وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة عريضة ساخرة، رفعت الغطاء عنها وقامت من مرقدها اقتربت أكثر من الجدار المقابل تتفحص منطقة النشع، منومة أكثر منها واعية بخطواتها وعندما تبين لها أن ما كانت تراه ليس أكثر من أشكال منسابة ومتقاطعة بلا معنى أو تحديد لجدار أصابه الكثير من الرطوبة فبانت أجزاء من طوبه الأحمر عارية من الدهان وطبقة المحار، عادت من جديد إلى سريرها وتمددت عليه تفكر، خيل إليها بينما تنظر إلى سقف الغرفة أنها تسمع صوته يناديها كما كان في السابق، ردت بصوت مسموع "نعم يا حسان" سمعت صوت نفسها فأدركت إلى أي حد هي وحيدة وتعيسة، خافت أن يصيبها الهوس والجنون، تخيلت

نفسها مجنونة انحل شعرها وتمزقت ملابسها وسارت حافية في منعطفات المدينة تحدث وهما بعيدا لا يــراه الآخــرون فانخرطت في بكاء متواصل حاد، تلفتت حواليها فلم تر غير الجدران الصماء الباردة، ولم تسمع غير صوتها الباكي يتردد نشيجا محزونا بائســا، ازدادت همومهــا وتســربت إليهــا المخاوف أكثر " ليتني أموت وأرتاح، لو كان يعرف قسوة ما أعانيه في وحدتي ما تركني وسافر، لعله لا يفكــر إلا فــي نفسه، لعله نسيني، ولعل كل ما كان يحدثني به قبل الســفر محض خداع وكلام منمق مرسوم بحكمــة وإحكــام بهــدف تركي وحيدة بلا سند، أما هو فلاشك أنه يعيش ويتمتع هناك بالحياة، الناس في هذا الزمان ينشغلون بمصالحهم أولا، حتى حسان نفسه فر بنفسه وتركني ليعيش حياته رغــم إدراكــه المسبق بمدى المرارة التي سوف يخلفها لي بعــد ســفره".. لكنها كانت تقاوم نفسها من الاستمرار في مثل هذه الأفكــار، تتذكر كلماته التي قالها في اللقاء الأخير.

- أعرف يا نجوى أن هذه المدينة غابة وأن حياتــك فيها وحيدة عبء لا يحتمل ولكن ما حيلتي، يجب أن أســافر لأدبر أموري على أساس مجيئك أنت أيضا إليَّ هناك، سوف

أعتمد على حكمتك في مرحلة غيابي عنك، تأكدي أن الأمر لن يطول حتى أبعث إليك تذكرة السفر وأنتظـــرك، لابـــد أن تثقي في إخلاصي وصدق نواياي نحوك.

ولم تكن تملك إلا أن تجتز مثل هذه العبارات التـــي قالها قبل الوداع، كان عليها أن تختار بين الجنـــون اليـــائس والأمل وكان عقلها مع الأمل ومشاعرها مع الخوف اليـــائس من احتمال أن يكون في الأمر خدعة مدبرة، كانت تتذكر ما كان يقوله لها عندما يتأخر عن موعد الغداء:

- عيبك يا نجوى أنك لا تصدقين كل ما أقوله لـــك، كان الأمر غصبا، تقابلت مع صديق قديم وجلسنا ساعة فـــي المقهى نتحدث عن زملاء الدراسة ومشاكل الحياة.

أو يقول لها:

- ذهبت إلى بيت زميل من زملاء العمل، تناولنـــا طعام الغداء وجاء أطفاله الصغار، أنت تعـــرفين إلى أي حد أحب الأطفال، كانوا ظرفـــاء ولـــم أستطع أن أتركهم قبل أن أشبع منهم.

كانت مثل هذه الحكايات سهاما حادة وحرابا مسنونة تفرى مشاعرها وتقلب مواجعها الكامنة، كانت تثـور عليـه قائلة:

- أعرف يا حسان، أعرف أنني لم أنجـب أطفـالا وأعرف أيضا أنك تحب الأطفال، لكنني أحبهم مثلك وعجزي عن الإنجاب ليس ذنبي، أنت حر، تزوج يا أخي، تزوج ولا تعايرني كل يوم بهذه الحكاية أنت تعذبني وأنا لـن أحتمـل أكثر مما احتملت منك يا حسان.

كان يلوذ بالصمت، ينسحب في هدوء، يسهر إلى ما بعد منتصف الليل ثم يعود في خفة ودون أن يصدر صـوتا، يغير ثيابه ويندس إلى جوارها في الفراش، لا يفاتحهـا فـي شيء، ولا يكلفها بإعداد طعام، وعندما تسأله عن سر غيابـه يبتسم في ود قائلا:

- هربت من المشاكل، قلت أسهر في المقهى حتـى تهدأ العاصفة، هل هدأت العاصفة يا نجوى؟

كانت العاصفة تهدأ في أغلب الأحوال، لكنها كانـت تزداد عنفا في بعض الحالات، يسهران الليـل بطولـه فـي

صراع لا أول له ولا نهاية، صراع ممطوط متواصل بلا هدف إلا الصراع وكأن كلا منهما يهدف إلى تحطيم الآخر، وكان الأمر ينتهي في كل الحالات بزائر، صديق أو قريب يزورهم فتجبرهما الزيارة على التعامل معا بشكل طبيعي حتى لا يُظهرا خلافهما أمام أحد، وكلما كانت مدة الزيارة أطول كانت إمكانيات الصلح أقوى وأعمق، ذلك أن ابتسامة متبادلة ونكتة خفيفة ورأيا مشتركا في موضوع كان يكفي لأن تعود المياه إلى مجاريها، وقد بدا لها في بعض المرات أن الزيارات مدبرة بإحكام منه حتى ينتهي الخلاف ولقد جرؤت مرة وقالتها له:

- حسان، أنت تدبر هذه الزيارات، ما الذي جاء بصديقك إسماعيل بعد هذه الغيبة الطويلة ؟ أراهنك أنك دعوته لزيارتنا لغاية في نفسك.

وكان يرد عليها بابتسامته العريضة:

- أنت تفكرين بطريقة غريبة يا نجوى، لكن حتى ولو كان الأمر كما تقولين فهذا يعني أنني أحبك ولا أطيق خصامك وهذا يدعو إلى الاطمئنان وليس القلق.

لكنها كانت تسأله من جديد:

- لكن قل لي، هل دبرت هذه الزيارة أم لا؟

ويجيب ببساطة وكأنه يتخلص من إشكال بسيط:

- دبرتها يا نجوى، دبرتها، هل ارتحت الآن؟

على هذا النحو كانت تسير حياتهما الزوجية، يتأكد لديها أنه يحبها في بعض الأحيان أكثر مما كانت تتصور، تزداد حبا له واشتياقا إلى كل همسة أو حركة يقوم بها في البيت، كانت تعشقه وتغار عليه إلى حد الهوس، وتخاف أن تفقده في لحظة تتخيل الجحيم الذي يمكن أن تعيش فيه إذا فقدته فتلاحظه أياما وكأنه طفل ولدته بنفسها، ترعاه وتحنو عليه قبل أن تثار زوبعة جديدة، تحدث نفسها قائلة:

"إنني أتعامل معه هذه الأيام بشكل لا يليق، إن حبي الزائد له يجعله يتمادى في الأخطاء، إنه يتأخر عن مواعيد الغداء، لعله ينظر إليَّ نظرة استخفاف وسخرية، أنا لم أنجب له طفلا، ربما يكرهني، ربما يفكر في الزواج بأخرى بهدف الإنجاب، سوف أعاركه عندما يعود".

وبالفعل، يعود لتعاركه من جديد، حياة تتواصل فيها أيام العراك وأيام الصفاء والتآلف، تجره بذلك إلى دواماتها الهادرة وتدور في دواماته، تجذبه إليها وتدفعه عنها، وتجعله يتعلق بها قدر تعلقها به، ويوشك أن يغفر لها عجزها عن الإنجاب طوال السنوات الخمس التي هي عمر زواجهما ذلك أنه قال لها مرة:

- أنت يا نجوى لا تعرفين كم أحبك، يكفي أن أقول لك أنني في بعض الأحيان أتخيلك طفلة أنجبتها، أنت بالفعل طفلة في بعض الأحيان، أقول لنفسي ساعتها إنني أب لك وأنك ابنتي، ثم أصل إلى فكرة مؤداها أن فيك الكفاية، إنني لا أفكر في ممارسة دوري كأب بغيرك، هل تفهمين قصدي؟

كانت تتسمع في نشوة وتسأل نفسها إن كان من الممكن أن تتحول الزوجة إلى طفلة في بعض اللحظات بحيث تجعل الرجل يستعيض بها عن الأطفال بالفعل ؟ مثلما يحدث بالنسبة لها عندما تراه زوجها وطفلها في آن واحد، لكنها كانت لا تطمئن.

عندما فتحت الرسالة وتأكد لديها أن تذكرة السفر إليه قد حجزت بالفعل قرأت بعض الكلمات من منتصف الورقة بحسب ما تثبتت على الورقة عيناها "وسنلتقي يا طفلتي وأمي وكل مستقبلي، سأنتظرك، وعندي لك البشري بأن حالتك التي عرضتها على الأطباء هنا لها علاج، ذلك إن الله أراد أن يكون سفري مفتاحا لعلاجك وسوف تكونين أما لطفل مشاكس مثلك.."

كانت عيناها تدمعان من فرط الفرحة، دموعها تنسال على حروف الرسالة فتذوب وتتلاشى وترسم وجها باسما لرجل عشقته وحلمت أن تمنحه طفلا من صلبه حتى أوشك الحلم على التحقق بعد طول الصبر والانتظار.

البيان الكويتية ــ أكتوبر ٨١

المتجنس

أحاطوه بأفواه فاغرة وعيون منبهرة بينما يحدثهم عن حياته هناك، كانوا مجموعة من الشباب في أعمار متقاربة لا يزيد أكبرهم عن الثالثة والعشرين، أما هو فكان في حوالي

الأربعين يرتدي ثيابا أنيقة زاهية الألوان ويضع في عنقه سلسلة ذهبية يتدلى منها إطار من الذهب على شكل مستطيل تبرز وسط فراغاته مجموعة من حروف اللغة الإنجليزية، كان بدينا متثاقل الحركة على مقعده في صدر الدائرة لكنه يحسن استخدام تقاطيع وجهه وأطراف أصابعه في خفة ومهارة ويلون صوته بحسب ما يريد عامدا إقناعهم بأفكاره والتأثير فيهم وبين وقت وآخر يخرج منديلا ورقيا من كيس المناديل الكبير المحطوط أمامه، ينظف أنفه بقسوة ويكور المنديل بين أنامله ثم يلقي به في الركن، يعتدل في مقعده بعسر وسط الصمت المهذب، يجول بنظراته في كل الوجوه، يرفع رأسه مستديرا عاليا ويوسع حدقتيه ثم يقول:

- أنت تعيش هناك في سلام تمارس كل شيء كما تريد، تسخر العالم لخدمتك في كل شيء.

سكت فبدا لهم أنه يرغب في قول شيء خطير، فكرة خطرت له ويرغب في طرحها بشكل مفاجئ، تابعوا صمته في قلق، مد يده وأخذ منديلا ورقيا طواه في تأنٍ ثم حطه على أنفه النظيف وتمخط في عنف، كور المنديل ورماه فوق كومة المناديل، تبادلوا خلسة، بينما هو مشغول بأنفه، نظرات

مرتابة حول جدوى تلك المحاولات المتكررة لتنظيف أنفه، والذي يزداد احمرارا ولمعانا بشكل ملحوظ، ومرة أخرى رفع رأسه المستدير ووسع حدقتيه ثم قال:

- كثيرون جدا يرغبون في الهجرة إلى هناك والأمر سهل وبسيط، هناك مجموعة من الاختبارات البريئة التي تهدف إلى التأكد من ولاء المهاجر الحقيقي لوطنه الجديد.

بان القلق على وجوهم لكنه غمز بعينه اليسرى مهونا عليهم الأمر، تناقصت جرعة القلق، ابتسم ودارت عيناه تطالعان كل الوجوه فارتاحت الملامح واطمأنت العيون، مد يده وسحب منديلا ورقيا، طواه في تؤدة بنفس الطريقة السابقة حتى بدا لهم أنه سوف يدمى أنفه من كثرة الحك غير المبرر للأنف التعس الخالي من كل احتمالات القذارة، كح الرجل على غير توقع فاهتز البدن، زفر في ضيق وقام من مقعده فبان لهم الإطار المستدير من الجلد المضغوط والذي يشبه إطار سيارة إنما في حجم مقعدة رجل، مد يده وحرك الإطار الذي انزاح عن مكانه قليلا جعله في منتصف المقعد تماما، وببطء شديد حط مؤخرته عليه ثم زفر في ارتياح، تناول حقيبته الصغيرة وفتحها، أخرج جواز سفره وجعل

يتفحص صفحاته في تأنٍ وكأنه يراه لأول مرة، هز رأسه في زهو غير مفهوم الأسباب، ثم مد يده بجواز السفر في غير حماس، بان على وجه الرجل كدر، لعله كان يتوقع حماسا أو تهليلا يليق بفارس قطع شوطا طويلا في سباق ووصل إلى خط النهاية فلم يصادف تشجيعا مناسبا، لكنه سرعان ما لملم أطراف نفسه وأشار إلى الشاب بأن يتناول الجواز إلى الجالس عن يمينه وأن يطلع الجميع عليه، كان جواز السفر يتناقل بين أيديهم وعيناه تطالعان في لهفة وشغف حركة الأيدي وحماس الملامح. قال مباهيا على غير توقع:

- صادر من هناك، لقد حصلت على الجنسية بعد سبع سنوات من الإقامة، سبع سنوات تزوجت خلالها وأنجبت طفلة جميلة لها عينان زرقاوان وشعر ذهبي ناعم، في ديسمبر القادم نحتفل بعيد ميلادها الأول.

كان يتكلم في عصبية وانفعال ويتحرك بكل بدنه هذه المرة، تناول منديلا ورقيا واستخدمه بعنف أكثر فأوشك الدم أن يخرج من المسام المحتقنة، غمغم وهز رأسه ثم قام من مجلسه واقفا، نظر إلى الإطار في ضيق، كان الإطار قد

تزحزح عن مكانه بشكل ملحوظ هذه المرة، مد يده وحطه في منتصف المقعد ثم جلس ببطء وحذر قبل أن يقول:

- الطب هناك متقدم جدا، إنهم يصنعون المعجزات، بل يحاولون الوصول إلى علاج الحالات النادرة، حالة مثل حالتي تحتاج إلى صبر، إنها حالة محيرة بحق، لكنني أثق في احتمال أن يتوصل الطب هنا إلى علاج لها في وقت قريب، يومها أستطيع الاستغناء عن هذا الإطار اللعين الذي يلازمني في كل مكان.

قال العبارات الأخيرة في تعجل وحماس وكأنما يتخلص من عبء كان يحمله ويداريه عنهم في ذات الوقت، وقف بينهم وحمل إطاره الجلدي في قبضة يده اليسرى، تذكر علبة المناديل الورقية فأزاح بيده اليمنى إطاره الجلدي لينفذ ساعده الأيسر من فتحته الواسعة ويستقر من الكوع تماما بينما يحمل علبة المناديل في راحة اليد اليسرى وحقيبته الصغيرة في يده اليمنى، قام الجميع وتوقعوا أن يصافحهم في نهاية اللقاء، لكنه ابتسم في عسر وأومأ لهم برأسه ثم استدار، تابعوه بنظراتهم حتى وصل إلى باب السيارة، فتحها وحط علبة المناديل الورقية أمام عجلة القيادة بجوار حقيبته

الصغيرة، وانحنى ليضع الإطار الجلدي فوق المقعد وبعسر شديد استطاع أن يدخل ببدنه المترهل ويجلس فوق الإطار، أدار السيارة وانطلق بها وكأنما يهرب من الميدان مخلفا وراءه الدهشة ونظرات الرثاء.

الأهرام ــ ٨١/٩/٣٠

كشف المستور

إهـــــــداء

لمصر والمستقبل

والناس.

وأمل دنقل ، شاعر مصر الساكن في قلوبنا

شاهد وشهيد سنوات الاستهلاك

الاستمساك.

وزمان الاستنفاع الاستنطاع

الزهد ، أمل.

من قبله صلاح والطاهر وسرور.

ولماجدة الشيخ

أم هشام و سها.

وشريكتي في الأيام الصعبة.

أحمد الشيخ

كشف المستور

أعرف أنه أخى الأكبر، أعرف، ولا أحتاج إلى من يذكرني بهذه الحقيقة، لكن يا حضرات، لا يصح أن تصدقوا كل ما يقوله دون سماع الرأي الآخر، لا يصح أبدا أن يكون هو الصادق دائما وأنا الكذاب، مستحيل أن ينقسم العالم إلى أبيض وأسود، أي عاقل لا يمكن أن يفكر بهذه الطريقة، اتركوا فكرتكم السابقة عني واسمعوا الحكاية بحياد.

كنت في ذلك اليوم غير واثق من إفلاسه تماما، صدقوني لم أكن واثقا من إفلاسه إلى هذه الدرجة، صحيح أنه موظف محدود الدخل، لكنه دائما مستور (بيني وبينكم، تعودت معاملته على أساس أنه رجل منظم، هو نفسه يجعلني أشعر أنه محتاج إلى مساعدة، هو حر، يمارس حقه في أن يكون كبيرا ويتحمل النتائج) المهم، كان من الممكن أن يهمس في أذني بأنه أفلس بدلا من التظاهر الزائف بأنه قادر على مواجهة الموقف.

أحكى لكم التفاصيل، حسنا سأحكي، لقد جئنـــاه فـــي زيارة ، الضيافة لها أصول يعرفها، أنا لم أورطه في شـــيء أكثر من طاقة احتماله، ذهبنا إليه أنا والأولاد تلبية لدعوتـــه هو نفسه، عندما تذهب لزيارة أخيك، فالمفترض أنه ســيقوم بالواجب، يستدين يتصرف كما يحلو له، لكنه يقوم بالواجب، صحيح كنا في آخر الشهر، صحيح، لكن ماذا أقول لكــم، لا أريد أن أقول كلاما صغيرا، لقد قصر رقبتي أمام زوجتـــي في أول زيارة لها في بيته، في الأيام الأولى لــم يحــدث أي شيء غلط، قام بالواجب، أنا لا أتحدث عن الأيام الأولى، أنا أحدثكم عن الموقف الأخير، أنا لا يهمني الفلــوس، الفلــوس تذهب وتجيء، إنما المهم هو أن يكون عارفا قدر نفسه، أنتم تعرفون أن جلسة طائشة كفيلة بحرق ما يوازي نصف مرتب الأخ الكبير المحترم.

نعود للموضوع، قلت له نخرج لقضاء ســهرة فـــي وسط البلد، نتعشى في مطعم وندخل سينما فهل هذا غلــط؟ (طيب واحد غرضه أن ينبسط يعكنن عليه؟). قال الأســتاذ المحترم.. نتعشى في البيت، أفهموها، المسألة لا تحتاج إلـــى تفسير، المسألة مسألة فلوس، قلت لأبسِّط عليــه الأمــر: ولا

يهمك، أنا وجهت الدعوة ومتحمل تكاليفها صدقوني أنه إنسان معد، كان من الممكن أن يسكت وينتهي الأمر، لكنه قال: عيب، أي واحد منكم في مكاني كان سيتصرف بنفس الطريقة، خرجنا من البيت أنا وهو وزوجتي وزوجته والولدان، ركبنا التاكسي وقام بدفع الحساب، أنزلنا في ميدان العتبة وقال، بلهجة لا تسمح بالمناقشة: ندخل مسرح ، (مالنا بالمسرح ؟) أمثالنا يذهبون إلى مصر ليتفرجوا على السينما، هو حر يعشق المسرح كما يريد، إنما يفرض علينا أن نتفرج على مسرحية سخيفة لا أذكر لها اسما فهذا هو الظلم، ادعى أنه يعرف مؤلف المسرحية، سكت، اختفى للحظات ثم عاد ووقف عند شباك التذاكر، لا أعرف إن كان دفع أم أنه لم يدفع لكنه عاد ومعه التذاكر، قال أن العرض سوف يبدأ بعد ساعة، وقادنا إلى محل الكبابجي، فهل أخطأت عندما وافقته وتركت له حرية التصرف؟

حسنا.. لقد بدأتم تشهدون بالحق.. السهرة سوف تحلوّ وتحلوّ أكثر، طلب لنا (بعظمة لسانه) ستة أرباع كيلو كباب بصراحة وسوس لي شيطان مناكف أن أطلب كيلو ونصف كبدة، صحيح أنه لا يصح أن يطلب الضيف بنفسه،

لكنه أخي الأكبر، ومـــن حقـــي أن أطلـــب مـــا أريـــد.. لا تقاطعني.. نحن حتى هذه اللحظة لم نكن نفكر في الحســـاب. على الأقل لم أكن أفكر في الحساب، أنا رجل نزيه أحب أن أنزه أولادي فما له هو.. يتغير لونه فجأة ويصبح في لـــون الكبدة الكندوز.. طبعا هي مسألة فلوس..

ضحكت، كان لابد أن أضحك على منظره، منظـــره أضحكني فضحكت، اصفر وجهه ثم اخضر ثم ازرق، رحت أهرج، بينما آكل لكنه لم يبتسم مجرد ابتسامة، هل كنا نأكـــل ونمسح أيدينا في دماغه ليلوي (بوزه) شـــبرا ويزفـــر فـــي ضيق، مفلس يطلب يا أخي، يضع أنفه في الســـماء وجيبـــه خاو؟ هذا زمن القرش، معك جنيه تساوي جنيها، معك ألـــف تساوي ألفا.. تشربون شيء ــ أي شيء ؟ قلت لهم فســـكت الجميع ، طلبت وعرضت عليه أن يشرب فرفض، هو حر، شربت عصيرا قدر طاقتي وتهيأت لي بعض التهيؤات، رأيته يدخل معي في سباق، يركب حصانا وأركب حصانا آخـــر، أتقدم إلى الأمام ويحاول اللحاق بي فيقع في حفرة.. ضحكت، الفلوس تقوى القلب، طبعا، كان في جيبي أكثـــر مـــن ألـــف جنيه، قلت لنفسي: إن تجارة المواشي أفضـــل مـــن شـــهادة

البكالوريوس المعلقة في حجرة "صالونه" في برواز كالح، كان في الماضي يحدثني كأستاذ يتكلم مع ولد فاشل، فعلا، لقد فشلت في التعليم، لكنني نجحت في مدرسة الحياة، بالعكس أنا أتكلم في صميم الموضوع، أحيانا يقف الإنسان في مكانه ويفكر: أي الطرق أسهل بالنسبة له، صدقوني إن المسألة لا تكون في سن محددة، أنا نفسي اخترت وأنا في سن الخامسة عشرة، كنت قد نجحت في الإعدادية وفكرت كان هو موظفا بمؤهل عال، يأتي ويحدثنا عن الشعر والشعراء ويفتح المجلات التي نشرت أشعاره ويتباهى بكون شاعرا، لو سرت في طريق التعليم فلن أكون مثله، كذلك حدثت نفسي، حسبت حساباتي وحسمت أمري، اخترت الفشل في دراستي، ورسمت لنفسي طريقا آخر، آه.. أبدا لم أنس الحكاية التي بدأتها، في مطعم الكباب كان أخي الأكبر قد كف عن تناول الطعام، كان يبدو قلقا بصورة مضحكة، كان يتحرك فوق كرسيه وكأنه جالس على مجموعة من الأسياخ الملتهبة، لكنه كان في نفس الوقت عاجزا عن القيام من مكانه، كان الرجل المتربص بكشف الحساب ينتظر منه أي حركة، كنت آكل على مهل، انفتحت شهيتي أكثر من أي يوم

مضى، شربت وأكلت، تخيلته غارقا في بحر ولا يرغب في أن يطلب نجدتي، كرهته في هذه اللحظة، كرهت كبرياءه الزائف المسنود على مجموعة كتب قرأها وقصائد كتبها ونشرها، وسألت نفسي عن الأقوى وجاوبت نفسي، قال بصوت مرتعش وكأنه يستجير:

- ميعاد المسرح.

أي مسرح أفضل من مسرح محل كباب تحترق فيه الأكاذيب التي كان يلقنها لي متعالما في كل مرة "مستقبلك.. ستكون فاشلا.. لن تفلح.. " وكلام كثير مثل هذا الكلام السخيف.. من منا الذي لم يفلح؟

(أنا عندي دم) لذا أؤكد له أنه فاشل ولكن بغير حوار منطوق وهذا حقي، أن أزيد في التأكيد أنه لم يفلح، فهذا منطقي مع أخ مثله، يشترى الكتب ويرصها ولا يعرف أن الدنيا شيء آخر غير المكتوب في هذه الكتب، كنت أريد أن ألقنه درس العمر، المهم، قمت على مهل، غسلت يدي وعدت، أشعلت سيجارة وقدمت إليه سيجارة فلم يقبلها، نظرت إليه، ركزت نظراتي في عينيه مدة، لا أدري إن كان

قد شعر بالخجل من نفسه أم أنه شعر نحـــوي بمزيـــد مـــن الكراهية؟ لم أفهم تماما، قلت في برود لأرى رد فعله:

- الحساب؟.

همهم وغمغم في خفوت عاجز:

- ح... حا... حاسب.

وبهدوء مسرحي أخرجت حافظة نقودي، وبإشـــارة من طرف إصبعي جاء الرجـــل مهـــرولا ليحصـــل علـــى الحساب، كنت أنظر للشاعر الفاشل ولا أتكلم، أنـــا إنســـان مهذب، صدقوني، مهذب، لقد خرج هو عن توازنه فتمشـــى وأهانني بلا سبب، ولم أرد عليه، كان يتحدث عن فساد الدنيا وانقلاب موازنين الكون، عن سيادة الغباء وضياع العقل، عن الخراب في نفوس البشر، وعن وعـــن وعـــن... عشـــرات الحكايات العجيبة المرصوصة في كتب الشعر التي يقرأهـــا لكنني كنت أضحك، أضحك منتشيا وسعيدا، ذلك أنه كان قد انكشف أمامي وتعرى من كل ما يستره رغم ادعاءاته الكاذبة بأنه مستور.

مجلة الفيصل / أكتوبر ٧٩

الزائر

كنا نراه على فترات متباعدة، نسمع صوت عكازه الخشبي، بينما يصعد درجات السلم في بطء، ولكن بدأب وإصرار، كان انتظامه في تلك الزيارات قد جعلنا نرتبط به، ونتساءل عن سر غيابه أكثر مما ينبغي، وكنا نضحك أيضا، ذلك أن عجوزا مثله ليس مطالبا بمثل تلك الزيارات التي تكبده المشقة، لكنه كان يأتي، وكنا نلتف حوله ونبادله الحديث بحماس، ولا نخفي سخريتنا من أفكاره الثابتة عن الحياة والتي لا يرضى بالتنازل عنها أبدا، وعندما ينهي زيارته، كان أبي يوجه اللوم إلينا جميعا لأننا عارضناه بمثل هذه الطريقة التي لا تناسب رجلا مثله.

– أنتم لا تفهمون العم أمين ولا تعرفون كيف تتعاملون معه.. إنه رجل عجوز يعيش في الزمن القديم ولا يهتم بشيء مما يدور في أذهانكم، وهو يأتي لزيارتنا مؤديا واجبا اعتاد عليه، لقد كان الجيل لقديم يؤدي الواجبات الأسرية ويحافظ على العلاقات مهما تكبد من مشقة أو تعب،

كان الواحد منهم يسعى لزيارة الآخر والاطمئنان عليه حتى ولو سافر يوما أو يومين راكبا أو مترجلا على قدميه. كانوا أكثر ترابطا وحبا، وربما أكثر توكلا وبساطة.

كان أخي سعيد يهز رأسه مظهرا عدم رضاه ثم يقول:

- لقد تغيرت الدنيا يا أبي، أصبح للزمن قيمة، ثم ما معنى تلك الزيارات التي لا هدف لها بالنسبة لعجوز مثله؟

يهمهم أبي بكلام غير مفهوم ثم يتناول الصحيفة اليومية التي لابد أنه كان قد قرأها في الصباح، يقلبها بين يديه متظاهرا بالاطلاع عليها، ذلك أن أبي عندما يسمع كلاما لا يرضى عنه أو لا يوافق عليه، يتظاهر بالاطلاع على الصحيفة أو يتشاغل عمن يتكلم معه وكأنه يطالبه بالسكوت، ويبلغه في ذات الوقت أنه ليس على استعداد للاستمرار في ذلك الحوار.

كنت أسأل نفسي إن كان الرجل يشعر بما نحسه نحوه وما نتحدث به بعد زياراته، أم أنه يعيش في عالم آخر ولا يهتم بنا ولا بضحكاتنا، ذلك أنه في كل زيارة كان يفعل

نفس الشيء، نسمع صوت عكازه الصاعد في بطء فنتبادل النظرات والضحكات.. نفتح باب الشقة ونكتم الضحكات قبل أن ننفجر في ضحكة جماعية، لا يشاركنا فيها أبي، تحذرنا أمي من الاستمرار في الضحك، لكننا لا نكف عن ذلك حتى يقف هو بعوده الفارع عند مدخل الشقة، يتلفت حواليه ثم يدق على الباب بعكازه، ينتظر ردا بالسماح له بدخول الشقة، نتبادل النظرات ونكتم الضحكات قبل أن يقول أبي:

- ادخل يا عم أمين، الباب مفتوح.

وببطء يتحرك الرجل ويقفل الباب ويحدث نفسه قائلا:

- ناس مجانين، بابهم مفتوح في زمن لا أمان فيه.

يجلس على أقرب مقعد يصادفه، يلتقط أنفاسه، ثم يزفر قائلا:

- السلم عال، تقطعت أنفاسي حتى وصلت، لماذا لا يصلحون المصعد الكهربائي؟

نتبادل النظرات عجبا، لأنه استطاع أن يصعد كل هذه الطوابق، وأنه لم يفكر في تأجيل الزيارة التي هي في

حقيقة الأمر بلا هدف حقيقي، أتذكر أن عمي الذي يسكن في الحي المجاور يعتذر دائما عن زيارتنا بسبب العطل الدائم لمصعد عمارتنا، وأنه يكتفي بمحادثة تليفونية للاطمئنان كل مدة، أما العم أمين ابن عم العم لجدي، فيأتي بنفسه ويصعد الدرجات، يحكي لنا عن الزمن القديم، عن جدنا الأكبر وجدنا الأصغر، يحكي عن نوادرهم وحياتهم في قريتنا البعيدة، فيجعلنا نشعر بالحنين إليها، نتخيل ما كان يدور في زمانهم من أفراح وأحزان، الخلافات والأشواق، يحدثنا عن العنف والبساطة، عن الصبر الطويل والإصرار والغلظة واللين في مجتمع وعصر لم نعايشه، حكاياته لا تنتهي، تمتد السهرة فيزداد فرحا لأننا نسمعه ونهتم برواياته، يتأمل الوجوه وكأنه يقرأ كتابا قديما، يدمدم:

– سعيد، أراك مهموما وغاضبا وكأنك تحمل هموم الدنيا على رأسك، متى تتخرج وتصبح مهندسا، وأنت يا سعاد، أنت تشبهين جدتك لأبيك.. كانت مثلك تماما، لكنها لم تلبس بنطلونا مثلك، لو عاشت ورأتك على هذا الحال، لقالت: إن القيامة قد قامت بالفعل، أما أنت يا سامح فأنت تشبه جدك

الأكبر، كان رجلا عاقلا وهادئا على خلاف كل رجال أسرتنا الذين يتعاركون لأتفه الأسباب.

يسود صمت.. يعلق أبي على كلامه ببعض العبارات التي تؤيد أو تؤكد ملاحظات الرجل، فيشعر بالزهو والرضا عن نفسه لأنه مازال واعيا.. يهز رأسه وكأنما يتفكر في أمور أكثر أهمية.. يتحدث إلى أبي:

- حسنين ابن إسماعيل في مستشفى المعادي، سوف تجرى له عملية جراحية، من الواجب أن تزوروه يا عبد السميع، نوال بنت محروس سافرت مع زوجها الإسكندراني إلى الكويت، هل زرتها قبل السفر يا عبد السميع ؟ آه.. تذكرت، سعدية بنت سليم سوف تتزوج الخميس القادم، واجب أن تحضروا فرحها، لقد كلفوني بإبلاغك مع الأولاد، حضوركم سيجعلها تشعر بالسعادة.

على هذا النحو يتحول العم أمين إلى ناقل للأخبار، نتعجب لأنه يعرف كل أخبار القرية، يعرف أهلها صغيرهم وكبيرهم، ينقل السلام إلينا ممن يلتقي بهم، وينقل إليهم متطوعا سؤالنا عنهم، يقوم بعد انتهاء السهرة، يخرج على

وعد بالزيارة.. يظهر الضجر على وجه سعيد ويعلـق بعـد خروج الرجل مباشرة قائلا:

- أضاع علينا السهرة، الفيلم وحلقة المصارعة الحرة، ألا يتعب من الكلام مطلقا.

نضحك قبل أن يعود أبي، الذي كان يودعه، ينظر إلى سعيد لائما لأنه يتحدث بمثل هذه الطريقة بينما الرجل مازال عند باب الشقة، ويعود ليذكرنا أن العم أمين لا يكلفنا أكثر من ساعة أو ساعتين يقضيهما معنا ليشعر بالونس، وأن عجوزا وحيدا مثله لابد أن يجد في هذا العالم من يرحب به ويستقبله.. ينسحب سعيد في هدوء ويلجأ أبي إلى الصحيفة اليومية يقلب أوراقها في غير اهتمام.

* * *

كان حزينا على غير عادته، حدثنا عن بعض الأقارب ممن كان يزورهم مثلنا وينقل أخبارهم:

- كنت أذهب لزيارتهم، لا أكلفهم شيئا، الحمد لله معاشي يكفيني، أنا رجل وحيد، كل ما أطلبه هو أن أجد في هذا العالم من يرحب بوجودي معه، لكن في آخر زيارة لهم

كان الأمر يختلف، تشاغلوا عني، لم يستمعوا إلى كلمـــاتي، تركوني وحيدا في حجرة الصالون، الناس تغيرت يـــا عبــد السميع، يعاملونك من أجل مصالحهم، وعندما تصبح عجوزا مثلي، فإنهم يتعاملون معك بغير حمـــاس أو ترحيـــب، لـــن أزورهم بعد اليوم.. لن أزورهم.

على هذا النحو كان يتشكى، وعلـــى امتـــداد الأيـــام التالية كانت شكاياته من الأقارب تتزايد.. وبدأت زياراته لنا تتزايد، فكلما تناقص عـــدد البيـــوت التـــي يـــدخلها.. زادت زياراته إلينا، كنا نحتمله غصبا في أول الأمر لكننا لم نستطع أن نستمر في احتماله، أصبحنا نضيق بوجوده، دون أن نعلن له ذلك صراحة، لم نعد نحسن الاستماع إلى حكاياتـــه التـــي كان يكررها في الزيارات الأخيرة، بل إننا كنا نتابع بـــرامج التليفزيون في وجوده، مع علمنا أنه يكـــره تلـــك البـــرامج، ويفضل الثرثرة، وذات مساء وقف مسنودا على عكازه ونظر إلينا ودمدم ثم قال:

- لو كان لي أبناء للجأت إليهم، بعد موت أولادي لم يتبق لحياتي قيمة، حياتي بلا معنـــى أو هـــدف، عفـــوا يـــا أولادي، لقد أزعجتكم في الأيام الأخيرة، كنت أعرف أننـــي

أزداد سخفا يوما بعد يوم، لكن ذلك لم يكن باختياري، ربما أزوركم بعد شهر أو شهرين، أقول ربما..

ساد صمت ثقيل، لم يجرؤ أحد منا على معارضته أو موافقته على اكتشافه الذي أعلنه بعد تردد.. كانت اللحظات تمر ثقيلة علينا وعليه، كان الصمت الذي طال بعد أن تحدث على هذا النحو قد صنع حاجزا يصعب اختراقه بيننا وبينه، أصبح الحاجز عبر تلك اللحظات حقيقة قائمة، وكان من العسير حتى على أبي أن يزيحه ويستعيد الرجل كما كان أو يعيد إليه اطمئنانه إلينا، وحتى عندما حاول أبي أن يتكلم في محاولة أخيرة لنفي ما أعلنه الرجل من باب اللياقة، قال الرجل في عبارة قاطعة:

- لا داعي للكذب يا عبد السميع.

* * *

وسكت أبي وتحرك الرجل نحو باب الشقة، مستعينا بعكازه أكثر من أي وقت مضى، كان يخطو في وهن وضعف شديدين فارضا علينا صمتا وكآبة، وخرج الرجل ولم يعد، لم نعد نسمع أخباره، مرت الشهور دون أن نعرف

عنه شيئا لأننا ببساطة لم نسأل عنه، ربما يكون قد مات فـــي صمت، بعد أن خسر آخر مأوى بشري كان يلجأ إليه غصبا ليهرب من وحدته القاتلة.

مجلة البيان ــ ديسمبر ٨٠

المراقب

آفته الكبرى برغم امتيـــازه الواضـــح فـــي افتعـــال النسيان، يحدثني ثم يشرد ببصره بعيدا متصنعا عدم ســـماعه لأقوالي، يهمهم قائلا:

- ماذا قلت ؟ عفوا، لم أتابعك بشكل لائق، أرجو أن تعيد على مسامعي كلامك مرة أخرى.

في أول الأمر كنت أكرر كلماتي وأحاول أن أكـــون دقيقا في ذلك، لكنه كان يقاطعني قائلا:

- لا، أنت لم تقل هذا الكلام يا صاحبي، لماذا تُغيـــر ألفاظك بين لحظة وأخرى؟ الألفاظ تعبر عن الإنسان، أنـــت إنسان متقلب المزاج، حائر ولا تثبت على حال، سأعيد عليك ألفاظك الأولى وأقارنها بما قلته بعد ذلك لتتبين إلى أي حـــد تختلف الكلمات.

يقول هذه العبارة و يعيد على مسامعي ما ســـبق أن قلته بدقة في المرتين لدرجة تدهشني من مقدرته الفائقة على التقاط الكلمات وعندما تظهر الدهشة على ملامحـــي يقـــول بثقة:

- ليس من السهل خداعي، فأنا شاعر، صناعتي هي الكلمات، أكتبها وأحفظها وأرددها حتى ولو كان ما اسمعه صخبا ممتزجا في ميدان فسيح، أما أنت فلا تعرف أهمية الكلمات لأنك لست شاعرا مثلي.

* * *

كنت أتقبل لومه دائما دون أن أجرؤ على سؤاله عن سر ذاكرته القوية التي يتميز بها، ذلك أنه كان بارعا في تذكر الأحداث والتواريخ وأسماء الأشخاص الذين يلتقي بهم في كل مكان، لكنه كان ينظر إليّ أحيانا بدهشة ويسألني عن السر في عدم اهتمامي بالشعر قائلا:

- أنت رجل غريب، ذاكرتك ضعيفة بحق ومع ذلك تدرس التاريخ، أمثالك يصلحون للشعر، ولولا ثقتي في كل ما أكتب من قصائد لتمنيت أن نتبادل مركزينا، تكتب أنت الشعر وأدرس أنا التاريخ.

وعلى هذا النحو كانت علاقتي به تزداد ترابطا على مدى الأيام، يحدثني عن همومه كشاعر، وأحدثه عن همومي

كدارس للتاريخ يعمل في الصباح كاتبا على الآلة الكاتبة في شركة مقاولات بينما يعمل هو في مركز الأبحاث.

ولست أصدق دعواه التي قالها مرة، من أنه أصيب بعدوى النسيان هو الآخر، ذلك أني كنت أثق أن فكرته عن الشعر وضرورة أن يكون الشاعر أكثر تحليقا في عوالم بعيدة، وأن تكون ذاكرته أميل إلى النسيان هي السبب الحقيقي وراء تلك التصرفات الغريبة التي كان يلجأ إليها أحيانا بينما أراقبه وهو يتعامل مع بعض الأصدقاء ـ متناسيا أسماءهم وأرقام تليفوناتهم أو عناوين منازلهم قائلا في كل مرة:

– عفوا، لقد نسيت، اعذرني، انني مصاب بداء النسيان، كانت ذاكرتي قوية ثم فقدتها في صباح لا أذكره.

وكان الآخرون يتهامسون أحيانا بما يفيد تصديقه دون مناقشة قائلين:

– فعلا، لابد أنك نسيت، هكذا الشعراء دائما، إنهم أكثر الناس نسيانا.

أما أنا فكنت أنظر إليه، إلى الغبطة التـي انحطـت على ملامحه عند سماع مثل هذه الأقوال وأقول لنفسي: إنـه يتصنع النسيان دون أن أدري لذلك سببا غير الوهم الثابـت في عقله الواعي بضرورة أن ينسى الشعراء.

دربت عقلي على التذكر قبل الامتحان، كـان مـن الضروري أن أنجح في دروس التاريخ، برغم كـل العسـر الذي صادفني في حفظ الأسماء والتواريخ، حاصرت نفسـي بفكرة مؤداها أن التمادي في الاستسلام لحالة النسيان التـي أعاني منها غباء حقيقي وعجز عن الفهم يتعلـل بالنسـيان، وقلت: أنه إذا كان صديقي الشاعر يتباهي بالتناسي ليسـمع المديح، فإنني لن أحصل إلا على الفشل في دراستي، وعليه فلابد أن أنجح في حفظ الأسماء والتواريخ مهما كلفني الأمر من مشقة وسهر.

* * *

يوم الامتحان كنت أجلس في القاعة الكبيرة، أحـاول ألا أندمج مع الآخرين في أي حوار قد يؤدي إلـى ضـياع المعلومات التي شقيت في حفظها، كنت مشـحونا بـالتوتر

والقلق، أسترجع ماكان يعلق في ذهني من معلومات دقيقة وأسماء معارك وأبطال ومدن، متخوفا من احتمال الخلط والخطأ لحظة الإجابة، قائلا لنفسي: إننى سوف أراجع ما أكتبه قبل تسليم ورقة الإجابة للمراقب.

عندما تسلمت ورقة الأسئلة، تمثلت الأحداث والتواريخ فاطمأن قلبي، لكنني إمعانا في الحرص، رحت أكتب بقلم الرصاص في أوراق الإجابة أهم الخطوط التي سوف أحتاج إليها عند الإجابة ثم شرعت في الكتابة بحماس وثقة، كانت المعلومات تتوالد والذاكرة تعمل على خير وجه مما جعلني ألوم نفسي على تلك المخاوف التي كنت أعاني منها قبلا، كنت غائبا عما يدور حولي حتى جاء أحدهم أدركت أنه مراقب، مد يده وقلب أوراق الإجابة ربما ليطمئن أنني لا أغش كما يفعل البعض، كان رجلا مهذبا له ابتسامة ودود مهذبة، قال في ود وتعاطف بينما يشير إلى غلاف أوراق الإجابة:

- اكتب اسمك هنا.

لحظتها غبت عن نفسي أو أفقت لنفسي لأطرح على عقلي المدرك المتألق سؤالا عن اسمي فيصر عقلي على إنكار المعرفة تماما، أحسست بالحرج بينما المراقب الودود يقول في إصرار وتعاطف ما سبق أن قاله لصالحي:

- اكتب اسمك، ما شاء الله، أكتب اسمك هنا، أنت طالب مجتهد وحرام أن تتوه ورقتك مع ورقة طالب آخر، لم يجهد نفسه في المذاكرة مثلك، اكتب الاسم أولا حتى لا تنساه.

ودون أن أدري قلت:

- لكنني نسيته.

لكن المراقب لم يقتنع بذلك، حسبها نكتة عارضها فكرر طلبه من جديد:

- اكتب اسمك.

ومن جديد قلت:

- نسيته، نسيته

بدا له أنني مصر على السخرية منه فقال بحدة أكثر:

- ليس عندي وقت أضيعه معك في مثل هذا الهذر السخيف، اكتب اسمك هنا ياسيد.

ولما كنت أثق يقينا أنني لا أدعى سيد فقد قلت:

- عفوا، لي اسم آخر غير سيد.. لا أذكره.

ثار الرجل وراح يصرخ في انفعال ظاهر متوهما أنني أصر على مشاكسته لمجرد المشاكسة، التفتت إلينا كل العيون بينما يقول بصوت عال:

- عيب.. كلام فارغ، أطلب منك كتابة اسمك فتسخر مني، وأنا في سن والدك؟ ألاطفك فتحسبني غبيا إلى هذا الحد؟ أنا يا حضرات موظف محترم أستحق الاهتمام لا الاستهزاء بي كما يحدث الآن، كرامتي أهم عندي من أي مكافأة أحصل عليها نظير مراقبتي، وفي مثل سني لا يحق له أن يطالبني بأن أتمادى معه في التهريج، أراعي مصلحتك فتسخر مني، أنت طالب في الجامعة، فهل هذه أصول التربية يا حضرات؟

كان الرجل يرتجف من شدة التأثر، وملامحه الودودة اللطيفة تتبدل إلى ملامح متوترة مشدودة قاسية، ومخيفة أيضا، جاء الآخرون مراقبون وأساتذة مساعدون وأساتذة،

ثم جاء العميد، أحاطوا بالرجل في محاولة لتهدئتـــه، بينمـــا الطالبة والطالبات قد تركوا الأقلام وكفوا عن الكتابة، حســم العميد أمره وقال بينما يشير إليَّ:

- هات أوراقك واتبعني، وأنت يا أستاذ، تعال أيضـــا إلـــي حجرتي.

قمت من مكاني وحملت أوراقي وسرت خلف العميـــد بـــين نظرات الدهشة والرهبة مما يحدث، ولأول مرة أدخل هـــذه الحجرة الفسيحة حائرا كيف سأتمكن من الخروج من مـــأزق وجدتني واقعا فيه بلا قصد، أمرني العميـــد أن أجلـــس، أن أحدثه عما جرى فتلعثمت بطريقة جعلته يحسبني أخطأت في حق المراقب، مصمص شفتيه ونظر نحو الباب الذي دخـــل منه المراقب متساندا على أحد الأساتذة، كان الرجل قد تهالك على نفسه تماما، كان يبدو منفعلا وكأنما روحه على وشـــك الخروج.. أمر العميد بكوب ليمون للمراقـــب حتـــى تهـــدأ أعصابه والتفت إليَّ متوعدا ولائما في نفس الوقـــت لأننـــي تسببت في كل هذه الفوضى وفي يوم امتحان، قال متبســـطا للمراقب:

- والآن، حدثني ماذا حدث بالضبط، نحن لا نرضى بأن يتجاوز أي طالب حدود الأدب.

قال المراقب بعسر شديد بينما يلتقط أنفاسه أثر كل عبارة يقولها:

- لا شيء.. لا شيء يا سيدى، ليس عندي ما يقال، لا أريد أن أكون سببا في أي ضرر يناله، إنه على أي حال مثل واحد من أولادي، أولادي مثله طلبة في الجامعة، لكنني يا سيادة العميد أحسنت تربيتهم، وعلى أي حال، وهو واحد من شباب هذه الأيام، لا يقدر المسئولية ولا يحترم الآباء، وقد تحملنا أخطاءهم وضحينا من أجل أولادنا، إنني أبحث عن عمل إضافي رغم كبر سني، أسعى في مناكبها كما يقولون لأزيد دخلي من أجل مستقبل أولادي، أحرم نفسي من كل شيء لأدفع لهم مصاريف الجامعة وأثمان الكتب، الأسعار غالية كما تعرفون، إنني لا أشترى لنفسي ما يستحق أمثالي للمحافظة على مظهرهم أمام الناس، ملابسي قديمة كما ترون، ياقات قمصاني وأساورها ممزقة، رباط عنقي عتيق ولا يليق بأحد في هذا العصر، لكن ما حيلتي، حذائي قديم ممزق، لو فكرت في إصلاح نفسي ما استطعت أن أعلم

أولادي أو أطعمهم، إنني أضحى والشباب يسخرون منا كلما وجدوا الفرصة لذلك، إنني أضحى ولا أجد من يقـدر هـذه التضحية، وكل ما أطلبه هو إعفائي مـن الاسـتمرار فـي المراقبة، كرامتي لا تحتمل يا حضرات، أنا برغم كل شيء إنسان محترم ونظيف اليد، و.... و..... و.......

جاهد بعسر أن يكمل حديثه لكنه لم يستطع، حاول أن يقوم من مقعده فلم يتمكن، حدق بعينيه ناحيتي ثم سقط رأسه على مسند المقعد، تكهرب الجو، وتبادل العميد مع الأسـاتذة نظرة مفجوعة، جس أحدهم نبض الرجل وهز رأسه وأعلـن في صوت حزين:

- الرجل مات.

انصبت على وجهي النظرات، تحيرت، تاهت عن عقلي كل الدفاعات التي كنت أفكر فيها لأخرج مـن المـأزق، كـان الموت الذي عشش بسطوته على المكان أقـوى مـن كـل الكلمات، ومرة أخرى أفاجأ بالسؤال:

- اسمك؟

قالها العميد ولم يتلق جوابا، مد يـــده إلـــى كراســـة الإجابة، ولم يعثر على الاسم فثار.

- هذه فوضى، أين الاسم، لماذا لم تكتب اسمك حتـــى الآن، هل أنت طالب عندنا؟ أم أنك مندس؟ إن ظاهرة المندسين في الجامعة تستفحل هذه الأيام ها هو واحد منهم، مندس، يأتون ويتســـللون بـــين الطلبـــة، يبثـــون أفكـــارهم المســـمومة ويحولون الجامعة إلى مسرح لأحداث الشغب، يقودون أبنائي الطلبة الأبرياء في مظاهرات متكـــررة تطالـــب بأشـــياء لا تعنيهم، نحن في مأزق حقيقي لقد مات رجـــل بســـبب هـــذا المندس الغريب عن ساحة العلم، وأنا أسألكم عـــن الطريقـــة التي نعالج بها الأمر، إن عجزنا عن منع أمثال هذا المنـــدس من الاندساس وسط الطلبة شيء مؤسف، ولكن من نبلغ ؟!.. البوليس ؟ أعتقد أنه من الأجدى أن نقوم بإبلاغ مباحث أمـــن الدولة، أو جهاز المدعى الاشتراكي، أعتقد أنه هو المختص بمحاكمة أمثاله من المندسين، آه.. هذه هـــي نهايـــة ميولـــك التخريبية، قتل إنسان بريء.

كان يدير قرص التليفون بعصبية فقال أحد الأساتذة من ركن الحجرة:

- نتأكد أولا من موت الرجل، ربما كان في حالة إغماء.

قال آخر:

- أظنه مات، ومن الأوفق إبلاغ النائب العام.

قال ثالث:

- ولماذا لا نبلغ المخابرات العامة، إنني أفسر الأمر على أنه قتل سياسي مدبر.

عارض الأول في حماس:

- الإسعاف، الإسعاف أولا، ثم إنني أشك في أن يكون هـذا الطالب مندسا، إنه منتسب في قسم التاريخ كما أظـن، والآن قل لنا اسمك، المسألة بسيطة كما ترى، قل اسمك حتى يزول سوء التفاهم الذي حدث.

لكنني قلت معتذرا للأستاذ المدافع عني:

- صدقني، صدقني ، إذا قلت لسيادتك أنني نسـيته في زحمة الأحداث ومن قبلها من رهبة الامتحان.

شعرت بالرضا عن نفسي لأنني أحسنت التعبير عن مشاعري ولأنني نلت بعض الرضا، علـى الأقـل

جعلت الأكثرية من الأساتذة في موقف حيادي بعد أن كان الكل ضدي، لكن العميد تململ في مكانـه ثـم واجهني مستفسرا:

- ولكن هل أنت طالب يا ولد؟

- ليست هذه هي القضية يا سيادة العميـد، القضـية هي التأكد من حالة الرجل أولا.

قلت هذه العبارة وأنا أتقمـص شخصـية صـديقي الشاعر الذي ينجح غالبا في صياغة الكلمات بهدف الخروج من المواقف الحرجة في أي حوار، متوهما أنني أتقدم إلـى الأمام أكثر، لكنه حدث أن اقتحم الغرفة رجـلان أكرشـان يتقدمهما رجل نحيل يرتدي معطفا صوفيا ويتصـبب عرقـا بسبب حرارة الجو.. اقترب النحيل من السيد العميـد وشـد على يده في حرارة قبل أن يلتفت نحوي وهو يقول:

- تحت أمركم، أه هذا الولد نعرفه، أنا أعرفه جيـدا وأعرف شركاءه، إنه أحد المشاركين في المظاهرة الأخيرة، مخرب كما يعرف هو نفسه ذلك عن نفسه، والآن قـل لنـا اسمك الحقيقي، لا داعي للكذب، نحن نراقبك من مدة طويلة،

نعرف أسماء أجدادك وأصدقائك والأماكن التي ترتادها، ولا تكذب فلن يفيدك الكذب في شيء، وعلى أي حال، فحتى لو كذبت الآن فسوف تعترف بكل شيء بعد ذلك، عملنا هو تعليم أمثالك كيف ومتى يقولون الصدق. وعندما أنهى عبارته الأخيرة أشار إلى الرجلين الأكرشين فأحاطا بي من كلا الجانبين، قمت مستسلما وقرأت على وجوه الأساتذة والعميد نظرة مدهوشة عاجزة عن التعليق بأي كلمة مناسبة.

في السيارة السوداء التي لا أعرف أي الجهات تتبع، كنت أجلس بين الرجلين الأكرشين بينما الرجل النحيل ذو المعطف يجلس بجوار السائق، كنت مازلت أفكر في التاريخ القديم، أستحضر الأسماء والمعارك وتواريخ البطولات وأعداد القتلى، أتمثل الضحايا الذين لم يذكرهم التاريخ لحظة سقوطهم في الميدان دون أمل في تحقيق المجد لذواتهم، أتعاطف معهم وأقول لنفسي: إنهم برغم ما حدث من أنهم ماتوا في صمت ولم يذكرهم التاريخ إلا أنهم أكثر إخلاصا لأوطانهم، ذلك أنهم تركوا لقادتهم الأمجاد والبطولات، كانت ذاكرتي قد انفصلت عن اللحظة التي أعايشها، وغاصت في تواريخ الرجال والشعوب الحاسمة، ناسيا اسمي ومضحيا به

بينما تنحرف السيارة يمينا ثم شمالا ثم يمينا آخر، بعدها تنحرف أكثر من كل توقعاتنا نحن راكبي السيارة ناحية اليمين فتوشك أن تنقلب لولا مهارة السائق الذي يعالجها إلى اليسار مرة أخرى، بعدها عدت من جديد أتذكر أسماء الشهداء ومواقع استشهادهم وتواريخها البعيدة، سعيدا بذلك التألق النادر في ذاكرتي وراضيا في ذات الوقت بنسيان اسمي وهويتي إلى آخر العمر.

مجلة إبداع ــ يناير ٨٣

الباحث

اعتدنا وجوده في نفس المكان، يجلس عند الواجهة الزجاجية المطلة على النيل، عيناه شاخصتان إلى سور الكورنيش في اهتمام ظاهر بحركة الناس والمركبات، مديرا لرواد "الكافيتريا" ومنفصلا عنهم، كان يأتي في الصباح الباكر ويجلس مكانه يحتسي قهوة الصباح على مهل، ويتصفح الصحف اليومية في تعجل قبل أن يعتدل ويوجه نظراته إلى سور الكورنيش، في العاشرة تماما يقوم من مقعده، ويطوي صحفه اليومية، ويدفنها تحت إبطه الأيمن ويغادر في صمت، في تمام الثالثة بعد الظهر يأتي ويتخذ مجلسه المعتاد، و يسرع الساقي نحوه بفنجان القهوة يرشف منه جرعة صغيرة وينشغل عنه حتى يبرد، ودون إشارة منه يأتي الساقي بقهوة جديدة ويحمل تلك التي بردت من أمامه، يرشف جرعة أخرى ويتركها مشغولا بحركة الناس والمركبات على كورنيش النيل، قبالته، وعلى هذا النحو تتكرر حركة الساقي بفناجين القهوة الساخنة والباردة دون حوار بينهما، في منتصف الليل تماما يقف العجوز منتصبا

بعوده الفارغ ويستدير ملقيا نظرة فاحصة على رواد المكان وباحثا في ذات الوقت عن الساقي، وحين يشير إليه بطرف سبابته اليمنى يسعى الآخر نحوه مبتسما في احترام بالغ، يقف على بعد خطوة منه، ويهمس بكلمات تمتد يد الرجل إلى جيب سترته ويخرج حافظة نقوده، يدفع للساقي الذي يهز رأسه في امتنان ويحرك يده في أركان جيوبه في تثاقل ظاهر، ولكن في رشاقة وخفة مدروسة، يشير الرجل براحة يده اليمنى المرفوعة في ترفع رافض لحظتها ينحنى الساقي في أدب جم بينما يتحرك الرجل في خطوات وئيدة ويغادر المكان.

على هذا النحو كانت تسير الأمور في السنوات الأخيرة حتى جاء مساء مشحون بالأحداث، كانت ليلة صيفية ساكنة، ولم يكن هناك ما يوحي بتعكير الصفو، لكن حجرا كبيرا ارتطم بالواجهة الزجاجية في اتجاه الرجل فأحدث صوتا مفزعا في جنبات المكان، تطايرت قطع الزجاج الصغيرة وتناثرت في الأركان، التفتت كل النظرات لترى العجوز وقد انتفض واقفا وراح ينظر من خلال الكوة التي أحدثها الحجر المقذوف في الواجهة الزجاجية، كان الرجل

يصرخ ويشير بيده المعروقة نحو شبح هارب في منتصف الشارع يتفادى في براعة وتمرس حركة المركبات السريعة من كلا الاتجاهين، كان الشبح يتباعد ويذوب بينما يلهث شابان من الرواد خلف ظله الذي يوشك على الاختفاء التام في الظلام البعيد.

تحلق الجميع حول الرجل الذي كانت قطرات من الدم تنز من جبهته وبعض أركان صدغه الأيمن وظهر يده اليمنى أيضا كان الحجر قد أخطأه لكن نتف الزجاج الدقيقة انغرزت في الوجه وعلى ظهر يده اليمنى، تقدم أحدهم نحوه وقام بإخراج نتف الزجاج في هدوء الواثق من أماكنها، طهر الجراح وغسل ما علق على الوجه من قطرات الدم، قال ليطمئن الرجل ويطمئن الرواد في ذات الوقت:

- الحمد لله، كانت مجرد خربشات بسيطة، جراحا سطحية متناثرة، الخطورة كانت في ذرات الزجاج التي دخلت وسط البشرة لكنها خرجت، اطمئن.

تلقى الشاب عبارات الشكر من الجميع ومن الرجل أيضا هدأ أعصاب الرجل فابتسم في مرارة ووهن ثم راح يتكلم:

- يحاولون قتلي بعد أن تخلصوا من كل أبنائي في وجودي لم يكفهم وحدتي فحاولوا قتلي.

سأله البعض ع من حاول قتله فنظر في استهجان قبل أن يسترسل في حديثه:

وكل ما أفعله الآن هو مجرد الجلوس على شاطئ النهر أحصى حركة الناس وأستخرج النتائج الخطيرة، لقد كانت النهر ملجأنا ونحن في مثل أعماركم، كنا نقطع الكورنيش ذهابا وعودة ولا نشعر بالتعب أبدا، وحتى قبل أن أعيش في هذه المدينة، كان كل ما أحلم به وأتمناه هو المشي على كورنيش النيل وفي جواري بنت جميلة، كان حلما استطعت أن أحققه، أستطيع أن أؤكد لكم أنني عشت الحب الحقيقي مع أم الأولاد على شاطئ النيل، نأكل الترمس ونشرب العرقسوس، لا داعي للحديث عن الأولاد فقد راحوا في سلام، استراحوا من العناء، اختطفتهم يد خفية الواحد تلو

الآخر، لأنهم أبنائي، تلك حكاية مريرة لا تليق بكم يا شـــباب آه.. لماذا تحرصون على التواجد في مثـــل هـــذه الأمـــاكن المغلقة، أنتم أحرار، لكن النهر أمامكم، أم أنكم فقدتم الرغبة فـــــــــــــــــــــــــي الحـــــــــــــــــــــــــب؟

كنا نتبادل نظرات الدهشة ولا نملك أن نقاطعـــه أو نعلق على استفساراته التي بدت لنا غريبة، وكـــان الرجـــل يحكي في مرارة وألم ويجاهد أن يداري عنا ما كان يقاســـيه بحق من متاعب في حياته، وكان كلما شـــعر بالتـــآلف مـــع الوجوه التي تحيط به، استرسل في الحكاية بصوت أكثر قوة وبملامح أكثر إصرارا على الاستمرار:

- لقد توصلت بعد بحث طويل إلى نتـــائج غريبـــة، هناك جفاف على شاطئ النيل، أنظروا إلى الفراغ المخيـــف على رصيف الكورنيش، أين الناس، أنكـــم لا تـــرون غيـــر المركبات المتعجلة، أما البشر فهم قلة قليلة، وفي مثل هـــذه الأيام كان رصيف الكـــورنيش يـــزدحم بالشـــباب أمثـــالكم، يتسكعون ويمرحون ويعشقون أيضا، لقد قمت ببعض البحوث حول الموضوع، لقد طاب لي يوما أن أحصي أعداد العابرين من العشاق على رصيف الكورنيش، كان ذلك منذ ســـنوات

قلائل، لكني فجعت في النتائج ، كنت أكتب أعـداداهم علـى الورق وأعود في اليوم التالي وأحصـيهم وأفاجـأ بالتنـازل الطردي في أعداد العشاق البسطاء الذي يلجأون إلى شـاطئ النهر المجاني يبثون النهر أحلامه وشجونهم ويأملون علـى مهل أن تتعدل الأحوال.. أين العشاق على شاطئ النهر يـا شباب؟ هل تعرفون أن النهر كان ملجأ العشاق على امتـداد العصور، وكان يتسمع النجوى والشكايات البسـيطة مـنهم ويشعر بالرضى عن النفس لأنه يؤدى دورا هاما في حيـاة البشر على شاطئيه، ولكن الآن، لقد أقاموا وسوف يقيمـون عشرات الفنادق الفخمة على شاطئيه، فنادق عظيمـة تليـق بكبار السواح وتدر دخلا محترما، وهذا شيء رائع، استثمار ذكي لنهرنا الذي لا تعرفون قيمته الحقيقية، لو كنتم تعـرفن هذه الأماكن المغلقة مكيفة الهواء، النهر ميـراثكم الشـرعي الذي لا تعرفون قيمته.

على هذا النحو كان العجوز يتكلم ونحن نستمع، حتى دقت الساعة منتصف الليل فقام وحيانا، وأشار للساقي بـنفس طريقته المعهودة، ثم ناوله الحاسب وخطا خطـوات وئيـدة خارجا من المكان وحين سأل البعض الساقي عن صدق مـا

قاله الرجل: ابتسم في أدب وأنكر تماما أن يكون لارجل قد تزوج أو أنجب أولادا ماتوا في ظروف مدبرة كما يدعي، وأضاف أنه عجوز خرف يعيش في وهم زائف، ويجبر كل من يتعامل معه على الدخول معه في نقاش من أي نوع لأنه ببساطة بارع في نسيج الأكاذيب الملفقة كما يشهد بذلك كل العاملين في الفنادق التي ارتادها.

ورغم هذه التأكيدات الصادرة عن أكثر السقاة تعاملا معه، كنت أرى في عيون البعض من شباب الرواد نظرة تصديق للرجل وتكذيب للساقي الذي كان يقسم بأغلظ الإيمان في محاولة لجعلنا نكذب الرجل تمام وأن ننظر إليه على أساس أنه مخبول ودعى رغم ما شفناه من صدق على تقاطيع وجهه الجريح وما سمعناه من نبرات واعية في صوته الحزين الواهن.

الشرق الأوسط : أكتوبر ٨١

حدثت نفسها وهي تتأمل صورتها على سطح المرأة :

- لن أستجيب لنصائحه المعادة بعد اليوم، أنه يتعامل معي وكأنني طفلة بلهاء يستطيع خداعها بالكلمات المزوقة، يتسلل إلى عقلي فيسلبني الإرادة، لا.. لقد أصبحت واعية بالقدر الذي يحميني منه، نعم يحميني منه، لن يستغفلني ويفرض على أفكاره، سوف أتحرر منه، نعم أتحرر منه.

على هذا النحو كانت سعاد تحدث نفسها في الأيام الأخيرة، كانت ملامحها قد تدلت وتغيرت إلى حد ملحوظ، وكانت تسأل نفسها عن سر هذا التغير ولا تصل إلى شيء، بالتحديد لا تغرب في أن تعترف بأن ما حدث لها كان نتيجة مباشرة لخلافها مع سيد، ورغم أن هذه الحقيقة لم تكن تحتاج إلى أدلة أو براهين إلا أنها رفضتها بعناد بينها وبين نفسها، وبعناد أكثر بينها وبينه، ذلك أنها لم تكن على استعداد للتراجع، قبل أن تبدأ صراعها المباشر معه، كانت قد تسربت إلى عقلها فكرة مؤداها أن سيد يخدعها، فكرة عبارة جعلتها

تناقش نفسها وتفسر أقواله وتصرفاته بشكل مختلف، شكل لا يجعلها تقبل كل شيء ببساطة وفي اطمئنان تام.

- ولماذا أصدقه في كل شيء، يجب أن أحتاط لنفسي فربما يتصورني بلا إرادة أو عقل يفكر.

وتكونت لديها مجموعة من الاكتشافات، ركزت كل وعيها في تفسير كلماته، دخلت معه في مجموعة من المناقشات المرتابة التي تحولت إلى صراع معلن بينهما، لمن يكن الأمر خلافا في وجهات النظر، كان صراعا حقيقيا دخلته بكل كيانها معه وشعرت نحوه بشيء من الاشمئزاز، اشمئزاز لم تفكر مطلقا أنه من الممكن أن تحسه نحو سيد مهما كانت الأسباب وربما كان شعورها الجدي نحو هو السبب في حالة القلق المتواصل والهم الثقيل على النفس، وحصار الفكرة للعقل المرهق، ولكم حاولت أن ترفض الاستمرار في الدوران مع تلك الدوامات دون جدوى، كانت تغوص أكثر وأكثر، وتتعذب عندما تواجه نفسها باللوم والعتاب.

- وهل هذا معقول يا سعاد ؟ كيف وصلت مشاعرك نحوه إلى هذا الحد المرعب، الاشمئزاز من سيد؟ سيد الذي فتحت عينيك علي ابتسامته الودود وروحه المرحة، سيد الذي كنت تستمعين إلى حكاياته وأنت طفلة، والذي ساعدك على تمييز الحروف وقراءة الكلمات واستمر يعطي حتى انتهيت من مراحل التعليم، عاما وراء عام، فكان يسمع إلى شكاياتك الصغيرة من مشاكلك الصغيرة قبل أن تتحدثين عنها بلا حرج فيتبسم مشجعا ويهمهم مفكرا قبل أن يبسط لك الأشياء ويستخلص الهموم ويقذفها بعيدا عن صدرك وكأنه جراح ماهر، هل هذا هو سيد، الأخ القديم الذي كنت إليه تلجئين وبه تهتمين، الأخ الأكبر ماذا جرى في الدنيا يا سعاد؟ هل أنت جادة إلى هذا الحد؟.. أم أنه يستحق نظرة الاشمئزاز؟".

وكلما أوشكت أن تخرج من حالتها جذبها وسواس مسيطر إلى منطقة الشكوك فأبعدها عن حالة التعاطف معه.

- لقد نصب لك فخا يوم بدأ في حشو دماغك بأفكاره عن الدنيا والعقل والإنسان، لقد حولك في واقع الأمر إلى مجرد ظل له، ذوابك في ذاته، ومهما حاولت أن تدافعي عنه فهو الذي جذبك

إلى دائرة التابع الأمين له، ألغى وجودك ليؤكد وجوده ومازال يتعامل معك كوصي له كل حقوق الوصاية، دون أن يدرك أنك بلغت سن الرشد الزمني والعقلي.

كانت الأيام الأخيرة تبرع في التمرد عليه، تفتعل المشكلات وتدخل معه في جدل لا ينتهي حول أحقيته في فرض آرائه عليها بعد أنت كبرت إلى هذا الحد فيبتسم في ارتباك، يتوارى خلف ابتسامته وكأنه لا يرغب في التسليم بالهزيمة، بل أنه يجاهد أن يثبت لها زيف مشاعرها وعيناه تعترفان بأنه يكذب، لقد عرفته صادقا فهل جاء أوان الكذب؟ عرفته قويا فهل جاء أوان الضعف الذي يجبره على الانسحاب المنظم من منطقة الصراع قائلا:

- فيما بعد يا سعاد.. يما بعد نكمل هذا النقاش.

- ولماذا لا نكمله الآن؟

- أنت مرهقة.. أعصابك مرهقة ولسانك يفلت بهواجس بلا معنى.

- مثل ماذا ؟ تكلم... أنت تحاول أن تبدو واعيا بكل شيء.. أنت تثيرني بصمتك.. لماذا لا تعترف بالحقيقة؟ هل من العيب أن تعترف؟

كان ينسحب الصمت أو يبتسم في مرارة مكتومة، تراه بارعا في كتمان مشاعره أمام الناس فتدخل معه في جدل وسط زحمة المعارف والأصدقاء متأكدة أنها سوف تكسب، ويتأكد لديها أن الصورة التي كانت تحسبها صورته، إنما هي ما كان يتمناه العقل لأخ أكبر.. بل أنها تراه خاملا مهموما بأشياء تافهة فتعجب، وأثر مناقشة معه في حضور بعض الأصدقاء قال لها في حدة:

- لماذا تحاولين دائما أن تطرحي مشكلاتنا على الناس؟ هل فقدنا القدرة على حل مشكلاتنا إلى حد أننا نحتاج إلى تلك النصائح المحفوظة التي لفظتها أفواههم (بأستذة) واستعلام مقيتين؟ ألف مرة قلت لك أن لكل إنسان قوانينه الخاصة التي تحكمه إلى موضوع تختلف فيه التفسيرات وتكال له النصائح الحمقاء التي لا تناسبه.

اغتاظت منه لأنـــه كـــان يـــتكلم باســـتعلاء مستخف بعقولهم يرفض أن يستجيب للنصـــائح ولا يخجل من إفرازها كل يوم في عبارات منمقة كانـــت تستهويها فتطاوع، ورغم أنها كانت قـــد قـــررت أن ترفض نصائحه، إلا أنها في ذلك اليوم كانت تشـــعر نحوه بشيء من الرضا، ربما لأنه بدالها كمـــا كـــان يبدو في السابق واثقا من قدراته، عنيـــدا وصـــلبا لا يستكين لأيهم، يبتسم في استعلاه وسخرية وكأنه كائن خرافي مسنود إلى قوة خفية تحميه من أن يكون تابعا لأحد حتى في مجرد نقاش:

- عفوا يا أصدقائي، أنا أعرف كيف أسوى مشاكلي إن كانت في حياتي مشكلات، وفروا نصائحكم فلـــي عقل يفكر..

ومرة أخرى وجدت نفسها على استعداد لأن تذوب في كيانه كما كانت، أن تستسلم لـــه ليتخلـــل روحها وعقلها، لكنها قاومت.. قاومت بكـــل قواهـــا وكرهت ضعف اللحظة الذي أحسته، وتذكرت أنهـــا كائن آخر له الحق في أن يكون كما يريد لنفســـه أن

يكون وأنها في السابق كانت قد أسلمت لــه قيادهــا لأنها كانت تطمئن إليه، سارت في أعقابه وترســمت خطاه، قرأت الكتب التي اشــتراها وتعرفــت علــى أصدقائه ولكن في إطار أنها أختــه.. ســعاد أخــت سيد.. شيء سخيف أن يقترن اسمها باسمه بمناســبة وبدون مناسبة، وكأنه هناك خلفها حتــى وإن كــان غائبا.. يرون وجهه عندما تكــون وحيــدة بدونــه معهم.. وكان هذا يعذبها أكثر إلى حد الرغبــة فــي الخروج من عالمه وعدم التعامــل مــع أصــدقائه ومعارفه وزملاء العمل المشترك، ودت لو تطير إلى فراغ بعيد عن دنياه لو استطاعت أن تقتحم عوالم لم يقتحمها، أن تكتشف مالم يكتشــفه، كانــت كطــائر صغير يحاول الطيران، يرفرف بجناحيه متوهما أنه طار، وعندما يكف، يجد نفسه فــي نفــس المكــان يصارع من أجل الصعود مرة، معتمدا على جناحيه دون أن يفكر في السكون أو الكف عن الدخول فــي محاولات جديدة، ولقد لها في الأيام الأخيــرة أنهــا دخلت معه في معكرة حقيقية حسبها فــي أول مــرة

محض مشاكسات طفلة فلم يهتم، لكنها كانت تتفــنن في اختلاق المشاكسات، تحير وارتبك، ربما لأنه لم يفكر أنه من الممكن أن يدخل معها في صراع، لكن المعركة كانت قد بدأت من طرف واحد، وكان وهو يجاهد أن يسترد ما فقده في غفلة مســتخدما ســلطة الأخ الأكبر مما كــان يجعلهــا تشــعر بالانتشــاء والنجاح.. وهاهي تكسب استقلالها أحيانا، وأحيانــا تنهزم بسطوة غير سطوة العقل، ولــم تكــن تهــتم بالنتائج، كانت تتصارع مع نفسها ومعه بكل قواهــا، وكأنما لتبرهن له ولنفسها أنها قادرة هي أيضا على تسييره وربما قيادته إلى حيث تشاء..

أخر ساعة : سبتمبر ١٩٨٠

لوحات تذكارية

جلس على طرف أول مقعد صادفه، بدا ضئيلا وسط مقعد الصالون الكبير، تلاحقت أنفاسه في سرعة، كان مرهقا أكثر من أي وقت مضى، شعرت نحوه بنوع من الإشفاق، جلست صامتا في المقعد المقابل، تململ في جلسته مرارا وكأنه يرغب في كل مرة أن يعتذر عن صمته الذي طال، دارت عيناه في أركان الغرفة، تشاغل بالنظر إلى اللوحات المعلقة على الجدران، انتقلت عيناه المرتبكتان بين اللوحات دون فحص حقيقي، تركزتا على صورة أمي التذكارية، فحصها بتركيز أكثر وأكثر وكأنه يراها لأول مرة، امتد عنقه النحيل إلى الأمام وحدق في خطوط الصورة، قام من مقعده في خفه واقترب من الصورة ثم همس محدثا نفسه دون أن يكلف نفسه عناء الالتفات نحوي:

- مرسومة بشكل جيد.

شاركته النظر إلى الصورة التي رسمها هو نفسه نقلا عن صورة صغيرة كنت أحتفظ بها لأمـــي ضمن مجموعة كبيرة من الصور التذكارية، يومهـــا لم أكن أصدق أنه سوف يفلح في تكبيرها بهذه الدقة، ذلك أن وجه أمي كان دقيقا وسط مجموعة كبيرة من الوجوه التي تحتل أركان الصورة، زفر هو ثم عـــاد خطوتين إلى الخلف بينما ظل يتـــابع النظـــر إلـــى الصورة، كان يبدو مشغولا بفكرة طارئة، كان المقعد خلفه تماما، نظر بطـــرف عينـــه اليســـرى وكأنمـــا يتحسس مكانه قبل أن يجلس.

قال في شيء من المرارة.

كل الأمهات تتشابه، ربما تختلـــف الملامـــح ولكـــن هنالك دائما شيء مشترك، شيء غامض وخفي لا أســـتطيع وصفه بالكلمات، أنني أحدثك عن الصور التذكارية للأمهات، تلك الصور التي أقوم بتكبيرها منذ ســـنوات دون مقابـــل إلا محاولة الإجابة عن سؤال مازال يحيرني.

شعرت بالقلق ولم أستطع أن أعلق بشــيء مناسـب على عباراته التي قالها، هممت وحولت نظرتي نحو صورة أمي المرسومة بالحجم الطبيعي، استرجعت الأيــام الأخيــرة التي قاست فيها من مرضها الذي أنهك قواها وجعلها عاجزة عن الحركة في أنحاء البيت، كن نلتف حولها ونتسابق علــى تنفيذ رغباتها البسيطة، وكانت هي تنظر إلينا وتتابع حركاتنا في امتنان وتوصينا برعاية أختي الصغيرة، كنا نطلب منهــا أن تكف عن تكرار مثل هذه الوصايا التي تتضمن احتمــال موتها، كانت تبتسم في وهن وتهز رأسها في يأس من يدرك أن النهاية تقترب، تطالبنا بتركها وحيدة كي ترتاح، نخــرج من حجرتها ونتبادل المخاوف من احتمال موتها ثــم ننفــي خطورة حالتها.

سمعت صوته يدوي في جنبــات الحجــرة وكأنمــا لينبهني إلى وجوده الذي أوشكت على نسيانه تماما، ســألت نفسي: إن كان من الممكن أن أسأله عما إذا كان قد بدأ فــي الحديث من مدة طويلة، وقلت لنفسي أن الاكتفاء بسماع مــا سوف أسمعه أفضل، كانت شرايين عنقه نافرة ووجهه محتقنا بالدماء بينما يقول:

- لقد قمت برسم عشرات الصور التذكارية للأمهات، لكنني لم أجرؤ على رسم صورة لأمي، سنوات طويلة أرسم فيها أمهات الآخرين، ومع ذلك أتخوف من فكرة الإقدام على رسمها، ربما أخشى الفشل في رسمها كما ينبغي، وربما هو نوع من رفض الاعتراف بموتها حتى اليوم.

كنت قد أعتدت على سماعه دون تعليق غير تلك الهمهمات الغامضة، أما هو فكان يسترسل في أحاديثه بغير انقطاع مكتفيا بهمهماتي وكأنها حوار منطوق يدفعه للاستمرار في الحديث بغير حرج، وحين ساد الصمت لحظات، رأيت أنامله وهي تتشابك وتنفرج، تتلاحم في عنف ثم تبتعد، قلقا على عادته في كل زيارة، مشحونا بأفكار يرغب في البوح بها لكنه يفتقد الكلمات المناسبة، قلت أشجعه على الكلام:

- تبدو قلقا.

قال في حماسة وكأنما فتحت له بعبارتي بابا كان يحسبه مغلقا:

- فعلا، كأنني اكتشفت الآن أمرا ظل خافيا عني لسنوات دون أن أدرك ذلك قبلا: أن أنقل تلك النظرة المودعة للحياة

والتي تشع استسلاما ووداعة من العينين المدركتين على نحو غامض إن تلك اللقطة سوف تتحول في يوم ما إلى مجـــرد تذكار مرسوم ومعلق في حجرة صالون، هل تفهمني؟

طرح سؤاله الأخير وثبت نظرته على صورة أمي، وبغير إرادة وجدتني أشاركه النظر أيضا إليها، ولقد خيل إلى أنني بالفعل أرى في عينيها نظرة مودعة للحياة، قال هو في حماسة:

- أنني أرغب الآن في أن أشد على يدك بقوة الاكتشاف الذي توصلت إليه اليوم، أنني أحترم صمتك أكثر مما تعتقد، الفنان الحقيقي يحتاج إلى من يحسن الاستماع إليه، دعك من كـــل الحذلقات والاختلافات التي لا توصل إلى شيء. سوف أبـــدأ في رسم صورة لأمي سأحاول أن أنقل ابتسامتها الهادئة التي كانت تتسلل إلى داخل من يراها وتبعث فيه ارتياحا يغســله من همومه، وسوف أرسم النظرة المودعـــة للحيـــاة بينمـــا تمارس الحياة. لقد تأخرت أكثر مما ينبغي.

قام من مقعده.. دار في أركان الحجرة عدة دورات، بدا لي حائرا بين الرغبة في البقاء معي وتركي، تركته دون تدخل ليحسم أمره بنفسه، كنت أشعر بالرضى عـــن نفســـي

لأننى جعلته يرضى عن نفسه وكنت أرغب أيضا في سؤاله عن سر قوته عندما يشد على يدي في صلابة لا أتوقعها من إنسان ضئيل مثله، وكنت في كل مرة أتوقع ذلك وأستعد لـــه في نهاية الزيارة، ومع ذك كانت قبضته تزداد قوة وصلابة، وقدرتي على الاستفسار تذو في كل مرة، كان يتحـــرك فـــي أركان الحجرة في توتر وقلق، وكنـــت أخشـــى أن أشـــعره بوجودي أو أنطق بعبارة يفهم منها أنني على استعداد للحظة الوداع، جعلت أتابع خطواته ثم أطل إلى الصورة التذكاريـــة متشاغلا عنه لحظة الالتفات ناحيتي، قال هو بينما يتجه نحو باب حجرة الصالون:

- لقد تأخرت أكثر مما ينبغي في رسم صورتها، لقد تأخرت أكثر مما ينبغي، ولكن من يدري، لعلي كنت أتدرب طـــوال تلك السنوات دون أن أعرف أن الخطوط الرئيسية لصورتها تتضح الآن في خيالي، تتجسد بشكل مذهل، دعني أودعـــك وأشد على يدك.

امتدت يده نحوي، نسيت حذري من صلابة قبضته، ناولته يدي وقد تراخت أطراف أصابعي، شد هو عليها قـــوة وعنف، انتبهت، كانت يدي في يده كطائر عاجز عن الحركة

أو الانفلات وكانت في حلقي صرخة ألم مكتومة أجاهد في أن أمنعها من الانطلاق، كان يبتسم مشرق الوجه حالما بالتحقق، وعندما ترك يدي وخرج من الباب تهاويت على أنول مقعد صادفني وجعلت أتحسس اليد اليمنى التي أعتصرها في يده، أتحسسها باليد اليسرى في رفق، وكأنني أعتذر عنه، وبدا لي أن وجه أمي يبتسم في سخرية ويتابع حركاتي في استهجان مستنكر ويدعوني للقيام.

الأهرام : سبتمبر ٨٠

- النكتة الحريمي بعشرة قروش، الرجالي بخمسة، وسأدفع فورا.

هكذا قال مشرف الرحلة لركاب أتوبيس شركة الاستثمار حديثة التأسيسي بينما يلوح بحزمة من الأوراق المالية من فئة العشرة والخمسة قروش.

قطعت عبارة الشاب صمت العاملين الذين فرضوه على أنفسهم فرضا، كانوا قد تبادلوا عبارات تحية الصباح كما اعتادوا في أيام العمل، ثم جلس كل منهم في مكانه المحدد بنظام ودون جلبة، متوازين خلف نفس الأقنعة التي يحتمون بها في مكاتب العمل، كان من الطبيعي أن يسلك الجميع سلوكا راقيا يتناسب مع اسم الشركة، وإذا كانت إدارة الشركة قد رتبت برنامجا للرحلات في أيام العطلات الأسبوعية، فقد كان الهدف الحقيقي هو زيادة الانتاج وتجديد النشاط، كانت رحلتهم الأولى، وكان السيد مدير فرع الشركة بالقاهرة قد جاء بنفسه وكأنه يفتتح بوجوده الشخصي برنامج الرحلات، جلس في المقعد الأمامي بينما تجلس عن يمينه

سيدة أنيقة الثياب بشكل ملحوظ، فهم الجميع أنهـــا قرينتـــه، كانت السيارة قد تحركت من مكانها في ميدان الشهيد عبـــد المنعم رياض بعد اكتمال العدد، تحركت في الموعد المحـــدد لها، فشركة استثمار أجنبي لها شهرتها العالميـــة يجـــب أن تكون منتظمة في كل شيء.. مواعيدها، انتاجها، تصـــرفات العاملين بها، ومدير الفرع متمصر من سلالة بيضاء، ربمـــا كان ألمانيا أو تشيكيا أو يهوديا غربيا، لكنه متمصر، ويشاع أنه حاصل على الدكتوراه في الكيمياء أو العلوم البحتة، وأنه يجيد خمس لغات حية، لكل هذا كان الجميع يتوارون خلـــف وقارهم الوظيفي حتى لا يفقد أيهم هيبته أمام الآخرين، لكـــن مشرف الرحلة كان له رأي آخر، كان يرغب في تطبيق مـــا كان قد تعلمه في قسم الاجتماع مـــن ضـــرورة أن يتحـــول مجتمع الرحلة إلى مجتمع مفتوح، أن يـــذوب الجليـــد بـــين البشر، أن يتبدل الوقار الزائف إلى بساطة، والصمت الحذر المتوجس إلى ثرثرات وضحكات، هكذا كان يفكر خريج قسم لاجتماع المشرف على الرحلة قبل أن يقول عبارته التي قالها بخصوص أسعار النكات الرجالي والحريمي، متوهما بـــذلك أنه يمارس بنجاح إذا نجح في إضحاكهم.

نظر مدير الشئون المالية والإدارية إلى مشرف الرحلة الذي يقف في منتصف السيارة في انتظار رد الفعل.. نظر إليه في شيء من الاستنكار والدهشة، لكنه كان يضع على عينيه منظارا شمسيا ملونا، وكان من الصعب أن يقرأ مشرف الرحلة حديث الخبرة نظرته من خلال عدسات ملونة، مط الرجل بوزه شبرا متقززا من جهل المشرف وبائه، لكن الله وحده كان يعمل أن كان مشرف الرحلة قد لاحظ وتجاهل، أم أنه لم يكن يهتم حتى بالنظر ناحية وجه مدير الشئون المالية والإدارية، ذلك أنه قال بإلحاح وإصرار على سلامة فكرته:

- أيه؟ قلت لكم النكتة الحريمي بعشرة قروش والرجالي بخمسة، مالكم؟ هل فقدتم الرغبة في التنكيت؟ طيب.. ما معنى تلك الإشاعة القائلة بأننا شعب مرح..؟ هل هي مجرد إشاعة كاذبة..؟

تململ الوقار على الوجوه، انزاح الحزن المرسوم على بعض التقاطيع، ورفت على الثغور مشاريع بسمات، استعادت الأذهان أحدث النكات والقفشات، كان وجود السيد الدكتور مدير الفرع يشكل عائقا يمنع المشاركة المعلنة

بالكلمات، لكنه لم يمنع من الاسترسال في التفكير في الأمر، همس موظف في المقعد الخلفي لزميله:

- المشرف مهفوف في عقلـــه.. مـــن الواجـــب أن يستأذن أولا، الإدارة كلها هنا.. يجب أن يستأذن مدير الفرع.

فزع الآخر من الفكرة وهمس أيضا ولكن بصوت أكثر حدة:

- ماذا قلت؟ يستأذن مدير الفرع.. كيف؟ ماذا يقول له؟ عن إذنك نضحك؟ يأخذ منه موافقة مكتوبة على الضحك؟ أنـــت مهرج... أنت عامل تليفونات مهرج.

وعاد الصمت.. لكن مشرف الرحلة حدث نفسه قائلا:

- لو أن مدير الفرع التفت لظهـــرت معارضـــته أو حتـــى موافقته على فكرتي.. ربما هو في منطقة الحيـــاد الســـلبي.. ربما يرغب في الضحك هو الآخر، الإنسان حيوان ضاحك، ومدير الفرع إنسان، وللمرة الثالثة قطع الصمت قائلا:

- كأنكم ذاهبون لتشييع ميت.. مالكم يا رجـــال؟ أنـــتم فـــي رحلة.. رحلة... أجازة من كل شيء.

حدثت اهتزازة جماعية، سرت همهمات، مالت قرينة مدير الفرع على أذنه وهمست بكلمات.. التفت على أثرها إلى الخلف، حط عيناه على مدير الشئون المالية والإدارية، تحسس الآخر رباط عنقه بسرعة خاطفة مخافة أن يكون في غير مكانه اللائق، أومأ مدير الفرع في شموخ وكبرياء، فقام من مقعده وتعثر في خطواته إلى الأمام.. لكنه لم ينس أن يرمي المشرف بنظرة وعيد قاسية.. وقف في محاذاة مدير الفرع.. انحنى نصف انحناءة مدروسة وجعل يتسمع في أدب جم، تبدلت ملامحه من العبوس المطلق إلى التهاون ثم التبسط المدهوش، ثم جرؤ على الابتسام بينما ينظر إلى وجه السيدة قرينة مدير الفرع، ثم سحب نظرته واستقام واقفا فظهر الفارق الكبير بين طوله الحقيقي وطوله لحظة الانحناء، نظر إلى مشرف الرحلة وأومأ إليه برأسه.. تقريبا بنفس الطريقة التي أومأ بها مدير الفرع إليه منذ لحظات.. تجاهل المشرف تلك الإيماءة.. فأجبره بالنداء المباشر ليقطع عليه كل محاولاته الهروبية قائلا:

- أنت.. نعم أنت. لا تتلفت حواليك أيها المشرف.. تعال هنا.. سيادة الدكتور يطلبك.

حسب البعض أن عقابا شديدا سوف ينزل به.ز ربما يتم فصله نهائيا.. لكن المشرف كان يتحرك نحو المثلث ي ثبات واطمئنان حتى وصل إلى الواقف.. دار حوار سريع باسم وحط المشرف عيناه على السيدة قرينة مدير الفرع التي التفتت نحوهما المشرف وكأنها تتأهب لالتقاط صورتها الجانبية، اقترب المشرف من السيدة وابتسم.. مد يده إلى جيب سترته وأخرج حزمة الأوراق المالية.. تنهد ثم قال لركاب السيارة:

- أيه.. يبدو أننا سنبدأ مشوار الدفع.. المدام عندها نكتة.. لو أضحكتكم تكسب الجائزة.. تفضلي يا مدام...

تلفتت السيدة حواليها قبل أن تقف، تحرجت عندما واجهتها النظرات في عجب ودهشة.. أدركت أنها دخلت التجربة وأنه من العسير عليها أن ت تراجع.. نظرت إلي يمين المشرف القابضة على الأوراق المالية.. حاولت أن تتبسط.. مدت يدها نحو الأوراق المالية فأبعد المشرف يده.. قبضت على الفراغ.. انكتمت مشاريع الضحكات حذرا وأدبا، قال المشرف معلقا على الحدث:

- لا يا مدام... لا... ليس الآن... بعد أن نسمع النكتة ونضحك.. لقد تعودنا أن نقبض رواتبنا بعد أداء العمل.

بدا أنه من العسير أن تلقي السيدة بنكتتها وسط الصخب المهذب غير المعلن، كانت تحتاج إلى مساعدة.. شخص ينشلها من المأزق الذي وضعت نفسها فيه، نظرت إلى مشرف الرحلة مالت عليه وهمست في أذنه اليمنى ببضع كلمات.. كان يبتسم ويهز رأسه، ولم يكن أحد يدري أن كان يبتسم استخفافا أو استلطافا، جلست السيدة بجوار الدكتور وكأنما لتحتمي به، تحرك المشرف إلى منتصف السيارة وأعلن:

- المدام تعتذر لكم لأن صوتها ضعيف ولن تتمكن من إلقاء النكتة بنفسها، وهو شرط أساسي من شروط اللعبة، إذا قبلتم استثنائها فأنتم أحرار، أنقل النكتة إليكم بدلا عنها هيه.. ما رأيكم؟

تعالت أصوات الموافقة على اقتراح المشرف.. ثم أنه اعتدل وقال نكتة.. كانت نكتة قديمة ومعادة وكان من الممكن أن

تحظى بفشل عظيم، لولا أنها لسيدة في مركز محترم تسـعي لأن تبرز ميولها الشعبية، ولوا أنها كانت البداية بعد طـول الصمت والبدايات الضاحكة تستحق التشجيع في مثـل هـذه الحالات.

كان الضحك المتواصل الذي لا يرغب في الانتهـاء قد سيطر على ركاب السيارة.ز وكان على المشرف أن يدفع المكافأة وعندما مد يده بالورقة المالية اختطفتها السـيدة فـي لهفة وكأنها تؤكد للجميع أنها لم تحصل في حياتها علـى أي جائزة من أي نوع في كل حياتهـا.. ومـن جديـد تعالـت الضحكات.. ضحكات هستيرية هوجاء يصعب تصـديق أي إدعاء بأنها استمرار للضحك على نكتة قديمة وشائعة، كـان مدير الفرع حتى هذه اللحظة خارج بؤرة الأحـداث، وكـان يبتسم في عسر دون الاندماج في اللعبة وكأن الأمر لا يخص قرينته بأي حال من الأحوال... لكـن البدايـة كانـت جـد مشجعة، لقد انزاح كل الخوف والتوجس، ذاب الجليد الـذي كان مزروعا بين الكائنات البشرية، انزاح الوقار وتتابعـت النكات.. نكات جادة هادفة وأخرى غبية حمقاء... وتهـاوت الأقنعة الرسمية، تحولت رؤساء الأقلام إلى أنصاف مهرجين

يستجدون الضحكات والمكافآت، طغت على الكل شخصية عامل التليفون ليصبح بالفعل سيد الموقف، فهو يحفظ عشرات النكات عن الموضوع الواحد، وهو يحرق نكات الآخرين ويلقي بالقفشات مجانا ويقول: أنه مستعد لإضحكاك الطوب الرملي بلا مقابل.

وسط الصخب الهادر تحسس مشرف الرحلة جيوب سترته، أخرج ورقة مالية من ذات العشرة جنيهات كان يرغب في فكها ليفي بالتزامه الذي قطعه على نسه.. أدرك عامل التليفون ما كان يحير المشرف، قام واقتراح اقتراحا:

– من الصعب أن يدفع المشرف.. لقد ابتلعتم أمواله.. ما رأيكم لو أننا فرضنا غرامة على أصحاب النكات القديمة.. النكتة السخيفة تدفع قرشين والقديمة تدفع قرشا... نطبق نظام الحوافز والجزاءات كما يحدث في الشركة.

في فورة الحماس وافق الجميع على اقتراح عامل التليفون، وبدأت القروش تزحف في بطء إلى جيب المشرف.. ولم تتوقف الضحكات، حتى النكات السخيفة والمحروقة ضحكوا على قائليها لحظة الدفع الإجباري.. بل

أن البعض كان يجهز قروش الغرامة قبل أن يواجه بالصمت أو المقاطعة، وهكذا انفلت الجميع ونسوا كل ما كان من شأنه أن يمنعهم من ممارسة الضحك، ظهر كل ما كان مستورا تحت الثياب المحبوكة بأربطة لعنق.. تحولوا إلى مجتمع بشري صحيح.. ولم يستح مدير الشئون المالية والإدارية من الوقوف في منتصف السيارة وهو يقول لعامل التليفون آمرا:

- طبل يا ولد.. طبل لي.. سوف أرقص لكم رقصة زوربا.. ملعون أبو الدنيا..

ورقص في حدود الحيز المتاح.. ونسي الكل وجود الدكتور مدير الفرع.. كان رغم كل ما يحيط به متوازنا وموزونا.. قاوم وقاوم وقاوم.. فرض على نفسه الوقار الذي يفرضه عليه ما كان يشاع عنه من مركز علمي خطير.. لكنه في لحظة.. لحظة غير محسوبة انطلقت منه ضحكة غريبة... مخنوقة في أول الأمر، ثم مندفعة وهادرة.. كأنها أزاحت كل استحكامات الرجل وسمحت لمخزون الضحكات المحجوزة بأن ينضب في الآذان، وبذلك سقط آخر معقل إداري في بؤرة الحدث الضاحك.. وهنا ضحك الجمع على

تركيبه الضحكة، كانت ضحكة رفيعة نصف مخنثة... صفير متواصل من حنجرة ناعمة تطلع عليهم على غير توقع..

- شاركنا بنكتة يا سيادة مدير الفرع.

بذلك قال عام التليفون فوجد تأييدا اجتماعيا..

تمنع مدير الفرع أولا.. لكنه فكر في الأمر.. التفت ثم قال:

- عندي نكتة من ألمانيا.. لاشك أنها سوف تعجبكم.

وسكت الجميع في انتظار خفة الدم الألماني، لكن الرجل خذلهم قال نكتة قبيحة وداعرة.ز ودودت ضحكة السيدة قرينة مدير الفرع.. بعدها ضحك الجميع..

- نكتة أخرى من شيكاجو.

وقال نكتة أخرى من نفس الطراز.. لكنه قوبل بصمت تام.. حتى السيدة قرينته لم تضحك.. وبسرعة راجع الرجل حساباته.. أدرك إلى أي حد سقط في هوة التهريج، ولا يدري أحد كيف استطاع هذا الكائن البشري أن يستجمع نفسه بهذه المقدرة.. تجهم وعاد كما كان مديرا لفرع شركة عالمية.. بدا كائنا آليا يستطيع أن يتحكم في صمامات نفسه بنفسه وبسرعة أصدر أوامره

إلى مدير الشئون المالية والإدارية، أصدرها بصرامة وحسم:

- كفوا عن هذا التهريج... أنتم تعملون في شركة محترمة وتحصلون على رواتب محترمة.

هكذا صرخ مدير الفرع وسط الدهشة الجماعية.. وهكذا فرض عليهم الصمت للحظات.. لكنهم لم يستطيعوا الاستمرار في طاعته أكثر.. ذلك أنهم ضحكوا وضحكوا وضحكوا.. وقف في مواجهتهم وعيناه المذعورتان تدوران في محجريهما كأنه فأر سقط في مصيدة لا مخرج له منها.. كان يصرخ.

- عيب. عيب يا ولد.

لكنهم لم يكونوا على استعداد لتصديقه أو الخوف منه، كانوا قد انفلتوا تماما.. تحولوا إلى كائنات سعيدة وساخرة من كل شيء.. ولم يكن هناك خوف أو رهبة من ذلك المتمصر غريب الأطوار الذي يقف بقامته القصيرة ويلوح بذراعيه في الهواء متوعدا مهددا بشكل يدعو إلى الإشفاق.

الثقافة الجديدة : سبتمبر ١٩٨٠

الهانم.. أولا

حدثني عنه صديقي القديم بعد ميلاد الطفل بأيام، كنا قد التقينا عرضا في ميدان التحرير وسألني عن الأخبار، فقلت له: أنني صرت أبا لطفل عمره أيام، فذكر لي شيئا عن متاعب الأطفال في عصرنا، أضاف أن الأمر لا يخلو من المتعة، بعدها راح يحدثني عنه ، عن نبوغه الفائق في طب الأطفال، أفهمني أنه أستاذ بارع في مهنته وأنه حاصل على درجة الأستاذية في أعرق جامعات أوروبا وأمريكا، لكنه اختار البقاء هنا من أجل أطفال الوطن، أوصاني باللجوء إليه ليفحص الطفل، فشكرت له اهتمامه بطفلي ووعدته بتنفيذ نصحه في أقرب وقت ممكن، ذكر لي الاسم مرارا وطالبني بتسجيله، لكنني لم أكن أحمل ورقة ولا قلما، اعتمدت على ذاكرتي وطمأنته أنني لن أنساه، أفهمني أن عيادته تقع في مصر الجديدة وشرح لي كيفية الوصول إليها، ودعت صديقي وقلت لنفسي: أن الدنيا مازالت بخير.

* * *

عندما ظهرت على الطفل علامات المرض، لجأت إلى أقرب طبيب أطفال، لكن حالة الطفل لم تتحسن، تذكرت صديقي القديم وبحثت في ذاكرتي عن اسم الطبيب الذي حثني عنه بلا جدوى، ومع كل صرخة من صرخات الطفل كنت أشعر بالندم لأني أهملت الأمر على هذا النحو، كان من العسير أن أدور في شوارع مصر الجديدة بحثا عن طبيب لا أعرف اسمه، وكان الاسم نفسه يحوم حول دماغي على نحو غامض، جاهدت أن أذكره، ولمت نفسي أيضا لأني لا أعرف عنوان صديقي، ظللت طوال الليل أستعيد حواري مع الصديق وأبحث في قاموس الأسماء عن اسم الطبيب، كان إحساسي بالمسئولية يؤرقني ويجعلني أكثر إصرارا على التذكر، وفي لحظة وعي خاطف بدا لي أنني اهتديت إلى الاسم أو شبيهه، مدحت أو حشمت ربما، وربما عصمت شوكت، في الصباح ذهبت إلى مصر الجديدة، قرأت كل اللافتات التي صادفتني ودخلت الصيدليات أسال عن طبيب أطفال يحمل اسما من تلك الأسماء، أرتاب البعض في أمري وسخر البعض الآخر،

لكن صيدلانيا عجوزا أخذ يردد الأسماء التـــي ذكرتهــا بصوت عالم ثم ابتسم وقال مؤكدا:

- لعلك تقصد الدكتور جودت عبد الجبار؟

وكأنه انتشلني الرجل من هوة سحيقة واستعادني من الضياع، صرخت في اطمئنان وقلت: أنه هو نفسه جوت عبد الجبار قلت: أنه هو نفسه جودت عبد الجبار، بـــدت على الرجل علامات الرضا عن ذاكرته لكنه أضاف:

- كانت عيادته في ميدان "تريمف" لكنه تركها إلـــى عيادة جديدة منذ سنوات، يمكنك أن تذهب إلى عنوانـــه القديم وتسأل وسوف تصل، لن يكلفك الأمر أكثـــر مـــن مشوار آخر، ومرة أخرى لا تتهاون في كتابة الأســـماء والعناوين التي قد تحتاج إليها في مستقبل الأيام.

* * *

كانت العيـــادة مزدحمـــة بالمرتـــادين والمرضـــى، والممرض الذي يجلس إلى مكتب أنيق يصرخ في وجوه الأطفال الأكثر حركة، سألني بينما كانت زوجتي تحمـــل

الطفل وتقف خلفي عن مطلبي، فأجبته بأنني أريد الكشف على الطفل، مط بوزه مستنكرا ثم قال في تأفف:

- بالحجز يا سيد.

- احجز.

- لكن حالته سيئة ويلزم الكشف عليه اليوم، كشفا مخصوصا مثلا.

- ليس لدى الدكتور نظام المخصوص، الحجز مقدم إذا أردت.

قال العبارة الأخيرة وأشاح بوجهه عني وكأنه ينهي الأمر تماما، تبادلت مع زوجتي نظرة حائرة ثم دفعت للرجل وقبلت موعد الكشف بعد أسبوعين.

* * *

كانت تحمل الطفل وتتبعني عندما رأيته لأول مرة، أشار إليها بالجلوس، كدت أذكر له رحلة الشفاء حتى وصلت إلى عيادته فابتسم مداريا عدم استعداده لسماع المزيد، التفت إليها وسألها عن حالة الطفل، نظرت هي

نحوي تستعين بي لتوصيف الحالة، كـدت أشـرح لـه الأعراض لكنه لم يتحمس لسماعي، ومرة أخرى أشـاح بوجهه عني والتفت إليها قائلا في عصبية لا تليق بعجوز في مثل عمره:

- الهانم، يهمني رأي الهانم، تفضلي.

تحيرت هي على عادتها عندما تحادث الغرباء، لكنها جاهدت أن تصف له ما كان يعانيه الطفل في الأسبوعين الماضيين، كان الرجل يهز رأسه مشجعا ومبـديا فهمـه العميق لكل ما تقول، طلب منها في رفق أن تحمل الطفل إلى سرير الكشف، راح يفحصه ويهمهم، بعدها عاد إلى مكتبه وراح يخط تذكرة العلاج في تأن ويقوله لها:

- اطمئني يا هانم، لكن أرجوك – بدون تكليـف – أن أرى الطفل بعد أسبوع.

تحسنت حالة الطفل، توردت وجنتاه وزادت حركته، كانت زوجتي تمتدح الطبيب وكأنه أبوهـا طـوال الوقـت، وكنت أحاول أن أذكرها كيف دخت حتى عثرت علي اسـمه وعنوانه وكيف أن صديقي القديم كان محقا فـي ضـرورة

اللجوء إليه، ويوم ذهبنا إليهن كنت أرغب في أن أشد علي يده شاكرا فضله، لكنني عندما دخلت ومددت له يدي تجاهلني وأشار إليها بالجلوس أولا ثم صافحني في غير اهتمام ثم نظر إليها وهمس في تشجيع.

- والآن يا ابنتي ماذا جرى؟ ما هي أحوال الولد؟

نظرت هي نحوي في محاولة لاستلهام الكلمات، تقلصت ملامحه نقال في تبرم:

يا هانم، أنا أطلب رأى الآم، الأم عندي هي الأساس، أريد رأيك أنت، هذا شرطي الوحيد للاستمرار في علاج أي طفل.

نظرت هي نحوي في تباه ثم اندفعت في ذكر التفاصيل التي لاحظتها، ذكرت للرجل أمورا لم ألتفت إليها أو حتى أفكر في احتمال أن تذكرها، والرجل يزفر في ارتياح ويرقبني بطرف عينه اليمنى وكأنما يعلن انتصاره في معركة خاضها معي، معركة لم أجهز نفسي لدخولها أو حتى أفكر في احتمالات قيامها، وبعد الزيارة لم أقدم له يدي

مصافحا، لكنه هز رأسه في استهانة جعلتني أخجل من نفسي بينما أهبط درجات السلم.

بإلحاح منها وبسبب أن حالة الطفل كانت في تحسن مستمر كنا نزوره بالطفل مرتين في كل شهر، لا أتبادل معه إلا عبارات التحية الفاترة، وذات مساء حدث زوجتي في حدة:

- كيف يا هانم تحملين الطفل بنفسك؟ الطفل يحمله الأب في أرقى المجتمعات، لن أسمح لك بالتهاون في حقوقك إلى الأبد.

كان الأمر يعنيني بشكل مباشر، ومع ذلك لم يتوجه نحوي بنظرة، أكتفى بإصدار أمره في حسم، وبغير حوار منطوق حملت الطفل وتقدمت لأخرج، لكنه أوقفني بإشارة من يده ثم قال لها في لطف:

- الهانم أولا.

تقدمت هي وخرجنا، ساد بيننا صمت جديد، قلت لنفسي: أنه لو تصادف ورآني فلاح من قريتنا فسوف يجعلني أضحوكة يتسامرون عليها ويتندرون، غير أنني هونت الأمر

على نفسي عندما لاحظت في المرات التالية أن جميع الرجال من رواد العيادة يحملون أطفالهم ويسعون في أثر السيدات.

اكتسبت زوجتي حقوقا لم تكن تحمل بها قبل تعاملنا مع طبيب الأطفال أصبحت رغبتها في الجدل وتأكيد وجودها في حضرة الضيوف أقوى، كانت تتدخل في الحوار وتحتكر الحديث في شئون البيت والطفل بشكل آثار دهشـــتي، كنـــت أخشى أن تجرؤ مرة وتتطاول أمام الغرباء علـــى أفكـــاري، تسرد لهم مثلا ما كان من أمر الطبيب.

في الزيارة الأخيرة كانت تتقـــدمني أمـــام غرفتـــه، ناولتها الطفل ودفعت الباب دفعا، لمحت في عينيـــه خـــوف الإنسان المتمدن من لحظة المواجهة، كنت أرغب في الدفاع عن حقي، في نسف كل ما كان قد سر به إلى عقلهـــا مـــن أفكار، لكن الرجل بدا هادئا، مط بوزه وهز أكتافه في غيـــر اكتراث وراح يفحص الطفل في صمت، وكأنما تأكـــد لديـــه استحالة تغيير شكل حياتنا إلى الأفضل كما كان يدعي.

الأهرام : أبريل ١٩٨٢

عناوين الأصدقاء

قابلني في ميدان التحرير صـــدفة فارتســمت علـــى ملامحه علامات الفرح، فتح ذراعيه على اتساعهما واحتواني في أحضانه وجعل يقبلني في اشتياق فبادلته القبلات، ســألني عن أخبار البلد وأحوالي ومزاجي وصحة المعارف، متـــدفقا بالأسئلة على عادته دون أن يسمح لي بفرصة الرد، أقســم بأنه كان يفكر في زيارتي منذ أيام وأنه يبحث عن عنـــواني الذي كان يحتفظ به لا يدري أين، كان متعجلا على عادتـــه دائما، يتكلم في سرعة وكأنما يرغـــب فـــي تعـــويض تلـــك السنوات الطوال التي غابت عنه فيها أخباري في لقاء عابر:

– شيء غريب يا أخي أن أفكر فيك ثم ألتقـــي بـــك صدفة بينما لم أكن أفكر في المجـــيء إلـــى هـــذا الميـــدان، ظروف غامضة غيرت مساري فوجدتني أمامك وجهك لوجه بلى أن طيفك كطاف بخيالي على نحو غامض بينما أدخـــل الميدان، يحدث أحيانا أن أدندن بأغنية قديمة ثم أفتح جهـــاز الاستقبال بغير إرادة فأسمعها، اسمع نفس المقطع وربما نفس الكلمات، ،الآن أراك أمامي بعد غياب السنوات، شيء مفزع أن نعيش في نفس المدينة ولا نلتقي إلى مصـــادفة، أســـمع

يجدب أن تكتب لي عنوانك فورا، هل معك ورقة قلم؟ دائما أنت هكذا، قلما تحتفظ بورقة أو قلم، لا يهم سوف نستعير قلما من عابر يمتلك قلما، سوف أحتفظ بعنوانك هذه المرة ولا أفقده، من العيب أن يفقد الإنسان عناوين أصدقائه، بينما هو في حاجة ماسة إليهم، الواحد منا يحتاج إلى صديق، صديق وفي يرتاح إليه ويسمع منه، يهون عليه لحظات الضياع والكآبة.

كف عن الكلام فجأة، كانت عينان تتابعان في اهتمام بالغ حركة العابرين، يتأمل الوجوه باحثا عن شيء لا أعرفه، انحطت عيناه على شاب يحمل مجموعة من الكتب الدراسية و كشاكيل المحاضرات، كان الشاب يمشي في اتجاهنا بخطوات متعجلة، لكنه عندما أصبح في محاذاة صاحبي همس الأخير في رجاء:

- لو سمحت.. قلمك سوف أكتب عنوان الأخ.. مجرد عنوان.

امتدت يد الشاب لتخرج قلما جافا ف تثاقل وبغير ترحيب، كانت عينا صديقي تتركزان الآن على الكشاكيل

التي يحملها الشاب، ربما فكر في طلب ورقة من أوراقهـــا، لكنه، تخوف من احتمال الرفض، تحسس جيوبه في حرج ثم أخرج يديه، تلفت حواليه ثم زفر في ارتباك، كان الآخر يبدو متعجلا وعلى غير استعداد للانتظار أكثر، كاد يطلب قلمــه المستعار لولا أن صاحبي أسرع بإخراج علبة ثقاب من جيب سترته فرد غلاف علبة الثقاب ونظر إلى وهو فـــي وضـــع الاستعداد للكتابة، أمليته عنواني في البيت والعمل وزودتــه برقم تليفون العمل أيضا، ناول الشاب قلمه الجاف وأومأ لـــه شاكرا ثم التفت نحوي واقترح:

- ماذا لو جلسنا في أول مقهى يصادفنا؟ نحتسي شـــايا ساخنا ونثرثر؟

- لا مانع، نجلس.

لكنه نظر إلى ساعته وتراجع عن اقتراحه السابق:

- متأسف، أنا في أشد حالات الأسف، عندي موعـــد هام، سوف أتصل بك على أي حال، أنت ترى أنني مشغول دائما، أنني أقوم بإعطاء بعض الدروس الخصوصية، ألهــث دائما من أجل الاستمرار في الحياة مستورا، أنت تعـــرف أن

الحياة قاسية على أمثالنا من الناس، أشعر أحيانا أنني أدور في نفس المدار كثور الساقية، وأنني لم ولن أعيش حياتي كما ينبغي.

جذبني من كوعي إلى ركن بعيد عن حركة العابرين، نظر إلي ساعته وأفهمني أنه لا يمانع في الوقوف بعض الوقت ليعرف أخباري، وقرر أنه عندما يراني يتذكر الأيام الجميلة التي كنا نسكن فيها معا، تحسر على تلك الأيام التي عشناها بغير مسئولية، هز دماغه متذكرا فتذكرت بدوري كيف كان يعيش بنصف مرتبه ويبعث النصف الآخر لأهله في القرية، وكيف كان يحلم بامتلاك قميص جديد، ويحدثني في أمسيات الشتاء.

- سوف تمر السنوات وأتخرج في الجامعة، وسوف أحصل بالطبع على مرتب أكبر، وربما أتزوج يوما مثل بقية خلق الله، ربما أقول لك ربما، الفقر يا صاحبي يقتل الأحلام، الفقر يقتل الأحلام.

كنت أهون عليه بالكلمات، وأزين له الحياة القاسية التي كنا نعيشها مدعيا أن لها طعما وقيمة، وأبين له في نفس

الوقت كراهيتي للحياة السهلة الميسرة التي لا يكابد فيه الامر عناء لقمة العيش، وكثيــرا مــا كــان يصــدق أو يتظــاهر بالتصديق وينهمك في قراءة الكتب المقررة، وكما قال هــو، مرت السنوات وتخرج في الجامعة بعد عناء غير أن أحواله كانت تتغير ببطء، ببطء ممل كان الوهج الذي امتلكه يومــا يخبو وينطفئ والحماس الذي يميزه يفتر ويذبل، ربمــا مــن كثرة الشقاء والجري وراء سراب والدوران في نفس المدار كثور الساقية بحسب ما كان يصف نفسه في ساعات الكــدر والملالة.

- في الشغل لا يسمحون لنا بتــرك المكاتــب قبــل مواعيد الانصراف، الأخطر أن مديرنا لا يسمح لنا بمقابلــة الضيوف أو حتى قراءة الصفح اليومية في المكاتب.

وأنا أحتمل من أجل الأولاد.. هيه.. أيام هــل أنــت مشغول بشيء، هل عطلتك عن موعد؟

- أبدا، لقد كنت أتجول بلا هدف.

هز دماغه مطمئنا، كان يتكلم بعصبية وانفعال ويــده القابضة على غلاف علبة الثقاب تضغط بالأنامل في عنــف

يوشك أن يفري الغلاف، فكرت في أن أطلب منه أن يضع العنوان في جيبه حتى لا يفقده، لكنني شعرت بالخجل من طرح مثل هذا الطلب بينما هو منهمك في الحديث عن أخص خصائصه وأعماق مشاعره، كانت أنامله تضغط على غلاف علبة الثقاب بينما يحكي.

وعندما أنهى حديثه ودعني في حرارة وقبلني في ود ثم أكد لي بينما يتراجع إلى الخلف أنه سوف يقوم بزيارتي في اقرب فرصة ممكنة وأنه سيتصل بالتليفون في صباح الغد، كنت أقف مكاني وأنظر إليه بينما يستدير ويبتعد، وعندما أنحرف مع الشارع الجانبي خيل إلى أنه نثر من بين أنامله نتفا دقيقة من الورق كانت غلافا لعلبة ثقابا استخدمها في كتابة عنواني ورقم تليفوني فأعددت نفسي لاحتمالات افتقاده مرة أخرى زمنا قد يطول أكثر مما ينبغي.

الأهرام : مارس ١٩٨٤

الفاطمة

كان النيل يبدو في خلفيتها خطأ نحيلا منسابا تلتمع موجاته المتتابعة الهادئة، وكان شعاع الشمس ينعكس على سطح النهر فيجعل ملامحها أقل وضوحا، كانت هي منهمكة في ترتيب أوراقها وقد جلست في مكانها في صدر صالة التحرير المستطيلة أكثر من أي مكان آخر يمتاز بالاستطالة، وكان المشوار إليها يبدو لي في بعض الأحيان شاقا ومرهقا بسبب تلك النظرات المستطلعة في شيء من الاستنكار لدأبي على تلك الزيارات شبه المتكررة إليها، لكن الأمر في بعض الأحيان كان يتحول إلى اعتياد لا يخلو من ألفة وترحيب متحفظ، لم أكن على استعداد للدخول معهم في علاقات من أي نوع برغم كل المحاولات التي قاموا بها بوسائل متباينة، كنت أبدو لها غريبا في طباعي وعاجزا في ذات الوقت عن مسايرتهم في اهتماماتهم الجمة، كنت أعرف يقينا أنهم لا يرتاحون لوجودي في مقر عملهم على هذا النحو المتكرر دون أن أستجيب ولو بقدر طفيف لرغباتهم في معرفتي عن قرب، ومع إدراكي لحقهم في ذلك إلا أنني ظللت محاذرا أن أتورط في علاقة من أي نوع معهم، كنت أعرف هدفي

وأتجه إليه، كانت هي دائما هناك تجلس خلف مكتبها الـــذي يتربع في صدر الصالة المستطيلة وحيـــدا بينمـــا مكـــاتبهم مرصوصة في خطين متوازيين على الجانبين، كنت أعبـــر صالة التحرير في كل مرة وبصري متجه إليها، أخطو على مهل وأرها وقد ازدادت ملامحها اتضاحا كلما ازددت منهـــا قربا، أجلس على المقعد المجاور في صمت حتى تلتفت هي نحوي، تحادثني حديثا موصولا مع ما كنا قد انتهينا إليه فـــي حوار اليوم السابق، لحظتها أستعيد كـــل شـــيء وأدور فـــي التفاصيل الدقيقة بعقلي ومشاعري قبل أن أرد عليها بـــنفس الأسلوب الذي تحادثني به متجاوزين بذلك تلـــك العبـــارات المعتادة التي تسأل عن الأحوال أو تهدي تحية الصباح وكأننا نهرب من كل الجمل الاعتراضية قليلة الجدوى وندخل فـــي صلب الموضوع.

- كلام فارغ، ما تقوله أنت كلام فارغ يا رمســـيس، بيع البيت لن يحل المشكلة، فكر في حل آخر.

كنت بالفعل قد فكرت في حل آخر، لم أشأ أن أعلق على الأمر بأكثر من إيماءة موافقة على فكرتها، ساد صمت قبل أن تقول هي في قلق:

- ماذا جرى بينكما مساء الأمس؟

قلت بغير حماس في محاولة لتبسيط الأمر:

- مجرد مناوشات صغيرة، لا تشغلي نفسك بهذا الأمر.

تبدلت ملامحها، بدت مستفزة، تحيرت قبل أن تقول في نبرات حادة.

- قلت لك ألف مرة أنها لن تفهم، حاول أن تعاملها بحسب قدرتها على الفهم، لست على استعداد لاحتمال ذلك الشعور بأنني سوف أكون سببا في خلاف قد يقع بينكما.

شعرت بالضيق لأنها تتحدث في هذا الأمر أكثر مما ينبغي في الأيام الأخيرة، قلت بعصبية:

- أليس لدينا غير هذا الموضوع السخيف، أنني أصوغ علاقتي معها على النحو الذي أريده، أنت تدسين أنفك في كل مرة بلا مبرر، ما أريده منك الآن هو أ، أعرف رأيك الواضح في مدى استعدادك لاستمرار العلاقة بيننا، ماذا تريدين مني بالضبط؟

كنت قد تجاوزت حدودي المألوفة، ارتفع صوتي بشكل ملحوظ إلى درجة أنني سمعت صداه يتردد في جنبات صالة التحرير، كانوا هم يلتفتون نحونا متسمعين كلماتي ويتلهفون لسماع ردها، لكنها كانت قد أسبلت عينيها وكأنها لا ترغب في النظر إلي بينما أنا ثائر على هذا النحو، كانت تهز رأسها في استنكار حزين، ملامحها تنضح الألم وتتحامل في عسر في محاولة للصمود، شعرت بالخجل من نفسي، رغبت في الاعتذار لها بصوت مسموع لكنني لم أتسطع إلا أن أزفر في مرارة وأهمس بصوت خافت.

- أسف.

فتحت هي عينيها وأطلت إلى في تسامح ملائكتي فتصبب العرق على جبهتي، جاءت نسمة باردة من ناحية النهر فشعرت ببرد يشمل كل أطرافي، أعددت نفسي ليوم من أيامنا الحزينة التي يبوخ فيها كل شيء، قلت لنفسي أنني أخطأ بالانفعال وأنها امتصت الموقف بسبب وجود الآخرين لكنها لن تفوت الإهانة، جاء الساقي وصب فنجانين من القهوة، تناولت بيد مرتشعة فنجاني وقلت دون أن التفت إليها:

كانت نظراتها تنصب فوقي لكنني تهربت، غصت في مكونات الفنجان وجعلت أتفحص تلك الرسوم الغامضة على حافة الفنجان أثر الرشفة الأولى، كنت أرقب فنجانها الساكن فوق المكتب بطرف عيني وأستشعر الألم في أمعائي، عندما ارتفع فنجانها إلى أعلى خفت حدة الألم، وبمرور الوقت جفت قطرات العرق على جبيني، كان عدد المحررين يتناقص، أسمع أصوات أحذيتهم في مشوارها نحو الباب مصحوبا بضجيجهم وعباراتهم المألوفة عند الانصراف، كان هو يجلس هناك قريبا من الباب، قلت في محاولة لاستدراجها في الحدث بينما أومئ نحوه في خفة:

- أمازال ينتظر؟

لم تعلقن نظرات إليها، فرت بعينيها اللتين كانتا تتحطان على وجهي منذ برهة، قلت:

- يبدو مختلفا عن الآخرين.

لم تعلق هذه المرة أيضا، تململت في مقعدي وتابعت بنظراتي أحد المحررين بينما يخرج من صالة التحرير في جلبة، اغتصبت ابتسامة ونظرت إليها همست:

- فاطمة.

نظرت إلي في استطلاع محايد، واصلت كلامي:

- هل تخاصمنا؟

لم تعلق على السؤال، أشاحت بوجهها إلـــى النهــر، بدت رقيقة وحالمة، انعكس شعاع الشمس المعكــوس علـــى سطح الماء في أغوار العينين العسليتين، قلــت لنفســي: إن وجهها يصلح لأن يكون لوحة فريدة التكوين، انتقلت نظراتي على الرغم مني وتركزتا عليه في عداء لا أعرف أســبابه، نبهتني هي بنداء مفاجئ:

- رمسيس.

نظرت إليها، كانت تبدو جميلة أكثر مــن أي وقــت مضى، وكانت تبدو لي شامخة مترفعة في صـــلابة وإبـــاء، اعتراني خاطر مفاجئ، كان من الممكن أن أجد مثلها في هذا العالم لتكون أما لأولادي، ودعوت متمتما، أبانا الــذي فـــي السماء أطلب الغفران عن خطايا العقــل الشـــارد، تــذكرت سنوات الدراسة التي مرت كطيف سرعي خاطف، كانت هي معي في المدرجات نتبادل المــذكرات والآراء والمراجـــع،

نتنافس في عناد للحصول على أحسن التقديرات، نقتسم التفوق ونتشاجر ثم نتصالح في اليوم الواحد أكثر من مرة، وعندما انتهت سنوات الدراسة وقفنا عند مفترق الطريق، اختارت هي الصحافة واخترت دراسة التاريخ، يومها درنا في شوارع المدينة عاجزين حتى عن فتح موضوع للحوار، كنا ندرك على نحو غامض أن علاقتنا سوف تنتهي عند هذا الحد، وأنه هناك في الأفق طريق مختلف لكل منا، لكنها في لحظة غير محسوبة انطلقت في الضحك المتواصل دون أن أعرف لذلك سببا، وقفت أنظر إليها في اندهاش وقد تحيرت في أمرها بينما تضحك وتضحك حتى دمعت عيناها قلت لها في استنكار:

- علام تضحكين؟

جلست هي على سور الكورنيش ومسحت عينيها بمنديلها قبل أن تقول:

لأننا حولنا الأمر إلى مشكلة بغير مشكلة.

قلت مستفسرا في إنكار.

- كيف ! سوف نفترق ويسلك كل منا طريقه، سوف نفترق لو.. لو... لو كان الأمر بيدي.. أنت تعرفين، ليتك كنت مثلي أو لتني كنت مثلك.

- كنا تزوجنا.. أليس كذلك؟

- طبعا.. طبعا.. كنا تزوجنا، ولكن

- وما رأيك في الصداقة، الصداقة الخالصة من أي غرض، أنها شكل من أشكال الارتباط المشروع بين البشر.

قلت لها وقد برز شعاع خاطف في عقلي:

- وهل يمكن أن تدوم الصداقة بيننا.

- وماذا يمنع؟

من يومها لم تنقطع العلاقة بيننا، صداقة متواصلة برغم كل التوترات التي تعتريها، اصبح بيننا عقد غير معلن بضرورة اللقاء، أسعى إليها حيث تعمل، نحكي بغير انقطاع ونشتكي من همومنا الصغيرة، نطوف في شوارع المدينة ونأكل في الأماكن العامة، كأننا توأمان

يصعب أن تفصل بينهما الأحداث، وذات مساء قالت هي بغير مقدمات:

- أنت تفكر في الزواج، نظراتك للبنات غريبة هذا المساء.

دهشت لأنني كنت بالفعل أفكر في الزواج، قلت وكأنني أعتذر عن خطأ ضبطتني متلبسا بارتكابه:

- فعلا ، أنا أحب الأطفال كما تعرفين، وأرغب...

قاطعتني هي:

- تزوج.

وبنفس البساطة التي قالت بها الكلمة دخلت التجربة، أصبحت زوجا وأبا، لكن ذلك لم يغير من شكل علاقتي بها، مارست حريتي في أمر يخصني دون أن أنقطع عن زياراتي لها، ربما حدث العكس، زادت لقاءاتي بها، أحكي لها عن هموم الحياة ومشاكل البيت واستلهمها الحلول، وبرغم كل الزوابع التي كانت تثور بيننا كنت أعود إليها، نتبادل الاتهامات والدفاعات ولا نكف عن اللقاء، كانت تحدثني عن أولئك الأشخاص الذين يتقربون

منها ويسعون للارتباط بها، تصف مزاياهم وعيوبهم في حياد واتزان وتبرر رفضها المتكرر باستحالة العيش مع أيهم تحت سقف واحد، حتى ظهـــر مصـــطفى عاصـــفة متحركة تسعى على قدمين ، طاقة لا تهدأ ولا تســـتكين، يرقبها من مكانه في مدخل صـــالة التحريـــر، يرصـــد حركاتها في تأن، يتعلل بشتى الأسباب للاقتراب منها في حدود العمل، يثير فضولها ودهشتها بأفكاره، يبدو لها في بعض الأحيان وكأنه قد نذر نفسه لمعركة متواصلة غير معلنة معها، يتقدم خطوة ثم يتراجع، يبتسم لها ثم يعبس، تحكي لي عن عذاباتها فأشفق عليها وأعلن سخطي عليه، أتخيل وحدتها في الفراش وأحزن مـــن أجلهـــا، أتســـمع آهاتها القلقة مما سوف تأتي به الأيام ولا أملك لهـــا إلا الأمنيات، أحدثها عن جمالها الأكيـــد فتحمـــر الوجنتـــان خجلا وتغير الموضوع، أقول لنفسي: أنها تحمل بـــرغم العناد شقاء ثمرة نادرة نضجت وعاشـــت تنتظـــر اليـــد الجسورة التي تمتد إليها في رقة وحنان، أنسج لها ثـــوب العرب في أحلامي وأحيطها بالزهور الملونـــة، وأســـأل الأطياف المحلقة حولي عن سر وحدتها في هذا العـــالم

رغم التألق والوعي والطهارة، أتذكر عذابات المسيح فأطلب منه أن يخلص فاطمة من الشقاء، وعندما ألتقي بها في صباح اليوم التالي أقرأ في أغوار العينين بشرا وأرى على الملامح طيف حلم غامض، أنظر إلى هناك حيث يجلس هو وأسألها عن الأخبار، تحدثني عنه فيتأكد لدي أنها انشغلت به فعلا، أشعر بالسخط عليه لأنه يستطيع أن ينالها، أحسده وأتخوف أن تكتشف هي الأمر مرة أخرى، أجاهد أن أداري مشاعري نحوه وأفكر أنه ربما يكون زوجها في الغد القريب وأنه يلزم في هذه الحالة أن أكون صديقه هو الآخر، أفيق على صوتها وقد خلت صالة التحرير من كل المحررين إلى مصطفى الذي مازال يجلس، يرقب في عناد وإصرار وينتظر، تنتهي هي فترة القطيعة بيننا بينما تلتفت نحوه:

- في الصباح أهداني قلما.
- رائع.
- ما رأيك؟

- لا أعرف أما إنه ذكي جدا أو وغد خطير مادام قد أدخلك في مداره إلى هذا الحد.

نظرت هي إلي، قالت عيناها أنني أغار على مصطفى، قالت عيناي، أنني بالفعل أغار، ابتسمت هي، أنزاح عن وجهها كل ما كان قد تبقى من آثار الغضب، أشرق الوجه بشعاع الأمل بينما تنظر نحوه فتزداد جمالا ورقة، أتمنى في تلك اللحظة لو كنت أستطيع أن أقول فيها شعرا لم يقله على امتداد العصور شاعر.

الأهرام: يناير ٨٣

لقاء عابرين

كانا يعبران الطريق من اتجاهين متعارضين.. أولهما متعجل الخطو.. يتحرك بشكل عملي في شيء من الاتزان الواثق.. في يمينه حقيقة تضفى على مظهره المزيد من علامات الأهمية،، تقاطعيه تحمل تقطيبة حازمة توشك أن توحي بشيء من الغطرسة.. والآخر كانت يتحرك بآلية وبغير حماسة، يجر قدميه جرا على الأسفلت في تكاسل ظاهر.. يرقب الأشياء والوجوه بنظرة متسكعة لا تبالي، مضيعا وقته في التأمل غير المثمر.. عندما انحطت عيناه على متعجل الخطوات عرفه.. قال بصوت مسموع وكأنه يلقي سؤالا أكثر منه ينادي:

- شاكر؟..

التفت.. متعجل الخطوات لدى سماع اسمه.. تفرس في الوجه المستطلع الذي ينتظر ردا على سؤاله.. همس في دهشة:

- أنت؟... عادل..؟

على هذا النحو التقى الرجلان في منتصف الطريق... رجلان مختلفان في ظهريهما بشكل ملحوظ..

يتعرف كل منهما على الآخر في عرض الطريق وفي المكان المخصص لعبور المشاة.. وقد حدث نــوع مــن الارتبــاك للعابرين فزام البعض استنكارا واحتج البعض بكلمات مباشرة تنتقد وقفتهما للحظــات بينمــا إشــارة المــرور لا تعــرف المجاملات ولا العواطف.. وعليه يلزم أن يفسحا المكــان.. كان من الضروري أن يتنازل أي منهما عن المشوار الــذي قطعه.. راجعا مع الآخر إلى عكس الاتجاه الذي كان يســير فيه قبلا.. وقد تطوع السيد عادل واستدار مع شاكر ليتيح له فرصة الاستمرار في نفس الاتجاه.. متراجعا عــن خطتــه تماما.

كان السيد عادل على الأقل في السنوات الأخيــر ــ يعيش حياته على هذا النحو.. يشرع في الذهاب إلى مكان ثم يتراجع عن الذهاب.. يتعلل بأتفه الأسباب عندما يتخلف عن موعد مع أحد الأصدقاء اتجاها جديد.. ولعله لم يكن يعــيش بهذه الطريقة قبل ذلك بسنوات.. لكنه سئم بعض الأشياء التي بدت له سخيفة على نحو لا يطاق.. وقرر أن يتحرك بحسب هواه كلما استطاع.. كان يحدث نفسه في الأيام الأخيرة قائلا:

" إنني شخص مختلف.. أكره الإدعاء بقدرتي على تخطيط حياتي.. وأدرك أن هناك مئات الأشياء التي تفرض علي سطوتها وتجردني من حريتي في الاختيار.. فلأنعم بما هو متاح.. أتحرك حسب هواي.. لأعيش وهما بأنني أتحرك بحرية.. وليس هناك ما يدعو لأن أحمل نفسي مالا أطيق احتماله".

هكذا كان يحدث نفسه دائما.. وهكذا كان يدع نفسه لتيار الحياة.. يدفعه إلى الأمام وإلى الخلف.. مدركا في نهاية الأمر أن إرادته أضعف بكثير من أن تواجه سخف الواقع، ولقد تفحص صديقه القديم في تلك اللحظات وقال لنفسه: عشر سنوات كفيلة بأن تقلب موازين الكون.. قال شاكر لصديقه كأنما ليعيده من سرحانه:

- أين أنت..؟ أين اختفيت كل هذه المدة..؟

لقد سألت عنك كثيرا.. تغيرت كثيرا يا عادل..

تغيرت.. أمازلت تعمل في نفس المكان؟..

(ياه).. ظهرت بعض الشعيرات البيض في رأسك.

- شيخوخة مبكرة..

- لا تفزعني بتلك الكلمـــة.. أنـــا أكبـــر منـــك بســـنة ونصف.. لا تفزعني.. شيخوخة في سن الأربعـــين؟ لا.. لا.. قل لي عما حدث في حياتك.. أمازلت تعمل في نفس الوزارة؟

- مطلقا.. تركتها.. سويت معاشي و.. استقلت..

- آه.. هيه.. لابد أنك اقتنعت أخيرا بقيمة العمل فـــي القطاع الخاص.. أين تعمل إذن..؟

- لا أعمل..

- هيه.. لا تعمل... كيف؟ رجل في سنك ولا يعمل؟.. كيف؟ وماذا.. وكيف تعيش؟.

- أعيش.. أرسم لوحاتي واحتفظ بها.. أحيانا أبيع لوحة في أحد المعارض.. ومبلغ المعاش..

- أنت مجنون.. مجنون فعلا.. من أيام الدراسة.. قلت لك ألف مـــرة ريشـــتك تكســـب ذهبـــا.. شـــركات الإعلانات تتمنى الاستعانة بأمثالك.. عزام.. ع زام.. الذي كان أضحوكة قسم التصـــوير كلـــه.. أصـــبح

صاحب شركة إعلانات.. رأسماله مليون وصنف...
و...

- لا يهم..
- وإعلانات السينما والتليفزيـون.. لمـاذا لا تجـرب حظك؟
- ماذا لو جلسنا في المقهى.. لقد بدأت أشعر بالتعب..
- أنا.. في الحقيقة مرتبط.. عندي موعد مع عـزام.. لماذا لا تزورني في شركة الإعلانات العصرية...؟ من السادسة إلى التاسعة مسـاء.. كـل يـوم عـدا الأربعاء والسبت.. هل تزوجت؟
- لا...
- للآن.. شيء عجيب.. إن عصام الذي كنت تحملـه أصبح طولك.. أنه في الإعدادية.. حصل في القبول على أكبر مجموع في شمال القـاهرة.ز أنـه ولـد عفريت.. تقول أنك لم تتزوج.. وكيف تعيش..؟

- عندما كنت في بنها سألوني عنك.. لم أعد أذهب.. البيت بعناه منذ سنوات.. اشتريت قطعة أرض في تقسيم الفردوس.. بالمناسبة.. هل تعرف أحدا يبيع لي طن أسمنت أبيض.. القيشاني.. أنت تعرف مشاكل البناء.. والتشطيب.

- في الحقيقة.. لا أعرف..

- هيه... نعم نعم... مالك أنت بهذه المشاكل.. تقول إنك لم تتزوج.. اسمع.. فكرتني.. آه.. عندي لك عروسة.. لابد أنك تعرفها.. لقد كانت تحدثني عنك من مدة.. أنها بنت ملطوشة في علقها مثلك.

- من هي..؟

- كانت تتكلم عنك وكأنها تتحدث عن قديس.. رأت لوحة لك في أحد المعارض.. تقول: أنها بحثت عنك حتى يئست.. لا أحد يعرف عنوانك، أنها خريجة فنون وترسم هي الأخرى.. هل مارست لوحة عن الحرب.. عن السلام؟.. لا أدري.. لوحة عن الحرب أو السلام.. شيء من هذا القبيل..

- فعلا.. رسمت لوحة عن مفهومي للحرب.. و...

- حدثتني هي عنك باعتبارك عبقرية نادرة. لدرجة أنني اشتقت إليك.. وتباهيت لأننا زملاء دراسة وأولاد قرية واحدة.. أنا لا أذهب إلى المعارض كما تعرف.. السوق.. الوقت.. السوق يقتل الوقت.. تصور أنها لم تصدق أنني أعرفك.. تصور..

- تقول أنها خريجة فنون؟..

- وملحوسة مثلك.. ملطوشة في عقلها مثلك.. هي الوحيدة التي ناسبك.. إن لها شخصية عجيبة.. لو... تاكسي.. تاكسي.. أنهم حتى لا يسألونك إلى أين أنت ذاهب..

على هذا النحو كان يدور الحديث.. وكان لدي الأستاذ عادل سؤال عن تلك البنت الفنانة التي يحدثه عنها صديقه القديم.. ذلك المتشاغل عنه بالنظر إلى سيارات التاكسي وملاحقتها والحديث عنها بشكل فج... غير أن عادل أرجأ أسئلته المباشرة إلى حين ينتهي صديقه من أحاديثه عن أموره الخاصة:

- تصور يا عادل.. يرتفع الضغط.. وفي مثـــل هـــذه السن المبكرة.. نحن جيل قصير العمر.. من يحتمل كل هذه الضجة ولا يصاب بالضغط..؟

- لا تجهد نفسك كثيرا.

- كيف..؟ مطالب الحياة.. أريـــد أن أؤمـــن مســـتقبل الأولاد.. تعرف.. أحسنت لأنـــك لـــم تتـــزوج.. إن الزواج عبودية ومسئولية..

- المشكلة أنني لم أجد التي تناســـبني.. هـــي مشـــكلة اختيار..

- في الأسبوع الماضي كنت أدخل من تقاطع عرابـــي مع رمسيس.. دخلـــت ســـيارة نقـــل فـــي مـــؤخرة سيارتي.. كسرت الفوانيس وشـــوهت مؤخرتهـــا.. وأدوخ حتى أجد "تاكسي" أدوخ.. تاكسي.. تاكسي... مصر الجديدة.. أنظر.. حيوان لا... لا يكلف نفســـه عبء الرد...

- كيف أراك..؟ ما اسم الشركة التي تذهب إليهـــا؟... هه.

- تاكسي.. نعم... مصر الجديدة.. مع السلام يا عادل.
- هكذا قال شاكر وهو يجري في أثر التاكسي الذي تباطأ.. ظل يجري حتى وصل إليه.. تبادل مع السائق بعض العبارات وأسرع بفتح الباب ودخل مزهوا بنفسه وكأنه انتصر في معركة حربية.. وبينما كان عادل يحث خطاه ليحلق به متوهما أنه سوف يستكمل حواره مع صديقه القديم، انطلق التاكسي بسرعة تاركا إياه وحيدا.. وحيدا مع حلمه في البنت الفنانة التي تبحث عنه... وحيدا مع استفساره عن اسم الشركة التي قال له عنه.. وحيدا مع هموم حياته أكثر من أي وقت مضى.

مجلة الكاتب : أبريل ٨٠

العابر

كان الجو خانقا والشمس تصب صهدها على أبـــدان البشر الساعين إلى شئونهم وسط زحام المركبات وصـــخبها، وكان هو قد اكتشف أنه نسى مفتاح الشقة، نظر في ســـاعته وتحير في أمره، خطا خطوتين إلى الأمام ثم استدار، فكـــر بسرعة خاطفة أنه لو عاد إلى البيت لأخـــذ المفتـــاح فربمـــا يتأخر عن موعده، استدار مرة أخرى وخطا خطـــوات فـــي نفس الاتجاه السابق.. كان مدفوعا بالرغبة في الوصول إلى الرجل الذي ينتظره هناك، وصل إلى مفترق الطرق، كانـــت المركبات تقطع الشارع من كلا الاتجاهين في سرعة خاطفة نظر إلى ساعته، تحين فرصة بطء ســـيارة عبـــارة وعبـــر نصف الطريق وقف في المنتصف تماما بنظر إلى ســـيارات الاتجاه الآخر وهي تمر في حسم ولا تتيح له فرصة عبـــور النصف الثاني من الشارع الكبير، زفر في ضيق ثم اندفع في خطوات متهورة وعبر نصف الشارع المزدحم، سمع صوت إطارات سيارة يحتك بأسفلت الطريق في عنف، أطل وجـــه سائقها المتجهم وكال اللعنات متهما إياه بالغباء والعمى لأنـــه أوشك أن يضيع نفسه، ابتلع الإهانة ولم يجرؤ على الـــدفاع

عن نفسه بكلمة واحدة، كان في داخله إحساس حقيقي بأنه أخطأ خطأ بضع خطوات جاهد خلالها أن يبدو متماسكا، طلع على الرصيف وأسرع الخطو مطمئنا إلى حد كبير إلى احتمال وصوله في موعده.

كان العجوز يقف عند مفترق الطريق التالي، كانت في يده صحيفة يومية مطوية أربع طيات طولية، وكان يضع منظارا طبيا سميك العدسات على عينيه الصغيرتين، أشار العجوز إليه بيده حاملة الصحيفة وابتسم، كان يبتسم في ألفة وود، نفي أن يكون قد التقي به من قبل، ونفي أيضا أن يكون العجوز سائلا يطلب صدقة، كانت هيئته توحي بأنه موظف كبير محال إلى المعاش أو غريب عن المدينة يسأل عن عنوان، تباطأ الشاب حتى أصبح في مواجهته وعلى بعد خطوة أو خطوتين من الرجل، قال الرجل في حزم الآباء ولكن بصوت ضعيف واه.

- ساعدني على عبور الشارع.

وعبر لحظة خاطفة، استعاد الشاب ما كان قد حدث له بينما يحاول العبور من الاتجاه الآخر، وارتسمت

صورة الرجل الذي ينتظره وقد حل ميعاد اللقاء، نـزل الشاب عن الرصيف مباعدا ما بين قدميه ومبتعـدا فـي ذات الوقت عن العجوز، كان قد فكر في الفـرار مـن مسئولية العبور برجل متهالك إلى الرصـيف المقابـل، وعبر لحظة خاطفة، رسم على ملامحه أطلالـه إنسـان أحمق لم يفهم أو حتى يمسـع، هـز الكتفـين وحـرك الساعدين في اندهاش مصنوع ثم دمدم:

- يرزقك الله يا عم.

كان العجوز عنيدا ومطمئنا إلى حقـه فـي أن يطالـب الآخرين بمساعدته فاستخدم الصحيفة المطوية وربت علـى ظهر الشاب الذي كان يهم بالابتعاد، وكأنما في تلك اللحظـة التقت ارادتان بغير اتفاق مسبق، كان الشاب قد أحس بنذالته لأنه فكر في القرار، وكان العجوز قد خطا هو الآخر خطوة نحو الشاب الذي استدار ليراه مبتسما في ألفة وسماحة قبـل أن يكرر مطلبه في اطمئنان هذه المرة:

- ساعدني يا ولدي على عبور الطريق...

مد الشاب يمينه إلى الرجل في صمت وخجل، فاستند عليها الرجل بيد مرتعشة، لم يكن ثمة حوار يمكن أن يــدور بينهما، كان الرجل قد أدرك أن الشاب يسعى لشــأنه وأنــه تخابث عليه وكاد أن يفر حاسبا احتمالات الوقــت الضــائع، وأنه تراجع عن خطته على نحو مفاجئ، وكان الشــاب قــد غرق هو الآخر في دوامات من الخزي العاجز عن الاعتذار عن لحظة انحطاط بشرى بشري عاشها بمشــاعره بالفعــل، التقت نظراتهما دون حوار منطوق، ودون حــوار منطــوق أيضا تحركت أقدام الشاب والعجوز فــي مشــروع عبــور مشترك إلى الرصيف الآخر، كانت حركة السيارات تتباطــأ أحيانا فيخطوان خطوة أو يتراجعان خطوة، لكنهما في نهاية الأمر وصلا إلى الرصيف الآخر، امتدت يــد الشــاب إلــى الرجل يصافحه فابتسم العجوز في تسامح ومــد يــده، هــز دماغه وأسبل عينيه لحظة ثم همس:

- سامحك الله.

أطرق الشاب في خجل.. رغب في أن يعتذر بكلمات لكنه لم يستطع أن ينطق حرفا، ابتسم للوجه المتسامح وأومأ برأسه ثم نظر إلى الشارع المزدحم، كان عليــه أن يعــاود

العبور مرة أخرى إلى الاتجاه الذي جاء منه، بدا المشوار طويلا ومضنيا، كانت قطرات العرق تغطي وجهه وتتساقط على رموش عينيه، تلسعه،وتجعل الرؤية أكثر عسرا، لكنه كان مضطرا إلى معاودة العبور، التفت إلى العجوز الذي سار على رصيف الشارع، في بطء ولكن في أمان، استراح من خزيه السابق، بدا لنفسه طائرا حرا طليقا يقدر على عبور الشارع ألف مرة دون أن يصاب بأي سوء، اندفع على بخطواته وسط طوابير السيارات العابرة، سمع أصوات السائقين وآلات التنبيه وقد تداخلت واختلطت بحيث أصبح عاجزا عن التمييز بينها، وعند منتصف الشارع تماما جاءت سيارة مسرعة، بدا له أنها تتجه نحوه تماما، تحرك من مكانه في خفة وثقة، لكن السيارة استطاعت في لمح البصر أن تعدل اتجاهها إلى حيث كان هو، لم يعثر بشيء، سقط في عرض الطريق، تجمع عشرات المارة، كانت قطرات الدم تغطي أسفلت الطريق وإطارات السيارة تتناثر على هيكلها المعدني من الأمام وعبر الأبواب المغلقة، تعطلت حركة المرور تماما، شهقت امرأة في فزع وأدارت وجهها ثم فرت من المكان جاء عجوز يحمل في يده اليمنى صحيفة الصباح

وقد طواها أربع طيات طويلة، فردها في صمت وغطى البدن في إحكام وخبرة بحيث لم يعد ظاهرا منه شيء مصمص الشفاه ورفعت على ثغره ابتسامة مجهدة ثم وسع لنفسه طريقا ضيقا وسط زحام الخلق، كان يدمدم ببضع كلمات لم يهتم لسماعها أحد، لحظات ثم اختفى العجوز من المكان تاركا صحيفة الصباح التي تخصه وقد تغطى بها بدن عاجز عن الحركة سبق أن قدم إيه معروفا بعد تردد قصير، ومحاولة فاشلة للفرار.

الشرق الأوسط الكبير: أكتوبر ٨١

المالك

- اقسم، "على ثلاثة" لأنك ستبيع مثلنا بسعر السوق السوداء، العرض هائل ومشجع، غيرك تحفى قدماه ليحصل على عقد بنصف هذا المبلغ أو حتى ثلثه.

- قلت لك أنني لا أفكر في السفر.

- فكر يا أخي، فكر، كلنا فكرنا وسافرنا، لقد طلبتك بالاسم لأساعدك على الخروج من ظروفك القاسية هنا، ثم إنني معجب بك وأحترم مواهبك التي لا يقدرنها هنا.

- لا يهم، لكنني سوف أبقى.

- اسمع، أنا تعبت لأقنعك بفكرتي، عندك وقت لتفكر في الموضوع، أسبوعان وأعرف قرارك الأخير، لكنني في الختام أنصحك كصديق، أن تجرب ولو لمدة عام واحد، عام واحد وترجع، إذا وافقت فسوف أتكفل بمساعدتك في تخليص الإجراءات بطريقتي الخاصة.

* * *

كانت خلال السنوات الأخيرة تحكي عمن عادوا من الجيران والأقارب، تصف الثياب والمصاغ والأجهزة الملونة، تحكي عن البيوت المملوكة والشقق المؤثثة، عن العربات المكيفة والآلاف المؤلفة التي يتحدثون عنها في تبجج الذي ينسى أصله القديم، كانت دوما تتنهد في حسرة وتنظر إلى عينيه فيطرق خجلا لا يعرف أسبابه، كان يكره نفسه عبر تلك اللحظات لأنه مازال يفرض عليها الحرمان من مجرد الحلم في الامتلاك، لكنه كان يقاوم مشاعره ويزجرها بكلام مقتضب عن عدم الجدوى من ممارسة الأحقاد والحسد، وكانت تنسحب في صمت من المكان وتتشاغل بالحديث مع البنت الوليدة أو الولد..

* * *

حاصره السؤال الذي لم يعرف جوابه "لماذا يختاروني بالاسم؟" تذكر أستاذه في قسم التاريخ، كان قد انتهى من كتابه الفصل الأخير من رسالته، كان يشعر بالغبطة والرضى عن نفسه، يتعجل لقاء الرجل والدخول معه في حوار التفاصيل الأخيرة قبل تحديد موعد المناقشة، ليلتها عاوده الحلم الغريب الذي يراه كلما أنجز

عملا يرضيه، رأي نفسه محلقا في الفراغ لا يطير وإنما يحلق، يمد ساقه وكأنما يخطو إلى الأمام، لكن الساق لا تهبط، تظل معلقة والأخرى تتشال من على الأرض، مفتوح الساقين قادرا على الاستمرار في الفراغ، مرتفعا ومتقدما إلى الأمام في نفس الوقت، أرادته في الاستمرار محلقا تنعشه وتغسل صدره، يشعر أنه قادر على عبور الميادين والأحياء بلا تعب، أراده التحليق في الفراغ والتقدم تتزايد، يصبح الخطو إلى الأمام خاضعا لمشيئته والأقدام لا تهبط، يعلو ويرتفع، يتقدم، ويسأل نفسه بينما يحلق إن كان من أهل الخطوة الذين يتحدثون عنهم في قريته، وعندما يستيقظ يشعر بالنشوة وكأنما هو بالفعل قادر على ممارسة التحليق والتقدم في صحوة تماما مثلما يحدث في الحلم.

***

حدثه رئيس القسم عن سفر أستاذه المفاجئ بعد أن حصل على عقد عمل مدته عام واحد، وسأله إن كان يرغب في تحويل الإشراف على الرسالة إلى أستاذ آخر أو أنه يفضل الانتظار، تمثل وجه الرجل الذي ظل

يعطى لتلاميذه بعقل واع وبدأب، لكنه كان يتشكى أيضا من شعوره بعدم تقديرهم لجهوده، كان يقول لنفسه إن الكثير من الواعين في العالم الثالث مرضى بالشعور بالاضطهاد، وأن الخطير في الأمر أنهم مستعدون دائما للنزوح بعيدا عن أوطانهم، وأن الأمر سوف يبدو عسيرا بعد سنوات من رحيلهم وخلو الساحة من عقولهم، كان يعرف الكثير من الصعاب التي يواجهها أستاذه، ويسمع بالكثير عن المغريات التي تستدرجه ليخرج، لكنه لم يغفر له الخروج على هذا النحو بينما يحتاجه الجميع، لملم أوراقه والتفت إلى رئيس القسم ثم قال في ضيق" سوف أنتظر عودته"، قابله بعد عودته بأيام، كانت أورق الرسالة محطوطة على طرف المكتب، كان الرجل يتحدث بلغة جديدة لم يألفها، تبدلت اهتماماته وتغيرت لهجته، لم يكلف نفسه أن يمد يده ليفتح الملف الذي انحط تحت يده في وقار وأدب، راح يطرقع أطراف أصابعه بشكل متتابع ويتحسس سطح الملف في آلية، ثم يعاود طرقعة أصابعه، كان صوت الرجل قد أصبح همسا شاحبا يصعب فهمه، كان الصوت نفسه يرتفع ويجلجل

عندما يتحدث عن حياته هناك، يزهو بأنهم عرضوا عليه تجديد العقد ومضاعفة الراتب، كان يزفر في أسف ويندم لأنه أفاق لنفسه متأخرا وأنه ضيع الكثير من سنوات عمره بلا مقابل، بدا له الرجل كائنا سقيما ومملا إلى حد السخف، قاطعه متسائلا إن كان ينوي التخلي عن موضوع الرسالة، هز الرجل رأسه ومط بوزه، أزاح ملف البحث بعيدا عنه إلى طرف المكتب وكأنه يتخلص من جرثومة مرض معد في داخله وغمغم بصوت خافت:

- م م... م م... لقد اعتذرت بالفعل – م م.... وقتي لا يسمح.. غم غم.. حول الإشراف... هم هم... ربما.. ربما أرجع بعد عام أو عامين... م م... م م... ربما أرجع.

كان يهبط درجات السلم ويشعر بالعار ويتندي جبينه بالعرق خجلا من نفسه ومن أستاذه، وعندما خرج من باب العمارة، ألحت على عقله عبارة ود لو يعود ويقولها لأستاذه، لكنه لم يعد وظلت العبارة تلح على عقله ثم انفلت بها لسانه "الذي يروح لا يرجع يا أستاذ".

* * *

قالت هي: طلبات العيال كثرت، ومصروف البيت ما عاد يكفي، الأسعار لا يحكمها حاكم، شُف لنا حلا.

أوضح لها أن الأمر ليس بيده وأن دخله محدود لم تقتنع، كانت في رأسها فكرة فقالتها:

- ولماذا لا تخرج مثلما خرج الجميع ؟ تضيع فرصة عمرك وتفرض علي الأولاد فقرا أزليا والخير يسعى إليك وإليهم فترفسه مدعيا أنك حكيم؟

لم يحاورها، فكر إن كان من الخطأ أن يكاشف الرجل امرأته بخبايا حياته، وإذا أخفاها عنها فلمن يكون البوح؟ وإذا باح فكيف السبيل إلى إقناعها بوسائل مختلفة في زمن يرحل فيه العقل ويسعى في أرجاء العالم كرها أو طوعا؟ وفكر أيضا في أن الأمر خدعة.

* * *

حدثها عن فشله في احتمال البقاء أكثر من أسبوع واحد:

- لقد حاولت، لكنني لم أستطع، أول ما نزلت أرض المطار هنا، تمددت بطولي أسفل السلم، فردت الذراعين والساقين ورحت أحدق في وجه الشمس وأصرخ "هذه أرضي.. أرضي أنا" حملوني حملا وأبعدوني، لكنني في الأيام الأخيرة أدخل البنايات وأطوف في أرجاء المدينة شاعرا أن لي فيها بالفعل حقا موروثا عن الآباء والأجداد، يتعمق إحساسي بامتلاك الشوارع والمصانع والمزارع يوما في أثر يوم، رغم أنني أدرك يقينا أنني لا أمتلك ولا أرغب في مقاومة تلك المشاعر الحمقاء أو حتى الكف عن إعلانها بصوت مسموع وسط زحام الخلق، شركائي غير المؤمنين بحقهم في امتلاك الوطن.

الأهرام : مارس ٨٣

الفهرس

الموضوع	الصفحة
– إهـــــــــداء	
• – **دائرة الانحناء**	
– دائرة الانحناء	
– العجوز والصبي	
– صيف الذباب	
– ذيول التحدي	
– كتلة الصمت	
– الكرسي المهزوز	
– عنق الزجاجة	
– همسات الرجل الضئيل	
– مربع الامتحان المباح	
– عبد العظيم أغا	

- **النبش في الدماغ** ....
- إهـــــــــداء ....
- النبش في الدماغ ....
- الجفاف ....
- النجوم ....
- شوق ....
- مشاهدات عاشق الملامح المستحيلة..............................
- لصوص المدن المسلوبة............................
- الوريث والميراث ....
- المزاغل ....
- مداخل الندم ....
- روح النهر ....
- غياب المواطن سيد غزال..
- ضرب المواطن.. فاضل التلاوي..........................

- تصفية دم المواطن سيد عوف.................................
- ادعاءات المواطن سخم سخام رع..............................
- **مدينة الباب** ....
- إهـــــــداء ....
- مدينة الباب ....
- التحلل ....
- ضرب البحر ....
- أزهار السنط العريانة.......................................
- تأملات رجل فوق مقعد صخري.............................
- بهلوان أحزان ....
- الأمنيات الحبيسة ....
- مقدمات التراجع ....
- سادس أيام الخلق ....
- جواز مرور بهلوان ....

- الغائب ....
- المتجنس ....
- • **كشف المستور** ....
- إهـــــداء ....
- كشف المستور ....
- الزائر ....
- المراقب ....
- الباحث ....
- الصراع ....
- لوحة الذكريات ....
- الاكتشاف ....
- الهائم.. أولا ....
- عناوين الأصدقاء ....
- الفاطمة ....

- لقاء عابرين ....

- العابر ....

- المالك ....